شقاء السنين

سيرة فرد في مسيرة شعب

الطبعة الأولى

2020

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١٩/٩/٤٩٣٢)

شقاء السنين

يونس مصطفى شناعة

الإهداء

الى الحب الأول، أسماء محمد خليل شناعة، التي كانت تعجن خبز ابنائها بدموع شقائها، ولم تذق طعم الراحة، ولم يرحمها مرضٌ، ولم يسعفها ولد،. وفارقتني بلا وداع!

إليكِ يا....أُمّاه،أُهدي هذا (الشقاء)!

يونس

المحتويات

تقديم

هذا الكتاب يجيء مع الخريف،ليروي قصة عمُرٍ بكامل فصوله...أمليته من الذاكرة، انطلاقـًا من مخزونها منذ الطفولة الاولى ، فالذي جاء فيه لا عهد له بالقرطاس،في كثير ولا قليل...!حفزني الى تدوين هذه (الذكريات) رغبة ابنائي في وضْعها في كتاب،بعدما تلقفوا كثيراً منها مشافهةً،فاستغربوها أو استهجنوها أو....أُعجبوا بها !

ولأنّ وقتي موزع بين العيادة والبيت،فلقد عمدْت الى اقتناص الوقت بينهما لاسترجاع الذاكرة وتسجيل ما تجود به ، ويجود به الوقت،في صفحة كتاب التواصل الاجتماعي،على شكل حلقات شِبْه اسبوعية،معروضة لكل من (يهمه الأمر)،فبعضها اطّلع عليه بعض القراء،غير أنّ معظمها فات معظم قُرّاء (صفحتي)...

هذا ولقد عزّز رغبة ابنائي،نداءات كثير من قرائي،ودعوتهم،بل (إلحاحهم)،أن تُجمع تلك الحلقات في كتاب،يُوطّأ للجمهور،للمنفعة،فإنْ لم ينفع،فلعلّ فيه ما يُمتِع،لغرابته أو ...طرافته!!

والكتاب،وإن كان (سيرة ذاتية) في جوهره،غير أني حرصت فيه على ملامسة الاحداث السياسية والعسكرية التي واكبت مسيرة حياتي،وعاصرتها،بل إنني (فصّلْتُ) في الذي كان منها أكثر وقعـًا وتأثيراً في المسار و...المصير،كما سيلاحظ القارئ بعد الولوج في ثنايا الكتاب..

كما أني أوردتُ ذكْر بعض الاسماء ،التي كان لها بالمسيرة صلةٌ،تضيف مادة او نكهة،أو عِبرة،أو (عَبرة)،دون أيّ مساس أو تجريح مقصود بأشخاص أصحابها

ومهما يكن من أمْر،فإنّ هذا الكتاب يقف بين شهود قلائل،على حقبة اجتماعية اقتصادية سياسية من عمر المنطقة العربية،وفلسطين،تحديداً،والريف الفلسطيني ،تحديداً

أكثـر، بعـد أن (انقـرض) جيـل معظـم الـذين عاصـروها وعاشـوها،كما عِشـتها،حتى النخاع!ولسوف أترك للقارئ أن يتبيّن صحة دعواي،وهو يتنقّل بين صفحاته.....فإلى هناك

الدكتور. يونس مصطفى شناعة

عمان- الاردن

تشرين ثاني ٢٠١٩

شقاء السنين (١)

ما كادت الحرب العالمية الثانية تضع اوزارها (وما كان أثقلها!!) ، حتى راحت الدبابات البريطانية تتقاطر عبر الطرق البرية المُفضية إلى القرية والمارة بها، في انسحاب عشوائي عبر القُرى الفلسطينية التي تفتقر إلى الطرق المعبّدة، مُلقيةً ببعض ما توفر لديها من حلوى (كالبسكويت) ، ومواد فائضةً عن حاجة جنودها كالصابون المعطّر (وكانوا في القرية يطلقون عليه اسم "المُمَسَّك") فيتلقفه اطفال القرية في لهفة وهم يلهثون جريًا خلف الدبابات المسرعة!!فتلك الحلوى وذلك النوع من الصابون يندر وجودهما في القرية التي اعتادت على الكفاف المعيشي (مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها!) ولا عهد لها بترف المدينة الذي شحّ تحت ظروف حرب طاحنة وقودها ملايين البشر، أتت على الأخضر واليابس، وذات يوم من أيام الربيع، وما كاد الناس يلتقطون انفاسهم بعد الحرب، صحَت القرية على صُبحٍ حالك الظلمة حجب شعاع الشمس ! انتهى الشتاء بغيومه منذ أكثر من شهر، فماذا جرى؟ عادت أحاديث علامات (الساعة) بين شيوخ القرية إلى الواجهة غير أنها لم تَطُل، فما ان انتصف النهار حتى حطت (رفوف) الجراد الدفعة الاولى من أسرابها مغطِّية وجوه البساتين والحقول وعلى أغصان الشجر ممعنةً أكلاً لكل مشتقات النبات في البلدة، أخضر أو يابسًا، وتفريخًا في آنٍ معًا!!

هُرِع أهل القرية، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يحملون الصفائح الفارغة والعصي القصيرة، يقرعونها بها، لتنفير الجراد عن الشجر وما حوله لعل ذلك يشكل حماية جزئية تضاف إلى لملمة الحشرات بالأيدي وحشو (الجيوب) بها، ليُصار إلى نزْع رؤوسها وشِوائها على غطاء (الطابون) فأكْلها، إذْ تكون بطونها مكتظة بالبيوض المعَدَّة للإلقاء فالتفريخ السريع إلى يرقات !!ولكي يُحَفَّز الأهالي على أكلها راجت بينهم عبارة (الذي

يملأ بطنه من الجراد يملأ- بطنه -من الايمان) وبذلك أقبل الناس على التهام الجراد بلا تحفُّظ او تردُّد، ولكيلا يتقزَّز القارئ من السيرة فان طعمه (لِمَن ذاقَه) يتماهى مع البيض المشوي!!!

انقشعت غيوم الجراد بعد لأيٍ، وأشبع أهل القرية جوعتهم بما خلَّفه وراءه من فتات أخضر، وتابعت أسرابه طيرانها شرقـًا تاركة بيتين من الشعر:

مرّ الجراد على زرعي فقلت له	لا تأكلَنَّ ولا تشغل بإفسادِ
فقال منهم خطيب فوق سنبلةٍ	إنّا على سفرٍ لا بُدَّ من زادِ

شقاء السنين (٢)

لم يكن كُتّاب القرية يبعد عن بيتهم المكَوّن من غرفتين بسيطتين وساحة متواضعة، سوى بضع عشرات أمتار، عبر زقاق واسع خفيف الانحدار، يُفضي إلى ساحة واسعة أرضها بلاط ضخم تنتهي ببضع غرف، أُعدَّت كبراها لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الكتابة والقراءة والهندي (الاسم الذي كان يطلقه الشيخ على مادة الحساب المقصورة على الجمع والطرح) !

كان الشيخ أحمد سعيد سمور، رحمه الله، وهو الذي تخرج على يديه أجيال وأجيال وأزال امّية معظم من عاصرهم وعاصروه من أهل القرية وبعض القرى المجاورة التي كانت تفتقر حتى إلى (كُتّاب) ! كان يجلس على الحصير سانداً ظهره إلى الحائط مادّاً رجليه امامه وإلى يمينه عصاً طويلة رفيعة (مِطراقًا) ، والتلاميذ جلوس أمامه في صفوف، يتلون السورة الواجب حفظها غيباً عشرات المرات، كلاً لنفسه، دون ما تنظيم، وبصوت مخافت يُحيل الغرفة خلية نحل!!

كان الشيخ أحمد سعيد رجلاً نقياً طيباً يتمتع باحترام أهل القرية ويتمتعون هم باحترامه وتقديره، وهو، إلى ذلك، صهر الشيخ محيي الدين العواطلي، زعيم احدى الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في كثير من القرى الفلسطينية في القرن الأخير من العهد العثماني، زوج شقيقته (الشيخة مسعدة) - رحم الله الجميع- ما عزَّز مكانته المعنوية في القرية، فلقد تمتع الشيخ محيي الدين بقداسة متميزة في البلدة، عزَّ مثيلها، إلى حدِّ خوف الناس من عواقب شتم أيٍّ من أفراد عائلته أو من يلوذ بهم، وجهاً لوجه، أو غياباً، كأَنْ يتلبَّسه الجِنُّ أو (يلتوق فمه) - كناية عن شلل الوجه النصفي. ولأهل القرية قصص من هذا القبيل يتداولونها بينهم!!! كما لم تقتصر هذه القداسة على أهل البلد بل تعدتها إلى الديرة كلها وما بعدها، حيث كان الناس من هنا وهناك يؤمون زاويته الشاسعة الواسعة الواقعة في أعلى الجبل الذي قامت عليه القرية، كما لو كانت حيّاً صغيراً قائماً بذاته!

يؤمونها للاستشفاء من العلل بشتى أنواعها عن طريق التعاويذ والحُجُب، ديدن الناس في تلك الأيام (وإلى يومنا هذا!) ولقد كان الشيخ احمد سعيد متعدِّد الكفاءات، فهو من الذين افادوا من العسكرية العثمانية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث القامة الشامقة والهيكل الواسع الذي ترحب به الجندية، والتصويب الدقيق لدى التعامل بالبندقية؛ يشهد له صاحبنا بالدقة التي يعجز عنها قناصة هذه الأيام يوم استدعاه أهل الحي للتخلص من افعى التهمت (زغاليل) البيت التي في (شاشيته–اي مشربيته) فسدد ببندقيته عن مسافة لا تقل عن خمسين متراً وقتلها في جحرها برصاصة واحدة !! لم ينخرط صاحبنا في صفوف المدرسة في بادئ الأمر، فلقد رفضه عبد الفتاح (ابن الشيخ احمد) عدة مرات قائلاً (روح روِّح إنت صغير) ، ويعود إلى البيت باكياً شاكياً (تفاح قلّي رُوح روِّح!) إلى ان اطّلع الشيخ على الأمر وتولى قبوله بنفسه تحت التجربة !!!

شقاء السنين (٣)

في كُتّاب البلد كان المصحف (الشريف) هو المطبوعة الوحيدة المتداولة، على عدة نسخ، كاملاً، أو أجزاء (جزء عمَّ.... وهكذا)، ومثل ذلك في الجامع (مسجد القرية)، أمّا خارجهما فكانت نسخة من (تغريبه بني هلال)، نحتفظ بها لنقرأ سردها في ليالي الشتاء القارس على مسمع الأهل والأقربين، وفي بيت عمّ العائلة الحمولة (ابو فيّاض)، حيث يُقرأ النص الشعري منها ملَحّناً، ويسود السهرة ألوان شتى من الانفعالات تبعاً لأحداث التغريبة! (ولعل لنا عودة اليها)

هذا إلى كتابين فوق الخزانة اليتيمة في (الخُشة) الكبرى! هما كتاب الأذكار وكتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، تمكنتُ من مطالعتهما بعدما تخرجتُ من الكُتّاب، أمّا الاذكار فكما يوحي اسمه، مليء بالأدعية والاستغفار ونحوهما، وأما بدائع الزهور فيتحدث عن قصة الخَلق وقصص بعض الانبياء، بما في ذلك (قصة -بئرٍ معَطَّلةٍ وقصرٍ مَشيد).

في التحفيظ، يقرأ الشيخ (أحمد سعيد-وأظنه اسمه مركَّباً) الآية ونحن نردِّد خلفه، حذوَ الحرف بالحرف، إدغاماً وقلقلةً ومدّاً ووقفاً، بصوتٍ جماعي موحَّد، والويل للمُنَشِّز من (المطراق) الذي إلى يمينه! وأذكر، فيما أذكر، أنه كان يقف على حركة الكلمة الأخيرة ولا يسَكّن (فإذا نُقِر في الناقورِ)، مُحرِّكا حرف الراء بالكسرة عند الوقْف، كما كان يلفظ الهاء بتائها الأصلية إن وقف عندها (إنَّ لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غُصَّة)

عقوبة الذي لم يحفظ، قراءة ثم تسميعاً (غيباً)، معروفة أمّا الذي يحفظ فيتقدم إلى الصف الذي أمامه، حتى إذا أصبح في الصف الأول واستمر في الحفظ، أفرد له الشيخ مكاناً مستقلاً في مواجهة حائط الغرفة مباشرة! وفي كل الأحوال، على التلميذ أن يقرأ ليحفظ غيباً

وهو يحرك جسمه من الأمام إلى الخلف مكرراً، فترى الجميع تموج أجسادهم وهم (يذاكرون) !!

هَمُّ الحفظ، على صعوبته، أهون من الكتابة بكثير، إذْ أن كل أدواتها عسيرة المنال، فمن أين تأْتي بالقلم والحبر، ومن أين تأتي بالقرطاس، وثلاثتهم مفقودون من القرية في أعقاب الحرب العالمية الثانية؟ ؟

كان لا بد من توافقٍ بين العناصر الثلاثة كي تتم الكتابة، وهكذا كان، وهكذا تعرَّفْتُ إلى قلم (البوص) ، وإلى الدواة وحبر (السناج) وصفيح تنك الزيت او الكاز الفارغ الجاف، لتتحقق (مهمة) الكتابة.

كانت أقلام البوص تُصنع من القصب الجاف، شديد الجفاف، لكيلا يخسر من استقامته وهو أخضر، أما القصب فوادي البلدة مليءٌ به، لكن صناعة قلم منه تتطلّب مهارة خاصة، يتمُّ بها (مشْق) الرأس وتنحيف نهايته ليُصار إلى شقِّها في المنتصف ليمتلئ القلم القصبي حبراً بين النصفين، حتى إذا ضغطت يد الكاتب رأس القلم سال (لُعابه) حبراً على..... الصفيح !!!!

شقاء السنين (٤)

للحصول على المِداد (أي الحبر)، العنصر الثاني للكتابة، لا بديل عن السناج (الشحار)، وأغنى مصادره في البيوت طناجر الطبخ، إذ، على جدرانها يتراكم السناج، وفي الجانب السفلي منه خصوصاً، حيث تكون كثافة اللهب، وأغنى الطناجر بالسناج ما توَلّد من الحطب، وبذلك تميّز التقليد و (التخلُّف) !!على تكنولوجيا الطاقة الحرارية المتولدة من لهب (البريموس) الناشئ عن اشتعال الكاز (الكيروزين!)، اذ يفتقر السناج الناشئ عنه إلى الحجم والكثافة المتوفرين من اشتعال الحطب!

لذلك كنا نتصيَّد الطنجرة (المتميزة) نقلبها فارغةً على وجهها ونوفر مقعداً متمكناً أمامها ونحضر الماء (وما أوفره في القرية!) إلى جانب الدواة (وعاء الحبر) والليقة (وهي القماشة التي نبلُّها بالماء ونُجيلها على ظهر الطنجرة المحدّب والغني بالسناج (الشحار) فيبدأ السناج بالذوبان التدريجي، وبتكرار تجوال الليقة على سطح الطنجرة يتجمع من السناج في (أحشائها) ما يجعله أكثر كثافة وأقل سيولة، حتى إذا اطمأننا إلى الكثافة المطلوبة (وهذا أمرٌ يتطلب خبرة تكتسب بالممارسة!)، أمسكْنا الليقة بقبضة الكف الذي كان يطوف بها على سطح الطنجرة، وعصرناها في الدواة جاعلين إصبع الإبهام عند فوَّهتها وأسفل نقطة في قبضة اليد ليصب (الحبر) محاذياً للإبهام على شكل خيط أسود متواصل، إلى أن تفرغ الليقة من مخزونها من السناج، وبذلك نكون قد (قطفنا) الوجبة الأولى من الحبر، ثم نكرر العملية إلى أن نستهلك خير ما على ظهر الطنجرة من (شحار!!!).

بعدما تمتلئ الدواة بالحبر الأسود يُلقى بالليقة في قعرها لتمتص الكثير من الحبر وتحافظ على كثافته ولتكون هي المصدر الذي يستقي منه قلم البوص مداده بغمْس رأْسه فيها بين اللحظة واللحظة أثناء الكتابة. ثم تغطى الدواة بقطعة قماش جافة لتمنع جفاف حبرها.

ها قد جهزنا القلم والحبر فأين القرطاس وعلى ماذا نكتب؟ ؟

كـان الـورق شـحيحـًا جـداً في أربعينـات القـرن الماضـي، ولـئن تـوفر بعضـه في بعـض المـدن إلّا أنـه كـان (معـدومـًا) في القـرى النائيـة، ونحـن منهـا! ولمّـا كانـت الحاجـة أم الاختراع، فقد (تفتَّقت) الحيلـة عـن اللجـوء إلـى (الصـفيح) نتّخـذه (صـحائف) نسـطِّر عليها الواجبات البيتية من آياتٍ قرآنية أو حِكَم، لتعليـم الخـط وتجويـده وقواعـد التشـكيل والتهجئة، باستعمال الحركات الأربع ووضعها في مواقعها الصحيحة كي يستقيم اللفظ عند (التسميع)

وبذلك نكون على خلاف صارخ مع (أبي تمّام) في قصيدته المشهورة في فتح عمورية، حيث يقلّل من أهمية (الصحائف السوداء) مقارنة بالصفائح البيضاء (يعني السيوف) في قوله:

بِيْض الصفائح، لا سود الصحائف، في متونهنَّ جلاء الشكِّ والرِّيَبِ

لا، بل نجد أَنفسنا مع مهيار الديلمي في قصيدته الشعوبية! حيث نكون:

قد ضمَمْنا المجد من أطرا فه سُؤدد الفرس ودين العربِ!!!!

وأعطينا كلَّ ذي حق حقَّه ...

مصدر الصفيح، يومئذٍ، تنك الكاز، مادة الإشعال الأولى، أو تنك الزيت (ومـا كـان أَشَحَّهُ)، ولكي تصير الصفيحة (أحد جدران التنكة الاربعة) صفحة -قرطاسية- صـالحة للكتابة يُلقى بها في الماء الغالي ليذوب عن سطحها الداخلي، موقع الكتابة، كل ما علِق بـه مـن شـوائب أو زيـوت تعيـق مسـار القلـم أو تَواصـل سـيل المـداد (ومـن هنـا- ولأسـباب اقتصادية غير معلنة! -كانوا يحذروننا مـن أكـل الزيـت والزيتـون كـيلا تتلـوث بـه الصـفيحة (فتتقطع حروف الخط عند الكتابة) وهي كلمة حق أُريد بها باطل!

والآن، وقد اكتملت ادوات الكتابة الثلاث، فماذا نكتب؟ ؟ ؟ ؟

شقاء السنين (٥)

لا شيء يضاهي قلم البوص (القصب) للحصول على خط عربي جميل! على مثله وعيتُ في طفولتي المبكرة، ولبضع سنين، قبل الدخول في عالم إٍقلام الرصاص، وعالم (الكوبيا) من بعده- وسوف نعود اليهما بعد قليل.

لكي نتعلم الهجاء (أي تشكيل الحرف بالحركات الأربع المعروفة)، يكتب لنا الشيخ على (ألواحنا الصفيح) سورة الفاتحة مشكَّلةً بخطه، لنتدرّب على قراءة كل كلمة فيها، مشكَّلةً، ابتداءً من البسملة.

عند الشيخ، وقدامى أرباب الكتاتيب وروادها، كانت الفتحة (نصْبة) والضمة (رُفعة) والكسرة (خِفضة) والسكون (جزمة)، فإذا بدأنا بتهجئة البسملة قلنا: با خفظه بِ (لاحظ الظاء بدلاً عن الضاد، لأنها لهجة أهل البلد!، ثم نسترسل: سين جزمه اسْ، ثم نلفظ الحرفين معـًا هكذا (بِسْ)، ثم نستأنف: ميم خِفظه مِ، بِسْمِ ثم تأتي تهجئة (الله) هكذا: الِفْ وصِل، لام شمسي (لتمييزها عن اللام القمرية- ولهاتين شرحٌ قادم)، لام شدِّه نصبه اللّا- اللا، ها خِفظه هي (اللهِ)، وهكذا حتى آخر الفاتحة (أو آخر النهار!!) ولا يكفي إتقان التهجئة عيانـًا، بل لا بد من تسميعها غيبـًا أيضـًا، حتى تصنَّف بين الحافظين!
أعود إلى اللامين الشمسية والقمرية، فأنا واثق من أن كثيرين لا يعرفون فحواهما، فأقول:

اللام الشمسية هي لام "ال" التعريف التي يأتي بعدها حرف لا يسمح بظهورها لصعوبة ذلك عند اللفظ مثل كلمة (الشمس)، ويقاس عليها غيرها مثل (السماء) مثلاً. أما اللام القمرية فهي التي يأتي بعدها حرف يسمح بظهورها عند اللفظ مثل (القمر) ويقاس عليها (البلد) و (العلم) و....واصطلحوا على تسمية المخفية بالشمسية والظاهرة بالقمرية

تأتي التهجئة في الدرجة الأولى من أجل تجنب الأخطاء عند قراءة القرآن الكريم، وتأتي سلامة الخط وجماله في الدرجة الثانية<

يكتب الشيخ بخط يده (الجميل) على صفحة الصفيح (المذكورة في-شقاء-سابق) الحكمة التالية:

تجريبت قلم في قرطاس

لا أَفلحَ مَن ظلَم الناس

ولا أدري لماذا كان (يُصِرّ) على التاء المفتوحة! إلا ان يكون ذلك تقليداً لمثلها في رسم المصحف العثماني؟

المهم ان يتمرّس الطالب في تقليد خط الشيخ (مُشَكَّلاً)، يكتب ثم يمحو (وما اسهل محو السناج!)، ثم يكتب، وهكذا، إلى أن يطمئن إلى آخر محاولة، ليعرض إنجازه على الشيخ، فإذا رضي عنه، كتب له الحكمة الثانية لتكون (وظيفة) البيت:

تجريبت (بالتاء المفتوحة) قلم في مِداد

لا أفلحَ من ظلم العباد

وتستمر ممارسة الخط محْواً واعادة إلى أن تستقيم يد الطالب ويصبح خطه سليمًا و... جميلاً

شقاء السنين (٦)

لا يعادل شقاء الفلاح الفلسطيني في قريته إلا شقاء العامل في المنجم- عمل شبه متواصل وراحة مؤقتة من أجل عمل شاقٍّ ينتظره في اليوم التالي! ولا مكان لما يردده (محمد عبد الوهاب) في أغنيته الشهيرة- محلاها (ما احلاها) عيشة الفلاح! وهو شقاء على مدار العام، وفي كل الفصول الاربعة، لكنّ أشدها قسوة فصل الشتاء.

خيل البلدة ليست مطهَّمة أصيلة مقَّتناةً للسباق ولا لجمال منظرها، بل أداةً من أدوات الفلاحة والكدح المتواصل، تثير الأرض حراثةً، و (يُدرس) عليها المحصول من قمح أو شعير أو ذرة (بيضاء)، وتنقل على ظهورها الامتعة والماء، ولكي تقوم بواجباتها هذه لا بد لها من قوت يقيم أَوَدها، والشعير قوتها المفضل، يوضع في (مِخلاة) تُعَلَّق في عنق الفرس، ولذلك سمَّوها (العليقة). وإنه، وإن تيسّر الشعير بعد الحصاد صيفًا، الا انه يشِحّ في الشتاء ويستعاض عنه بالتِّبْن، إن وُجِد، لكن الفلاح البائس يضطر إلى إطلاق فرسه في ارض الله ومحيط القرية تأكل مما تُنبت الأرض في الشتاء من عشب متنوع، تغدو خاوية المعدة لتعود ملآى آخر النهار، اللهمَّ الا اذا وجد في نفسه الهمّة الكافية ليسريَ بعيد الفجر بمنجله، على ظهرها، (ليحُشَّ) من الخافور (عشب طويل الساق ليِّن القوام مرغوب المذاق) ما يملأ به (شِوالاً) أو أكثر، يضمن به قوت يومها.

خيل البلد كثيرة ومعظم اصحابها لا يملك الوقت او الهمة أو القدرة على اشباعها في البيت، ومن هنا نشأت فكرة الاستفادة من المراعي القريبة، بشكل جماعي، يُعهد برعايتها إلى شخص او اكثر، من ابناء البلد، يسرح بها صباحًا ويعود بها (شبعى) مساءً، لِقاء أجرٍ (عَينيٍّ) يُتَّفق عليه، فكُنّا لها، وكُنّا نحنُ ......السارحين!!!انا رابع خمسة اخوة أَشِقّاء، أَشْقياء بهكذا مسئولية!لم يكن تدريس الكُتّاب (ولا ما بعده) ليحول دون ممارسة اي عمل آخر، إذْ لا ساعة دوام ولا ساعةَ يُرجَع اليها للتوقيت، والذين يملكون ساعة خاصةً بهم أقلّ من القلة، وتوقيتها عربي تُحدّد به اوقات الصلاة بحيث تكون لحظة الغروب الساعة ١٢، دائمـًا!

رَعْيُ الخيل في الشتاء عذاب دنيوي بامتياز!فانت تعاني من قسوة الطقس كما تعاني من عنادها (اذا شمست!) وما اكثر ما تفعل، إذْ لا تملك إلا مُحايلتهاومداراتها و...تَوَقّيهاأن تؤذيك بحوافرها (كما يتوقى رِيِّضَ الخيلِ حازمُهْ- كما يقول المتنبي) ، .وكما أنّ توجيه الخيل في المرعى ونحو المبيت فنّ، فإنّ التعامل مع الشتاء في اليوم الماطر فن ايضـًا، وأقسى ما كان يواجهني فيه أن تنصبّ خيوط المطر الرفيعة المائلة، بفعل الريح الشديدة، على الوجه، تصفعه صفعا واخزاً وَخْزَ الإبَر، تُغمض لِتجنُّبه عينيك فتغدو لا ترى امامك! ذلكم هو الذي يطلقون عليه في القرى لفظة (الشميط) .اما البرد والبلل والوحل فكلها أهْون، ومقدور عليها، على قسوتها وبساطة الوقاية منها، من ملبس وحذاء و.....غذاء!!!!وكأني، وانا استعرض الماضي السحيق بعقل طبيب الحاضر، أجِد في رعْي الخيل رياضة نافعة مفروضة على راعيها، اين منها رعي الاغنام والابقار البطيئة المشي سَلِسَة القياد

كان رعي الخيل تجربة قاسية، لم تطُل، مثلما انتهت مرحلة الكتاب بظهور قلم الرصاص (والكوبيا) ، وبعض الورق، وافتتاح (مدرسة!) اهلية، مديرها ومعلمها الوحيد الاستاذ صالح من قرية قنِّير، جنوب ام الشوف.

شقاء السنين (٧)

كانت المدرسة الأهلية التي أخذت دور (الكُتّاب) بيتاً في سفح الجبل الذي تقوم عليه القرية، يجلس الطلاب على حصيرهِ المفروش على (المصطبة) ، من جميع الأعمار، فلا يتميز طالب عن طالب إلا بمقدار ما يحفظ من نصوص تكتب او تلقى على الجميع!

كان الأستاذ (صالح) كريمـاً فيمـا يلقـي علينا لـنحفظ عـن ظهـر قلـب، مـن قصـائد واشعار (حماسية) في اغلبها، حلَّت محلّ المحفوظات القرآنية في عهد الكُتّـاب، لـم يكـن مهمّاً ان نفهم ما نحفظ بالتفصيل؛ المهم أن ندرك المعنى العـام! وإنـه وإن اسـتوعبه الـذين كانوا أكبر سنّاً، فأَنّى لِمن هـو دون العاشـرة ان يسـتوعب شـعراً في الوطنيـة ومعـاني الجهـاد والاستشهاد؟ تحفيظ القرآن الكريم في الطفولة الأولى لا يتطلب فهمـاً، بالضرورة، اذ يأتي تفسير ذلك مراراً وتكراراً من عدة مصادر وتفاسير من مشاهير الشُرّاح بعـد النضـج والبلـوغ واتساع المدارك، حين تضعف (الحافظة) ويذهب كلٌّ بما حفظ في الأيـام الخاليـة، أَمّـا ان تحفظ قصيدة او معظم قصيدة لـ (صـفيّ الـدين الحِلّـي) في طفولتـك الاولـى فـذلك عـبْءٌ ثقيل!

لكـنّ ذلـك حصـل؛ بفضـل اسـتعداد حافظـة الطفولـة للتلقـي والامتصـاص، وتكـرار (تسميع) النصوص من كل طالب يجلس على الحصيرة! وكلما استحضرت تلك المرحلة اذهلني مستوى المحفوظ مثلما اذهلني (حِفْظه) يومئذٍ عن ظهر قلب و...جهـل معنـاه، في آنٍ واحد!! واقرأوا معي (مثلاً) :

سلِ الرماح العوالي عن معالينا

واستشهد البِيض هل خاب الرجا فينا

يا يومَ وقْعة زوراء العراق وقدْ

دِنّا الأعادي كما كانوا يدينونا......وتستمر القصيدة علـى هـذا النحـو مـن الصـعوبة!!!

أو:

إنّا مُحَيّوكِ يا سلمى فحيِّينا

وإن سقيتِ كرام الناس فاسقينا

انْ تُبتدَرْ غايةٌ يومـًا لمَكرُمةً

تلقَ السوابق منّا والمُصَلّينا (أي الذين يجيئون بعد السوابق في الترتيب، ولا علاقة للكلمة بفريضة الصلاة!!!)

فتصوّروا!! (بقي ان يعلم القارئ الكريم أن هذا الشعر ينسب – في بعض الروايات – إلى شاعر مُقِلّ اسمه (نهشل بن حَرِّي) !! فكيف عثر عليه الأستاذ المحترم؟ !!!

كان لمناسبة (الختمة) طقوس خاصة حرَص الأستاذ صالح على توفيرها وتحضيرها للمناسبة، منها حوار شعري يدور بين طالبين، عمِلَ الاستاذ صالح على ان يكون متميزاً، وما زلت اختزن في ذاكرتي بعضـًا من ذلك الحوار:

ما حَبَّةٌ مَيْتةٌ قامت بميتتها

درداء ما انبتت نابـًا وأضراسا؟

ويجيب الطالب المُحاور الثاني:

تلك الشعيرة تُسقى في سنابلها

قد أحدثت بعد طول المُكْث اكداسا

ويعود الاول فيسأل:

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصرٍ

ولا لسانٍ فصيح يعجب الناسا؟

ويرد الثاني:

تلك الموازين والرحمان انزلها

تُجري على الناس احكامـًا وقسطاسا

وهكذا حتى تبدأ فقرة قراءة آيات الختمة.... وتمر السنون وتتوسع المعرفة لاكتشف ان اصل هذا الحوار جرى بين الشاعرين الجاهليين (عبيد بن الابرص) و (امرئ القيس) -في اكثر من رواية!!أَلا انك قد اجهدت نفسك يا استاذ (صالح) و....أجهدتنا معك!!!

ثم تجيء فقرة الوطنية والحماسة فيلقي طالب آخر بعضـاً من قصيدة مجهولة المناسبة، تثير مشاعر الحضور وتقضي حاجة في نفس الاستاذ صالح:

ألا يا راحلين لحرب قوم

لئامٍ ضيّعوا الوطن الثمينا

خذوني للوغى معكم خذوني

ممرِّضةً لجرحاكم حنونا

وواضح ان الشعر يجري على لسان انثى، وان كان الملقي ولداً، ولكي يصل الحماس إلى ابعد مدى، يُعطى الطالب غطرةً (حطة او كوفية) يُلقي بها في الهواء وهو يُلقي بالبيت التالي:

فإنْ لم تفعلوا فخذوا ردائي

بهِ شدوا الجراح إذا دَمينا!!!

ثم تأتي فقرة قراءة الختمة......

شقاء السنين (٨)

حفلة (الختمة) لا تتطلَّب حفظ القرآن الكريم غيبـًا او تسميعه كلـه، من (الفاتحة) حتى سورة (الناس)، مروراً (بالبقرة) ثمّ آل عمران وهكذا. كان يكفي ان يختم الطالب – حفظًا او تسميعـًا– اجزاءً او سوراً تعتبر (محطات) بارزة في المصحف مثل جزء (عـمَّ) اي سورة (النبـأ)، او سـورة (يـس)، مـع سـلامة وسلاسـة القـراءة (تسـميعا لا حفظـًا بالضرورة) في اي موقع من المصحف الشريف.

هذا من حيث تحصيل الطالب، اما العامل الآخر الذي يعتمد عليه قرار الاحتفال، فهو الرغبة الخاصة لدى أهل الطالب في اقامة الحفلة، احتفاء بابنهم الغالي او الوحيد، كما لـو انه (تخرَّج) من المدرسة بنجاح. وفوق هذا وذاك، تلعب القدرة المادية دوراً هامـًا، فلا (يَنعَمُ) باحتفال الختمة إلا الموسرون القادرون على إطعام الحضور و (إكرام) الاستاذ الذي تخرج الطالب على يديه، وبفضل (جهوده) !!

ساحة البيت شاسعة تقاس بالدونمات! في جانب منها عدة زرائب للأغنام، وبعضها للدواجن، وحظيرة للركائب (الخيل والحمير)، وفي الجانب الآخر بيت العائلة واسع الجنبات ليستوعب الاولاد الذين يملأونه، وعددهم في ازدياد!

تجمّع المحتفلون في وسط الساحة، بما في ذلك أهل الخاتم (المتخرِّج)، وحان الوقت لقراءة مادة الختمة بصوت الطالب نفسه. وخشعت الاصوات فلا تسمع الا همسة هنا و (نحنحة) هناك، وراح الطالب يتلو الآيات الاولى من سورة البقرة، حتى اذا ما تلا (ختم الله على قلوبهم...الآية) علَت الزغاريد والاصوات ابتهاجـًا بالمناسبة، وكان في جانب من الحفل طالب كلفه الاستاذ بمُهِمّة خاصة، :ان يُحضر (طاقية) يحشوها بما يلزم لزيادة وزنها، ويقذف بها (والدة المتخرِّج) ليخفف من حدة الصدمة وينهنه من انفعال الفرحة بختمة ولدها!!!

ثم يأكل القوم ما اتيح لهم اكله من خيرات اعِدّت للمناسبة، وينفضُّ السامر ويعود كل حاضر من حيث اتى، وينال الاستاذَ ما يناله من خير وشكر ودعاء!!!

على الرغم من توفُّر قلم الرصاص، بديلاً عن حبر السناج، إلا أن الورق كان شحيحا خشنًا غير مصقول، فَرض علينا شحُّه مَحْوَ ما نكتبه بالممحاة عدة مرات بين الكتابة والكتابة!

يبكي ويضحك لا حزنًا ولا فرحا

كعاشقٍ خطَّ سطراً في الهوى ومحا!!!

لم نبتعد عن السناج من حيث الجوهر، فكلاهما مادة كربونية (محروقة ام غير محروقة)، لكنّ الذي حيَّرني -حتى يومنا هذا- قلم (الكوبيا) الذي يمتاز خطه باللون الأشقر غير القابل للمحو، مهما بلغت كفاءة الممحاة، فهو لا حبر يسيل ولا رصاص يمحى. ولأنه كان كذلك، غلا ثمنه وقَلَّ مالكوه، ولجأوا اليه في توثيق العقود والبنود القانونية وما اليها، ولعلّ توفر الحبر العادي هذه الايام كان وراء اختفائه وعدم تداوله هذه الأيام!! لم يختلف قلم (الكوبيا) في الشكل عن قلم الرصاص، غير انه كان أسمك، في الحشوة الملونة والغلاف الخشبي.

كنت انصت عن كثب، إلى حديث جرى بين البائع والاستاذ، عن خطورة استعمال (الشفرة) في (بَرْي) القلم، وكيف ان احد التلاميذ جرح راحة كفه عند الابهام، جرّاءَ ذلك، في معرض (تسويقه) للمبراة اداة أسلم وأكفأ لإبراز رأس القلم، ثم ما لبث ان اخرج عدداً منها للبيع!!!لمن استطاع اليه سبيلا! وللبيع والشراء والعُمْلة حديث طويل قادم!!

شقاء السنين (٩)

دكان (الزير) في سفح الجبل الذي قامت عليه البلد، مظهر حضاري يتيم! من خلاله يتم البيع والشراء بالنقود، كانت السيدة (خديجة) ، زوجة (الزير) - وكان هذا هو اسمه المتداول في القرية- تدور على البيوت لتشتري منها بيض دجاجها لقاء بضعة قروش او (ملاليم) - وكنّا نلفظ الميم الاخيرة نونـًا! -حيث ينتظر الاهالي مرورها اليومي، في يمناها سلة لجَمْع البيض، وفي جيب ثوبها الفضفاض قروش الثمن. كان دكان (الزير) هو الجزء المُطِل على الشارع من بيتٍ نظيف المنظر متميّز الترتيب لزوجين في منتصف العمر، عليهما ملامح حضارية تميزهما عن أهل القرية، وتعرف في وجهيهما (نَضْرة النعيم) !لا أولاد لهما (وأغلب الظن انّ (خديجة) كانت عاقراً، اذ لم يأخذ من عافيتها وقوامها حَمْلٌ ولا ولادة!) ، كما لوانهما كانا (طارئَين) على (ام الشوف) ، اذ لم يَمُتّا إلى أهل البلد بقربى ولا نسب.

كان (الزير) يبيع البيض إلى أهالي (زُمّارين) ، تلك المدينة الصغيرة يهودية السكان كانت تبعد عن البلد مسافة (نصف نهار) سفراً على الدواب، حيث لم تكن البلدة مرتبطة بما حولها بطريق معبّد، بل كانت كل الطرق ترابية تثير الغبار في الصيف وتُوْحل في الشتاء! ولذلك قلّما وصلتها سيارة تتحرك بالنفط!!

أما الاهالي فكانوا يشترون بالقروش المعدودة حاجات البيت الاساسية التي لا غنى لهم عنها ولا تتيسّر خارج الدكان، كالكبريت، والكاز، الاول للإشعال، والثاني للإنارة، بتزويد السراج او (الضوء) ، بدرجتيه (نمره ٢) و (نمره ٤- الاسطع ضوءً) ، اما (اللُّوكْس) ، وهو الاسطع نوراً من هذه جميعـًا فلم يمتلكه الا الموسرون، وهو مُدَّخرٌ للأعراس والمناسبات الخاصة فقط.

فيما عدا التعامل مع دكان (الزير) ، لم يكن للعُمْلة (النقود) حضور يُذكر، في التعاملات اليومية، حيث كانت جميعها تقوم على مبدأ (المقايضة) : بضاعة مقابل بضاعة مختلفة، او خدمة معَيّنة، فالحلّاق يتقاضى أجره قمحـًا أو شعيراً او ذُرةً (بيضاء) عند الموسم والحصاد، وللراعي (الغنم او البقر او....الخيل) مِثْلُ ذلك، وللـ(قطروز) أجر مماثل يُتّفق عليه عند بدْء العمل، يُحَدّد بالمكيال (الصاع- وهو مكيال بالحجم والسعة يقرب من ثلاثة كيلوغرامات بموازين اليوم، وضِعْفه يسمى (المُدّ) أما (الكيل) فيساوي ١٢ صاعـًا. (القطروز كلمة تركية -في الغالب-معناها أجير موسم، أي انه يعمل لدى احد الفلاحين حرّاثـًا طيلة موسم الحراثة او درّاسـًا طيلة موسم الدراس، لقاء أجر محدد بالكيل او الكمية (

المهم ان لا ذِكرَ لدرهم ولا لدينار، فالعملة في تلك الحقبة شحيحة نادرة في القرى الفلسطينية، يوازيها فقر شديد في كل مظاهر العيش من مأكل او مشرب او ملبس!

مقومات الثروة ومظاهرها في القرية تتمثّل في الارض والمواشي وعدد الاولاد (الذكور تحديداً) ، فالثري هو الذي يملك اراضي شاسعة ومواشي عديدة، من الاغنام او الابقار، او الخيل (وقليل من الجمال وسيلة حمل ونقْل) ، بها يتباهى، كما يتباهى بكثرة اولاده، اذْ هم (عزوته) وعونه في القيام بالعناية بالأملاك والانعام، وسنده في الشدائد وحاموه من شر الآخرين وعدوان المعتدين !!كنت اسمعهم يقولون عن ضخامة ثروة أحدهم من الأغنام :اولها في المرعى وآخرها ما يزال يخرج من الزرائب!!!

الا ان مظاهر النعمة لم تلمس لدى الملاحِظ، فالغني واولاده غارقون في متطلبات الثروة من خدمات، فتراه منكبـًا على عمله حراثة او دراسةً، واولاده رعيان الغنم او البقر، ولا وقت لديهم لمجرد التفكير في قراءة او كتابة او تعليم!!وبحُكم المهنة كان هؤلاء خير من يعزف على (الشُّبّابة) او (الناي) او (الارغول-المجْوِز) !'ولذلك كان الواحد منهم

سيِّد الحفل في الاعراس فلا تنعقد (الدبكات) بدونه، بل ربما (عربنوا) عليه سلَفاً قبل تحديد موعد العرس بايام.

ومن طريف ما يُروى........

شقاء السنين (١٠)

شُحّ العملة حتى اربعينات القرن الماضي، حصرها في ايدي فئة ضئيلة محدودة في القرية، كما كانت عليه الحال في الريف الفلسطيني عامةً، وان توفرت على شكل قطَع معدنية، احيانـًا، فتوفُّرها اوراقـًا نقدية اندر بكثير!ومن الطريف أنّ بعض شبان البلدة كان يحرص على وضع بعض النقود المعدنيةمن فئة (التعريفة-أي نصف القرش) في جيب (قمبازه) عند النزول إلى ساحة الدبكة في الاعراس، ليُسمِع الحضورَ رنينها وهو يعلو ويهبط، تعبيراً عن مكانته (المادية) ؟ ؟ !!!أمّا لماذا (القمباز أو الديماية) ، فلأنّ ارتداء (البنطال) ، طويلاً او فوق الركبة، كان مقصوراً على الأولاد، حتى اذا ما (بلغوا) وصُنِّفوا في (الرجال) صار ارتداء البنطال معيبـًا وانتقل الشاب إلى الأستر وهو (الديماية) ، فهي منسوجة من قماش سميك (سوري الصنعة عادة) ذي شقّين على طول الرَّجُل، يلتفان حول كامل جسمه من عنقه إلى كعبيه، ويثبَّتان ب (زنّار) من نفس القماش حول الوسط، وربما تعزَّز الزنار بحزام للزينة اكثر منه للتثبيت، وهو لذلك يُختار من مادة بلاستيكية (نايلون) لمّاعة!!!

كل ما كان يقتنيه الفلاح موجَّه نحو معيشته، لا للمتعة ولا للمباهاة، فالدجاج للبيض (ويختار النوع البيّاض!) ، والبيض مئونة احيانـًا، وبديلاً عن النقود أحيانا اخرى، بهِ تُشترى حاجات البيت من دكان (الزير) ، والغنم للحليب واللبن والجبن، وللصوف و...السماد، واذا كان لا بد من (الذبح) فيُضحّى بالذكور، وتُستَحيى الإناث للتكاثر الذي يضمن مزيدا من الاغنام ومنتجاتها المذكورة.ومثل ذلك يُقال عن البقر، فلا شيء يعادل قيمة البقرة الحلوب، فهي ثروة في حدِّ ذاتها للفلاح؛ولقدشهدت ُعقود زواج كانت البقرة الحلوب فيها (مهراً) للفتاة المخطوبة، نظراً لضعف الحال عند الفريقين ورغبة في (السّتر) المبكِّر للفتاة!! ونظراً لاهمية البقرة الحلوب كانوا يسمونها (منوحة) ، أي انها مانحة مِعطاء !!ولا تقف ندرة العملة، بجميع فئاتها عند حدّ هذا النوع من المهور، فلقد كان الفقر مهيمنـًا على

حياة الناس فلا يُتداول بينهم الا ما يملكون من دواب او متاع او ارض، ولطالما كان مهر الفتاة، يومئذٍ، قطعة ارض (وطاة) ، بدلاً من الذهب، اذا غلا مهرها!!

اما بقية الدواب كالخيل والحمير والجمال (وقليل جداً من البغال) ، فكانت وسائط نقل يُحمل عليها البشر والماء والمحاصيل الزراعية، وكان الجمل وسيلة نقل الحصاد الرئيسية من الحقل إلى البيدر، قمحًا كان ام شعيراً ام ذُرةً بيضاء ام عدسًا ام سمسمًا ام (كرسنّة– شبيهة بالعدس تأكلها الدواب) ..ولئن كان للبقر كما للخيل والحمير دور في الحراثة، الا ان الدراسة على البيدر تقوم على الخيل في الدرجة الاولى وعلى الحمير في الدرجة الثانية

اعان الله أهل البلد بالمطر الغزير، رغم اني شهدت في احدى سني تلك الحقبة مسيرة معظمها من الاطفال، تجوب ازقة الحارة (التحتا) ، من اجل الاستسقاء إثرَ انحباس مطر ذلك العام، وهم يرددون خلف احد الشيوخ:

يا من يغيث المستغيث

ان لم تغِثنا مَن يغيث

سواك يا رب العباد

....

فينا صغارٌ رُضَّعُ

فينا شيوخ رُكَّعُ

فينا بهائم رُتَّعُ

وانت للكل المراد

ثم جاؤا بديكٍ وضعوااحدى اصابع قدميه على ارضية الجاروشة التي تجرش شتى انواع الحبوب، واداروها على تلك الاصبع فصاح الديك متألمـًا، كناية عن وقْع الجفاف القاسي على كل مخلوقات البلد

فيما عدا ذلك العام فالامطار تنهمر كل شتاء تحيى به الارض بعد موتها وتجود على أهل البلد بشتى انواع النبات من اعشاب وبقولٍ تشبع منه الحيوانات ويستفيد الناس من بعضه طعاما او (غماسًا)....!!

شقاء السنين (١١)

ليل القرية حالك السواد، خصوصـاً في فصل الشتاء، ويزيده المطر الغزير (ضِغثًا على إبّالـة) !!الساحة الواسعة امام دار العريس جاهزة لاستقبال حُزَم الحطب التي يساهم المدعوون بتقديمها إلى أهل العريس، وهاهي النساء تتوافد على المكان، في يد كل واحدة منهن (مشعلة) تضيء لها الطريق (الزقاق) ، وعلى رأسها (حزمة) حطب صنعت من اغصان (الزرْد) او (السوّيد) او (السرّيس) ، من الغابات الحرجية المحيطة بالقرية-وما كان اكثرها-...ما إن تصل إلى الساحة حتى تُلقي بها على الارض، لتصطفّ إلى جانبها حُزمٌ اخرى، حتى اذا اكتملت الاستعدادات لابتداء (التعليلة-السهرة) ، أُريقَ عليها الكاز، وأُشعلت النار في الحُزَم، لتضيء الساحة وتشيع الدفء في جَوِّ السهرة وفي أَوصال (المعازيم) !!

هاهو (الغظب) -هكذا تعارفوا على تسميته- يستلُّ (شِبّابته) المعدنية من (عُبّه) بين شقَّي (ديمايته) ثم يضع احدى فتحتيها على شفتيه وتأخذ كل أصبع موقعها فوق الفتحات الصغيرة االمحفورة سلفًا، في قصبتها، ثم ينفخ فيها واصابعه تتراقص فوق الفتحات، لينبعث منها نغَم، يسمو على مزمار داوُد وعلى سحر هاروت!

يأْخذ (الغظب) بضع دقائق وهو (يُحرِّج) ، أي يُحرِّض كي يسمع الشبان صوت الشبابة مؤْذِنـًا بافتتاح السهرة، بالدبكة!

لم اسمع في حياتي لحنـًا يتدفّق معه الدمع من عيني وتسري له رعشة تجتاح كياني كلّه، كالذي ينطلق من شبابة (الغظب) ، على نغم ولحن (عتابا) لا يرافقها صوت بشري، يردِّده العازف على البحر (الوافر) من عَروض الشعر، نغمـًا يكاد من دِقَّة الإيقاع ان ينطق!وكأنه، مع كل نفخة ينفخها ينفُث في قصبتها كل شقاء عمره!!

انْ هي الا لحظات ثم تنعقد الدبكة ومع كل دورة ينضم إلى الحلقة واحد او اكثر إلى ان تمتلئ الساحة بِ (الدبّيكة) ، والذي في ذيل الحلقة يطلقون على موقعه (على الجحشة)

اما الذي في رأس الحلقة فهو (اللوّاح) الذي يتولى قيادة الدبكة، يوعز للمشتركين بالحركة فيتحركون، وبالتوقف فيتوقفون، ويحدِّد حركة اقدامهم بين الفينة والفينة في ايقاع شديد الانضباط، ..ولا تنحصر مهمة اللواح في ذلك فقط، بل يقوم بحركات شبه بهلوانية بجسمه تدلِّل على مرونة ومهارة متميِّزتين، وهو (يلَوِّح) بمنديل (متميِّز) في يُمناه، كلما ارتفعت (حرارة) الدبكة!!ولربما اشتعلت اجواء السهرة، وارتفعت حرارة الدبكة اذا تعالت اصوات الزغاريد (والمهاهاة) من الجانب النسَويّ، تشِيد بهذا او ذاك من المشاركين في السهرة، بالاسم!!وقد يجرف الحماس بعضهم (من أهل العروسين) ، فيفْرِغ بضع طلقات من (مسدّسه) ، تجاوبـًامع آخر مَقطَع من بيت (عتابا) ، صاحه أحد (الحُداة) او المُغَنّين، في السهرة، مصحوبـًا بجلجلة صوتية صاخبة، إعجابـًا بمديح الحادي او المغني!!

تصنع (المشعلة) من عدة طبقات من قماش قديم مهترئ، تُثَبَّت في راس عصـًا طويلة ثم (تضَمَّخ) بالكاز وتُشعل بالكبريت ليضيء لهيبها الطريق إلى العرس، ثم تُطفأ عند الوصول ان ظل بها رمق، ليعاد إشعالها من جديد عند العودة، وإلا أشعلوا واحدة اخرى...ذلك لأن القناديل والسرُج لإضاءة البيوت، أما الأزقة فلها المشاعل، وقلَّما تلزم في غير الاعراس، فالخروج من البيوت بعد الغروب نادر وغير مأمون، الا في الليالي المقمرة!!

اما حُزَم الحطب فهي مصدر الطاقةالاساسي (اذا استثنينا الكاز، وغلاءه!) ، للطبخ والمواقد وكوانين النار في الشتاء، ولتعليلات الاعراس، انارةً في الصيف وانارة وتدفئة في الشتاء.وجمع الحطب مُهِمة نسائية شاقة، تتطلب الخروج المبكر إلى الغابات والاحراج المحيطة بالبلد وقطع الاغصان وترتيبها وتحزيمها ثم حملها من منتصفها على الراس لتسند إلى سور الدار من الداخل في انتظار الحاجة اليها، وكلما كانت الحزمة اطول كان ذلك في مزايا الفتاة وربما كان مادة للغزل!!!

شقاء السنين (١٢)

بيوت القرية مبنية من الحجارة الصلبة، والضخمة احيانـًا، غير ان عيبها ونقطة ضعفها الرئيسية تكمن في السقف، فهو مكوّن من مجموعة من الاخشاب الجافة الصلبة (ومعظمها سيقان اشجار غليظة) ، والفراغات التي بينها مملوءة بفروع اشجار أدقّ، والكلّ مغَطى بطبقة سميكة من الطين، إذْ لا وجود للإسمنت في اعمال البناء يومئذٍ!فاذا جاء الشتاء بالمطر الغزير كشف عيوبـًا في السقف عند التجهيز او أحدث خللاً في السطح بفعل وقْع المطر، وكلاهما يفضي إلى (الدلْف) الذي هو تسرُّب ماء السطح من ثغراته إلى داخل البيت، ليتلَقّاه أهل البيت بالاواني تثبّت حيث تسقط قطرات الدلف، فلا ينساب الماء على (المصطبة) حيث يجلسون و....ينامون!!

درج الناس في القرية (وقد لاحظت الظاهرة إيّاها في قرية-قَفّين- التي لجأْنا اليها عام ١٩٤٨٨) على بنا ء بيوت ابناء العمومة على شكل مجَمَّعات من عدة منازل يحيط بها سور له (بوّابة) ضخمة في وسطها باب صغير، يدخل منه الأفراد، يسمونه (خوخة) ، ولعلّ الدافع إلى ذلك أَمْنِيٌّ في الدرجة الأولى! فكم كانوا يردِّدون (قلب بين اضلاع) ، ...وما زلت أذكر كيف كانت بيوت قدامى ابناء عائلتنا من ذلك النمَط، حيث كانت دار عمي (السعيد) في صدر المجمّع، وكانت اكثر من مسكن، ليؤوي اكثر من ولد تزوج حديثـًا، حيث خُصِّصت غرفة منفصلة لابنه الأكبر (عمي الأديب) ، -وقد استُغِلّت هذه الغرفة حيث (صمدوا) فيها اخي الأكبر (ابراهيم) يوم عرسه!!!، وعلى يمين الداخل من البوابة بيت (حسن) بن عمي (سليمان) ، وإلى يساره ديوان (مختار) البلد-ابو فياض (احمد محمد شناعة) ، -عمّ (حسن) -وكان للديوان باب مستقل يطل على الشارع وساحة الاعراس، -وخلف الديوان بيت لنا كان مخزنـًا للتِّبن وادوات الفلاحة ومستلزمات الدواب (اذ كانت دارنا المسكونة خارج البوابة بل تقابلها من الطرف الآخر من الساحة) ، -وخلف ذلك البيت (المخزن) دار المختار، وكانت تتميز بوجود (عِلِّيَّة) يُصعَد اليها من (دَرَج) في اعلى

البيت-هذا والعليّة والعَقد (السقف المعقود على شكل قبّة) ، من مظاهر النعمة عند القرويين!

عَين البلد مَعلَم بارز فيها، منها يشرب كل أهل البلد، كما تشرب منها مواشيها وابقارها وخيولها وجمالها.كانت في الطرف الشرقي خارج البلد وفي موقع منخفض نسبياً.وكانت مياهها من الغزارة بحيث كانت تفيض بشكل متواصل في مجرى على صورة وادٍ تجري ماؤه بين البساتين المحاذية وتحت ظلال اشجار القصب والعُلّيق، وتسبح في مجراه طيور البطّ، البرّي والضفادع والسلاحف الصغيرة، وتشرب منه رفوف الطيور التي كنّا نصطاد بعضها بالفخاخ المنصوبة على جانبيه!!!اما في جوف العين وعند (نشْل) الماء (بالسطْل) فكنت ارى الاسماك المستطيلة (العكاليك) تسرح وتمرح (وكانوا لا يحبونها) ولا يصيدونها!!

كان حول العين تابوت منحوت من الصخر الصلب وفي اسفله فتحة كان الرعاة يغلقونها ليملؤوه بالماء الذي ينشلونه من العين، ولانه كان عميقاً عالي الحوافّ فقد خصصوه لشرب الخيول والحمير والابقار والجمال، (ولعله كان اثراً رومانياً) ، وإلى جانبه نصبت (جابية) – وهي حوض مستطيل بالامتار، مصنوع من الخشب، من الضحالة بحيث تشرب منه مواشي البلد-وما كان اكثرها-!

كان الرعاة يعودون بقطعانهم من المراعي بعد الظهيرة، وقد شبعت، لترتوي من ماء العين ثم تَقِيل في الساحة الواسعة المحيطة بالعين (المِقْيَل-كما كانوا يسمونه) إلى ما قبل الغروب، حيث يستعد كل راع لتجميع افراد قطيعه وتوجيهها نحو البلد...

رُوح القطيع ظاهرة ملموسة، حتى في البشر!ولكل قطيع قيادته، وتسمى (المُرْياع) وهو، في الغنم، كبشٌ يعَلَّق في عنقه جرَس، يتقدم القطيع، او (الشَّلْيَة) ، فتتبعه بقية الاغنام مهتدية بصوت الجرس، وهو في الابقار بقرة متميزة بلونها، كان اسمها في (عجّال-قطيع) البلد (حليمة!) وان أنْسَ لا أنس كيف كانت هذه البقرة تستجيب لتعليمات الراعي، عندما

يحين وقت (الإصدار) ، بعد الريّ، او العودة إلى البلد، حين يصيح بصوته المدَوّي في ارجاء العين:حليمه..دِيري هُو! وكأني اسمعه الآن!!فتتململ (حليمة) ثم تنهض من (قيلولتها) لتقود القطيع نحو البلد!!

كل أهل البلد كانوا يشربون من تلك العين، على كثرة عيون الماء القريبة من القرية، .كانت طريق العين محاذية دارنا، وكان الماء ينقل على رؤوس النساء بالادوات الفخاريةذات الحجمين، الكبير وهو (الجرّة) والصغير، وهو (العَسْلية) ، وكانت نصيب (الفتيات) !ولطالما حملت المُعتدّة بنفسها من النساء جرّةً على رأسها وعسْلية على حضنها (معًا!) ، كما كانت (الغاويات) منهنّ يُمِلْنَ الجرة على الرأس قليلاً- كما يفعل الرجال بِ (العِقال) على الراس!!!!!

شقاء السنين (١٣)

اذا لـم يتيسّـر نقـل مـاء العـين على رؤوس النسـاء إلـى البيـوت، يـتِمّ نقلـه علـى ظهـور الدواب، في (مَشْتيل) يُحَمّل على ظهر الدابة (الحمار، عادةً) ، وهـو عبـارة عـن حامـل ذي تجويفين معدنيين إطارهمـا اطـواق متباعـدة، يتّحـدان علـى الظَّهـر، والتجويـف مـن المتانـة بحيث يستوعب ويحفظ وعاء الماء الذي يُلقى فيه بعد ملْئه بالمـاء عنـد حافـة العـين، ولأنّ المشـتيل ذو (عينـين) اثنتـين علـى جنبـي الدابـة، كـان لا بـد مـن تحميـل (جـرّتين) او (جالونين) في نفس الوقت، للمحافظة على التوازن على ظهرها، ولمضاعفة الحِمل وكسْب جرّتين في مشوار واحد!!وللـذين يخلطـون بـين (المشـتيل) و (الخُـرج) اقـول : ان الخـرج يقوم على نفس التصميم الا انـه مصنـوع مـن (الخيـش) لا مـن المعـدن، وبـذلك فهـو دون متانة المشتيل.

يُحفظ الماء في البيوت في اوعية فخّارية متفاوتة الحجم، واضـخمها (الزيـر) ، ويُـركن خارج الغُرف بسبب حجمه، ويغطى بلوح خشبي مستدير يوضع على فوهته الواسعة لوقاية الماء من الشوائب، وعلـى اللـوح (مكيـال) يُغـرف بـه مـن الزيـر كلمـا لـزم لمـلءِ الأوعيـة الاصغر حجمـاً كا (الكُـرّاز) الذي هو اكبرها، و (الكوز) الذي يعرف ب (الإبريق) اكثر، وهي التسمية المتداولة عند أهل البلد، ثم (الكعكـوز) ، وهـو اصـغرها، ويسـتعمله صـغار الأسرة، عادة، وهذه كلها تحتوي على فوهة في اعلاها، يليها (عنق) فـوق تجويـف بحجـم الوعاء، يبرز من اعلاه نتوء انبوبي قصير ينتهي بفتحة ينطلق منها الماء عند الشرب، تدعى (بعبوزة) ، وقد (يتفنَّن) الشارب من الابريق احيانـاً فيرفعه كثيراً إلى اعلى ليزيد في طول تيـار الماء المتدفق نحو فمه على شكل (شلّال) لا يخطئ فمه البتة!ويطلقون على هـذه الحركـة اسم (الزَّغْلَلَة) !!!

وهـم يفضلـون االشـرفات والشـبابيك امكنـة مناسـبة لهـذه الاوعيـة في الصيـف، بفضْـل الارتشاح الذي يزيد في برودة الماء داخلها...

الماء المخزون في الزير للشرب والاستحمام والغسيل والطبخ والوضوء وقضاء الحاجة، إذ لا خزان ولا انابيب ولا صنابير (حنفيات) في بيوت الناس، وهو لذلك، على وفرته في عين، بل عيون، ثَرَّة لا ينضب معينها، لا ينفق منه بسخاء نظراً لصعوبة جلبه إلى المنازل، والاسراف فيه مذموم، وهُم يستشهدون على ذلك بحديث نبوي شريف لم اتثبَّتْ من صحته، يقول: لا تسرف في الماء ولو كنت على نهر جارٍ!!

وعاء الاستحمام طُشْتٌ نحاسي واسع يسمى (اللقن او اللّجن) ، ولا اعلم مصدراً لهذه الكلمة، (وأتوقع مجيأهامن مصر بعد حملة ابراهيم باشا بن محمد علي، حيث تمَّ تمصير معظم الساحل الفلسطيني وكثير من قرى الداخل الفلسسطيني) ، ومثله، او اصغر حجمـًا، يستخدم للعجين، حيث يغطى ويحفظ في ركن دافئ من الدار ليختمر بفعل الخميرة التي تضاف إلى الطحين لحظة المباشرة بالعجْن، ليُخبز في (الطابون) -فُرْن البيت الخاص الملازم له والذي لا تستغني عنه الاسرة، فالخبز اساس المعيشة في القرية، والإخوة المصريون يسمونه (العَيش) ، وسوف نأتي على الطابون عند الحديث عن كيفية معيشة أهل القرية-ام الشوف انموذجـًا.

اما ادوات المطبخ، فمعظمها، ان لم يكن كلها، نحاسية. واضخمها (الدِّست) ويستعمل في الاعراس لطبخ البرغل (اذ كان الرز والسكر مقنَّنَين وبالبطاقات من عند المختار) بكميات ضخمة مع ما يتوفر من اللحم، لتحية المعازيم-هذا، وكنا نلقي فيه صفائح الكتابة بالسناج كلما قدُمت الكتابة وتعسّر محوها لشدة الالتصاق، لنُذيبها بالحرارة!! (شقاء في شقاء) !

ثمَّ (الطنجرة) ، وهي على عدة حجوم يحددها حجم الطبخة ونوعها، ومصدر الحرارة الرئيس هو الحطب، الذي تحيط حُزَمه بسور الدار، او البابور (ويلفظه أهل مصر الوابور) ونسميه (البريموس) ايضـًا.....

شقاء السنين (١٤)

آفة الادوات النحاسية المنزلية أنها (تُجَنـزِر) ، بتفاعل الاكسجين بالنحاس مع توفر الرطوبة (الماء) ، فيتشكّل من ذلك طبقة زرقاء مُخضرّة على سطحها، ضارّة بالصحة، (مثلما يتكوّن صدأ الحديد عندما يتأكسد) ، كما ان سطح التجويف النحاسي يفقد لمعانه مع الزمن والاستعمال، فيبادر أهل البيت الى (تبييضه) بين الفينة والفينة، عندما يحضر (المبيضون) المصريون، الذين يجوبون القرى لهذا الغرض، يحملون معهم عدة كاملة مكونة من مصدر للنار، لتسخين الوعاء النحاسي، ومسحوق النشادر، ينثرونه في تجويف الوعاء ثم يفركون به السطح النحاسي بقوة طالما تطلَّبتْ وقوف احدهم في تجويف الوعاء والالتفاف في حركة دائرية عدة مرات، ثم يحضرون شرائح القصدير، يذيبونها بالنار ثم يفركون بها السطح النحاسي فركًا عنيفًا، كي يثبت الطلاء على سطح النحاس، فيغدو التجويف ابيض ناصع البياض، لامعًا، يكاد لمعانه يذهب بِبَصر الناظر!!كل ذلك لِقاء دُرَيهمات معدودة.

لا وسيلة لحفظ الطعام، أنّى كان نوعه، غير تغطيته بوعاء فارغ ينطبق عليه، فلا كهرباء تنير المنازل ولا تبريد في ثلاجة، وافضل المواقع أبردها، وهو أقربها إلى الشباك، والأكل من ذات الطبيخ البائت، في اليوم التالي، أمر مألوف في القرية، وان كانت الأُسْرة تُجهِز عليه كاملاً، في يومه، عندما يُحْدِق أفرادها ب (الباطية) من كل الجهات، يلتهمون محتواها في دقائق معدودة!!

تعتمد القرية في معاشها على الرغيف، فاذا توفّر أمِن الناس الجوع، فما يضاف إلى الرغيف من رديف (غِماس) ، يمكن تحقيقه بوسائل شتى، فكثيرا ما كان الواحد من الناس، عندما لا يجد ما (يبُلّ) به رغيفه الخارج لِتَوِّه من الطابون، في الصيف القائظ، يتوجه إلى طريق العين (او غيره) ، حيث ثمار (الصبر) على طول الطريق متاحة لكلٍّ من حمل (سنارته) وسكينته، يقطف ويقشر بهما ما شاء من (الأكواز) الناضجة الشهيَّة، يتبلّغ بها رغيفه ويصيب بذلك فطوره او غداءه اوعشاءه!!

وللفلاح مما تُنبت الأرض النصيب الأوفى، فهو لصيقٌ بها، وهي حياته، ولطالما التحم متجاورون في الحقول على (ثلْم) ارض اختلفوا على ملكيته، عَرضه بضعُ سنتيمترات!!
أمّا نبات الارض فهو الاعشاب البرية التي يتأثر وجودها وغزارتها بموسم المطر، ذلك لأن الينابيع (التي تتأثر بماء المطر) تكفي للشرب والاستعمال المنزلي، لكنها لا تغني عن المطر الذي يضمن وفرة المراعي، والنباتات البرية في آنٍ معًا، هذا إلى جانب المحاصيل الزراعية من قمح وشعير وذرة الخ

بعض هذه النباتات البرِّية يُطبخ طبخًا مثل (اللوف) و (اللسَّينة) ، و (العكّوب) ، وبعضها يؤكل بالخبز، مثل (الزعتر) و (الحُويرّة) ذات المذاق الحادّ، وبعضها يؤكل مخبوزاً على صورة اقراص مثلّثة الشكل، عادة، مثل الزعتر و (الحُمَّيض) .ولقد دأَب الناس على زراعة (الملوخية) على قارعة الوديان الجارية لتتيسّر سُقياها، وقطفُ اوراقها (قَصّها) اكثر من مرة في الموسم الواحد

اما المزروعات (المدَجّنة!) فمكانها البساتين التي تروى بماء النبع من الوديان، او ماء العين في البستان ذاته، كالبندورة والباماء والبطاطا والباذنجان والفلفل، والفليفلة، والفجل، والبصل والثوم.وكثيراً ما كانوا يجففون بعضها، على سطوح المنازل، يشُكّونها قلائد، لتؤكل في غير موسمها، كالباماء وشرائح البندورة

كانت اشجار الفواكه نادرة في (ام الشوف) ، كالتفاح والدراق (وكنا نسميه-الخوخ-) والبرقوق (الجرانق) ، اما التين والعنب ومثلهما البطيخ والشمام، فحَدِّثْ ولا حرج!أضِفْ إلى كل ذلك ما كانوا يزرعونه (بعلاً) من الخيار والفقوس، في الحقول، واطلقوا عليه اسم (المقاثي-جمْعُ مقْثَأة، حيث القِثّاء، أي الفقوس) ، ولقد شهِدتُ بنفسي نوعًا من البطيخ، ضخمًا مستطيل الشكل، كانوا يسمونه (العدّادي) ، يحتفظون به عدة اسابيع، وربما بضعة اشهر، ليكون (فاكهتهم) في رمضان!!

ذكرت فيما مضى كيف ان الماء الفائض من عين البلد سيل مستمر، تشكّل على اثره وادٍ تحُفّ به اشجار القصّيب والعُلّيق.كان لهذا الاخير ثمر حلو المذاق بعد ان ينضج، اشبه ما يكون بثمر التوت

اما ما تميزت به البلدة في عالم الاشجار والثمار فكان شجرة (جُمّيز) ، في جانب من بيادر البلد.

شقاء السنين (١٥)

تميزت البلد بوفرة الماء العذب من ينابيع سطحية العمق، اتذكر منها عدة عيون ماء في اطراف القرية، إلى جانب عين الماء الرئيسة، وكلها يفيض ماؤه ويشكّل واديًا موحداً على مدار السنة، تعلو على جنباته اغصان القصّيب والعلّيق. اما القصيب فكانوا يتخذون من اغصانه اقلام البوص التي يكتبون بها، بعد غمسها بمحلول السناج، على الواح الصفيح. اما العُلّيق، فله من اسمه نصيب!، اذ ان اغصانه تتشابك (يعلق) بعضها ببعض، وقد تزودت بشوك قصير حادٍّ، شديد الشبه بشوك الورد، وان كان يخلو من زهر، كالورد، يشفع له، ولعلّ التشابه في شكل الشوك كان اساس االمثل السائر (كرمال الورد يشرب العُلّيق) -اي يُسقى بالماء-كناية عن تكريم او خدمة شخص من اجل آخر، كقولنا: ولاجل عينٍ الْف عينٍ تُكرمُ!

اما الميزة الاخرى فهي تلك (الجُمّيزة) الضخمة الواقعة في الجانب الايمن من بيادر البلد الغربية (الرئيسية) . كانت الشجرة الوحيدة القائمة في وسط مساحة لا تقل عن اربعة دونمات، يغطي ظلها اكثر من رُبع هذه المساحة! وإلى جانبها عين ماء نبع تفيض باستمرار لتشكّل واديًا يتجه إلى الغرب بمحاذاة بيادر البلد الغربية

يقترب طعم ثمر الجميز كثيراً من طعم (الاسكي دنيا) ، ونظراً لعلوّ اغصانها، كان لا بدّ من تسلّقها بصعوبة للحصول على بعض الثمر صغير الحجم حلو المذاق، ..وكما ان العليق حظي بمثَلٍ سائر، حظِي الجميز بمثَل خاصٍّ به، يقول: عا حسرة الجميز، اكلنا عنوقه (كناية عن الفاقة وقِلّة الخير!!)

كانت تلك الشجرة مَعْلمـًا بارزاً من معالم البلد، تقام في ساحتها الاعراس وشتى نشاطات شبان البلد، واذكر انهم فجّروا قنبلة تجريبية من صُنع (ابو نزيم-احد شبان القرية النشطاء، وكان يعمل حلاقـًا في دكان له معروف في قمة الجبل (القرية)) ، في اواخر ايامنا في ام الشوف، عندما اشتد الصدام بين الفلسطينيين والعصابات اليهودية !!

وتتميز تلك الشجرة بالصمغ الذي كنا نحصل عليه بجرح ساقها او اي فرع من فروعه، حتى اذا جف اتخذناه (علكة) نمضغها، على صلابتها'!!

حياة الفلاح تفرض عليه وعلى افراد اسرته ان يتعامل مع الطبيعة بكل مكَوِّناتها، فهو يحرث الارض ويزرعها ويعشِّب الزرع في المساحات المحدودة، مثلما يشبع جوعته بما تجود به الارياف من نباتات واعشاب وحشائش، ويؤمِّن قوت دوابه ومواشيه، ويربي الحيوانات من مواشي وابقار لتعينه على العيش منها وبها، ويقتني الطيور من دجاج وحمام و...لذات الهدف:العيش

ولا يفوتني في هذا المقام ان أُفْرِد جانباً من هذه الذكريات للحديث عن صيد العصافير، الذي كان يشكل عنصر اللحم الاساسي في قوت وغذاء الكثيرين، ما جعله حرفة لا هواية عند هؤلاء، خصوصاً اذا علمنا ان ذبح الحيوانات لبيعها لحماً لم يكن ظاهرة معروفة في البلد والذين لا يملكونها لا حظّ لهم من لحمها، والذين يملكونها يضنّون بالتضحية بها في غير العيدين.....!!!

شقاء السنين (١٦)

صيد العصافير فن قائم بذاته، وله ادبياته وادواته، (وانا اتحدث هنا عن الصيد بالفخاخ لا بالخرطوش،) فالطيور انواع تختلف في الحجم واللون والعادة وما تفضله من طعام يُتّخذ طُعمًا عندما تُنصب الفخُة للصيد، .

ولكل موسم طيوره التي تتكاثر فيه وتنتشر، كما ان لكل نوع او سلالة بيئته المفضلة فبعضها له حضوره في البيوت مثل (الدويريات) وغيرها يفضل الحدائق والبساتين مثل (الشحيتيات واللاميّات) ، وآخر يفضل الاراضي الزراعية، مثل (الزِرعي والكُرَّغ) ، ...وكما ان بعضها يتموضع بين الاشجار في فصل الشتاء، كديوك (السِّمَّن) و (السّوّد) - وهذان يختلفان في اللون فقط-نجد (الكِرْكِس) لا يظهر الا في موسم البيادر في الصيف.اما العادات والسلوك فيتجلى اختلافها في طبيعة مواقع وجودها، فكثير من طيور البساتين تتحرك منفردة وتتعوّدعلى موقع بعينه، تتردد اليه وتنام في كنفه كشجرة او جدار قديم لبناء مهدوم، والذي هكذا سلوكه نطلق عليه وصف (ضاري) -بمعنى متعوِّد-ويكون حَتْفه في عادته حيث يصطاد في المكان الذي أَلِفه!!!وبعض الانواع (البرية) لا تطير الا جماعات على شكل اسراب (رفوف) ، مثل الزرعي، والقطا والشنار والدُّرَّج، وهذه الثلاثة تقصد موارد الماء العامة بين الحقول، بالشكل الجماعي الذي يغري بها الصيادين المحترفين!!

الفخّة هي اداة الصيد، وهي عدة حجوم، منها الصغيرة والمتوسطة والكبيرة العارية والمشبّكة.أما الصغيرة فلصيد العصافير الصغيرة المقيمة والمتنقلة في البساتين و (الحواكير) ، مثل (الشحيتيات) ، واما المتوسطة، وهي الحجم الدارج في الاستعمال اليومي، فلصيد الانواع الاخرى من العصافير، ما عدا السوّد وديوك السمن والقطا والشنار، فتلك لها الحجم الاكبر، مشبكة او عارية.

تصنع الفخة من اسلاك معدنية على شكل قضبان متينة صلبة لا تنطوي بسهولة، جزءاها الرئيسيان قوسان كل منهما نصف دائرة، يجمعهما عامود معدني، التفّ عليه زمبرك ويمتد

من منتصفه مقبض يمسك به الصياد عندما يفتح الفخة بابعاد القوس عن القوس بقوة معاكسة لشدّ الزمبرك، ولكي تبقى الفخة مفتوحة يخرج من نهاية المقبض ذراع معدني يمتد فوق الطوق العلوي ويشبك في نهايته التي فوق الزمبرك بخيط متين ينتهي بحلقة خيطية تتسع للطُّعم الذي يستعمل للصيد. هذا الذراع يسمى (الكرزم) ، وتظل الفخة مفتوحة طيلة تَعَلُّق الخيط بالكرزم، إمّا من الحلقة في اعلى الخيط او بايجاد فَرْز في رأس الكرزم يثبت فيه الخيط بخرزة صغيرة، .وتتم عملية الصيد بسحب الخيط وما في نهايته من (طُعم) حيث يُطبق الطوق الممسوك بالكرزم على الطوق السفلي وبذلك يطبق على العصفور!!!وعلى الرغم من كل هذه التفاصيل فلا يمكن استيعاب فكرة صناعة الفخاخ الا بالمشاهدة الحسية، فاعذروني!

اما كيفية (نصب) الفخة، على الارض، بعد اختيار الموقع (الاستراتيجي) !فيتم بتغطيتها بتراب ناعم نغربله باليدين من نفس الموقع، بحيث لا يظهر منها غير الطُعم (وسوف نأتي على انواع الطعوم في الحلقة القادمة) ، وذلك لتمام التمويه للعصفور المقصود...كما ان نعومة التراب ونقاوته تضمنان ألّا يعيق التراب سرعة إطباق الفخة عندما (تَفْعَط) ، لتُمسك بالضحية، وان لا يقع بين طوقيها حجر او (كَدَر) يحول دون الإطباق المُحكم، فيُفلِت العصفور بعد الإطباق، وفي أحرج لحظة!!

يتطلب اختيار موقع (النصب) خبرةً ودهاءً بالغين.....

شقاء السنين (١٧)

نصْب الفخة بمثابة كمين لصيد العصفور، فلا بدّ من معرفة المواقع التي يتردد اليها او يحتاج اليها في يومه او موسمه.فالعصافير الصغيرة تُعرف مواقعها بالملاحظة الشخصية، فالدويريات في الدور وحولها، والشّحَيتيات في الكروم والبساتين المحيطة بالقرية، تتنقل من شجرة إلى اخرى وربما فضلت شجرة بعينها.ومِثلها اللاميات (وسيأتي وصفها قريبًا) ، اما الكركس فيكثر ظهوره على البيادر (حول خير الموسم) ، وديوك السمّن في الشتاء وبين الشجر، وجماعات الطيور الاخرى ففي الحقول المحروثة او البور، وهذه تتحرك جماعات (رفوف) ، نحو القوت في الحقول او نحو السيول الضعيفة ذات الماء الراكد لتشرب وذلك كالزرعي والكُرّغ اما الطيور الكبيرة، كالقطا والدُرّج والشنار، فتطير اسرابًا لتحط بقيادة احدها في بقعة نائية بين الجبال!

ولا يكفي ان نختار افضل المواقع لنصب الفخة، اذ يجب ان يعرف الصياد انسب الطعوم لكل نَوع منها، فالنمل المجنّح (الطيار) فتنة الشحيتيات، بينما الزرعي والكرّغ يفضل الديدان التي كنا نستخرجها من سيقان نبات (الزعكور) المغطى باشواكه، بعد ان يجف ويصيبه العطب (يدوِّد) ، وكذلك الامر مع اللاميات والكركس، اما ديوك السمن فتفضل دودة الارض التي تزحف مكشوفة في فصل الشتاء، موسم صيدها المفضل (وكنا نسميها-ابو مغيط-) ، لكن الطيور الكبيرة، كالقطا، تفضل حبات القمح (مثل حمام البيت) ، ..وهكذا.

يثبت الطعم في طرف الكرزم وتنصب الفخة لا يرى منها الا الطعم الذي يدل على الفخة بحركة الدودة او تلوّي النملة ولمعان اجنحتها..يثبت طعم النملة في الكرزم بشعرة من ذيل الفرس، اما الدودة او ابو مغيط او حبات القمح المشكوكة فبخيط عادي متين

ننصب الفخة او الفخاخ في الموقع المنشود ونجلس نرقب تحركات العصفور-او الرفوف- عن كثب، ولا مانع من الاستعانة بصفير بالفم ذي الحان متنوعة، كنا نجدها ذات

تاثير توجيهي على العصفور المقصود، كما كنا نستعين ببعض العبارات الغنائية الهادئة مع بعض الطيور البطيئة الحركة والطيران في موقع الصيد، مثل الكركس على البيادر، من مثل:

يا كركستان

طيحي البستان

عُرّي عرّه

قدّ الجرّه

وهكذا (عُرّي يعني تمختري في مشيتك)، وكان العصفور يسمعها ولا يفرّ

ها هو العصفور قد اقبل على موقع الفخة، وها هي لحظات الترقّب قد بدأت، ومعها توتُّر مشحون بالخفقان والتلهف الذي يصل أوجه لحظة انقضاض الضحية او توجهها نحو الفخة، حتى اذا (فعَطت) وتناثر ترابها فوقها (اي صادت!!!)، تبدّل التلهف نشوة غامرة لا يعدلها في حياة الصبي اعلى لحظات السعادة!!

يسرع الصياد إلى الفخة ليفتحها وينقذ منها العصفور لئلا يختنق، ثم يبادر إلى نزع الريشات الطويلة في الجناحين ليفقده القدرة على الطيران لو أفلت، واذا خشي عليه الموت المفاجئ اخرج سكينه وذبحه للتوّ (وكم من مرة كان حدّ شظَيّة حجر الصُّوّان -بعد تحطيمه- بديلاً عن السكين، !!)

لصيد الزرعي وشبيهه (الكُرَّغ)، كنا نخرج جماعةً إلى مشارف البلد عند الوديان، وينصب كل فريق عدة فخاخ، لتكون الرحلة مُجزية، عند الماء (وعند الماء تُصطاد الفرائس)! قبيل موعد الورود للشرب، ثم تُترك ويختفي الصيادون عن المورد ويرقبون حركة رفوف الطيور في اتجاه الماء، ليعودوا بعدما تحُط رحالها عنده بقليل، ليجد المحظوظون فخاخهم ملآى بصيد يحاول الإفلات، ويجد سيؤوا الحظ فخاخهم خاوية او تضُم صيداً ميتاً!! ويعود الجمع ادراجهم، فريق أمَّنَ قوت يومه من اللحم الشهي، والآخر امّن قوت (قطته) التي تكون -عادة- في الانتظار!!!

شقاء السنين (١٨)

تختلف طيور الصيد عن طيور الغرد، تلك الطيور-ومعظمها صغير الحجم، ما عدا البلابل، تعيش في حديقة البيت او محيطه، وهي التي تعلن طلوع الفجر بغناء متنوع يتعالى وهو يتردد، كلما اقترب طلوع الشمس، بلا كللٍ او ملل

اما طيور الصيد فتعيش بعيدة عن المنازل، وهي على اشكال والوان وحجوم مختلفة:

فالشحيتيات صغيرة الحجم، دون قبضة اليد!، تتميّز بذنَب احمر، كثيرة الحركة والتنقل في البساتين من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى اخرى في نفس الحديقة او البستان.والشحيتي، وان كان لا يغرّد، الا انه يبدو منسجما مع صفير الصياد الملحَّن، وهويوجهه (يدَيّره-بلغة الصيد) نحو الفخ إلى حتفه!

اما (سرّاق حِنّا امه) فهو شديد الشبه بالشحيتي، الا انه اكبر منه قليلاً، وبطنه مصبوغ باللون القرمزي المحمرّ، ومن هنا جاءت التسمية، ويشبهه في الحركة والاقامة وهو مثله في نوعية الطعم الذي يُنصب له...هذا ولقد وجدت في الولايات المتحدة الوسطى، إبّان التخصص، عصفوراً شديد الشبه بالسرّاق، وان كان اكبر منه حجماً نوعاً ما.وكانوا يسمونه (روبينRobin) .

اما اللامي فعصفور صغير مثل سابقيه، غير انه يخلو من الحُمرة، بل يكثر في ذنَبه الريش الابيض ومثل ذلك في جناحيه، ولا يختلف عنهما في تموضعه واماكن صيده، وان كان يُكثر من وجوده على الارض، اذ ان له مشية توحي بالثقة بالنفس!!اما طُعمه فدودة الخرفيش آنفة الذكر.

وفي مواسم الحصاد (ولها فصل طويل قادم) ، يكثر (الكِركِس) على البيادر.يمشي في هدوء مسافات قصيرة، توحي للمشاهد بضَعْف طيرانه، ذيله ابيض وفي جناحيه بضع ريشات بِيض.والكركس عصفور اليف وصيده اسهل من صيد بقية الطيور

اما ديوك السِّمَّن، ومثلها السلالة السوداء (السوَّد) فتتكاثر في فصل الشتاء وفي البساتين بين الشجر، وهي اكبر حجماً من كل ما ورد ذكره، وصيد الواحد منه يكفي وجبة شهية لنفرين.الاسود منه لونه في اسمه، اما الديك فلونه بني فاتح تشوبه غُبرة، ومشية الاثنين مفعمة بالكبرياء، ومعظم وقتهما في النهار على الارض الا عند الهرب.ودودة الارض(earth worm) طُعمهما المفضّل

وفي مواسم الحراثة والحصيدة في الحقول تكثر رفوف الزِّرعي بين اثلام الحراثة، ومثله رفوف الكُرَّغ التي تُصاد عند مياه الوديان.يتشابهان في الحجم الذي يعدو قبضة اليد، وفي اللون الترابي الافتح قليلا في الاوّل.وصيد هذين الصنفين لا يتطلب جهد (التدبير-التوجيه نحو موقع الفخاخ) ، بطبيعة الحال

ولا خبرة لي في صيد الشنار (ذلك الطائر كبير الحجم، الذي يصطاده المحترفون بالخرطوش) ، وهو عالي الطيران، سريعه، مثلما انه سريع المشي (وحتى فراخه كذلك- ولي مع عُشّ الشنار تجربة فريدة) !!ويسمونه الحجَل ايضاً

كما لاخبرة لي في صيد الزرزور، ذلك الطائر كبير الحجم، مثل الحجل، عالي وسريع الطيران، والذي قال فيه القائل:

ان الزرازير لمّا قام قائمها

توهمت انها صارت شواهينا (أي صقوراً، فهي غير مفترسة) !!

اما القطا فلي فيه خبرة واسعة، فلقد كنا ننصب له الفخاخ في الفلوات بين التلال، بعيدا عن البلد، وكنت مكلفاً بتدبيره (تطييره) من تلة إلى اخرى إلى ان ينزل الرف حيث تكون الفخاخ، ولقد نجحنا (في معية أَخَوَيّ المرحومين، رفيق ومحمد، حيث كنت مرافقاً لهما في كل شئون العيش) في صيد قطاة واحدة بعد جهد وشقاء شديدين!!

القطا طائر في حجم الحجل أو الدرَّج، او حمام البيت، ولا يطير الا جماعات، اي اسراب ورفوف، ويعيش على ما يلتقطه من حبوب او بذور ضائعة هنا او هناك، شأْنَ كل الطيور البرية.ويُنصب له بالحبوب وبالفخة الكبرى.

اما انه يطير أسرابًا، وتؤهله متانة جناحيه للسفر الطويل، فمألوف لدى ابناء البوادي والقفار، فهذا مجنون ليلى يخاطب سرب القطا بقوله:

أَسِرْب القطا هل من يعير جناحه

لعلي إلى دار الحبيب اطيرو

ولقد كان انطباعي ان القطا كله ابيض اللون كعهدي به في ملاحقتنا له وصيده، إلى ان فاجأني البحتري في قصيدته التي يصف فيها كيف قتل الذئب، في الليل البهيم بقوله:

أُثير القطا الكُدْريَّ عن جثماته

وتالفني فيه الثعالب والربدو

أي أنّ بعض القطا في لون الكتل الترابية الغبراء

شقاء السنين (١٩)

بستان الشيخ (يوسف ابو عِدّة) ، مَعْلم بارز من معالم (ام الشوف) .يقع على قارعة الطريق المؤدية إلى عين البلد الرئيسية، ويحجزه عنها على امتداد الطريق، بالاضافة إلى سوره، سور آخر من أشجار الصبر، ذي الثمر لذيذ المذاق، في الصيف، اذا لم يطَلْك شيء من شوكه الذي يغطي ثمره على شكل مجموعات فوق نتوءات ناعمة في سطحه، تعلق باليدين وربما طارت، لشدة نعومتها، إلى العينين!!!

كان هذا البستان مثالاً ونموذجًا لما يمكن ان يكون عليه بستان في ارض منبسطة، مليئًا بالأشجار، مثمرة وغير مثمرة، تجري من تحتها قنوات ترابية متداخلة، يجري فيها الماء المتواصل، من عين نبع غزير، بُنِيت حوافها بالحجارة الصخرية الضخمة، وأُقيم في احدى زواياها بناء متكامل لنظام الري بواسطة (الشلّاف) ، وفي مصر يسمونه (الشادوف) -ولا اعرف مصدراً لغويًا لأيٍّ منهما-وهو-لمن لا يعرف-نظام قائم على مبدأ نشل الماء من مصدره (العين) ، ثم رفعه إلى مستوى عالٍ ليفيض منه إلى القنوات المذكورة ويسقى مزروعات البستان.

كان الشيخ يوسف يقف على بلاطة ضخمة مثبتة على حافة العين، ويلقي بالدلو المصنوع من الكوتشوك والمربوط بحبل في طرف عامود خشبي يمتد فوق رأس الشيخ وينتهي طرفه الآ خر فوق بناء الشلاف وقد ثُبِّت فيه حجر ضخم يعين بوزنه الشيخ يوسف على نشل الدلو من العين كلما امتلأ، ليفرغه الشيخ في حوض في قمة المبنى لينساب الماء من اعلى البناء إلى قنوات البستان بحُكْم الميَلان التدريجي لمبنى النظام، ..ويستمر الشيخ في نشل الماء إلى ان تمتلئ القنوات به، ثم يغادر موقعه حاملاً (طوريته-الجرافة) ليحَوِّل الماء في البستان من قناة إلى اخرى أحوج من غيرها، بضربة طورية، إلى ان يصل الماء إلى جميع الأحواض المزروعة.

بستان الشيخ عامر بشتى انواع الخضراوات التى في منتهى النضارة، كالبندورة والباذنجان والكوساو...وجميع الورقيات، وعلى رأسها الملوخية، التي كانت طبخة

مطلوبة، ومرغوبة ومكررة، في كل بيت في القرية.ولقد كانوا يقصون عروقها ويُبقون على اسفل سيقانها لتعود (فتُطْلِق) -أي تزدهر وتَطول سيقانها من جديد، لتُقطف ثانية وثالثة!!

لم يكن في بستان الشيخ يوسف، ولا في بساتين البلد عموماً، الا القليل من اشجار الفواكه. كانوا يزرعون شجر الليمون في بساتينهم، إلى جانب القليل من الزيتون والعنب، والتين، كل ذلك رغم غزارة المياه من ينابيع متناثرة هنا وهناك.

كان تركيز أهل البلد على المواشي والحبوب والبقليات ليضمنوا القوت الاساسي للعيش، ..وعلى الخضراوات المزروعة، مَروياً ام بعلية، وعلى النباتات البرية اقواتاً مكَمِّلة لرغيف الخبز، ولذلك كانت الفلاحة نمط حياة القوم، يحرثون ويبذرون ويزرعون القمح والشعير والذرة البيضاء والسمسم والعدس والكِرسَنّة (الشبيهة بالعدس) ، فالقمح والذرة البيضاء مادة الرغيف أو (الكردوش) ، والسمسم والعدس قوت لهم مساعد والشعير قوت لدوابّهم التي يعتمدون عليها في تنفيذ كل شؤون فلاحتهم، ومن هنا كان ماء الينابيع اساسياً لزراعتهم الداخلية مثلما كان المطر اساسياً جداً في ضمان رغيف الخبز.

لا شأن لأهل البلد بالتجارة، بيعاً او شراءً، واذا لزم لأحدهم غرض ضروري من المدينة، (خطَرَ-يعني سافر) الى (زُمّارين) ، على الدابّة، لقربها النسبي، وذلك يستغرق كل يومه، والا ذهب إلى قرية (صبّارين) ، ليستقل الباص إلى حيفا، ..للعلاج او في الدعاوي القضائية...واكثر ما كان يحتاجه الفلاح يومئذٍ، (حَسْم) سِكّة محراثه، اي استعادتها مدبَّبة كي تكون اكثر اختراقاً للارض عند الحراثة، وذلك عمل الحداد، خارج البلد (وان كان النَّوَر المتنقلون يقضون تلك الحاجة في نفس البلد) ، ...أو (حذاء) فرسه عند البيطار خارج القرية.

شقاء السنين (٢٠)

تأمين مقوِّمات العيش مِحْوَر نشاط الانسان، وفي قريتنا (شأْنَ كل القرى الفلسطينية في بواكير القرن الماضي) ، يتم ذلك على وجهين:فإما ان تكون فلاحـًا مزارعـًا، يحرث ارضه التي ورثها عن ابيه وجده، ويزرعها، ويجني قوته وعياله مما زرع، او ان تكون صاحب مواشٍ ودواب، يؤمن لك اقتناؤها بقية لوازم العيش الذي لا يتحقق بدون الرغيف!

كان في (ام الشوف) هذان الصنفان من المالكين، وكانت هناك فئة قليلة تملك الارض للفلاحة والمواشي وتوابعها من الدواب، في آنٍ معـًا!كما كانت هناك عائلات كثيرة لا تملك اكثر من المسكن والحاكورة المحيطة به، تزرعها بعض الورقيات والبقول وقليلاً من الخضار، ...

كانت معظم عائلات الملّاكين عائلاتٍ ممتدة، يقيم فيها الابناء وعائلاتهم، في نفس البيت او في البيت الذي يليه، ضِمن نطاق الاسرة الكبيرة، يعملون معـًا في كل شؤون الفلاحة، الرجال والنساء (نعَم. النساء) والاولاد والبنات، ويأكلون ويشربون معـًا (من باطية واحدة) !حيث أنّ-بركة العائلة مع واحد-..ينهض الجميع مع الفجر، ويتوجهون على دوابهم، نحو الحقول المزروعة، كلٌّ قد علم دوره الذي يؤديه، فللكبار الاعمال الصعبة الخشنة، كالحراثة والحصيدة، وللصغار العزق (النكاشة) والتعشيب، والدراس (وليس الدراسة!!) في موسم البيادر!يحملون طعام الفطور المؤجل (الصَّبوح) معهم، وحاجتهم من الماء (في كُرّاز) ، ليأكلوا ويشربوا في استراحة الضحى، ثم يعودوا بعد الظهر وقد أنهكهم التعب، ثم تنشغل النساء في تحضير ما يتيسر للعشاء، وما إن يحين وقت العِشاء حتى يصلي الكبار الفريضة ويُخلدوا إلى النوم .....العميق!!

وللمواشي رعيانها الصغار الذين يواجهون معاناة الفلاحة ذاتها..يخرجون بمواشيهم عند الفجر إلى المراعي، في الربيع، وإلى الحقول المحصودة في الصيف:تأكل مما تنبت الارض من عشب غَضٍّ اخضر، او بقايا حصاد الحقول من سنبلة ضائعة او تتبلَّغ باللَّيِّن من

العَقير (بقايا سيقان الزرع المحصود) !ويطاردون القاصية منها كيلا تضيع فتُفقد عند العودة آخر النهار فتكون فريسة ذئب او ضبع لم يجد قوت يومه!!!

مسار حياة ابناء المالكين فلاحين او ارباب مواش، لا يخرج عن احدى اثنتين: إمّا حراثاً وإما راعياً-الا من رحم ربك وشذّ عن القاعدة، اذ كان يُكتفى من التعليم-في الكُتّاب او المدرسة الاهلية، ب (فكّ الخط والقدرة على قراءة المكتوب!!-)

اما ابناء الذين لا يملكون الكثير، لا من شئون الفلاحة ولا من المواشي (وكنت منهم) ، فالقادرون البالغون منهم يعملون عند من يحتاج إلى خدماتهم في الفلاحة (قطروز) ، يحرث او يحصد او يدرس المحاصيل على البيادر، واما صغار السن فيصلحون للاعمال البسيطة مثل العزق والتعشيب، او لرعي الغنم او البقر او ....خيل البلد في موسم الشتاء!

لا أعلم حتى اللحظة كيف تتوزع الاراضي بين اهالي القرية الواحدة، فيصبح هذا ملاكاً كبيراً وهذا متوسط الحال وهذا لا يملك الا النزر اليسير...وان كنت اتوقع ان الذين انضموا إلى القرية من عهد غير بعيد لا ينالهم منها شيء يذكر، فالارض عند الفلاح لا تباع وان كانت تُكتَب مَهراً لعروس، وهؤلاء في البلد قلائل، كما انني افهم ان يتلاعب الاعمام بالميراث فيستضعفوا ابن اخيهم الصغير الجاهل فتتقلّص حصة ابيه المرحوم، وهو لا يعلم، واذا علم فهو لا يملك شيئاً من امره، ومن العيب ان (يرفع عينه في وجه اعمامه!!) ويبتلع ظلم ذوي القربى ويتجرَّعه ولا يكاد يُسيغه!!بمثل هذا وذاك تفاوتت مساحات الاراضي في البلدة الواحدة، اما تربية المواشي فجهد خاص متميز قائم على مهارات فردية مثل كل شيء في هذه الحياة....

عزبة (جحجح) على مشارف البلد الشرقية......

شقاء السنين (٢١)

عزبة (جحجح) على مشارف البلد الشرقية، عند وادٍ ماؤه لا يجف في الصيف...كل ثروة جحجح قطيع ضخم من الماشية (الاغنام) التي تتطلب اكثر من راعٍ واحد يقوم على (تسريحها) في المراعي في الارياف والعودة بها إلى العزبة لتشرب من ماء الوادي ثم تهجع في حظائرها.

الوقت صباحًا، والحوار الغامض يعلو ويخبو، ونحن في (الخُشّة) الصغرى المجاورة نلهو بما تيسّر من توافه، ..غير عابئين بما يدور هناك في (الخُشّة) الكبرى، لولا أني سمعتهم (ولاكثر من مرة) يرددون اسمي، تحديداً...انتهى الحوار، وخرج (جحجح) ، للتوّ، غاضبًا، لا يلوي على شيء، وتبيّن لي فيما بعد انه كان يريدني (راعيا مساعداً) لأغنامه، وكان الاختلاف على الأجرة (لا على المبدأ) ، سبب فشل (المفاوضات) ....وكفى الله المؤمنين القتال!!!فلقد كان رعي خيل البلد اكثر من كافٍ لفتى لم يبلغ الثامنة بعد!

عُدة الفلاح عُوده، لا الذي (يعزف عليه!!) بل الذي يثبته على دابته (حماراً او بقرة او فرسًا او.....؟ جملاً) لحراثة الارض قبل زراعتها..عامود من الخشب الصلب، يثبت طرفه الامامي حول عنق الدابة بقطعة خشبية تشبه الرقم ٧مقلوبًا، تسمى (الكِدّان) ،، و (السِّكّة) التي تنغرز في الارض، لتثير التربة، في الطرف الخلفي، حيث يشرف الحرّاث على سَوْق الدابة في خط مستقيم، ضاغطًا على عامود خشبي آخر، متعامد مع الأول، ليتاكد من كفاءة عمل السكة، ذات الرأس المدبّب، والدابة تجرّ العود، حافرة في التربة أخاديد، تسمى (أثلام) ...ولربما لزم اقتران دابتين للحراثة، في التربة الصلبة التي ظلّت (بُوراً) مدة طويلة، ويكونان عادة من البقر (الذَّلول الذي يثير الارض) ،، فيجمع الحراث رقبتيهما بعارضة خشبية واصلة بين (الكدانين) ، ويطلق على المجموعة اسم (النِّيْر) ، هذا الاسم الذي يردده الكُتاب والمؤلفون، مجازاً، عند الحديث عن العبودية والاستعمار، ربما دون معرفة

مصدره!!!وهنا تجدر الاشارة إلى أن استقامة الاثـلام غيـر مضـمونة عنـد جمـع حمـارين او ثورين، فقد يشدُّ الاقوى منهما الاضعف نحـوه، الا اذا كـان الحـراث شـديد الانتبـاه...ومن هنا جاء المثَل العامّيّ (الثلم أو التلم-الاعوج من الثـور الكبيـر) ، كِنايـة عـن سـبب السـلوك المَعيب في المجتمع او في .....السياسـة! هـذا، وقلّمـا لجـأوا إلـى الجمـال في الحراثـة، لأن ارتفاعها يتطلّب عُوداً اكبر، ولانّ خُفّ الجمل يُبْطِل بضغطه عمل المحراث، ومن هنـا جـاء المثل العامي الآخر (شُغل فلان مثل حراثة الجمل، اللي بحرثه برُكّه) إشارة إلى العمل غير المُجدي....

وهكذا، بعد الحراثة، يأتي دور الزرْع..يبذر الفلاح البذار (الحبوب، قمحـًا او شـعيراً) باليد، وهو يطوف على المساحة المحروثة، للموسم الشتوي، آملاً الا يتأخر هطول المطر'، والا خسر الموسم!أما الموسم الصيفي، من ذُرة او سمسم، فتُصَبّ بـذوره مـن خـلال بـوقٍ يسير به الزارع على طول الثلم، و..ثلمـًا ثلمـًا...ثم يعود الفلاح إلى بيته بعد كل هذا العناء، وهو يردِّد (بذرنا الحَبّ واتكلنا على الرب!!!)

لا شيء يضاهي شقاء الزرْع الا شقاء الحصاد، ومثلما ان العود (المحراث) اداة الزراعة الرئيسية، فان المنجل اداة الحصاد، والدواب، في الحالين، وسيلة التنفيذ..

ها قد جاء الصيف بحرِّه اللافح، لينضج المزروعات والثمار، بعد طول انتظار، وليجني الفلاح ثمرة ما زرع، ..سنابل القمح الذهبية على سيقانها الطرية، توشك ان تقول:خُذوني!

المنجل، واصغر منه (الكالوشة) ، اداة معدنية هلاليـة الشـكل ذات مقبـض خشـبي، لهـا حدٌّ قاطع، يساعد تصميمه على جمع اكبـر كميـة مـن السـيقان في الضـربة الواحـدة..يتطلب المنجل ساعداً مفتولاً خشنـًا، اما الكالوشة فلصغار السن الذين هم في طـور التـدريب.كلما جمع الحصّاد ملء قبضته جعله حزمة صغيرة اسمها (شْمال) ، وكلمـاتجمّع لديـه عـدد مـن (الشمالات) القى بها على ارض المارس كومة مرتبة على بعضها، اسمها (غِمْر) ، حتـى اذا تكاثرت الغُمـور، جمعتهـا الغَمّـارات (نسـاء العائلـة) علـى رؤوسـهن في كومـة اكبـر تـدعى

(الحابون) ..وعند انتهاء حصيدة المارس تجمع الحوابين كلهافي كومة واحدة ضخمة تسمى (الحِلّة) ..

يبدأ الحصاد عند الفجر.....

شقاء السنين (٢٢)

لم تبخل السماء على الارض لهذا العام، ونَبَت الزرع واستوى على سوقه، وبدت سنابل القمح (سِرُّ العيش) مشْرئبّة الاعناق، خضراء غَضّةً يانعة، تميل معـًا اذا هبَّ النسيم فتشكّل موجة على سطح الحقل، لا اجمل ولا اروع!!

لم يحِن موسم الحصاد، بعدُ، لكن آن اوان تأمين مؤونة العام من (الفريكة) ..وبناءً على تقدير حاجة (العيلة) يتم قطف الكمية اللازمة من تلك السنابل، ليُحْمَى عليها في نار الحطب المُسَدّى على سور البيت، فتصطلي به حبات القمح الغضّة الرطبة إلى ان تزول طراوتها وتجِفّ فّي سنابلها التي احترقت معظم قشورها الخارجية، ثم (تُنْفَض) على بساط نظيف، لاستخراج حبات القمح الخضراء من مخابئها، و قد اكتسبت بالنار صلابة، تهَيّؤها للجرْش بين حجَري الرحى، بعد تنقيتها من الشوائب، كالحصى الدقيق الذي يُفسد مُتعة طعم طبخة الفريكة اللذيذ اذا ما قرعت عضّته بين الاسنان!!

ها قد اقبل الصيف بحرّه اللاهب، واستحصد الزرع، بكل انواعه، وبدت سنابل القمح بلونها الذهبي، وسَلَّ الحصّادون مناجلهم فلقد حان وقت القِطاف...

يسري الفلاحون بعَيد صلاة الفجر على دوابّهم ومعهم عدتهم ومؤونتهم التي سيصطبحون بها عند الضحى وقد انجزوا الشطر الاكبر من الحصاد..واذا كانت الخطة الإجهاز على الحقل كله في (فَزْعةٍ) يشارك فيها المالك وغيره، كان (الصابوح) من الرقاق اللّدِن المدهون بالسمن او الزيت وقد اكتسى سطحه بالسكّر (وكانوا يسمونها البَصامي) ، التي لا يستغرق القضاء عليها غير بضع دقائق!!مثل هذه الفزعات كانوا يسمونها (جاروعة) ...

المنجل اداة الحصّاد، مفتول الساعدين خشِن البشرة، يلتهم القشّ بحَدِّه الهلالي ويقول :هل من مزيد!!يأتي خلفه الفتيان الذين شبوا عن الطوق وبلغواأشُدّهم، يحمل الواحد منهم (كالوشته) ليقطف بها ما يتيسّر من القش..أمّا الصّبْية (امثالي) فكانوا يمشون خلف

الجميع، نصيبهم من القمح ما تساقط منه على الارض بعدما أفلت من بين اصابع الحصادين، يؤلفون منه ضُمّة او ضُمَم، تسمى واحدتها (زُغْداً) ، ثم يعودون به آخر النهار ليُصلوه ناراً تُحيل حبات القمح المغلفة في سنبلتها الى (قَلِيَّة) يقرب طعمها من طعم (القضامة-الحمص المقلي) ، يتفكهون بها ساعة من نهار!

الجمل وسيلة نقل الحصاد بشتى انواعه إلى البيادر، وعملية النقل تسمى (الشيْل) ...يُناخ الجمل عند الحِلّة، وقد جهّزوا على جنبيه هيكلاً خشبيًا متينًا يستوعب اكبر كمية من القش للرحلة الواحدة، ..يُحْزَم القشّ بحبال ليفية متينةيَصِل بينها عِصِيٌّ معقوفة الاطراف تسمى (الخَطَف) ، ثم يُستنهض الجمل ليبدأ رحلته إلى البيادر، ونحن نركض خلفه لنجمع ما يتساقط من حمولته، طمعًا في وجبة (قلِيّة) اضافية!

يُناخ الجمل ثانية في موقع البيدر المخصّص (للدراس) ، وتتكرر عملية (الشيْل) والتفريغ حتى يكتمل حجم البيدر من (الخير) ، ويتوزع القمح (او الشعير) على مساحة البيدر في صورة دائرية فارغة المركز، حيث يقف الدراس ممسكًا بحبلين على جانبي راس الفر س او الحمار، ينتهيان في (إكليل) حول عنقه، ليتحكّم بعنانه ويوجهه يمينًا او يساراً، وهو يجر لوحًا خشبيًا صلبا (ثقيلاً) ، مرَصّعًا وجهه الملامس للقش، بحجارة من (البازلت؟) ، شديدة الخشونة، موزعة على (حُفَر) انشئت على مساحة اللوح، لتحطّم بنتوءاتها القش، بعدما حطّمت عيدانه الدابة بحوافرها بتمريرها ماشية دون لوح على مدار البيدر، عشرات المرات ليهبط مستوى القش ويستقبل لوح الدراس (وتسمى هذه المرحلة-التخفيش) ...ولطالما كنا نقف على اللوح (نركبه) اثناء الدراس ليزداد اللوح بثقَله تحطيمًا ونزداد متعةً وراحة!!

الوجبة الواحدةالتي تغطي بتوزيعها الدائري ارض البيدر تسمى (طرحة) ، ويستمر جر اللوح (بهِمّة) الفرس، موجهًا إلى حيث يلزم مزيد من التحطيم، وتسمى هذه الحركة

(التصديف) ، ...إلى ان يبلغ الكتاب أجله و (تطيب) الطرحة، أي تصبح جاهزة لتحويلها إلى كومة تسمى (عُرْمة) جاهزة ل (التذرية)

شقاء السنين (٢٣)

اذا هبّت رياحك فاغتنمها

فعقبى كلِّ عاصفةٍ سكونُ

لا شيء ينغّص على الفلاح عيشه مثل يومٍ ساكنِ الريح والعُرمة جاهزة للتذْرية والمذراة في يديه! فهذه الكومة من القمح المدروس هي حصيلة شقائه طيلة عام كامل، وفيها قُوْته وقوت عياله، فمنها يصنع رغيف الخبز، مادة عيشه الاساسية والباقي.....غِماس!

ادوات هذه المرحلة من الحصاد هي الشاعوب والمذراة، وكلاهما على شكل الشوكة التي نستعين بها على تناول طعامنا في المطبخ، مع فارق الحجم، طبعًا. ساق الشاعوب ومقبضه واصابعه معدنية، ويستخدم في نقل كميات كبيرة من القش من موقع إلى آخر، في الحقل او على البيدر، اما المذراة فمصنوعة من الخشب الصلب واصابعها عريضة (بعكس الشاعوب)، لحَمل اكبر كمية من القش المدروس الذي يحتوي على حبات القمح، غاية الغايات، ....يغرز الفلاح اصابعها في العُرمة، لتحمل بينها اكبر كمية ممكنة من المدروس، ليلقي بها في الهواء على جانب العرمة، ليطير قشر القش الناعم (التِّبْن) جانبًا، ويسقط الحب وما في كثافته في الجانب الآخر..وكلما هبّ الهواء كانت كفاءة المذراة اعلى، ووقْع الحرّ على المُـذَرّي اهْون...وهكذا تتكرر ضربات المذراة إلى ان تتلاشى العرمة في كومتين: كومة التبن في جهة والحب وما علق به من (كَدَر) أو (قَصَل) ، في جهة اخرى..

يُحمل التبن إلى مخزنه في جانب من المنزل، ليكون طعام المواشي والدواب، واما الكومة الاخرى فتتطلب جهوداً خاصة وادوات خاصة، لتخليص حبات القمح مما صاحبها من شوائب

أولى هذه الادوات (المِصْرد) وهو عبارة عن طارة مشبكة ذات إطار خشبي، فتحات شبكته واسعة تسمح بمرور كل شيء ما عدا الحصى والكتل الترابية الكبيرة (وتسمى الكَدَر)

وثانيتها (الكِربالة) ، وهذه لا تختلف عن المصرد الا في حجم فتحات شبكتها فهي أضيق، للتخلص من الشوائب الاصغر حجماً مما سبق..وكلا الاداتين يستعمل والحَبّ ما زال على البيدر، حتى اذا ما ازيلت الشوائب الرئيسية صارت العرمة جاهزة للكَيْل، في اليوم التالي.ولكي يطمئن صاحب البيدر على رزقه إلى الغد، يلجأ إلى دمغ العرمة ب (الوشْم) ، وهو عبارة عن لوح خشبي مربّع، احد سطحيه مكوّن من اخاديد ونتوءات تنطبع على سطح العرمة في جميع ارجائها، ليطمئن المالك إلى سلامة بيدره من السرقة اذا وجد الوشم سالماً لم يمسسه سوء عند الصباح!!

أوّل ما يُكال بالصاع (وهو وعاء خشبي مستدير متوسط العمق ذو سعة معروفة) اجرة الحصادين، اذْ قلّما تكون نقدية، ثم تجيء حقوق الذين قدّموا خدماتهم بانتظار الموسم، كالحلاق وغيره، حيث تكون الاجرة محددة بالكيل عند الاتفاق الشفهي (التعاقد) ، ثمّ ذوي الديون، نقديةً كانت أم عينية..

والصاع هو وحدة الكيل، وضِعْفه يسمى (المُدّ) ، و (الكيل) يساوي (١٢) صاعًا، ونصف الكيل يسمى (علبة) ، ويجري التلاعب بالمكيال تطفيفاً، فلا يعطى الصاع كامل استيعابه، او استيفاءً بِ (تعريمه) ودعم التعريم براحة الكف! (ويلٌ للمطفّفين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون، واذا كالوهم او وزنوهم يُخْسِرون) ....

ثم يكال ما تبقى لتُعلَم كميته عند التخزين وكمية استهلاكه إلى الموسم القادم، ثم يُحمل على الدواب في أكياس، أصغرها (الشوال) ، ثم (الفَردة) ثم (الخيشة) ، لِيُصب في (الخابية–مخزن المؤونة المنزلية) ، في انتظار التفريغ من فتحتها فوق (مُصْطَبَة) البيت، كلما لزم...

لا بد من تنقية الحَب من الشوائب مرة اخرى ب (الغربال) ، الذي يتميز عن المصرد والكربالة بدقة ثقوب شبكته، إذ، بعد الغربلة، يكون الحب جاهزاً للطحن....

لم يكن في (ام الشوف) مطحنة لطحن القمح او غيره، فكان الناس يحملون قمحهم على دوابهم ويتوجهون بضعة أميال غربـًا إلى (صَبّارين) ، ويقضون سحابة نهارهم ليعودوا بقمحهم مطحونـًا، ثم يخزنونه في تجاويف خشبية يغرفون منها حاجة يومهم للعجين، فالخبْز في طابون البيت..

تتنوّع طُرُق الاستفادة من حبة القمح لدى الفلاح، فهو يتعجّل قطفها خضراء لمّا تنضج.......

شقاء السنين (٢٤)

تتعدد الاستفادة من حبة القمح لدى الفلاح، فهو يقطفها خضراء لمّا تنضج ليشويها في سنبلها ثم يستخرجها شكلاً جديداً وطعماً جديداً، يتذوّقه عشاق طبخة (الفريكة)، ويختزن منها ما يتوقع حاجته اليه (عدد الطبخات) حتى الموسم القادم...

كما انه يلجأ إلى سلْقها بعد تخزينها من البيدر حتى تكتسب طراوة قابلة للمضغ بعد رش السكّر او الملح عليها، بين الوجبات الأساسية الثلاث...من باب التسلية!!

أمّا اذا سلق منها كميات كبيرة سلْقاً متوسطاً، ثم جفف المسلوق، بِنَشره على سطح البيت، مثلاً، ثم جرَشه جرْشاً خشناً او ناعماً بين طارتي الرحى (الجاروشة)، فانه يحصل على (البرغل)، خشنه وناعمه، ليستخدمه في الطبخ مع العدس الحَبّ للحصول على (المجَدَّرة)، او في تحضير وجبات اضافية ك (التبّولة)، مثلاً...كل ذلك، اضافة إلى دور حبة القمح الاساسي، ألا وهو ......الرغيف!!!

ظلّت (ام الشوف) بلا مدرسة حكومية (رسمية)، طيلة عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، حتى عام ١٩٤٦/ ١٩٤٧م، حينما استأجرتْ الحكومة غرفة واحدة حديثة البناء جيدة التهوية، شبابيكها تُطِلّ على الشارع (الزقاق)، تابعة لِ (حوش او بوابة) واسعة، تضم اكثر من عائلة، وكانت تشكل الجزء الخارجي من دار المرحوم (يوسف كمال داود شناعة)، ..كان (ابو ذياب)، يومئذٍ، مستغنياً عن الغرفة إياها، حيث بنى له داراً خارج نطاق البلد، جنوباً، بعد زواجه من أخرى، واقتنى قطعة سلاح شبه اوتوماتيكي، قصيرة، كانوا يسمونها (القَطْمة)، يحمي بها البيت (البعيد) !!

من قرية (إجْزِمْ)، واقرب من بلدتنا إلى (حيفا)، وقع اختيار حكومة الانتداب على الاستاذ (رشاد نمر الماضي)، ليبدأ مدرسة رسمية في (ام الشوف)، مؤلفة من صفين، أول، وثانٍ، ابتدائيين، في غرفة واحدة، بعد تزويدها بمقاعد الصف المدرسية المعروفة (بدلاً من الحصير، وعلى المصطبة!!)، ولأول مرة في تاريخ القرية!

كان الاستاذ رشاد طويل القامة، معتدل البنية، لا تفارق نظاراته وجهه، يتكلم متمهلاً، بالسرعة الاملائية!وكانت صفته هذه سبباً في نجاحه في تأسيس مدرسة رسمية منظمة في قرية لا عهد لها بالدراسة الرسمية...حضر الاهالي لتسجيل ابنائهم، وكان على الاستاذ رشاد ان يصنف الملتحقين بالمدرسة صنفين:فالذي لا عهد له بقراءة او كتابة، اطلقوا عليه اصطلاح كلمة (عجم)، ليتميّز عن خِرّيج الكُتّاب (امثالي)، فالعَجَم (وليسوا الفُرْس!!!) يلتحقون بالصف الاول، والآخرون بالصف الثاني.

لقد بذل الاستاذ رشاد جهداً جباراً لتأسيس معرفة المبتدئين في الكتابة والقراءة، وتحفيظ بعض السوَر القصيرة، والاشعار والعبارات القصيرة التي تصلح ان تكون تعليمات صحية او مواعظ او حِكَماً، يتداولها التلاميذ الاطفال فيما بينهم ولدى ذويهم، امثال:لا تبصق على الارض فتنتشر، وتنقل العدوى إلى الاصحاء...كما انه حفَّظ مجموعة منّا ادواراً في تمثيلية (الراعي والذئب)، يتظاهر فيها الذئب بالعمى، ليجد سبيله إلى ماشية الراعي، مفتتحاً التمثيلية، شعراً، وهو يتهادى بين المقاعد، متحسِّساً طريقه، قائلاً:

ضيفٌ اعمى

في ناديكم

يرجو النعمى

من ايديكم!!

وتستمر التمثيلية ثم تنتهي بالقاء القبض عليَّ!!!

كان (عبد الكريم العلي العثمان)، معتمداً لدى أهل الحارة الغربية (التحتا) لقراءة جريدة (الدفاع-اخبار اليوم)، رغم ضعف نظره من (تراخوما)، قديمة، غبّشت قرنيتي عينيه، ..كانت اخبار المواجهات المسلحة بين الاهالي في المدن (الساحلية بخاصة)، في فلسطين، والعصابات اليهودية الصهيونية، تصل البلدة، تِباعاً، عن طريق الجريدتين الوحيدتين يومئذٍ، (الدفاع) و (فلسطين)، او عن طريق المذياع الوحيد في القرية،

والمركون في ديوان المختار (احمد محمد شناعة-ابو فياض) ، ولكي يستمر (الراديو) في الاستقبال، يجب تزويده بالكهرباء من بطارية موصولة به، في حجم بطارية سيارات هذه الايام، ولكي تتولد الكهرباء في هكذا بطارية، كان لا بد من تزويدها بماء النار، الذي هو حامض النيتريك (HNO3)

شقاء السنين (٢٥)

لكي يستمر راديو البلدة الوحيد في العمل، لا بد من تزويده بالكهرباء من بطارية في حجم بطارية السيارة هذه الايام، ولما كان الحامض (النايتريكHNO3-) الذي يعتمد عليه توليد كهرباء البطارية، يُستَهلك بعد طول استعمال، كان لا بد من إعادة شحْن البطارية به، بين الفينة والفينة.

لم يُعَقِّب مختار القرية (ابو فياض) -اي لم ينجِب، رغم زواجه من (تمام الحاج محمود صبّاح)، وزواجه، بعد لأْيٍ، من أجمل فتاة في (ام الشوف)، يومئذٍ، ألا وهي (فرحة المحمود الصباح) -رحم الله جميع الموتى-، فكان لا بد من الاشراف على ديوان المختار من شاب يقرأ ويكتب، ليستقبل الرسميين من حكومة الانتداب، يتولى أمر خيولهم (حيث لا طريق معبداً يصل البلد بغيرها من القرى المجاورة)، ويحضِّر القهوة بعد (تحميص حبات البنّ في (محماسة كانت مركونة خلف باب الديوان الخارجي)، ويشرف على تموينهم، والتعليق (اطعام) لخيولهم يوم زيارتهم -وكان كل رجال البوليس الذين يزوروننا عرباً.....ويتولى شحن بطارية الراديو!

وقع الاختيار على اخي الاكبر (ابراهيم) -رحمه الله، فلقد كان فتى يافعاً نشيطاً، يجيد القراءة والكتابة، قريباً من ديوان (عمه)، فلم يكن يفصلنا عنه غير الساحة التي تقام فيها الاعراس، ...كان ابراهيم يقوم بدور (التشريفاتي) في الديوان، نيابة عن المختار، بالاضافة إلى الخدمات المذكورة سابقاً، كما كان يمتطي الدابة وعلى ظهرها بطارية الراديو، ليجدد شحنها من مدينة (زُمّارين)، المدينة متوسطة الحجم واليهودية السكان. ...والاقرب الى (ام الشوف)، كلما لزم...

ولقد ظل ابراهيم على هذه الحال إلى ان توظف لدى حكومة الانتداب، في قسم البوليس (الكلبك)، ثم في الاتصالات السلكيةإلى ان طُرِد من مكتبه على المقسم تحت

تهديد العصابات اليهودية المسلحة في محيط مدينة (حيفا) عام ١٩٤٨!!!كما طُرد غيره بالقوة يوم سقطت حيفا في ايديهم....

ارتفعت حرارة الجو السياسي في فلسطين بعدما اعلنت بريطانيا انتهاء انتدابها عليها، في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨، وكانت عصابات اليهود على علم بذلك قبل الاعلان، بفضل وعي واخلاص زعاماتها، فتضاعف احتكاكها مع أهل البلاد، ومع مواقع استراتيجية لحكومة الانتداب بالذات، بهدف التحضير للاستيلاء على تلك المواقع فوراً عند انسحاب الانتداب!

تداعى وجهاء البلد، لبحث تسليح شبانها، كما فعلت وتفعل بقية المدن والقرى الفلسطينية، حيث اصبح الصدام مع العصابات اليهودية امراً وشيكًا (وحتميًا)، بناءً على ما كان يصل البلد من اخبار، عن المدن الساحلية على وجه التحديد، والقرى المجاورة لمستعمرات يهودية، اينما كانت.....وشكلوا لجنة برئاسة (كامل الحاج محمود صباح- ابي حلمي)، للسفر إلى مصر لشراء البنادق وذخيرتها من هناك، بما تيسّر من مال جمعوه لهذه الغاية...توجهت اللجنة إلى مصر وعادت بكمية محدودة من البنادق ايطالية الصنع، قالوا يومئذٍ انها من مخلفات الحرب العالمية الاولى، فلقد تبيَّن ان معظم الذخيرة من الرصاص لم ينفجر عند الاطلاق، في المناورات التي اجراها (المناضلون)، وعلى نطاق ضيق، في محيط (ام الشوف)، ما جعل تلك المفاجأة موضع تندُّر وسخرية في الاعراس، حيث راح حاديهم يردِّد:

بارودنا الطلياني

يا ويل اللي يعادينا

ورصاصنا المبرِّد (اي الذي لا ينفجر)

خان المناضلينا!!

تكررت المصادمات الدامية بين مسلحي عصابتي (شتيرن) و (الهاجنا) ، والاهـالي، في الساحل والداخل، مع اقتراب موعد انتهاء الانتداب، وكنت اسمع المذيع في الراديو يشيد ببطولات المناضلين في شتى انحاءفلسطين (كالمعتـاد!) ، ويـردد عبـارة (سـلَمَة الباسـلة) ، وكانت سلمة من قرى الداخل الفلسطينية التابعة إلى يافا...

شقاء السنين (٢٦)

تضاربت الانباء حول مصير المدن الساحلية (البعيدة عن القرية) ، لِشُحِّ وسائل الإعلام وضَعف وبُطْء وصولها إلى القرى الداخلية، وعدم دقتها-ان لم نقل صِدقها-!لكن نزوح العائلات من تلك المدن، ومن القرى المحيطة بها، أكّد للناس في البلد أن الامور ليست على ما يرام، خصوصاً بعدما راحت (اسراب) من هؤلاء النازحين (الهاربين) ، من بيوتهم، تمرّ عنهم متجهة شرقاً وجنوباً، في مسارب عند محيط القرية، باحثة عن الامان، ناجية بنفسها، مذعورة، مما حملته الانباء والاشاعات، عن الفظاعات التي ارتكبتها العصابات اليهودية، وعن مذبحة قرية (الطنطورة) ، الساحلية، إلى الجنوب من حيفا!!!

وقف (ابو طه، عبد الله الياسين) ، عند مرتفَع في نهاية الحرة التحتا، غربي البلد، وراح يشهد جموع النازحين، تتوافد، وتتدافع، قادمة من الغرب، حيث قريتا (صبّارين و السنديانة) ،، ثم أطلق زفرة حرّى وراح يردّد:يا ترى، وين هالناس رايحة؟ غير انه، هو نفسه، لم يطُلْ به المُقام، اذ وجد نفسه بين النازحين، لكنه لم ينْسَ ان يتوقّف عند مقبرة البلد، مودِّعاً، محروق القلب، ومخاطباً من فيها بقوله:ناموا، فوالله لن تفرحوا بزائرٍ يوزِّع قُرْصاً عن ارواحكم، بعد اليوم، ثم مضى إلى المصير المجهول!!

حالت الظروف الامنية دون حضور منتظم للاستاذ (رشاد نمر الماضي) إلى المدرسة الجديدة، من (إجْزِم) ، قرْبَ حيفا، ما أدّى إلى تعليق الدراسة فيها إلى أجل غير مسمى، وعندما انقطعت أخباره عن أهل البلد، أُغلقت إغلاقاً تاماً، ورُحِّلت مقاعدها إلى بيت (حسن) ، ابن عمي (سليمان شناعة) ، المقابل لديوان عمِّه المختار من داخل بوّابة (حوش العائلة) ، ولقد شاهدتهم بأُمِّ عيني وهم يرتبون المقاعد داخل سدّة البيت، على افتراض انه استيعاب وترتيب (مؤقّت!!!!!)

كلما استمع أهل البلد إلى الراديو عند المختار، او الى (عبد الكريم العلي العثمان) وهو يقرأ لهم آخر اخبار المجابهات مع عصابات اليهود، من جريدة (الدفاع) ، دبَّ الهلع

في صـدورهم، وازدادوا قلقـاً علـى مصـير البلـد، بعـد سـقوط المـدن السـاحلية الرئيسـية، خصوصـاً بعدما تبيَّن لهـم انهـم في حُكْـم العُـزَّل، والسـلاح المتـوفر، علـى قِلّتـه، لا يصـلح للدفاع عنها!

لستُ هنا لأُؤرِّخ لكيفية سقوط فلسطين (على مراحل) ، لكن لأُؤكِّد على أمْرين في غاية الأهمية:الأول ان الحركة الصهيونية خططت لهذا اليوم منذ سنين، حين رتبت لانضمام اعداد هائلة من الشبان اليهود إلى جيش الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) ، تعبيراً عن وقوفها إلى جانبهم بابنائها، أملاً منها في مشاركتهم في الغنائم، بعدما تضع الحرب أوزارها وتكون الغلبة للحلفاء، ....والثاني أنّ من يَسلم من هؤلاء الشبان يكنْ ذا خبرة عسكرية متميزة، تجني الحركة ثمارها في اليوم الموعود....

هذا، وفي المقابل كان الجهل والاستهتار سيّدي الموقف الفلسطيني...الجهل بما يحيط بهم من مؤامرات، من ذوي القربى قبل العدو، ...والاستهتار بقوة العدو تسليحاً وتخطيطاً وتنظيماً، لا ارتجالاً، والاستخفاف بكفاءته وشجاعته، حيث كانوا يُطلقون على اليهود (اولاد الميته!!!)

لم يخطر ببال احد ان المواجهة الجارية مصيرية، فالنزوح من اجل السلامة تصرّف مؤقت، إذْ ما إن يحل منتصف ايّار حتى (تزحف) الجيوش العربية من شتى الارجاء وتتولى امر فلسطين بدلاً من الانتداب البريطاني، وتضع حداً لكل هذه المهازل والانتهاكات، ...وما هي الا اسابيع قليلة ويرجع كل نازح إلى بيته، فلا داعي للرحيل، ويكفي القليل من الملابس والتموين!!وها هي الاذاعات العربية تطمئن الناس، وتقول لهم، وتُردِّد:نحن لا نتكلم ..المدفع هو الذي سيتكلم!!!!

كان (محمد نمر الزبداوي) ، من اهالي قرية (قفين) ، إلى الجنوب من (ام الشوف) ، وعلى بعد حوالي ثلاثين كيلو متراً، في اتجاه طولكرم، كان قد فرغ من بيع زيْته الذي جاء به على حماره، في البلد، حيث كان زيت الزيتون شحيحاً في ام الشوف بقدْر ما كان غزيراً جداً في قفين.

شقاء السنين (٢٧)

(ام الشوف) قرية فلسطينية صغيرة، في ديرة كانوا يطلقون عليها اسم (الروحة)، ولا اعلم أصلاً لهذه التسمية، تقع إلى الجنوب من حيفا، مع انحراف قليل نحو الشرق.لم يجاوز عدد سكانها الف نسمة عام ١٩٤٨ .

يتألف سكانها من عائلتين (حمولتين) رئيسيتين وعائلات اخرى صغيرة، وذلك لا يقلل من شأنها طبعـًا.اما الحمولتان فهما:صبّاح وشناعة او شناعة وصباح، حيث كان تعداد الحمولتين متقاربـًا، وربما كانت (صباح) اكثر عدداً اذا ضممنا اليها بعض الأُسَر التي ليست من صميم الحمولة، أي من اطرافها، والعبيد الذين كانو عدة افراد في اسرتين او ثلاث، يحملون اسم (عبيد ابو سْعيد)، يدينون بالولاء لآل صباح وان كانوااحراراً......وهناك، بالاضافة إلى الحمولتين:آل (صُبْح)، وكان الحديث يجري على ان صباح وصبح كانا أخوين، قبل امتداد سلالتيهما، ..وآل العواطلي وآل سمور وآل (ابو جنزير)، و (الباميان) و (المعّو) و (العثمان) و....أُسَرٌ مكونة من اخوين او ابناء عم....

تميزت (شناعة) بالثروة الحيوانية، بالاضافة إلى الاملاك الزراعية، وبالمخترة (كان مختار البلد منها)، وتميزت (صباح) بمظاهر اقرب إلى التمدن والتحضّر، فلقد كان (توفيق احمد محمود صباح) استاذًمدرسة خارج القرية في اواخر عهدنا بالبلد، كما كنت ارى اخاه (محمود)، ببنطاله القصير (الشورت)، وهو يستعد للذهاب إلى (صبارين) حيث الصف السابع في مدرستها الابتدائية الرسمية!وملامح اخرى لمستها في كبار رجال الحمولة، تركت لديّ الانطباع ذاته!هذا في نفس الوقت الذي انغمس فيه ذوو الاملاك الشاسعة منهم، مثل (محمد احمد مسعود الصباح-ابو صبري)، في هموم الفلاحة مثلما انغمس عمي (سليمان محمد شناعة) واولاده الخمسة الكبار في شؤون مواشيهم !.....اللهم الا والدي (رحمه الله؛) فلقد انصبّ اهتمامه على تعليم اولاده الاكبر مني (انا رابع خمسة اولاد)، في قرية (كفر قرع) البعيدة عدة اميال عن (ام الشوف،)، جنوبـًا،

يوميًا، وعلى الدواب، ليخرجوا قادرين على القراءة والكتابة بخط واضح جيد!....ويقيني أن الحافز إلى هذا الاهتمام جاء من عاملين اثنين:الاول انه كان أفقر، او من افقر، رجال الحمولة، رغم انه كان وحيد والديه، وشقيقتيه، والده (صالح مصطفى شناعة) ، ووالدته (خاتمة الناشف، من الطيبة-جنوب غرب طولكرم) ، وشقيقتيه:حُسْن-ويناديها الفلاحون (حِسِن!) -، و (عفيفة) -رحم الله جميع الموتى، ورغم ان والده كان اكبر اخوته الثلاثة (اسعد و سعيد و محمد) ، ......اما العامل الثاني فكان تَمَيُّزه في صباه في حفظ القرآن الكريم في كُتّاب القرية، حتى ان شيخ الكتاب اطلق عليه لقب (باشا) على بقية افراد الصف، انطلاقًا مع الدارج من القاب العهد العثماني، ولقد لاحقه هذا اللقب طول عمره، أو كاد!!، هذا العامل الذي ينسجم مع قول المتنبي:

لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالو

فلْيُسعِدِ النُّطْق ان لم تُسعد الحالو!!!

فلم يكن يملك من متاع الدنيا ما ينغمس فيه، غير فخره بحفظه للكثير من القران الكريم غيبًا وخصوصًا سورة الانعام!!!!!

هذا، وعلى الرغم مما ساد العلاقة بين الحمولتين الرئيسيتين ما يسود الحمائل في القرى، من تنافس على السيادة والقيادة والجاه والنفوذ، الا أنهما كانا يتصاهران، وبشكل متكرر، ادى إلى تداخل النسب وصلات الارحام تداخلاً جعل من العسير تفكيك العلاقات بين الأُسَر، فهذا خال هذا ان لم يكن عمه، وتلك خالة هذه ان لم تكن عمتها، وهكذا.....

وانه وان نجح وجهاء البلد من كل العائلات في التنسيق بينهم في مهمة الدفاع عن البلد، الا انهم لم يفعلوا عندما حمي وطيس الصدام المسلح بين طرفي النزاع في فلسطين، حيال كيفية هجرة العائلات (المؤقتة) ، بعدما صار موضوع الرحيل خارج النقاش، وراحت كل اسرة ترتب امر رحيلها بما هو اسهل عليها، وكانت العلاقات مع سكان القرى الخلفية عاملاً هامًا في اختيار المحطة الجديدة (المؤقتة!!)

كان (محمد نمر الزبداوي) ، من قرية (قفين) ، إلى الجنوب من ام الشوف وعلى بعد عشرين ميلاً في اتجا ه مدينة (طولكرم) ، قد فرغ لتوه من بيع حمولة حماره من زيت الزيتون، وهو بصدد العودة دون تلكُّؤ، اذ الظروف الامنية لا تسمح بانتظار ولا ضيافة! والناس ينتظرون ماذا عساه ان يحدث بعد انسحاب الانتداب البريطاني في منتصف ايار.

كان مصيري وأخي الاصغر (صغيرَي الاسرة) ، هَمّ الاسرة وشغلها الشاغل، عندما سمعوا بخبر الزبداوي القادم من قفين والعائد اليها بلا تاخير

شقاء السنين (٢٨)

لا ادري أيّة صدفة كانت وراء زواج خالتي (خديجة) من رجل من اهالي قرية (قفين) ، المذكورة آنفًا، وفي الحلقات السابقة، كما لا ادري طبيعة الصدفة التي زوّجت جدي لأبي من فتاة من (الطيبة) -كما ذكرت في الحلقة السابقة-، !!إذ اأنّ الشقة بعيدة بين بلدنا (ام الشوف) وبين قفين، وابعد من ذلك بكثير بينها وبين الطيبة، جنوب مدينة (طولكرم) ......إلّا ان كل ذلك (ليقضي الله امراً كان مفعولا) !.

كان بقائي واخي الاصغر في البلد همّ الاسرة ومحور تفكيرها، وشغلها الشاغل، ويزداد كل يوم مع ارتفاع حدة المواجهات المسلحة في المناطق الابعد من فلسطين، توقُّعًا منها ان الأصعب قادم لا محالة، فلْتتخفّف (الأسرة) من اصغريها، ليكون (الرحيل) أهون عند الضرورة..

كل ذلك، وابن قفين (محمد النمر الزبداوي) ما زال في البلد ويوشك ان يعود إلى قفين حيث فرغ من بيع زيته، فتمّ الاتصال به وعرضوا عليه خدمة (تحميل) طفلين (نحيفين) على حماره، انقاذاً لهما من سوء قادم، وتسليمهما إلى بيت خالتهما في قفين إلى ان تتضح (الامور) ويتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود، فلم يتردد في الموافقة (رحمه الله رحمة واسعة) ، !!!فكان ذلك آخر عهدي بالدار وآخر عهدي بالبلد!!!!

لم تكن قرية قفين غريبة الذكر على طفولتي، فاسمها مألوف لدي، بحكم الزيارات المتكررة بين امي وشقيقتها الكبرى، رغم بعد الشقة، وان كانت زيارات قليلة وفي اتجاه واحد معظم الأوقات...واذكر ان آخرها كان قبل بداية المناوشات بيننا وبين العصابات الصهيونية بقليل، حين عاد الأهل منها فوجدوني اعاني من مرض (الحصبة) القاسي..وما زلت اذكر كيف عرضوا علي خِوانًا مليئًا بأقراص (الزلابية) ، اغراءً لي بالطعام، وكيف اني كنت فاقد الشهية فقدانًا تامًا (وما اندر المواقف التي اتذكر اني كنت فيها فاقد الشهية!!) ، فرفضت تناول شيء منها (ومن ذا الذي لا يشتهيها، وما كل الوقعات-الوجبات-زلابية) !!!

لملمت–بل لملموا لي ولأخي– بعض متاعنا اللازم للعيش بعيداً عن الدار–على تفاهته!–وكم كنت حريصاً على (تأمين) بنانيري–الجلول–التي كانت سلوتي في طفولتي في ساحات القرية سحابة كل نهار–حيث دفنتها عند رِجل خابية الخُشة الكبرى–لأعود اليها بعد أسبوعين بناءً على تأكيد الكبار!!!

وهكذا بدأتُ فصلاً جديداً من حياتي واقعًا بين الطفولة والصبا، وما بينهما من عناء....

كانت خالتي زوجة لرجل يقال له (ابو سعادة) ، انجبت منه طفلة فقط، اسمها (فاطمة) ، قبل ان يتوفى عنها تاركًا ثروة عقارية واسعة تتألف من دار واسعة و (عمائر) زيتون كثيرة، جعلت زوج ابنتها (الشيخ رشيد كتّانة) من الموسرين في البلد، قفّين، التي تشكّل اشجار الزيتون كل ثروتها، او تكاد!

سلَّم المرحوم (محمد نمر الزبداوي) الامانة، ولم نتصادف بعد ذلك الا لمامًا، حيث هو فلاح مزارع من (الحارة الغربية) وانا طفل فتى يسكن في الحارة الشرقية من قفين.

دار خالتي (التي اصبحت دار الشيخ رشيد كتانة) ، واسعة تتالف من بيت العائلة الذي يستوعب كل افرادها مهما كان عددهم (شأْنَ كل بيوت العائلة في قفين–وربما كل قرى منطقة (الشعراوية) ، وبيت اصغر بكثير (غرفة) ، مبنية في (قاع الدار) الواسع، كانت بمثابة مجلس نهاري يلتقي فيه افراد العائلة ويستقبل فيه الزائرون من جيران واقارب ومراجعين، وكنا، انا واخي، من سكانه الجدُد....

لم يطُل بقاؤنا بعيدين عن بقية الاهل، فلقد تداعى سكان البلد إلى الرحيل، كل اسرة حسب علاقتها مع القرى الداخلية البعيدة عن الخطر الوشيك، بعدما رحل اهالي القرى الاقرب من الخطر، مثل (صبارين) و (السنديانة) ، و (قنّير) ، ثم (خبيزة) و (البطيمات) ، وقبل كل ذلك (الريحانية) و (ام الزينات) و (ام الدفوف) و (دالية الكرمل–حيفا) ....ويحدو الراحلين الامل في عودة قريبة بعد بضعة اسابيع!!!

شقاء السنين (٢٩)

مرحلة النضال و (المناضلة!)

تداعت الجيوش العربية، ملبية النداءات المتكررة، لإنقاذ فلسطين من العصابات الصهيونية، بعد ان تحلّلت بريطانيا من انتدابها عليها، تاركة خلفها إرثا نَكِداً تتصارع عليه القوى المحلية، وشعاراً غير معلَن هو (فخّار يكسّر بعضه) !

تحرك الجيش المصري من الجنوب، ابتداء من النقَب، والجيشان العراقي والاردني من الشرق، وجيش الإنقاذ بقيادة فوزي ألقاوقجي من المتطوعين، من الشمال، وجُعِلت القيادة الموحدة للأردن، ومع منتصف شهر أيار ١٩٤٨ كانت الجيوش المذكورة في حالة اشتباك عنيف مع عصابات يهودية كاملة الاستعداد للمجابهة العسكرية بالسلاح والتدريب والتخطيط و....التصميم على الانتصار....لم يكن الجناح المصري على حظ ملموس من التفوق او التقدم، وتبيّن فساد اسلحته (فيما بعد) ، ليكون احد المبررات التي استند اليها قادة انقلاب ١٩٥٢ (الضباط الأحرار) في مصر، وكانت معارك (باب الواد) في القدس وما حولها اكثر المجابهات دموية وأهمية بين الجيش الأردني من جهة والعصابات الصهيونية من جهة اخرى!!وكانت السياسة اليهودية، كلما لمست عصاباتهم الحاجة إلى مزيد من الوقت والسلاح والمدد، ان يطلبوا (هُدْنة) ، يلتقطون بها أنفاسهم، وتستجيب (الامم المتحدة) ، بلا تردد، وتشهد جزيرة (رودِس) الرابضة في شرق البحر المتوسط، على العديد من تلك (الهُدَن) والاتفاقيات، التي انتهت معها الحرب إلى ما انتهت اليه:

وكان ما كان مما لستُ أذكرهُ

فظُنَّ (خيرا) ولا تسأل عن الخبرِي!!!

غادر الناس بيوتهم وارزاقهم ومحاصيل حقولهم الصيفية، ومعظمهم ليس في جيبه شروى نَقير، بل ان كثيرين غادروا بيوتهم بما عليهم من الملابس ظانين ان المسألة لا

تتعدى بضعة أسابيع ويعود كلٌّ إلى داره وارزاقه، اذ لا يعقل ان تصمد طويلاً (عصابات) امام جيوش مدرّبة!!

لم تقصِّر أهالي القرى التي لجؤوا اليها في إيوائهم وحُسْن استقبالهم، إلى حين، وتحت توقعات مشابهة أن لا تكون (ضيافة) طويلة (ثقيلة)، فالناس، والمنطقة كلها كانت تعاني من ضيق العيش في أعقاب حرب عالمية أكلت الاخضر واليابس، والجوع (كافر)، فما العمل؟؟

الوقت صيف والقمح والذرة البيضاء و....الشعير وكل ما زرع الناس، قد استحصد، ولكن، بعُدت الشَّقة، والبلاد محتلة، لكن المرحلة من الصراع لم تتبلور بعد، وما زالت في (الشفق)، وهناك مناطق عدة لم يتوقف فيها القتال، والمفاوضات والمعاهدات والهُدَن بين المتحاربين لم تتوقف كذلك، والحدود مفتوحة أو رخوة الحراسة ومتروكة على التساهيل!وكل يوم يمضي يزداد الجوع معه والألحاح إلى اقتحام هذه الحدود وقطف ما أمكن من غلال الصيف يقتات به الناس إلى ان (بفرجها الله) !!!

بين قرية قفين (حيث المحطة الجديدة للعائلة) وبين (ام الشوف)، مدى بعيد، فيكف الوصول؟ صحيح ان كل المحاصيل في حقول البلد مباحة لكل من يستطيع الوصول اليها، إذ اسقط الاحتلال ملكية كل شيء، لكن تحصيل الغلال يتطلب وسيلة النقل واليد العاملة، فأين هما؟

وقع الاختيار على اخويّ الأوسطين (رفيق ومحمد-رح)، ليقوما بالمهمة الاساسية، برفقة الوالدة (رح)، وأضافوني اليهم، تكملة عدد، وتخلّف عنا والدي وأخي الأكبر (وكانت له أسرته)، وأخي الأصغر ...هذا عن اليد العاملة، اما وسيلة النقل فكانت. (حمارتنا) الضخمة التي رحلت مع بقية الأسرة، محاولة جنْي المحاصيل (الحبوب) في منطقتنا (الروحة)، والمحاصيل الشجرية (الحمضيات) في المنطقة الجنوبيةالمحاذية للمثلّث (الطيبة والطيرة وقلنسوة وما حولها)، في تلك السنةعُرِفت باسم (المناضَلة)، وهل كان السعي ورء لقمة العيش الا نضالاً؟

لكنه كان نضالا محفوفـًا بالخطر على الحياة، إذ لا يعـرف متى يقـع المناضـل في قبضـة دورية عشوائية للعدو أو ضحية رصاصه ان حاول الفرار، ولقد اختفت اخبار كثير من هؤلاء المغامرين بين الحقول او بيارات البرتقال، أذكـر مـنهم (احمـد) بـن عمـي (السـعيد) الـذي غامر كما غامر الناس، وكان في شرخ شبابه، ولم يعُد!!

كان (المثلّث) ما يزال عربيا (لم يسَلَّم بعدُ) !وكان لا بد مـن الإقامـة المؤقتـة في أقـرب نقطة إلى البلـد، طيلـة فتـرة (المناضـلة) ، إذ لا يعقـل ان نتـردد عليهـا عائـدين كـل مـرة إلـى (قفين) ، فوقع الاختيار على......قرية (عارة) !!!

شقاء السنين (٣٠)

قرية (عارة) امتداد طبيعي في ارض منبسطة، لقرية (عرعرة) ، القرية الأم الرابضة على سفح جبل مرتفع يسمى جبل (الخطّاف) ، شمال غرب (جنين) ، والقريتان كما كانت عمان وصويلح او عمان والبقعة قبل سبعين عامًا، مجرد توسع جغرافي، فالسكان هم نفس العائلات في القريتين، ويفصلهما عن بعضهما شارع رئيسي (سلطاني) –اوتوستراد!يصل جزءاً رئيسيًا من شرق فلسطين بغربها ويطلق على تلك المنطقة وما يحاذيها اسم (وادي عارة) .

ابرز العائلات في القريتين عائلة (يونس) ، ثم (ملحم) ، وأسماء اخرى، ويفصل عارة عن (ام الشوف) ، ووادي العبهرية، شمال عارة، ويعتقد ان (يونس) و (شناعة) حمولة واحدة، وأنّ إحداهما امتداد للأخرى، وإن لم يكن بين العائلتين علاقة ذات بال، يومئذٍ، ربما لاختلاف نمط الحياة ومستوى المعيشة بينهما، إذ كان آل (يونس) ، على جانب من التمدّن والتعليم، والثراء، الذي لم يكن لآل (شناعة) الغارقين في الفلاحة بين الحقول والمواشي، وبساطة التعليم والمعيشة!!غير ان التقارب حلّ محل القطيعة بعدما خرجت الحمولتان من فلسطين والتقى أبناؤهما وتعارفوا وتآلفوا، بعد عقود من القطيعة والجفاء، (ولقد أرسل إليّ الدكتور بسام يونس من مقرّه في بريطانيا قرصًا مدمجًا يحتوي على تاريخ الحمولتين ويؤكد وحدتهما) !

لكي تصل الى (عارة) ، من (قفين) ، عليك ان تمرّ بموقع يحمل ثلاثة اسماء هي :الحنّانة وبَرطعة ووادي الميّ، والاسم الثالث أقربها إلى الواقع، إذ انه يحتوي على شلال ماء ونبع غزير وعين تتجمع فيها المياه على شكل (بركة) صغيرة يأخذ منها الناس حاجتهم من الماء لمنازلهم أينما كانت (ولهذا الموقع أهميته، ولنا إليه عودة عند الحديث عن أزمة الماء في (قفين) ......

ثم تمر بمحاذاة (عرعرة) ، عن يمينك، وتهبط إلى عارة، قاطعا الشارع الرئيسي (السلطاني) الذي يفصل بين القريتين.

كان لا بد من رحيل العائلة كلها إلى (عارة) ، وان لم يشارك كل أفرادها في (المناضلة) ، لتوفير الرعاية اليومية من تحضير المأكل والمشرب وإدارة المسكن الجديد (على بساطته وضيقه) ، وكان كل ذلك مُلْقىً على كأهل أُمي (رحمها الله رحمة واسعة) ، إذ لا معنى لانقسام الاسرة في بلدين في تعذُّر رعاية كليهما في وقت واحد.

كانت غرفة واحدة، وحولها عدة غرف مشابهة مسكونة، في (حوش) واسع، تعيش في الجهة المقابلة (الجنوبية) لها، مجموعة من الطيور المدجنة (دجاج وحمام....) ، وكل (الحوش) واقع في الطرف الجنوبي من (عارة) ، وكان يشاركنا فيها أفراد من أسرة من ذوي القربى من (كفر قرع) في ايام إقامتها الاولى!!!

لا مجال للانتظار، فالموسم ينادي، والملبّون (المناضلون) يتكاثرون، وحرارة التنافس، وحرارة الصيف في ارتفاع، فلنجهز أنفسنا للجولة الاولى، ولتُخصّص للذرة (البيضاء) ، هذه المرة!

توجهنا نحو البلدة المحتلة، وهدفنا الحقول، فالبيوت فارغة خاوية على عروشها، ولا خير فيها بعد أهلها، وكل الخير في المزارع، والخير المطلوب هو قوت العيال لا أكثر.

كنا ثلاثة، رابعنا حمارتنا، نتناوب ركوبها إذ لا تحمل ما يُعفيها من الركوب، فالفردة (اكبر من الشوال واصغر من الخيشة) ، فارغة، والسفر طويل، والطريق ترابية ضيقة....

لا بد من المرور بخربة (معاوية) قبل الوصول إلى أراضي البلد، والخربة بيت صغير في واد غير ذي زرع، لعلها كانت محطة قوافل او قاطعي طرق في العهد الأموي، ..غادرنا (معاوية) صاعدين نحو البلد يحُفّنا أمل في نجاح مهمتنا معجون بالخوف من كل مكروه مفاجئ.!فالمنطقة كلها مكشوفة في وضح النهار، ولا ساتر الا الله والليل...وصلنا المزارع المطلوبة المحاذية لوادي (الأكراد) ، وهو واد قلما يجفُ في الصيف، ينطلق من الشرق، حيث قرية (خبيزة) ، محاذيا سهلا ساشعًا تعود ملكيته إلى (الحاج داهود) ، من أهالي خبيزة، وقضينا سحابة نهارنا ا في جمع ما أمكن من الحبوب المطلوبة، ومع العصر كنا

جاهزين للعودة، لـولا ان فاجأنـا احـد أبنـاء الحـاج داهـود بوجـوده في ارضـهم المطلـة على موقعنا (وكانت ارضهم تسمى الذراع) ، وبندائه علينا ان نتنبه الى (دورية) تسير في الجانـب البعيد من (ذراعهم) ، وعلينا الاختفاء المؤقت!!!

يصعب وصف درجة الرعب الذي حـاق بنـا (وبـي شخصيا) ، فأوينـا إلـى الـوادي ومـا يحُفّنا به من شجر، إلى ان اختفت الدورية، وجَنّ الليل، فكان لا بـد مـن المبيـت في الموقـع، مستورين، ولما تأجلت تعبئة المتاع بجنى النهار، أدخلني اخي رفيق في الفردة لتكون فراشـا وغطاءً، وألجأني إلى ساق احدى الشجيرات المجاورة، لأنـام ليلتـي مختفيـا عـن العيـون، و (الصباح رباح!!)

شقاء السنين (٣١)

للمحافظة على انجاز المغامرة الاولى في مسلسل (المناضلة) ، كان لا بد من العودة مع فجر اليوم التالي وتحت جنح الظلام:

ازورهم وسواد الليل يشفع لي

وانثني وبياض الصبح يغري بي!

الحمولة جاهزة والركوبة كذلك، ولا مجال لغير المشي خلف الدابة طول الطريق الترابي الضيّق المتعرج عائدين إلى المسكن الجديد المؤقت في قرية (عارة) .

لم أكدْ اصدق اننا دخلنا تلك الغرفة سالمين بعد التحذير الذي لفت انظارنا إلى وجود دوريات للعدو، تجوب مناطق المزارع بالذات...

حمدنا الله على السلامة والخير الذي حملناه ليكون قوتـًا مؤقتـًا يسانده ما لجأنا اليه من مخَلّلات تشكل (غماسـًا) مكملاً لوجبات الطعام!

تكررت العودة إلى مزارع البلد لجني المزيد من المؤونة للاسرة، بدوني، غير ان العدو المحتل راح يكثف دورياته عندما لاحظ تكاثر اعداد (المناضلين) ، وكانت معظم ضحاياه عند عين البلد، حيث الحاجة إلى الماء لهم ولدوابهم ماسة من طول السفر ووعورة الطريق وثقَل الاحمال....وفي احدى (الجولات) كانت حمارتنا احدى ضحايا (المناضلة) ، حيث اصابتها رصاصة قاتلة، وهي في معزل عن أخَويّ في احدى الحقول، فحزن ابي عليها (وكانت عزيزة لديه) ، حزنـًا شديداً، ولقد رافق حزنه حزن الاسرة كلها إذ فقدت وسيلة النقل الوحيدة في (النضال) !...إلا ان موسم النضال من اجل العيش، إذْ ذاك، كان قد شارف على النهاية، و (طارت الطيور بارزاقها) ، وبذلك انتهت مرحلة (المناضلة) إلى غير رجعة، فلقد (أقفر من اهله ....ملحوبُ) ، وأفرغت القرية من ساكنيها، فلم يبقَ من يحرث ويزرع، واصبحت (ام الشوف) ، بل معظم قرى الروحة ومحيطها، خاويةً على عروشها!!!

اخي ان عاد بعد الحرب جندي لاوطانهْ

والقى جسمه المنهوك في احضان خلانهْ

فلا تطلب، اذا ما عدت للاوطان خلانا

لأن الجوع لم يترك لنا صحبًا نناجيهم

سوى اشباح موتانا

اخي ان عاد يحرث ارضه الفلاح او يزرعْ

ويبني بعد طول الهجر كوخًا هدّه المدفعْ

فقد جفت سواقينا

وهدّ الذل مأوانا

ولم يترك لنا الاعداء غرسًا في اراضينا

سوى اجياف موتانا!!!!!!

وبذلك انطوت صفحة من صفحات الشقاء، محفوفة بالخوف والرعب....والجوع، وكان لا بد من عودة الاسرة إلى قفين (المستقَر الثابت) ، وغادرنا (عارة) إلى غير رجعة، كما ان (عارة) لم تستمر طويلاً خارج الاحتلال، فلقد تمّ تسليمها ضِمْنَ ما سُمِّي (المثلث) ، الذي شمل عاره وعرعره والطيرة والطيبة وقلنسوة، بعد مغادرتنا لها بحوالي عامين، في (تعديل) حدود، على الخارطة الجديدة التي نشأت حصيلة (الصراع) !!وانضم اهلها إلى قافلة (اللاجئين) ،

عُدنا لنواجه شظف العيش بشتى اشكاله، ما يصعب على الاجيال المعاصرة، ولا التي سبقتها، استيعابه او تصوّره!!في الحلقات القادمة.

شقاء السنين (٣٢)

عـام١٩٤٩، وفي جزيـرة رودِس في الجانـب الشـرقي مـن البحـر المتوسـط، تـمّ توقيـع اتفاقية، وباشراف الامم المتحدة، بين طرفي النزاع الصهيوني والاردني، تـمّ بموجبها تسليم مجموعة كبيرة من القرى الفلسطينية عُرِفت باسم (المثلث) ، إلى الطرف الصهيوني، بلا قتال، .وقد شملت هذه المجموعة كـلاً من عـارة وعرعـرة والنصف الشمالي من برطعـة، وطيرة بني صعب وكفر قاسم وطيبة بني صعب وقلنسوة وام الفحم وباقة الغربية و جت وقرى اخرى تناهز العشرين، ...ضُمّت كلها (سلمـًا) إلى ما تم احتلاله من مدن وقرى غيرها (قتالاً) ، مثل المدن الساحلية واللد والرملة.

لا اعلم تحت اية ظروف او شروط او املاءات تـم تسليم المثلث، الذي يكاد يشكل سكانه ربع اهإلى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ (ما يحلو للبعض تسميته عرب اسرائيل!) ، .لكن المعروف ان المدافع هدأتْ ثم سكتت بعد تلك الاتفاقية بقليل، وكان الحفاظ على الجانب الشرقي من القدس احد مكاسب التصفية النهائية، بفضل بلاء الجيش الاردني في مواجهاته مع العصابات الصهيونية، في ما عُرف بمعارك (باب الواد) التي سقط فيها العديد من جنوده شهداء دفاعـًا عن قداستها!!

لقد كانت مجابهة غير متكافئة بين اهالي فلسطين والعصابات الصهيونية (الهاجانا وشتيرن والارجون) على مستويات الاستعداد والتخطيط ةالتدريب والتسليح، وأُشدِّد على الاخير، وان المراسلات التي وُثِّقت بين الشهيد (عبد القادر الحسيني) بطل معركة (القسطل) عند القدس، والجامعة العربية، لَخير شاهد على ذلك، اما كفاءة واستعداد الجيوش العربية التي شاركت في القتال، فأترك تقييمهما للعالمين بفنون القتال!!

انتهت (الجولة الاولى) -كما وصفها الشاعر المرحوم (عمر ابو ريشة) بقوله في قصيدة يمدح فيها الملك (فاروق) المصري، فيما بعد!!!!!

لم نربح الجولة الاولى فلا حزنتْ

على الغد المشتهى جولاتنا الأُخَرُ!!!

وانسحبت الجيوش وعادت إلى حيث اتت، واما نحن (الناس) فلقد رجعنا من الجهاد (الأصغر!) إلى الجهاد الاكبر، نتبصّر امور معيشتنا في الوطن (الجديد)، في المسكن والمأكل والمشرب والملبس، منتظرين يوم العودة نتجرّع (وعداً) جديداً باقترابها كل يوم!!!!

كانت دار عمتي (عفيفة) مشتركة الجدار الفاصل بين دارَينا في (ام الشوف)، لكنها رحلت الى (يعبَد)، لا إلى قفين، لان اقارب زوجها مسعود احمد الكبهاوي هناك وفي قرية (طورة) القريبة من (يعبد)، ومثلَه فعل شقيقه (سعيد)، اما عمي (عم ابي) احمد محمد شناعة (المختار–ابو فياض)، فاختار ان يرحل مثلنا الى (قفين)، بينما رحل شقيقه، سليمان، ببقايا مواشيه الى (قباطية) شرقًا، القريبة من. (جنين)، وهكذا (تفرّق القوم أيديَ سبأ!!!!)

كانت خالتي حريصة على (استضافة) المختار عندها في دارها، ولما كان ذلك غير ممكن ونحن نقيم فيها، فقد امّنتْ لنا مسكنًا بديلاً خارجها!

مجمّع (البوابة) جناح من حيّ في الحارة الوسطى من قرية قفين، لا يبعد كثيراً عن دار خالتي، هو مجموعة من البيوت المهجورة، مبنية على الطراز البدائي القديم، ذي الجدران العريضة المقامة من حجارة ضخمة، والاسقف الخشبية المطلية بالطين المطلي بالجير (الشيد)، ما يجعله ضعيفًا في وجه الامطار الغزيرة، فيتسرب ماؤها من بين الشقوق إلى الهيكل الخشبي فأرض البيت، وهو ما يعرف عند الفلاحين ب (الدلف)، الذي يتساقط قطرات بنية اللون بفعل القطران العالق بخشب السقف من دخان المواقد المحصور داخل البيوت في فصل الشتاء!!! اما داخل هذه البيوت فمصمّم من فراغ في احد الجدران لاستيعاب فراش النوم من ألْحِفَة وفُرُش، و (سِدّة) يُصعَد اليها بدَرَج، يُحفظ فيها ما زاد عن حاجات البيت اليومية، و (مَصطبة) هي ارض البيت التي يجلس عليها سكانه في النهار

ويتناولون طعامهم، وينامون، و (قاع البيت) الذي ينخفض حوالي نصف متر عن مستوى المصطبة، تربط فيه الدواب من بقر او حمير، ويحتوي على (مِذْوَد) يوضع فيه طعام الدواب من تِبْن او شعير، ....وفي جانب من المصطبة توضع ادوات الطبخ قريباً من الموقدة او (البريمُس) ....وعلى المصطبة وفي قاع البيت ينام كل أفراد الاسرة والدواب!!!

في فصل الشتاء يتحلّق كل افراد الاسرة حول الموقدة او (كانون النار) بحثاً عن دِفْءٍ لا يتحقق، مهما احترق من اغصان الزيتون المتوفرة بغزارة في قفين، ومن (قرامي الزيتون او السرّيس) التي يجمعونها من العمائر او من الاحراج، فبرد الشتاء اقوى من حرارة الموقدة في غياب الملابس الدافئة!!ولو يرى القارئ كيف تسيل الدموع ويشتد العطاس بفعل الدخان الذي يملأ جو البيت خصوصاً اذا انطفأت شعلة النار وامتلأ الجو بعبق الكاز الذي يسكب لاعادة اشعال النار من جديد !!!!

اما في الصيف فعذاب الحر ادهى وأمَرّ، فالبيوت المذكورة بلا شبابيك، وشبْه مغلقة، ولا ينفع فيها (مهفّات) القش المشرشبة حيث لا تقوى الذراع التي تلوِّح بها على الاستمرار !!ولو ترى كيف يتصبب العرق من الوجوه في النهار، وكيف يفرّ الناس من البيوت بحثاً عن نسمة نادرة في حَرّ آب، وكيف يحرصون على المبيت على أسطح البيوت، او على البيادر مفترشين القشّ، غير عابئين بلسع البعوض الذي يتربص بهم!!

بيوت قفين (يومئذٍ) متراصّة لا ارتداد بينها، بحيث انك اذا علَوت احد اسطحها في الحارة الشرقية او الوسطى أمكنك الوصول إلى الحارة الغربية مشياً من سطح إلى سطح دون عناء....

في واحد من تلك البيوت المهجورة في ما اشتهر باسم (البوابة) كان مأوانا الجديد، وقد امتلأت بقية البيوت فيما بعد بعائلات اخرى من ام الشوف والسنديانة وقنّير......

شقاء السنين (٣٣)

في (قفين) ، كانوا يضربون المثل بخلو البلدة ومحيطها من أي احتمال لوجود نبْعٍ يروي عطش الاهالي ودوابهم، فلم يحاول احد ان يجازف فيحفر الارض بحثًا عن الماء، ولذلك درج اهلها على حفر آبار بمحاذاة بيوتهم، يجمعون فيها ماء المطر من اسطُحها المطلية بالشيد (الجير) والمصقولة صقلاً خاصـًا لضمان انسياب الماء بكل يُسْرٍ نحو (المزراب) ، ومنه إلى فتحة عند فوهة البئر ليخزن فيه الماء طوال العام.، ولذلك كانوا يحرصون على انشاء أكثر الآبار استيعابًا، وأتقنها (قصارةً) لضمان نظافة الماء وعدم تسرّبه في جدران البئر...ولما كان هذا النوع من الماء ماءً مقَطّراً، فقد خلا من الاملاح المعدنية الضرورية لصحة الجسم وصحة الاسنان، على وجه التحديد، وهو ما يتميز به ماء (النبع) عن ماء (الجمع) ،، ولما كان هذا النوع من الماء راكداً وغطاء البئر الذي يحويه غير مُحكم الإغلاق، كان مرتعـًا لتوالد البعوض على سطحه، ولذلك كان لا بد من (فلترة) ما يُنشَلُ منه، وتصفيته عند صبِّه من الدلو، بوضْع قطعة من الشاش الابيض على فوهة الابريق، لجمع يرقات البعوض عليها، فتأخذ لونـًا (زهريـًا) بلون اليرقات، وإلّا تجرّعنا الماء مقطَّراً ممزوجـًا بها!!!ولما كانت الرقابة الصحية حريصة على صبّ الكاز في هذا النوع من الآبار ليشَكِّل طبقة (خانقة) ليرقات البعوض، كان لا مناص من شرْب هذا الماء بطعم الكاز!!!

ونشرب مما تشرب الخيل عادةً

وطَوراً تعاف الخيل ما نحن نشربو!!

لم يكن كل البيوت معزّزاً ببئر لجمع ماء المطر، يومئذٍ، ومنها بيتنا الجديد، فكان لا بد من مصدر آخر للماء، فالماء، كالهواء، هو الحياة، فاتجهت العيون الى.... (برطعة) .

كان من حُسْن الطالع ان يظل النصف الجنوبي من برطعة (او وادي الميّ) عربيـًا، فهو النصف الذي فيه نبع ماء غزير يتساقط من تلّة على شكل شلال، يروي بساتين البلدة بكل ما فيها من خضار واشجار فواكه، ويجمع فائضه في بركة متينة الجدران يشرب منه الناس والانعام على وجه العموم.

لكي يصل ماء برطعة إلى البيوت المحتاجة في قفين لا بد من الدابة والاوعية التي يُحكَم اغلاقها فلا تفقد شيئًا من الماء بسبب طول ووعورة الطريق الترابي البالغ طوله زهاء عشرين ميلاً...وأُنيطت بي تلك المهمة، وتبرع (محمد عطية آل طعمة) –وكان (حوشهم) حيث يسكنون، قريبًا من (البوابة)، ...كان (محمد)، رحمه الله ؟، اكبر مني سنًا، وزاده اله بسطة في الجسم وحسن الخلق، اذ كان كثير المزاح والضحك، خدومًا، مِعوانًا، فلم يكن مثلي، بجسده النحيل، يستطيع رفع (جالون) الماء الملآن بدون مساعدته وتحميله على ظهر الدابة (ويكفي انني اختزن له حصة في ذاكرتي، عرفانًا له بالجميل !!!)

حرّ الصيف، حيث يشتد العطش وتشتد الحاجة إلى الماء، يفرض على المسافر ان يُدْلِج، تجنبًا لمشقة سير النهار، إذ لم يكن سفراً قاصداً في كل الاحوال، وعليْهِ فقد رتبنا ان تكون رحلاتنا ليلاً، وجماعات على شكل قوافل من عدد من الدواب، نتمتع بركوبها ذهابًا ونمشي خلفها ايابًا:

أَعاذلتي، ما أخشن الليلَ مَركَبًا،

وأَخشن منه في المُلِمّات راكبهْ

ذريني على اخلاقيَ الصمِّ للتي

هي الوَفْرُ أو سربٌ ترِنّ نوادبهْ

لا اكاد اصدّق ذاكرتي (التي لا تخونني)، اننا كنا نسمع اذان الفجر ونحن نملأ اوعيتنا من بِركة ماء (برطعة) للمرة الثانية، لنعود إلى بيوتنا قبل طلوع الشمس، وكأنّ لسان حالنا يقول:عند الصباح يحمد القومُ السُرى، الحكمة العربية القديمة!!!!

شقاء السنين (٣٤)

شهِد الريف الفلسطيني في اربعينات القرن الماضي وخمسيناته فقراً مُدْقِعًا لم يشهد مثله الا إبّان الحرب العالمية الأولى، حيث عانى من مجاعة حَدَثْ بالناس ان يتلمسوا حبات الشعير في روث الدواب يسُدّون بها رَمَقهم!

كان فقراً شاملاً كل مرافق العيش من المأوى إلى الملبس والمأكل، فالبيوت متواضعة، مكشوفة للحر في الصيف وللزمهرير في الشتاء، وشبابيكها (إن وُجِدت) لا حظ لها من الإحكام، ينفذ منها غبار الأزقّة، وتعوي ريح الشتاء في ايامه العاصفة!

اما الملابس فكانت للسِتر، لا اكثر، فلم يعرف الناس شيئًا اسمه (الملابس الداخلية) ، إذ لا يكادون يحصلون على (الخارجية) ، وحتى الخارجية هذه، فتتعرض للرثْي والترقيع، عدة مرات، قبل الاستغناء عنها وإعفائها من (مهمتها) ، بحيث لا يكاد يخلو رداء من (الإصابة) برقعة او اكثر، بحيث يتعسّر على الملاحظ، احيانًا، معرفة القماش الأصلي الذي نُسجت منه (الديماية–القمباز) ، او البنطال، او (اللباس) ، الذي يلبسه الرجل تحت الديماية، او الذي تلبسه المرأة تحت ثوبها، سَتْراً للعورة فقط!

اما القوت فكانت الارض مصدره الرئيسي، من القمح إلى الشعير إلى العدس، واذا ضممنا القمح إلى العدس أمّن البيت معظم غذائه، ان لم يكن كلّه...فمِن القمح رغيف الخبز، ومنه البرغل والسميد، فاذا اجتمع البرغل والعدس تكونت (المجدّرة) ، طبخة البيت الرئيسية المكررة على مدار العام، واذا طُبخ البرغل بالبندورة تكونت (العصيدة) ، واذا توفر الرز (وهو عنصر غائب عادة) وطُبخ بالبندورة، تكونت (المُبَسّطة) ، واذا لم يتوفر البرغل او الرز كان العدس سيّد الموقف، فهو يطبخ (حَبّـًا) او مجروشـًا، ليؤكل بالخبز، ولا مكان يومئذٍ لما يسمونه في المدينة (الشوربا) ، فذلك ترَف لا يرقى اليه الفلاح يومئذ، ولا حتى يخطر له على بال، لأن الشبع لا يتحقق بدون الخبز، يغَمِّس به، أي طبيخ!

واذا لم يتوفر البرغل والعدس (لحْم الفلاح) ، حلّ محلهما ما تُنبِت الارض من اعشاب وبقول اصطلحوا على صلاحها للاستهلاك البشري، بعد طبخها، كاللوف، والخبيزة، والهندباء، والبقلة (وتسمى الرجلة في مصر، والفرفحينا في ام الشوف) ، مثلما اصطلحوا على الملوخية التي كانوا يزرعونها احواضاً في البساتين، عند مجرى الوادي، ويقطفونها ويُبقون سيقانها الأصلية لتعود ف (تُطْلِق) من جديد، لتقطف ثانيةً، وهكذا، .ومثل هذه وتلك :اللُّسَّينة والزعمطوط-وتختلف التسميات باختلاف النواحي-وكانوا-وما زالوا-يلفون اوراقهما، كما يلفون ورق اشجار العنب، محشوّة بالرز او البرغل-اذا توفرا!!

تلاحظون انني لم آتِ على ذكر اللحم بنوعيه:الاحمر (من بقر او غنم) ، والابيض، من الدجاج او غيره من الطيور، لأنه لم يكن جزءاً من غذاء الفلاح اليومي، ولا الاسبوعي، واذا حصل عدوا ذلك حدثاً هاماً اطلقوا عليه اصطلاح (الإتلاف) ، فقالوا (ابو فلان مِتْلف) ، اي انه ذبح وطبخ اللحم لغرضٍ ما، كالوليمة لعرس او نذر او نحوهما، وقلّما كان الذبح بغرض البيع عملاً يومياً او اسبوعياً، واذا حصل، كلّف الذابح وسيلة الإعلام المعروفة والوحيدة، محمد الطاهر، كفيف البصر، ليطوف في ازقة (قفين) -وكان يهتدي اليها جميعها في الحارتين الشرقية والغربية ببصيرته وعصاه التي لا تفارقه، لا ليتوكّأ عليها بل ليتجنب بتحريك طرفها عثرات الطريق، وهو ينادي باعلى صوته المألوف لأهل البلد :اللحم، لحم العجل (او الخروف) ، الاوقية-ولا مجال لذكر الكيلو!!-بخمس قروش، عند (فلان-وكل أهل البلد معروف لكلهم) .....يا لحيييييم!!ويتقاضى اجره على ذلك قطعة لحم مغلفة بالشحم الغزير، غير المرغوب فيه (فالعملة شحيحة في ايدي الناس يومئذ، ولا تنفق الا في وجوه معدودة محدودة) !

ذلك لأن ذبح البقرة او الشاة او حتى الدجاجة، تضحية بمصدر هام من مصادر قوت الاسرة، كالحليب واللبن و البيض (وحتى البيض فانه كان يوفر للبيع مقابل قروش معدودة

يُشترى بها الملح او السكر او الكاز او الكبريت من دكان (صالح البلدي) ، او (مصطفى التفّال) ، او غيرهما!!

وفي اعقاب سقوط النصف الاول من فلسطين، وإلى بدايات خمسينات القرن الماضي، اشتدالفقر على الناس (لاجئين واهالي) ، وجاعوا، وانتكبوا بموجة صقيع انتهت بموجة ثلج عمت معظم الضفة الغربية (والثلج امْر نادر هناك، حتى ان الناس راحوا يؤرخون بسنة الثلجة) ، واتلفت الزرع والضرع، لولا تمور العراق و (دِبْسه) الذي كان يصل البلاد بلا ثمن او تكلفة ! ومثلما أرّخوا بسنة الثلجة أرّخوا بسنة التمر!!!!

شقاء السنين (٣٥)

لم يكن رغيف خبز القمح متوفراً، يومئذٍ، لكثير من الناس، بل كان خبز الذرة البيضاء هو (العيش-كما يقول الاخوة في مصر) ، على شكل أقراص كبيرة تسمى (الكراديش) ، لا تصل إلى حجم رغيف خبز القمح، في مساحته، وان كانت اكثر منه سُمْكًا، ..يبدو (الكردوش) زاهيًا شهيًا لحظة خروجه من الطابون (فُرن الفلاح) ، طريًا لدى الإمساك به، ضعيف التماسُك سريع الانقسام والتفتت التلقائي، مقبول الطَّعم، حتى اذا ما برَد صار صلبًا يابسًا يصعب قَضمه ومضغه على الاسنان الضعيفة أو الاصطناعية. !ومن هنا، ومن هذه المواصفات، نستطيع تبيُّن وتذوُّق السرَّ في المثل الدارج، عند الحديث عن ذي (الكشرة) الذي -لا يضحك وجهه للرغيف الساخن-أيْ لا يبتهج لمنظر رغيف خبز القمح الذي يُحتَفَل به خارجًا للتوّ من النار!!وللمزيد من التوضيح فإنَّ كلمة رغيف مخصصة لخبز القمح، اما خبز الذرة البيضاء فيسمى (الكردوش) فقط.كما أن لون الكردوش ابيض داكن فيما لون الرغيف اقرب إلى البني الفاتح، بحُكم الفرق بين لوني حبة القمح وحبة الذرة البيضاء.

لعلكم لا تعرفون الذرة البيضاء، بل لم تروها في حياة جيلكم، وان كانت الذرة الصفراء مألوفة جداً لديكم...الذرة البيضاء حبات حجم بذرتها الواحدة في حجم حبة القمح، لكنها مفلطحة بيضاوية الشكل، بيضاء اللون، هشّة، أطرى من حبة القمح بكثير..تُصَبّ بذورها باليد في بوق تقترب نهايته من تربة (الثلم) الذي أحْدثته سكّة المحراث في الارض، يُلقي بها الفلاح وهو يمشي على طول الثلم ليتوزع البذار على طول الأرض، منتقلاً من ثلم إلى آخر، وهكذا حتى يكتمل بذار المارس، بانتظار المطر لينبت عِرق الذرة الغضّ الذي ما يلبث ان يستغلظ ويستوي على ساقه فيطول ويربو على المتر (والمترين، احيانًا) ، ثم تزهر قمته عشرات الزهور، ثم تَعقِد، مكوِّنة حبًّا بعدد الزهر، في رأسٍ يضمها جميعًا، كل حبة في غلافها، يسمى (العرنوس) ، الذي ينتظر حَرّ الصيف كي ينضج ويحين قطافه، ثم يحمل إلى البيدر فيُدرس فتستخرَج حباته لتخزن في البيوت قوتًا اساسيًا رديفًا للقمح والشعير.

تغيرتْ بعد اللجوء ظروف العيش ووسائل الحصول على اللقمة والرغيف، فبلدنا الأصلية (ام الشوف) قرية زراعية، تعتمد على ما تُنبِت الارض من المزروعات من حبوب، وما تجود به البراري والمواشي، ..وما زلت أذكر كيف كنت اغوص في حقول القمح او الشعير وقد استحصد، فيصيبني الذعر من أفعى تجوبها باحثة عن رزقها تعترض طريقي (او اعترض طريقها) ، عن غير ما قصد ولا هدف!...أو في حقول الذرة لالتقاط حبات (السيسعة) من بين عروقها الطويلة، الخضراء، فلا أكاد أُرى!...ولا دَوْر للشجرة مصدرَ عيش في حياة الناس .

وعلى العكس من ذلك وضْع (قفين) ، التي تعيش من شجر الزيتون الذي يغطي كل اراضيها عدا التلال الحرجية، بحيث لا يبقى من الارض ما يصلح للزراعة غير مساحات قليلة بين اشجار الزيتون او بين الاشجار الحرجية، والحياة لا تستقيم بالزيت والزيتون وحدهما، فلا غنى عن الخبز أيّاً كان مصدره، ولو من الشعير!!

لم أكن أتصور حجم معاناة محمد (ص) ، وصحابته (رض) ، الا بعدما تذوّقْتُ خبز الشعير في (قفين) ، وعانيت من مضغه وانزلاق الاضراس فوق قشور حباته العالقة بالرغيف رغم طحنها في مطحنة البلد!!

ضاقت علينا ارض الله الواسعة في قفين في اعوام اللجوء الاولى، وقررت الاسرة، بعد طول تفكُّر، ان تستصلح بعض المساحات الجرداء بين الاشجار الحرجية في التلال المحيطة بالقرية، بالعزق (النكاشة) ، إذ لا مجال للحراثة، وتزرعها ما حصلت عليه من الشعير، ليكون قوت الاسرة بعد حصاده، وهكذا كان، وكانت تجربتناالمُرة في خبز الشعير!!وهكذا وجدْتُنا:

نغَرِّب نحو الرزق وهو مُشَرِّقٌ
وإن نحن شرّقنا نراه يغَرِّبو
ونشرب مما تشرب الخيل عادةً
وطَوراً تعاف الخيل ما نحن نشربو!!!!!

شقاء السنين (٣٦)

تلّ شهاب، قرية سورية قريبة من درعا، ومحطة لمن يتعامل مع خدمات الفِلاحة في سهل حوران الفسيح.تَسامع الناس (حديثو اللجوء) من ابناء بلدتنا والقرى التي جاورتها مثل السنديانة وقنّير وخبيزة وصبارين، تسامعوا بأخبار الحصاد في ذلك الجزء من سوريا، وحاجة فلّاحيه إلى الأيدي العاملة، وأنّ القادرين على الحصاد يستطيعون ان يقصدوها ليتحصّدوا ويعرضوا خدماتهم بالأجرة، مهما تكن، لإطعام الأفواه الجائعة في فترة من حياة اللاجئين ضرب فيها الفقر بجِرانه على تلك المنطقة، قبل ان يتبين مصير ما بقي من فلسطين، وقبل اضطلاع الامم المتحدة بشؤون اللاجئين (الانروا) ...

توجّه أخواي، رفيق و محمد (رح) ، يرافقهما قريب حميم الصداقة والعِشرة هو اسماعيل علي احمد اسماعيل (ابو غالب) -الذي صار عديل اخي رفيق، فيما بعد- ....توجهوا صوب (تل شهاب) ، ليتحصّدوا، ويجمعوا ما يتيسر للانفاق على معيشة محتاجين ينتظرون عودتهم بقروش .

كانت شروط عمل الحصّاد منوّعة، فبالاضافة إلى الاجرة النقدية-الخاضعة للمساومة المريرة-هناك (المُكَمَّم) و (المموَّن) ، فالأول مسؤول هو عن طعامه يوم عمله، والآخر طعامه اثناء عمله على مالك الحصيد!!!وتتوقف قيمة الاجرة على أيّ الشرطين يختاره الحصّاد.!

روى لي (ابو غالب) -طال عمره-ان مالك الحقل، والمنطقة عدة حقول ومالكين، كان يتفحّص العامل قبل اختياره، ولا يختار الا من اوتي بسطة في الجسم، ما جعل اخي محمد (رح) ، خارج الاختيار عند بعض المزارعين، أحياناً!!!

قبل سقوط البلد، وقبل اشتداد المجابهات المسلحة، راج سوق العِظام في بلدنا، وكان يلمها (ابو سلمان الهوجي، رحمه الله) في اكياس كبيرة (شوالات) ، ويمضي بها إلى المدينة، ويبيعها إلى تجار آخرين لقاء ثمن جيّد، ولا اعلم عن سرّ رواج هذه البضاعة في

اواخر اربعينات القرن الماضي، ولا الجهة الاخيرة التي كانت تستقبلها...كنا نحن اولاد القرية، نجمع اكثر ما نستطيع من عظام الحيوانات التي نفقت من خيول او حمير او....كلاب ضالّة، في محيط البلد، ونسرع بها إلى (ابي سلمان) لقاء قروش معدودة نحتفل بها أيّما احتفال!!

كان ذلك قبل اللجوء، أمّا بعد اللجوء فقد راجت تجارة الفحم، واشتد الطلب إلى المزيد منه في قفّين، من تجار البلد، خصوصاً في فصل الشتاء، ما أغرى كثيرين، وكُنّا منهم، بصناعة الفحم محلّياً دون ما خبرة سابقة!فالحصول على الخشب من الشجر ممكن، فالتلال المحيطة بقرية قفين مليئة بالاشجار الحرجية، بالاضافة إلى اشجار الزيتون، لكن ذلك يتطلب العدة والادوات اللازمة من فؤوس وشروخ (جمع شرْخ) وبلْطات، و (فوق كل ذلك وقبلَه) الأيدي العاملة، ولم يكن لدى الأُسرة في عِداد الرجال سوى اثنين هما أخواي المذكورين (رفيق ومحمد) ، ومع ذلك، وعندم تقدّما للعمل مع ابن عمنا (حسن) شراكة، عَدّهما واحداً لا اثنين، وكانت الشراكة مناصفةً، وكان حضوري (عالبيعة) ، وإن كان دوري بالشرخة الصغيرة قطْع الأغصان الغَضّة قطعاً صغيرة تضاف إلى السيقان الغليظة الصلبة والجذور (القرامي) ، وكانوا يسمون هذه المهمة (تشفية زنود) !!

بناء المفحمة (المشحرة) أمرٌ في غاية الصعوبة، وأصعب منه الإشراف عليها، وخصوصاً في ليالي الشتاء حين يكون الثلاثي البغيض: البرد والعتمة والسهَر الطويل!!!

توضع القطع الخشبية مرتبة حسب الحجم، الاكبر فالاصغر حجماً، لتصبح كومة ضخمة هرَمية الشكل، ثم يرَشّ الكاز على جنَباتها وتشعل النار في اكثر من جانب، ثم ينثر التراب على الكومة كلها ليغطيها تغطية تامة بحيث لا يصل الا القليل من الهواء (الاوكسجين) يتسرب من خلال مساماته، ليستمر الاشتعال ويتحقق الاحتراق البطيء غير المكتمل للخشب، فيتفحّم، فاقداً مخزونه من الرطوبة الطبيعية، ولا يحترق احتراقاً تاماً يستحيل معه إلى رماد!!...

ولكيلا يحدث اختراق للطبقة الترابية بفعل الرياح العاصفة في ليالي الشتاء، كان لا بد من تناوب السهر على (الغنيمة) ، حتى اذا (نفّست) المفحمة في احد جوانبها بصعود الدخان الكثيف المفاجئ، عمد احدنا إلى الرفْش (القريق) ، يملأه ترابًا يرشقه على نقطة الاختراق، ليمنع الاحتراق الكامل الذي يتحول معه الفحم إلى رماد ويذهب تعب الايام وسهر الليالي هباءً ادراج الرياح!!!!

عند اقتراب مرحلة التفحّم من نهايتها، تفحص (عينات) من الكومة للاطمئنان على سلامة العملية، ثم تطفأ النار بالماء وتكشف الكومة إلى ان تبرد ثم تتم تعبئتها في اكياس (شوالات) ، تحمل إلى البلد لتباع أكياسًا بثمن بخس دراهم معدودة كانت تعتَبر ثروةً في تلك الأيام!!!

شقاء السنين (٣٧)

في غمـرة الاحـداث والمجابهـات العسـكرية في فلسـطين، أغلقـت المـدارس ابوابهـا (الرسمية والأهلية، على حدٍّ سواء) ، الا انه كان إغلاقـًا مؤقتـًا بين صيفي ١٩٤٨ و ١٩٤٩.

كان حظـًا وافراً وقَدَراً مباركـًا أنْ لجأت أسرتنا إلى قرية (قفّين) ، فالقريـة، على بسـاطة الحياة فيها، وطيبة اهلها، حظيتْ (وحظيتُ انـا واخـي الاصـغر) بوجـود مدرسـة (رسـمية- حكومية) في عهد الانتداب، تشمل الصفوف الابتدائيـة الستة الاولى...اقيمـت عنـد مـدخل البلد الجنوبي،، حديثة البناء، على مساحة واسعة من الارض، شبْهَ منبسطة، مـزودة بملعـب فسيح، ينتهي برقعة مـن الارض مُشَـجّرة، تضـفي علـى الموقـع جـواً ريفيـًا لطيفـًا، وتحـيط بالمدرسة مـزارع وبسـاتين الاهـالي، ويـؤدي اليهـا شـارع معبّـد يصـل اليـه (بـاص) البلـدة الوحيد، يومئذٍ.

لـم نكـن (انا واخي الاصغر)) نملك الوثائق اللازمة التـي تؤهلنـا للالتحـاق بالمدرسـة الجديـدة، فـلا سـجلّ علامـات ولا مـا يحـدّد لنـا المرحلـة الدراسـية، فلقـد خرجنـا مـن (ام الشوف) خالي الوفاض، بملابسنا البسيطة، واحذيتنا الرثّة (إنْ وُجِدت!) ، لكنـه كـان رغبـة العائلة وقرارها ان يلتحق كلانا بالمدرسة، بلا إبطاء او تردد، إذ انّ عمرَينـا يسـمحان بـذلك، فيما لم يسمح عمرا (رفيـق و محمـد) ، وكـان اسـتثناؤهما مفروغـًا منه، كمـا كانـت رعايـة الاسرة معلّقةً بشخصيهما!

لجأت ادارة المدرسة، وقد وجدت مشكلة التوثيق عامة على كل ابناء ديرتنا الراغبين في الالتحاق بالمدرسة، لجـأت الـى (التقـدير) الـذي شـمل السـنّ والكفـاءة، وعليـه فقـد حـال جهلي باللغة الانكليزية، دون الالتحاق بأعلى من الصف الرابع الابتـدائي، رغـم كفـاءتي في المواضيع الاخرى، ما ينَوِّه بقيمة ما تعلمته في الكُتّاب، في الدرجة الاولـى، ذلـك لأنّ منـاهج الدراسة، يومئذٍ، كانت لا تسمح بتدريس الانكليزية قبل الرابع الابتدائي.

وهكذا كان...واصبحتُ طالبـًا في مدرسة رسمية!

عام ١٩٤٩ عُقِد مؤتمر (اريحا) الذي دعت اليه مجموعة من زعامات فلسطينية، طالبت بتوحيد ما بقي من فلسطين خارج احتلال العدو الصهيون مع الضفة الشرقية لنهر الاردن، وفي نيسان عام ١٩٥٠ نودي بوحدة الضفتين تحت اسم (المملكة الاردنية الهاشمية) ، وبذلك اكتسبت مدرستنا طابعاً رسمياً، بعد ان كانت، وبقية المدارس الفلسطينية معلّقة الهوية في تلك المرحلة الانتقالية

لم يكلف الالتحاق بالمدرسة سوى بعض الدفاتر وقلم الرصاص، اما الكتب المقررة فكانت تُسلَّم للطلاب تسليماً، يرثها اللاحق عن السابق، بسبب ثبات المناهج المقررة أولاً، وندرة النُسَخ ثانياً، وعدم القدرة على شراء الجديد (من كل شيء!) ، ثالثاً، كما كانت المدرسة قريبة من. (البوابة-حيث نسكن) ، نذهب اليها مشياً على الاقدام-وهل كان غير الاقدام واسطة نقل وانتقال؟

كان معلمو المدرسة اربعة بالمدير، هم :حسني نجيب حمدان، من قرية (ذنابة) ، مديراً، وجميل عبدالله العبد، معلم اللغة الانكليزية، من (قفين) ، وجميل جابر، معلم اللغة العربية والدين، من (سبسطية-نابلس) ، وجميل العبادي، معلم الرياضة، من (يعبد-جنين) ، ولا صلة له بعشيرة العبابيد في الضفة الشرقية...وتولى الاستاذ حسني تدريس االرياضيات، والدين (احياناً)

اما الكتب المقررة، فكانت قراءة (خليل السكاكيني-القدس) للصفوف الابتدائية الاولى، مُفتَتَحةً بالكلمات (راس-روس-دار -دور) ، في الدرس الاول، والقراءة الرشيدة، للصفوف الابتدائية العليا، وكانت مصرية التأليف والطباعة، تولى أمر تأليفها الاستاذان (علي الجارم) و (مصطفى امين) ، وكان الاول شاعراً ايضاً-فقد قرأت له في صباي قصيدة يصف فيها الطريق إلى السودان، بالقطار!....كما تولى هذان المصريان تأليف كتاب. (النحو الواضح) بمراحله السنوية المتطورة، .....

اما اللغة الانكليزية فكانت الكتب المقررة :- للصف الرابع موريس ون morris ohe وموريس توmorris two، وللصفين الخامس والسادس ريدر ون و ريدر تو. Reader one +Reader two

كانت الدروس والمطالعة شغلنا الشاغل، حتى في الدقائق الممنوحة فسحة او (تنفسًا) -كما كنا نسميها، -بعد اول حصتين، مثلما كنا شغل معلمينا الشاغل، بلا مبالغة!...اما في نهاية الاسبوع، فكانت (البنانير-او الجلول) لعبتنا المفضلة وسلوتنا الوحيدة، حدَّ الادمان!!واللعبة (لمن لا يعرفها) تقوم على إطلاق البنورة من بين اصابع اليد والابهام لتصيب بنورة الخصم في الجانب الآخر اصابة مباشرة، ولو من خلف حاجز كالحجر او نحوه، أي ان اللعبة تعتمد على براعة التصويب، الذي كنت أُجيده إِجادة حفظي للدروس (وان كان اخي محمد (رح) أصوب مني، وابرع في الاصابة من وراء حاجز او حجاب) !!..اما الربح والخسارة فعملتهما البنانير نفسها التي كانت تشترى من الدكاكين بالوان مزركشة زاهية.المهم ان اطلاق البنورة يتم واليد مستقرة على الارض، فاذا عرِقتْ الكف لطمناها بالارض لنغطي العرق بالغبار كيلا تنزلق البنورة من بين اصابع اليد التي بللها العرق!

لأبي سعد الكاتب (العباسي) من شعراء القرن الهجري الخامس، شعر في بغداد، يحضرني كلما تذكرت السنوات الاولى من اللجوء وكيف قذفت الحاجة والفاقة ب (رفيق ومحمد -رح) في فضاء الله الرحب البعيد، لتأمين نفقة اسرة لا رصيد لها من مال او معين!:

وكم قائلٍ، لو كان حبك صادقًا

لبغداد، لم ترحل، فكان جوابيا

يقيم الرجال الموسرون بارضهم

وترمي النوى بالمُقترين (المحتاجين) المراميا

سمعتُ ب (السروط والعالوك) اوّل ما سمعت بهما في السنوات الاولى من اقامتنا في قفين، في بداية خمسينات القرن الماضي، من اخويَّ (رفيق ومحمد) ، حيث تنامى إلى علمهما وعلم جيراننا في (البوابة) أن الموقعين، في (شرقي الاردن) ، في حاجة إلى عمال زراعيين لتنفيذ مشروع (لتحريج) تلك المنطقة الجبلية، خططت له الحكومة الاردنية، ....كان موسم الحصيدة في نهايته، وما جنياه منه على وشك النفاد، والموقع الجديد أقرب إلى قفين من (تل شهاب السورية) ، فلماذا لا تُشد اليه الرحال ؟ ؟ ؟ ومن اجل لقمة العيش تهون الصعاب؟ !!

شقاء السنين (٣٨)

كانت (البوابة) مجمّعاً من عدة بيوت قديمة بالية مهجورة، لم يحافظ عليها قائمةً الا ضخامة الحجارة التي بُنِيت بها، في حجم الصخور!غير انها ضمّت عدة عائلات لجأت الى (قفين) في مستهل اللجوء (عام ١٩٤٨م) ، من ام الشوف والسنديانة وقنّير وخبيزة، تحديداً، ..كانت البيوت متقاربة تكاد ابوابها يُطِل بعضها على بعض!وكانت حسنة هذا التقارب المفروض أنّ االعائلات تعارفت وتشاركت في هموم عيشها.

علِم (ابراهيم محمد حمَد) واخوه (احمد) ؟ عن (السروط والعالوك) ، في شرقي الاردن، مثلما علمنا نحن، بحكم تقارب البيوت وسرعة انتقال المعلومات بكل انواعها، فاتفق الاربعة على خوض غمار السفر البعيد للعمل في تلك الجبال الحرجية، اذ لم تكن لديهم فرَص للعمل أقرب او افضل!

تعليم الكُتّاب مبنيٌّ على الحفظ (عن غيب) ، حِفظ كل شيء، من القرآن الكريم إلى الشعر والحِكَم، ويُطلق لسان التلميذ في هذه كلها، ويكسبه استقامةً لا ينال مثلها غيرُه، إن قرأَ أو كتب، او -حتى-ان تحدّث ! ولَعمري إني لَمدينٌ له (للكُتاب) بكل ذلك، حتى اللحظة، فأنا خِرّيج تلك الجامعة، جامعة الكُتّاب، جامعة القرآن الكريم!! قبل تخرجي في الجامعات الاميركية.

لذلك لم أجد صعوبة في السير في الصف الرابع الابتدائي في امور القراءة والكتابة والحفظ، ومادة الدين، وإن واجهْتها في الحساب واللغة الانكليزية، المادتين اللتين لا عهد لي بممارستهما، فالانكليزية لغة غريبة على مثلي، والحساب (الذي كان الشيخ احمد سعيد يسميه-هندي!) كان شأناً ثانوياً سطحياً لا يغْني عن تعليم الحساب ثلاثة صفوف سابقة....ما فرض عليّ تكريس وقت اطْول لهاتين المادتين، في سنة الدراسة الاولى:

اذا لم يكن غير الأسِنّة مركبٌ
فما حيلة المضطرّ الا ركوبها!

وإني لأذكر تلك الليلة (النابغية) التي قضيتها ساهراً باكيًا (والوالدان يألمان) لتعسّر حل احدى مسائل الحساب (وظيفة البيت) ، حتى الفجر، كيلا ادخل الصف بلا حلّ!!

التنافس على المرتبة الاولى من سمات التجمعات البشرية، ومنها طلاب المدارس، ولم تكن مدرسة قفين بِدْعًا من المدارس ولا طلابها ...

يوسف سعيد اليوسف الصباح من ابناء الحارة الشرقية من قفين. كان يوسف (رح؟) ، من اكثر طلاب صفي اجتهاداً، بل اكثرهم بلا منازع. وقد قرر (في عقله الباطن) ان يكون الاول في الصف، لذلك كان لا يدع فرصة لا يستغلها في الحفظ والمطالعة، حتى في دقائق (التنفس) التي تمنحها المدرسة لراحة الطلاب بين الحصص الدراسية! وأُقسم اني كنت أُشفق عليه وانا اشاهده، رأسه في كتاب او دفتر ونحن نتجول في ساحة المدرسة الواسعة، لا يلوي على احد! -ولا اعلم كم كان نصيبه من الراحة في البيت بعد دوام المدرسة-!!

(روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلّت عَمِيت) -ومع كل تلك الجهود الجبارة التي لم يكن لي قِبَلٌ بها-اعترافًا مني-، الا انه لم ييحقق ما كان يصبو اليه على مدى ثلاث سنوات عجاف، فانا (واعذروني على انا) ، بفضل الله وتوفيقه، لم اكن الا الاول في مراحل الدراسة كلها، ابتدائية وثانوية (وان كنت الثاني في امتحان شهادة الدراسة الثانوية، في حينه، في ضفتَي الاردن) ، ولتلك المراحل حديث قادم طويل.

تذكرت يوسف السعيد فذكرته في هذه الصفحة من الذكريات، اعجابًا به، لا لانه كان المنافس الوحيد، بل لانه كان الوحيد في اصراره على المنافسة لتحقيق هدف لم يتحقق، إذ لم يشفع له تعاطف ابن قريته (وقريبه او نسيبه؟) الاستاذ جميل العبدالله، تعاطفًا يستطيع ان يلمحه من كان في موقعي، كما لم يحُلْ الحذاء المخصوف والبنطال المرقّع دون الثبات على المركز الاول في المدرسة:

اذا لم يكن عونٌ من الله للفتى

فأوّل ما يقضي عليه اجتهادهو

منذ طفولتي المبكرة، ابتلاني الله بشعور عامٍّ عارم بالمسؤولية، تملّكني في كل تحركـاتي وكلماهممت بفعل شيء ما

في الاعـوام الاولـى للاحـتلال كانـت حراسـة الحـدود الجديـدة مـا زالـت رخـوة تغـري بالاجتياز ولقد فتحت هذه الرخاوة بابا واسعـًا للتهريـب، تهريـب مـا يحتـاج اليـه (القـوم) ، هناك من مواد غذائية، وخاصة تهريب الابقار من اجل لحومها، ومواد منوعة غيرها.

لـم اكن قد غفوت بعد، عندما سمعتهم يتهامسون في البيـت (الغرفـة الوحيـدة التـي ينـام على مصطبتها كل افراد الاسرة) ، أبي وأمـي وأخـي رفيـق، وبـدا لـي مـن مجمـل الهمـس ان هناك مشروع تهريب (تُمور) عبر الحـدود، موعـد تنفيـذه منتصـف الليلـة، فتململـت تحـت اللحاف المشترك، ثم وقفت وفاجأت الثلاثة بصيحة من كلمة واحدة :ممنوع، ثم انفجـرت في البكاء!!خوفـًا على اخي في المقام الاول، فلقـد سـبقه في غمـرة المناضـلة (احمـد) ، ابـن عمي السعيد الذي قتلوه عبر الحدود بدم بارد، من اجل حبـات قمـح او شـعير او ذرة، ولاني كرهت اي عمل قـد ينتفـع بـه عـدو مجـرم محتـل في المقـام الثـاني واحبطـت الخطـة والتغـى المشروع !

وحتى في دراستي كنت ارى في مخيلتي واستحضرمعاناة اهلـي وشـقاءهم كلمـا حزبنـي امر من امور الدراسة بين ضجر او ارهاق او نحوهما، فتهون معاناتي.

وحتى وانا اقود سيارتي (فيما بعد) ، يتملكنـي شـعور ضـاغط بالمسـؤولية عمـن معـي فيها او من خلفتهم ورائي في البيت او من هم في الغربة، مَن لهم من بعدي، ...شعور يفضـي إلى توتر يلاحظه الاولاد ووالدتهم في اغلب الاحيان!!!!

لا ادري اي سبيل سلك الاربعـة وايـة وسـاطة نقـل اوصـلتهم إلـى المنـاطق الحرجيـة في السروط والعالوك.......

شقاء السنين (٣٩)

لا أعلم كيف وجد الاربعة سبيلهم إلى تلك المنطقة الحرجية في شرقي الاردن، ما بين البقعة وجرش، باسمائها الغريبة على مسامع الذين هم في اقصى الغرب، في قفين وما حولها، كالسروط والمصطبة والعالوك، ...ولا اية واسطة نقل، غير الاقدام، حطت بهم هناك. كل الذي عرفته انهم كانوا يعملون في شئون الزراعة، زراعة الاشجار الحرجية التي، عبر السنين، كسَت تلك الجبال الجرداء بالغابات التي يبهج النفس النظر اليها ونحن في الطريق إلى الشمال، من عمان!

كما لا اعلم كيف واين كانوا يقيمون، ومن اين كانوا ياكلون ويشربون، تلك الشهور الطويلة من عامي١٩٤٩و ١٩٥٠، في تلك الجبال الجرداء (يومئذٍ) ، ...كل الذي اعرفه ان ابا خليل (محمود محمد حمد) ، الذي كانت تقيم اسرته المكونةمن ثلاث بنات وولد وحيد (خليل-رح) ، بالاضافة إلى والدته، في البيت الذي يلي بيتنا (اعني البيت الذي كنا نقيم فيه!) ، وكان عاطلاً عن العمل، لعرجة به، وكان اكبر اخوته، من قرية قنّير، القريبة من ام الشوف، ..اقول إنّ ابا خليل (رح) ، كان يزور الاربعة (رفيق ومحمد واحمد وابراهيم) في مواقعهم في نهاية كل شهر ويعود إلى قفين بالمال الذي جمعوه ويعطي كل ذي حق حقه، وكان ابي (رح) يتولى امر الانفاق على البيت مما يصله من رفيق ومحمد، اولاً باول، ...كان -رحمه الله-يجيد الصرف (الانفاق) !!، على قلة ما في يديه، وعدم مساهمته في التحصيل، اذ كان قابعاً في البيت دون عمل، رغم سلامة صحته، وقدرته عليه، ولعل ذلك عائد إلى دلاله صبياً وحيداً بين اختيه، ثم، لان الله رزقه بخمسة اولاد ذكور، القى اليهم بحمل الاسرة الثقيل!!كل ذلك في الوقت الذي كانت امي (رح) تحمل عبء اسرتنا هذه، دون معين على طبيخ او غسيل او تنخيل طحين او عجين او خبيز او تكنيس (وويل للام التي لا تجد في بيتها بنتاًتساعدها في شئون معيشة الاسرة في الريف) !كانت تقوم بكل ذلك رغم معاناتها من (ربْوٍ) مزمن، تبِعه توسع في القصبات الهوائية، قضى عليها في وقت ؟

مبكّر...كانت، رحمها الله، اوسع حيلة وتدبيراً لشؤون الاسرة من ابي، وكانت كتومة تتحمل الهمّ والغمّ والتعب وضيق التنفس إلى ضيق العيش، وتنفث كل ذلك في دموع كنت اشهدها بنفسي وهي (تعنّ) في غناء هادئ اقرب ما يكون إلى الانين، تتساقط في (لجن) العجين وهي تقلبه ذات اليمين وذات الشمال، لتضمن اختماره في الوقت المنتظر عند الفجر ليتحول خبزا في الطابون لافطار الاسرة بما يتيسّر!!لقد كان اخي رفيق، رحمه الله، وكنت ارى فيه رب الاسرة الفعلي، شديد العطف والتعاطف عليها، فلم يتردد في عجْن عجين البيت عنها مرات عدة، متجاهلاً عُرْف الرجولة السائد لدى اهالي القرى في تلك الايام!!!

موسم قطاف الزيتون وتصنيعه او عصره عُرسٌ او مهرجان في قفين، كلّ تشرين، فالزيت ثروة البلد الوحيدة، فعليًا، كما هو الزيت (النفط) لأهل الخليج ومن على شاكلتهم...البلد محاطة بغابات من شجر الزيتون، بنوعيه، القديم الكبير، ويسمونه الرومي، والحديث الاصغر حجمًا...كل التحركات الاقتصادية مبنية على محصول الزيت في تشرين من سداد الديون إلى شراء الجديد إلى التعمير الى....الزواج!

لم تكن كل مزارع الزيتون (وهم يسمونها عماير) ، ملكًا حراً لأهل البلد، إذ كان كثير منها مرهونًا لاحد مرابيين شهيرين، أعرف اسميهما، احدهما من عرّابة جنين والآخر من يَعْبَد، وعند اقتراب موسم الحصاد تعرض العمائر المرهونة للدائنين على المزاد لضمان الموسم باكبر عدد من (تنَك) الزيت الذي يضمن السداد...ولقد حضرت (فضولاً صبويًا!) احد هذه المزادات في غرفة محاذية لدكان (لمصطفى الحاج ذيب-الذي صار مختاراً في احدى مراحل حياته) ، افتتحه (ابو روحي-من عائلة البرّي من يعبد) ، وكانوا - من باب التزلف والنفاق للاثرياءعلى الدهر!-لا ينادونه الا بكنيته، ما أخفى عليّ اسمه الاصلي في دفتر النفوس!، .....شاهدت في تلك الجلسة كيف يزاود الأخ على اخيه، إرضاءً للمترفين اولي النعمة !وكان ذلك اول مزاد اشهده في حياتي.

عندما يعم الخير لا بد ان تصيب الفقير بعض (شظاياه) ، .كنا، خارج المدرسة، نخرج إلى العمايرالتي تـم قطافهـا، نتبعّـر، أي نلـتقط مـابقي علـى الارض تحـت الشـجر ممـا فـات المالكين جمعُه او رؤيته، وما فاتهم رؤيته وقطفه على الشجر...فيجتمع لنا منه ما نبيعـه إلـى المالكين او اصحاب المعاصر احيانـًا، بقيمته زيتـًا او نقداً بخسـًا دراهم معدودة، كنا فيه من الزاهدين!!!كما كنا في ايام العطل نعمل مـع اصـحاب العمـاير بـالاجرة اليوميـة التـي ننفقهـا على المؤونة او الملبس او الكاز او ....الدفاتر والاقلام.

كان في قفين في مطلع خمسينات القـرن الماضـي ثـلاث معاصـر، تعمـل مطـاحن خـارج موسم الزيت، واحدة في الحـارة الشـرقية يملكهـا اسـعد الـداود الصـباح واخـوه علـي (؟) ، واخرى في الحارة الوسطى وكان يملكها الحاج الوعل مـن كفـر راعـي (أصـلاً) ، والثالثـة في الحارة الغربية ويملكها آل طعمة (ومصطفى الصالح واخوه ؟) ...وكانت المعاصر الثلاث تعمل في موسم الزيتون (كلها) ، دون توقف.

شقاء السنين (٤٠)

حياة القرية لا تعرف الراحة ولا مظاهر الرخاء والترف، فما إن ينتهي موسم الحصاد (الزيتون) ، حتى يبدأ الفلاح التحضير والاستعداد لخدمة الارض والمزروعات من شجر وغيره، بين حراثة وتقليم ورشّ لمكافحة الاوبئة الزراعية. ...وهكذا

كما لا فرق يلفت النظر بين فلاح غني وآخر فقير معسر، في الملبس والمسكن، الاّ ما ندر، عدا عن التفاوت بين الديماية (لبسة الفلاح التقليدية) ، هل هي ماركة (اللحام) ، ام (المسالخي) ، والعقال، اهو (مرعز) ، ام (سنارة) ، وحتى ان كثيراً من (الاغنياء) يحسبهم الجاهل فقراء من بساطة ما يلبسون، زهداً في المظهر او (بخلاً) على النفس (وأُحضِرَت الانفس الشُّحَّ) !!....والفرق الوحيد الذي لفت نظري بين الفريقين يكمن في وفرة زيت الزيتون طافياً على طعام الغني، مطبوخاً او غير مطبوخ، !...وينسحب انطباعي هذا على بقية الاسرة، فاثواب نساء البلد متشابهة في الزي والقيمة، وربما ميّز زوجة الغني شالها الحريري يطوّق وسطها، ومجموعة الاساور الذهبية تطوق معصمها، وما فوقه نحو المرفق (وهو ما لا يرى الا بين النساء والمحارم، ولا نصيب للشارع (الزقاق) منه، بطبيعة الحال، فكل نساء القرية وفتياتها محجبة تقليداً، حجاباً شرعياً عادياً مريحاً بعيداً جداً عن تكلُّف وتكلفة حجاب ايامنا هذه!!

اما الاولاد فلا يتمايزون الا في الحذاء المرقّع الذي لعب فيه (الاسكافي) دوراً بارزاً، اواللباس المرقع، قميصاً كان ام بنطالاً (وهو قصير لدى صغار السن-شورت) ، تتولى امره أُمٌّ لم تنتهِ بعدُ من (تنقية) او تنخيل او عجين او خبيز او طبيخ او....!وذلك محصور في الذين فقرهم شديد!!

اكثر ما يلفت النظر ويتميز به موسم عصر الزيت، الحصول على قطفة مبكرة، قبل نضج الزيتون الكافي، حيث يتخلل الزيت طعم مزيج من الحرقة والحموضة، ويسمونه (زيت طِفاح) ، واشبهه انا -مقارنة-بالسلاف الذي هو عصير العنب الذي لم يُعصر، مع

الفارق طبعـًا، ..وكان أهـل القريـة يتغنَّـون بطَعمـه اذا مـا قَلَـوا بـه وجبـة مـن الزغاليـل (فـراخ الحمام البلدي!! في احتفال ب (مسخَّن، يضرب به المثل!)

اما الميزة الثانية فكانت تتجلى في رغيف خبز القمـح (وحتـى في الكـردوش) !، خارجـًا للتَّو من الطابون، حاميَ الوطيس، تُلقي بـه تحـت (مـزراب) الزيـت في المعصـرة، ليسـتحم بزيت ينصَبّ لحظتئذٍ من فوهة كريمة، في لون (نعانيش شجر القنديل) !، يكاد دفْقُهُ يضـيء ولو لـم تمسسْه نار!!! ....وتُجْهِز عليه في دقائق معدودة، تسـد بـه الرمـق ويغنيـك عـن طعـام بقية النهار، ان تصبحت به قبل رونق الضحى!!!

ما بين ايار ١٩٤٨ وايار ١٩٥٠، ضاق عيش الناس في معظم قرى الضفة الغربية، ...شحّ الرغيف، وقلّ الخير، وندرت العملـة في ايـدي النـاس، وانقلـب الطقـس علـيهم صـقيعـًا لـم يتوقعوه ليستعدوا له، اهلـك الـزرع والضـرع، وفقـد الـزارع زرعـه ورب المواشـي مواشـيه، وكسا وجه الارض ثلج لا عهد لهم به، ما عطّل حياة الناس واربكهم، وجاعوا ولـم يسعفهم الا تمـر العـراق ودِبسـه يقتـاتون بـه....إلى ان اتخـذت هيـأة الامـم المتحـدة في تشـرين ١٩٤٩ قرارها بانشاء وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين غير انها لم تباشـر اعمالهـا قبل ايار. ١٩٥٠.

كان (ومازال) تمويل الوكالة (UNRWA) تبرعات من الدول الاعضاء في هيأة الامم، فميزانيتهـا متأرجحـة، امـا برنامجهـا فيتكفـل بـالتموين والتسـكين والتعلـيم و...التشـغيل، واختارت لها مكاتب ومراكز في عدة مواقع كما انشأت مخيمـات لايـواء العـائلات التـي لـم تجد مسكنـًا تأوي اليه، وهكذا توزع الناس (اللاجئون) ، بين مقيم في منزل ومقيم في مخيم، وان لم تختلف الخدمات الاساسية.

كنا في. (قفين) ، نستلم مخصصاتنا من وكالة الغوث من مركز اقيم في قرية (زيتا) –بين قفين ومدينة طولكرم، من ملابس (للشتاء) ، كنـا نسـميها (بُقَـج) ، وهـي عبـارة عـن كـيس مغلق يحتوي على تشكيلة من الملابس والاحذية والبطانيات منوعة بشكل عشوائي، اضافة

إلى كميات محددة حسب عدد افراد الاسرة من الطحين (الكندي) ، ناصع البياض !، والحليب السائل او المجفف، وزيت (الكوكِز) –وكنا نستلمه جامداً، (وكنت اكره طعمه من الوهلة الاولى، فقاطعته من بين كل افراد الاسرة رغم الجوع (لانه كان الادام الذي نطبخ به) ، وللحق والصراحة فاني نشأت على زيت الزيتون منذ طفولتي، اذ لم يكن له بديل في ام الشوف غير السمن، ولم يكن متوفراً في بيتنا، حيث لا بقر لدينا ولاغنم!، وعزز نشأتي هذه، الاقامة في قفين (قصبة زيت الزيتون) !!إلى يومنا هذا..

لكن هذه الاغاثة لم تكن تكفي كل حاجات البيوت فكان بعضنا يبيع او يقايض بعض حصته مقابل بعض النقد لتوفير حاجات البيت الاضافية....

عشت في قفين تسع سنين، كانت هي صباي، كما عشت مثلها في ام الشوف (مسقط رأسي،) كانت هي طفولتي، مثلما يعيش ابناء القرية، في مواجهة الحر والبرد والحفاء والحد الادنى من الملابس، سليمة ومرقعة، لكنها كانت (خارج الواجب المدرسي) حياة حرة طليقة لصيقة بالطبيعة في كل مزاياها وتنوعاتها، من العاب بسيطة ساذجة إلى خروج إلى المزارع والعماير والوعر، اتفحّص كل ما وقعت عيني عليه او سمعته اذناي من الصغير والكبير، والبعيد والقريب، لاشباع فضول طفولي ثم صبوي جامح بلا حدود، مثلما كان (وما زال) الحاحي على معرفة او قراءة كل ما تصله يداي وتراه عيناي، كانت حصيلته ثروة ثرَّةً من المعرفة والاطلاع، احمد الله عليها على مدار ساعات صحوي و ؟ غفوتي! واني لاكاد اسمع اصداء نداء (محمود سامي البارودي) ، من وراء الزمن، اردد معها :

رُدّوا عليّ الصبا في عصريَ الخالي

وهل يعود سواد اللِّمّة البالي ؟ !

يُخمد تلك الاصداء تشاؤم ابي العلاء المعري :

وما بعد مَرّ الخمس عشرة من صبا

ولا بعد كَرّ الاربعين صباءو!!!!!!!!.

قاء السنين (٤١)

فُرَص العمل في القرية محدودة جداً ومقصورة على اعمال الفلاحة في مواسمها، وعلى القادرين عليها (صحةً وخبرةً)، كالحراثة والدراسة (دراسة الحصيد على البيدر)!، والعزق (النكاشة بالفأس والطورية)، والتعشيب، وقطاف الزيتون (في قفين).،

لم يكن اخوتي الاكبر مني متمرسين في الحراثة، التي تتطلب قوة جسدية وخبرة سابقة، فأكبرهم (ابراهيم)، اخذته الوظيفة في حكومة الانتداب من البلد (ام الشوف)، وعزلته عن ممارسة الفلاحة بكل صنوفها، وفي اجازاته كان يشرف على ديوان المختار (ابو فياض)، يستقبل ضيوف الحكومة، ويقدم لهم القهوة الطازجة، ويربط خيولهم، و (يعلِّق) لها العلف في (مخاليها) ......، وبعد اللجوء، وكان مستقلاً في اسرته، فقد اغتنى عن العمل، مؤقتًا!، بالمبلغ الذي وصله بعد انتهاء الانتداب من (الحكومة البريطانية) على شكل (مكافأة نهاية الخدمة)، وكان قريباً من الخمسين جنيهًا فلسطينياً، بقوتها الشرائية في اربعينات القرن الماضي ...اما (رفيق) و (محمد) فقد خرجا من البلد يافعَيْن لم يكتسبا من شؤون الفلاحة الا القليل، ولا من المؤهلات العلمية ما يسمح لهم بغير العمل اليدوي ......الشاق!

كان اكتشاف الفوسفات في شرقي الاردن صدفة محْضة، اثناء شق الطريق لتثبيت السكة الحديدية للقطار القادم من تركيا إلى المدينة المنورة، عام ١٩٠٨، ذلك المشروع الضخم الذي تبناه السلطان عبد الحميد في اواخر ايام الخلافة العثمانية.....عُثِرَ عليه في الرصيّفة (بين عمان والزرقاء)، ثم إلى الجنوب في كل من الحسا والشيدية، فيما بعد....وفي عام ١٩٥٣ أسست شركة الفوسفات الاردنية، عندما وصل انتاج الفوسفات إلى كميات تجارية، تتطلب عمالاً يحفرون في الارض وينشئون (كهوفًا) في باطنها بعد تفريغها من التربة الفوسفاتية ...وهكذا كانت تلك الكهوف في انتظار القادرين على الحفر في داخلها عمّالاً موظفين باليوم او بالشهر لدى شركة الفوسفات، وكان الاخوة الثلاثة في طليعة الملتحقين بالشركة، قادمين من اقصى الغرب، ثم من (مخيّم اربد)، فيما بعد، ليقضوا

قسطـًا وافيـًا من شبابهم داخـل تلـك الكهـوف، التي تعرضـت داخلهـا اجسـادهـم للرطوبـة، وانفاسـهم ل (التتَـرّب) ، يتخلـل رئـاتهم، ويحـيلهم فريسـة سـهلة للسـلّ، عنـد اول لقـاء محتمل!!!ذلك داخل الكهوف اثناء العمل، اما الاقامة بعد ساعات العمل فكانـت في غـرف هزيلة اقيمت قرب (السيل) الذي كان يتحول إلى مستنقع كلمـا شـحّ المطـر، ينـامون فيهـا مجموعات، يشاركهم فيها بعوض شرس لا يهدأ، ويقضون حاجاتهم بمحاذاة السيل!!

عام ١٩٢٦م، صدر في الاردن مرسوم اميري بتاسيس مديرية مكافحة الملاريـا، ...كـان وزير الصحة يومئذ (رضا توفيق) ، الـذي اسـتلم ابنـه في خمسـينات القـرن الماضـي مكتـب مكافحـة الملاريـا، ....وإبّـان البحـث عـن عمـل، أيّ عمـل، للعـاطلين مـن ابنـاء اللاجئـين، التحق بالمديرية اخي رفيق (وألحق بـه اخي محمـد، حـارس خيمـة عـلى سـيل الزرقـاء في الطريق إلى جرش، في وقت متأخر) .

مكافحـة الملاريـا تسـمية مغلوطـة، فـالاردن لـم يكـن موطنـًا لهـذا المـرض لخلـوه مـن بعوضة (الأنوفيليس) القادرة على احتضان وتغذية طفَيلي مرض الملاريا بعد امتصاصه مع دم المصـاب الملسـوع...وكل الحـالات المكتشـفة وافدة مـن خـارج البلـد، مـن اواسـط آسـيا كالباكستان او افريقيا.....وعليه فالتسمية الصحيحة هي مكافحة البعوض.

تقوم مكافحة البعوض (أينما كانت) ، على ركنين، لا ثالث لهما:تجفيف المستنقعات (المياه الراكدة، مهما كان المصدر) ، ورشّ تجمعاته بالمبيدات الحشرية المناسبة، ...ولما كان الاردن من افقر بلاد العالم بالماء لشُحّ المطـر، كانـت المسـتنقعات محصـورة في وادي الاردن وأغواره من (المخيبة) عند وادي اليرموك في اقصى الشـمال إلـى غـور (نمـرين) و (نعجة) في أقصى الجنوب، وكان على (رفيق) ، ان يستعد للوظيفة الجديدة بمـا تتطلبـه مـن جهد ومشقة في حرّ الاغوار الشديد.

أسوأ ما في اعمال التجفيف (كما روى لي كلما حضر) ، رَشْق المياه الآسنة في وجهه مع كل ضربة فاس او (طورية) لاقتلاع نبتـة او تجريـف عـائق في مجـرى المـاء، لا لأنـه يلـوث

الملابس، إذْ لم تكن مما يؤسف عليه او على نظافته، ...بل لأنه يحجب الرؤية الواضحة لمواصلة العمل ...المُضْني!!!كأنَّ تصبب عرق الجبين لم يكن كافياً.....ليأوي بعد كل ذلك العناء إلى خيمة او كوخ مهلهل لا يقي من حرٍّ ولا برد ولا.....بعوض!!!

ومرةً اخرى، لا نملك الا ان نردد مع الياس فرحات:

نغرّب نحو الرزق وهو مشَرّقٌ

وان نحن شرّقنا نراه يغَرّبو

ونشرب مما تشرب الخيل عادةً

وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشربو

نبيت باكواخ خلت من اناسها

وقام عليها البوم يبكي وينعبو!!!!!

شقاء السنين (٤٢)

ثمرات الفاقة والبطالة

لا بد من التوقف عند اربعة مظاهر من حياة الناس في قفين خارج العمل اليومي التقليدي في العماير وما حولها:

الاول لعب البنانير وكان مقصوراً على الاولاد في سن الدراسة واليافعين، اذ كانت هذه اللعبة الوعاء الوحيد الذي يستوعب فراغهم في العطل الاسبوعية والصيفية، ولم تكن مكاسبها ذات بال إذ كانت مقصورة على البنانير في الربح والخسارة.

اما الثاني فكان صيد العصافير الذي كان فرصة لكسر النمط الروتيني التقليدي في المطبخ بادخال مادة اللحم إلى البيوت الفقيرة التي لم تتوفر لها حتى مادة بيض الدجاج الا لماماً.....ولم يكن مقصوراً على عمر معين باستثناء كبار السن غير القادرين على المشي الحثيث والجري السريع للانتقال من موقع إلى موقع لملاحقة العصافير من شجرة إلى اخرى او من عمارة زيتون إلى اخرى...غير ان مواطن الصيد اختلفت عما كان مالوفاً في ام الشوف باختفاء الحقول الملساء الواسعة والوديان ومياهها الضحلة، فاختفى الزرعي والكُرَّغ مثلما اختفى الكركِس واختفت اللاميّات باختفاء البيادر الممتدة، وانحصر الصيد في طيور الاشجار والشجيرات الحرجيةمثل (ابو حمار) وصِنوه المزركش (البُرَّق) والشحيتيات ذات الذيل الاحمر إضافةً إلى ديوك السمَّن ونسختها السوداء (السُّوَّد) في فصل الشتاء، هذا إلى نوع غير مالوف لي قبل قفين هو (الفِسْفِس) ، حجمه اكبر بكثير مما يوحي به اسمه، يكثر بين الشجيرات الحرجية في عمائر الزيتون متنقلاً بين الاغصان وقلما يستقر على الارض، ولذلك اخترع احد ابناء الحارة الشرقية فخا من اغصان الشجر سمَّوه (الشراك) كانوا يعلقونه على الشجر ليتمّ الصيد في موقع العصفور....

واما المظهر الثالث فكان (مطاقشة) البيض التي راجت فترة من الزمن في قفين وشملت كل الاعمار واتخذت ملامح القمار بحيث يستولي الكاسر صاحب البيضة

الاصلب على بيضة الخصم المكسورة!!كانوا يفحصون صلابة البيضة بدقها على الاسنان العلوية الامامية ويختارون الموقع من البيضة الذي سيتم النقر عليه بالبيضة الاخرى والجانب الذي ينقر به الخصم المراهن، ان كان رأس البيضة ام (عقبها الاقل بروزاً) ، فقد يتم الصدام (رأساً على عقب) أو راساً او عقباً على مسحة (اي جنب البيضة،) فان كان الاقرب إلى الراس سموه مسحة راس وان كان اقرب إلى العقب سموه مسحة عقب، هذا، ويحق للخصم فحص بيضة خصمه للاطمئنان إلى الرهان، وهكذا!!!!

اما المظهر الرابع فكان لعبة (السّيجة) ، يلعبها كبار السن ويشاهدهم المتطفلون الاولاد (امثالي) !!

تشبه لعبة السيجة لعبة الشطرنج ولكن بتبسيط شديد فلا ملك ولا وزراء ولا جنود فالكل جنود! ...كانت ارضية اللعبة من تراب البيدر. بدلاً من الخشب ...كان في الحارة الشرقية بيدران مفصولان بالبيوت، وكانت المبارزات تقام في البيدر الغربي المُطِلّ على دار (ابو هدْبا) ..لكل من الخصمين المتقابلين سطران من العيون الترابية التي تنشأ بتحريك التراب بالاصبع وفي كل عين اما حجر صغير (صرارة) او (بعرة حمير) !!!قديمة شديدة الجفاف، وللخصم ان يختار احد اللونين جنوداً له في سربيه اللذين في جانبه، وبين الصفوف المملوءة، في وسط اللوحة الترابية صفان فارغان للهجوم...أغرب ما شاهدته في لعبة السيجة ان الخصم يهدد خصمه (منبهاً) ان جنديه تحت الخطر إن تحرك إلى عين من العيون لقتل جندي خصمه!!...كان (ابو علي) ، من قرية السنديانة، شيخاً كبيراً متقاعداً متفرغاً للعبة حاذقاً فيها حيث لم اسمع انه خسر ولو جولة واحدة!!

في الصف السادس، اصبح الاستاذ علي الساعد مديراً بدلاً من الاستاذ حسني نجيب حمدان، الذي نقلوه إلى مدرسة اخرى.كان علي الساعد من قرية (باقة الشرقية) التي تبعد حوالي خمسة عشر كيلو متراً إلى الجنوب من (قفين) ، في اتجاه مدينة (طولكرم) .كان متأنقا في هندامه حريصاً على لبس الحطة الناصعة البياض وعقال (السنارة) المتميز، هادئاً

خفيض الصوت قليل الكلام جميل الخط.وقد تعلمت منه الحرص على (همزة القطع) في أوائل الكلمات كتابةً (بتثبيتها على رأس الألف حيثما وُجِدت) ، لتمييزها عن همزة (الوصْل) التي لا ضرورة لظهورها في رأس حرف الألف...هذا بالإضافة إلى أمور أخرى.

لم يكن في مدرسة قفين صف سابع مثل بقية مدارس قرى قضاء طولكرم التي كانوا يسمونها (الشعراوية) ، كقرى (عتّيل) و (زيتا) و (عِلّار) و (دير الغصون) و....وكانت (عتّيل) أقربها إلى قفين.

لم تكن الرغبة والنية في استئناف دراستي موضع بحث، وإن كانت محفوفة بالعقبات، وأولها العقبة الكبرى:المال!

استعد أبي (رحمه الله) لمرافقتي إلى (عتيل) لتسجيلي في الصف السابع، معتقداً أنّ علاماتي وترتيبي في نهاية الصف السادس يشفعان لي ويمهدان الطريق نحو قبولي الفوري، غير أنّ ذلك لم يحدث!

لا أدري حتى اللحظة لماذا اعتذر مدير المدرسة يومئذ (حسن محمد عبد الرحمن، من بيت ليد) ، عن قبولي بحجة عدم توفر شواغر، إلا إذا (فصّلنا) مقعداً جديداً لهذه الغاية!!!

شقاء السنين (٤٣)

لم يستسلم والدي لليأس حِيال رفض تسجيلي في الصف السابع في عتيل، ولا ثنتْ عزمه العقبات التي وضعتها ادارة مدرستها في وجهه، امام قناعته باستمرار دراستي، وان كان ذلك الفلاح البسيط الذي لم يملك من متاع الحياة الدنيا الا النزْر اليسير، ومن التعليم إلا ما كان يحفظه غيبًا من سوَر القرآن الكريم الذي اكتسبه من كُتّاب القرية (كُلّية علوم البلد) !!ألم يكن يرسل ابناءه الأكبر مني، قبل اللجوء، على ظهور الدواب، إلى قرية (كفر قرع) ، حيث تقيم (تقِيّة) ، ابنة عمه (سعيد مصطفى شناعة) ، لمزيد من التعليم، بعد الكُتّاب، رغم سخرية (عمه) المختار بقوله:شو بدو يطلع منهم (ابوكاتو) ، أي محامٍ!

كما أنّ الذي عزّز عزمه زوجة لم تنعم باكتمال العافية من (رَبْوٍ) لازمهاطول عمرها، بلا علاج، ولا بالراحة الا في النوم، ...وابناء فُرضت عليهم الغربة المبكرة، وضاع شبابهم في الجبال الوعرة وتجفيف المستنقعات وكهوف الفوسفات، من أجل دراهم معدودة!....فلجأنا إلى الوساطة!

علمنا في حينه أن أحد رجال بلدتنا المحترمين لجأ بعائلته إلى (عتيل) ، قبل ان يستقر في (طولكرم) في نهاية المطاف، هو الوجيه (أحمد المحمود الصباح-ابو توفيق) ، فقصدناه ليتوسط لدى أحد وجهاء عتيل، فأرشدنا الى (ابو سهيل القَصَص) ، الذي كان وجيها في قومه، معروفًا في بلده، فارع الطول، ممتلئ الجسم، تَشي مشيته ونبرة صوته بثقته بنفسه....كان توفيق معلم مدرسة خارج (ام الشوف) قبيل احتلالها، فظل مكانه، وحِيل بينه وبين اهله، وتزوج حيث كان وتوفي بعيداً عن اهله، ..فرافقنا إلى دار ابي سهيل اخوه (جمال) ، بعد الضيافة، ....وما زلت اذكر تعليق جمال، ونحن متجهون إلى بيت (أبي سهيل-الواسطة) ، وقد لفت نظره رداءة حذائي، بقوله: كأنّ يونس بلا حذاء!خشية الحرج لدى الواسطة، لا ازدراء لوضعي !!

كان (ابو سهيل) ، كما وصفتُه، شهماً واثقا بنفسه، فامتلأ حماساً بعد اطلاعه على سجلي المدرسي، واستشاط غضباً على ادارة المدرسة، فوعدنا خيراً، وتوجه إلى المدرسة وعدنا إلى بيت العم (ابي توفيق) ، لنعلم بعد لأْيٍ بموافقة الادارة على قبولي وتسجيلي بلا مقعد جديد!!!هذا بعدما سمعَت منه عتاباً على موقف المدير ونائبه (صبحي البلعاوي) ، يصل حدّ التوبيخ على رفض طالب بهكذا سجلّ، يُعْلي من سمعة المدرسة!!

وهكذا (عُدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر) لنواجه المعضلة المالية.

لا شيء في هذه الحياة اقسى من ضيق ذات اليد -عبارة طالما كررتها على أسماع ابنائي بعدما بلغوا سن الرشد (وأسأل الله ان لا يمارسوه يوماً في حياتهم من بعدي!) ......من أين نأتي بالمال لشراء الكتب والقرطاسية اللازمة للصف السابع، بعدما اشترطت علينا الادارة ذلك (بدلاً من إعارتنا كتب العام الماضي، شأْن كل المدارس) ، وكيف نواجه قضية المسكن والمأكل والسفر!إلى عتيل والعودة منها في نهاية كل اسبوع؟ ؟ وهل هناك من يُدينك، والفقر يشمل كل الناس، حتى (اغنياءهم!!) ، وقد تخلى عنك أقرب الناس اليك؟؟

وقال كل خليل كنت آمُلُه

لا الهينَّك، إني عنك مشغولو !!!

كانت مكتبة (ابو زيد) القرطاسية مرجع طلاب مدرسة عتيل (وكان لها فرع في مدينة طولكرم) ، فقصدناها في معيّة الوجيه (ابو العبد الوتد-ولعله اصلاً من قرية جَت التي التحقت بقرى المثلث طبقاً لاتفاقية رودس عام ١٩٤٩) ، لشراء الكتب الجديدة بكفالة ابو العبد ورَهْن ساعة الجيب التي كان ابي يتباها بها وهو يخرجها ويضغط زمبركها افقياً ليفتح غطاءها لتحديد اوقات الصلاة بالتوقيت العربي الذي تغيب فيه الشمس تمام الساعة الثانية عشرة على مدار السنة!..وقد ورثها عن ابيه.

في اوائل خمسينات القرن الماضي راجت تجارة النحاس وارتفع سعره ونودي في ازقة البلد (قفين) لشرائه، مثلما راجت تجارة الفحم في اواخر الاربعينات، وعظام الرمَم من قبله، فانتبهت للأمر، أُمّي، رحمها الله، واقترحت على ابي بيع اكبر قطعتي نحاس في البيت (لقن الغسيل وطنجرة طبيخ) كان لا بد من الاستغناء عنهما لما هو أَوْلى

شقاء السنين (٤٤)

مكَّنتنا (صفقة) النحاس المنزلي من فكّ رهان ساعة جيب ابي، ودفع الرسم المدرسي، والحصول على الكتب المقررة (الجديدة!)، والدفاتر اللازمة للمواضيع المختلفة، غير أنه بقي امامنا ثلاث عقبات:المواصلات من قفين الى عتيل، صباح كل سبت وظهر كل خميس، والمسكن (المأوى) في عتّيل، والتموين اليومي.

كان باص الشيخ رشيد واسطة النقل الوحيدة على خط (قفين -طولكرم)، ينطلق كل صباح من امام دكان (ابراهيم الاسماعيل) المطل على بيادر الحارة الشرقية، ماراً بالنزلات (نزلة عيسى ونزلة دبور) -وهما تجمعات سكانية صغيرة-الى (باقة الشرقية)، إذ انّ الغربية-ومن غربها قرية (قاقون) -التي منها آل (ابو هنطش) -اصبحت محتلّة.حيث يمر من منتصفها، متجها جنوبـًا ماراً بعيداًعن (زيتا) الى الغرب و (عِلّار) الى الشرق، ثم (عتيل)، ماراً بمحاذاة مدرستها، صعوداً الى (دير الغصون)، ماراً من وسطها، ثم نزولاً ماراً من وسط (شويكة)، ضاحية مدينة طولكرم الشمالية، فمدينة طولكرم....في رحلة تُجاوز الساعة، عدا عن التوقف الحتمي في المحطات المذكورة، فليس كل المسافرين قاصدين طولكرم بالضرورة، رحلة معاناة للسائق والركاب، فالطريق ضيقة لا تكاد تتسع لاكثر من سيارة، معبدة تعبيداًقديمـًا في عهد الانتداب البريطاني، غنية بالحفر والمطبات التي تنتظر الصيانة!!!يضاف الى معاناة القيادة صعوبة تشغيل الباص معظم صباحات الشتاء الباردة لضعفٍ في بطاريته و (مُوَلِّدها) ما جعل معاون السائق يلجأالى تشغيله ب (المنويل) الذي لا يقدر على استعماله الا فتى قوي الجسم عبْل الساعدين، يلفّ المقبض بعنف فتشعل البطارية المحرّك (وكانت هذه الحركة تسمى تعشيقة!)

(كان سائق الباص (نمر ابراهيم ابو اعْمر-ابو ابراهيم) -رحم الله الجميع-، من اهالي قفين، اما الشيخ رشيد -مالك الباص-فكان من (الطيبة-بني صعب-)، ففي فلسطين كثير من (الطيِّبات!)، كانوا يدعونه الشيخ، لسبب لا اعرفه، فلا هندامه يدل على المشيخة، إذ لا

عمامة ولا جبة او دشداشة، ولا لحية، ولا المفردات التي يكثر من تداولها الشيوخ!كان يقيم في عِلِّيّة مُطلة على النصف الشرقي من بيادر الحارة الشرقية، تابعةلدارة (خضر الحسن الجعيدي) ، المكونة من عدة بيوت تحيط بساحة من عدة دونومات من الارض المرصوفة التي تصلح ان تكون ملعباً!

كان الشيخ رشيد متفهماً لاحوالي المادية والمدرسية فلم يكن يتقاضى مني اجرة ركوب الباص كل سبت او خميس، من والى قفين، شريطة ان اظل واقفاً طول الرحلة الا اذا شغر مقعد، وكان ذلك نادر الحدوث، ما جعلني اغبط (او احسد؟) الركاب الجالسين وارقب خريطة الباص طول الرحلة لعل مقعداً يشغر فأرتاح فيه!!

ولعله من سخريات القدر أن يقصد عيادتي في عمان في يوم من ايام تسعينات القرن الماضي، مريضاً، أحد أحفاد الشيخ رشيد، فأسدي اليه بعض إحسانه!

أما (ابو ابراهيم) ، السائق الفاضل (حقاً) ، فقد لقي حتفه غرقاً في معية ثلة من الركاب، كان من بينهم الشاب الفتى (محمد خضر الجعيدي) ، يوم اعترض الباص سيل جارف في الوادي الواقع بين دير الغصون وعتيل عام١٩٥٧، بُعَيد التحاقي بالجامعة الاميركية في بيروت!!

التحق بالصف السابع في عتيل، اثنان من ابناء صفي السادس، هما (عبد اللطيف سلمان النذير) من قرية (قنّير) ، وكان والده صهراً ل (محمد الحمد-قنير) في زوجة ثانية!اما الطالب الثاني فكان (فضل توفيق حمد) من الحارة الغربية من (قفين) ، فاستأجر ثلاثتنا (خُشّة) في مجاهل أحد الازقة في (قلب عتيل) ، لرجل عجوز كان يتولى شؤونه ابن اخته الشاب، الذي كان همزة الوصل بيننا (وكم كان يتردد علينا ويفرض علينا الاستماع اليه يغني لحن-المُعنّى بصوته الأجشّ!!)

كانت الخشة منخفضة السقف وبلا تهوية، لا تكاد تتسع لثلاثتنا، مزودة ب (حامل) نرتب فيه فراشنا، وكنا نضيؤها ب (سراج) في حجم قبضة اليد، مزود بالكاز االذي (ألفنا) رائحته، كما أَلِفنا رؤية (الشحار) يتدفق من انوفناعند غسل الوجه كل صباح!!!

لكن تلك (النعمة) لم تدُم، إذ انقطع زميلاي عن الدراسة، واصبحت وحيداً لا قِبَلَ لي ب (نفقة المسكن) -على بساطته-، فما العمل؟

شقاء السنين (٤٥)

لم تطل محنة السكن، فلقد علم الشيخ (ابو جراب) ، من اهالي (عتيل) ، بحاجتي الى مسكن، كما علم بحسن أدائي في المدرسة، اذ كان ابنه من زوجته الاولى في الصف السابع، فتبرع بايوائي في ركن من داره الواسعة.كان الشيخ (رح) في منتصف العمر، يلبس ما يشبه (دشداشة) هذه الايام، ملتحياً لحية شقراء منسابة، معتجراً عمامة خفيفة، وله دكان على مستوى اقتصاد القرية، يعيش منه ويقصده كبار السن والعاطلين عن العمل الذين يجيدون ادعاء المعرفة ويندبون حظهم العاثر، ف (يتحركشون) بابناء المدارس (امثالي) ليثبتوا جهلهم !بأسئلة لا طائل تحتها غير إحباط الطالب وانتشاء هؤلاء.وما زلت اذكر ذلك الرجل النحيل الذي كان زبوناً دائماً في دكان الشيخ، بضاعته (حزازير) غامضة، الى مباهاة بمعرفة كثير من مفردات الانجليزية والعبرية يدمجها في بيت من الشعر، أسمعني إياه في دكان الشيخ حدّ الملل:

قل للجفيرتِ أن تجيءَ بسرعةً

قل للمدامِ to come here في الحالِ

واحياناً يضع جملة (toابو هنا) بدلاً منcome here)) ، شارحاً معنى (جيفيرت) انه السيدة او الفتاة في العبرية، و (بو هنا) أي (احضرْ) ، بالعبرية ايضاً....!وهكذا يستحوذ على الجلسة والحضور فيما لا يجدي، غير تزجية الوقت!..ألم أقل لكم انه.....عاطل.....عن العمل!!!!

ولعل امثال ذلك الرجل كثيرون من (قليلي الحيلة) الذين (ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا) .....هذا عن زبائن الدكان، اما عن الشيخ فلقد لمست حجم المعاناة ونكد العيش الذي كان يلاقيه وهو يبذل جهداً مضنياً للتوفيق بين زوجتيه، شأنَ معظم ازواج الضرائر! (ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل...الآية) !!

وهكذا انهيت السنة الدراسية في دار الشيخ (ابو جراب- رحمه الله واثابه على خير لم اتمكن من مبادلته بمثله!.

بقيتْ مسألة (كما يقول الفقهاء!) ، هي تأمين التموين.

لم تكن فكرة وجود مطاعم معروفة ولا مألوفة في القرى الفلسطينية تحديداً، اما المقاهي فحدّث ولا حرج، فهي لم تكن تتطلب غير المذياع يبث الاغاني الشعبية وغيرها، ومجموعة من كراسي (الليف المجدول) وصنع الشاي (والقهوة احيانـًا) ، يومئذ...هذا، علاوة على أن ارتياد المطاعم ترفٌ لم أعهده، حتى يوم توفرت المطاعم في طولكرم في المرحلة الثانوية....!وعليه فقد تم الترتيب ان تصلنا مؤونتنا اليومية مع باص الشيخ رشيد، يتسلمها كل صباح (راغبا او كارهـًا!) في ثلاث سلال، يوم كنا ثلاثة، ثم في سلة واحدة لي، بعدئذ، ويتم استلامها عند موقف الباص في عتيل وبمحاذاة المدرسة التي اقيمت على قارعة الطريق الرئيسي الذي يصل عتيل بقرى الشمال والجنوب وصولاً الى طولكرم.كنت استلم سلتي في (تنفّس) ما بعد أول حصتين، ان تزامن مع وصول الباص، أو يتولى ذلك (محمد ابو عايشه) ، بواب المدرسة ذو السحنة والشاربين الشقر، رحمه الله؟

أما السلة فكانت تحتوي على ما يكفي مما تيسر من طعام الى فطورالْيَوْمَ التالي، من مواد (غذائية) لا تتطلب حماية من العطب بالتبريد المفقود، إذ لم تكن الكهرباء مألوفة ولا معروفة في الريف يومئذٍ.لذلك كان الرغيف هو العمود الفقري، بل الهيكل العظمي للتموين، (مكسُوًّا بما توفر من أدام) فحسْبُ ابن آدم لُقَيماتٌ يُقِمن صلبه!

شيدت مدرسة عتيل على مساحة واسعة من الارض المنبسطة عند بداية سهل فسيح يمتد امامها غربـًا صوب البحر، وقد اتسمت غرف صفوفها السبعة بالبساطة والمتانةالحجرية والاتساع، ..المباني هي الاقرب الى الشارع العام وفي الساحات الممتدة امامها ملاعب كرة القدم وكرة السلة والكرة الطائرة..

كانت الهيأة التدريسية مؤلفة من عدة معلمين، أذكر منهم مدير المدرسة المذكور سابقًا، حسن محمد عبد الرحمن، من بيت ليد، وكان يعلمناالعربية، وصبحي البلعاوي، نائبه، وكان يعلمنا الدين بشكل سطحي مملّ يعتمد على الحفظ الخالي من النكهة، وخصوصًا معاني المفردات القرآنية، ...يحمل بين يديه تفسيرالبيضاوي، ماشيًا بين المقاعد، يقرأ الكلمة ونحن نعطي المعنى، بالدَّور! وبقدر ما كان المدير نحيفًا كان نائبه سمينًا!......ومحمد الطاهر، من كفر اللبد، وكان معلم الرياضيات بامتياز، وجمال الناطور، من قلنسوة، وكان يعلم الانكليزية ويحب لعب الرياضةبانواعها...ومحمود البلعاوي وكان معلم العلوم، شديد بياض البشرة، احمر الخدين، رياضيًا مثل جمال، واذكر اني تعلمت منه (انه لا يوجد في العالم لون أسود، من وجهة النظر العلمية في كيفية تكوين الالوان، وأنّ الاسم العلمي للصدأ أُكسيد الحديد) ...ومعلم الزراعة الذي ضاع عني اسمه في منحنيات الذاكرة، كان من قرية (جيت) ، تلقاءنابلس، وكان يصرّ على لبس الكوفية والعقال والقمباز، وكانت نظاراته السميكة جداً لا تفارق عينيه...ومثله، في كثير من الاحيان، كان الاستاذ احمد علي السيد، الذي كان خطاط المدرسة، وكان يخطط لوحات تحمل عبارات وطنية يعلقها في الصفوف، اذكر منها (يا شباب المملكة، هدفنا البحر) ، وكان من عائلة (السيد المعروفة في عتيل) ...

اما زملائي في الصف، فاذكر منهم حكمت العتيلي، وكان يحب درس الرياضيات (وإن اصبح شاعراً في شبابه البعيد!) ، وكانوا يسمونه (أنور) ، ايضًا، على غرار اسم اخيه الاصغر منه (منير) الذي لا اعرفه، ....ومحمود عبد اللطيف فارس، وكان ذا خط جميل باللغتين، وكان من عتيل، غير اني اظن ان جذوره من عزبة (ام خالد) غربي عتيل، وعيسى احمد عيسى، من (عين غزال) قضاء حيفا، وعفيف العتيلي، ابن امام المسجد الشيخ عبد الرحمن العتيلي، وكان اكبر ابنائه الاستاذ راتب، واحمد شفيق الملاّك وتوفيق خربط، وآخرون غيرهم، لا ينقص من قدْرهم عجز ذاكرتي!

وكما هو معتاد ومتوقع، فقد ارتفعت حرارة التنافس على المراتب الاولى في الصف السابع، من الشهر الاول من العام الدراسي، واهتزت خريطته ليعاد رسمها من جديد!

كانت الدرجة الاولى في الصف السادس المنصرم، مقصورة على اثنين يتبادلانها بين الفينة والفينة، وبصورة تقليدية مفروغ منها، هما (عيسى احمد عيسى) و (محمود عبد اللطيف فارس) وكان (حكمت) ينافسهما على موقعهما ويكتفي بالذي يليه، ....الى ان اصبحت ُلاعباً جديداً في الحلبة....

شقاء السنين (٤٦)

كان لترتيبي الأول في الفصل الأول من العام الدراسي١٩٥١/ ١٩٥٢ في الصف السابع في مدرسة عتيل، صدى واسع في اوساط المتعلمين والمعلمين على حدٍّ سواء، حتى انّ (أحدهم) لم يُخْفِ عدم رضاه، وكان معلماً ناجحاً، في عبارة لم تفارق ذاكرتي، ولا شعوري بالغربة والوحشةو.....الوحدة، (شو يا قفيني-نسبةً الى قرية قَفّين، التي انتقلت منها، وإن لم أكن منها-...جايي توخذ الأولى منّا؟ !) ...قالها يومئذٍ بلهجة مازحة معجونة منكّهة بالجِدّ!

ذلك ان الترتيب السابق في الصفوف الادنى كان مألوفاً للطلاب والمعلمين، حدّ التقليد النمطي، فلم استغرب صدور وجود تلك المشاعر الاستنكارية، التي ما لبثت ان تلاشت تدريجياًبعدما استمر الترتيب الجديد حتى صار مألوفاً

كنت في الملعب في فرصة الحصتين عندما دُعيت الى احد الصفوف التي فُرِّغت خصيصاً للالتقاء بي، والتحقيق معي من لجنة مؤلفة من شخصين جاءا من (تربية نابلس) ، تحقيقاً دار حول الظروف المادية والمعيشية القاسية التي أوجبت بيع نحاس البيت للتسجيل في الصف السابع، وشراء كتب مقررة جديدة، بدلاً من إعارتها، وعن موقف مدير المدرسة المتشدد حيال كل ذلك!كانت إجاباتي صريحة مشحونة ببراءة الأطفال وسذاجة الأغرار....لم أعلم ماذا جرى بين تلك اللجنة وادارة المدرسة، وان لمست منها اهتماماً زائداً بي، وتقرباً مني، لم يكونا مألوفين من قبْل!

كما لم اعلم من كان وراء حضور تلك اللجنة من مديرية تربية نابلس، فانا لم اتقدم بشكوى، ولا عرفت يومئذ كيف (يشكون) ، ...لكنّ (جمال الناطور) وزميله (محمود البلعاوي) ، سألاني في الاسبوع التالي عما دار في الاجتماع، وفرّغت لهما كل شيء!واستغربت في نفسي لماذا هذان المعلمان بالذات دون غيرهما، على علم بظروف تسجيلي..ولقد تبيّن لي فيما بعد، انهما، وكانا متّحِدين في موجة واحدة تتقاطع مع موجة

الادارة، ولعل أدائي في المدرسة، وحبهما لي، ومعلومات التقطاها عندما تعسّر تسجيلي، حفزاهما الى تقرير رسمي كان وراء حضور تلك اللجنة.

في منتصف العام الدراسي قررت الادارة اقامة مهرجان دعت اليه وجوه اهالي عتيل، وكان مزيجاً من الشؤون الاجتماعية والمادية التي تخص طلاب المدرسة، والشأن الوطني بامتياز....أُلقيتْ في الجمع كلمات (منها كلمة للاستاذ صبحي البلعاوي، ناشد فيها القادرين ان يتبرعوا لابناء البلد في شتى الصفوف، الذين لا يجدون ما ينفقون، ويأتون الى المدرسة (بقلوب كسيرة- وهذه عبارته، ولعل النص من عمل المدير الذي كان اديباً وشاعراً بامتياز) ...

لم أُفَوِّت فرصة المهرجان، فمنذ علمت بنية عقده، تقدمت الى القائمين عليه برغبتي في القاء قصيدة من نظمي، لأول مرة، تتناول الهمّ الوطني الذي كنا (وما زلنا) نعيش كل ساعاته يومئذ، اذ كان الجرح نازفاً، وهو ما زال ناغراً،، فوافقوا-بعد لأْيٍ- فالقيت قصيدة من عدة ابيات، كان مطلعها الساذج:

اني ليحزنني، والكل يحزنه

وضع العروبة مما كاد اهلينا.....الخ

ذلك اني تعرفت الى بحور الشعر وزناً وقافيةًقبل ذلك بعامين، يوم عثرْت على كتاب قديم اصفر الورق، بلا غلاف ولا عنوان، وقد فقد الكثير من اوراقه، من الجانبين، يحتوي على شؤون متقدمة من النحو والصرف والعروض (والعروض مادة تقرر هي والبلاغة في الصفوف الثانوية المتقدمة) ...كان ذلك في احد دكاكين الحارة الغربية من قفين، حيث كان يستعمله صاحب الدكان يلف باوراقه ما يبيعه من (التسالي) كبذور البطيخ والحمص (القضامة) ، فطلبته ولم يمانع في اخذه، ولما كانت العربية تسري في عروقي منذ طفولتي، فقد وجدت في الكتاب خيراً كثيراً، حيث حفظت كل بحور الشعر واوزانها وقد صِيغ كل بحر في بيت من الشعر على وزنه،، يذكر اسم البحر في صدر البيت وتفعيلاته في العجُز، فالبحر الوافر مثلاً، جاءت صياغته هكذا:

بحور الشعر وافرها جميلو

مفاعلةٌ مفاعلةٌ فعولو

في ذلك المهرجان تعرفت الى احد مخاتير عتيل،، لعله من آل عمّوص. كان رجلاً قصير القامة، في عينيه بعض انحراف.. كان يبحث عني في الجمع، ليتعرف الى هذا (القفيني) الذي استحوذ على الدرجة الاولى (مِنّا!)

لم اتعرف الى عائلات عتيل، وما كان اكثرها، وان عرفت اسماءها من بعيد او من اسماء ابنائها في المدرسة، كالعتيلي، وابو جراب، وربيع، والوتد، والسيد، والعموص، والعالم، والكفري، وخربط، والملاك، والقصص، وابو عايشه ووو، ذلك لاني على مدى عام دراسي كامل، لم أشأ ان أملأ (فراغي!) بغير الدراسة، لاقضي نهاية الاسبوع عند الاهل في قفين، ولأنّ أحداً لم يعرض علي زيارة عائلية، رغم العلاقة المدرسية الدراسية

أمّاالهيأة التدريسية، فكان أقربهم مودةً (جمال الناطور) ، واظن انه كان بعشيّ الولاء أو الانتماء، إذ لم تكن عيوننا نحن التلاميذ قد تفتحت بعدُ على الحياة الحزبية مثلما وجدناها تنتظرنا في المدرسة الفاضلية في مدينة طولكرم في الاعوام القادمة!.....وما زلت اذكر سؤاله لي في احدى الحصص الدراسية، ان كنت أؤيّد النظام الملكي او الجمهوري عمومـًا، حيث فضلت الملكي، ولما اراد مني المزيد لتبرير جوابي، أشرت الى موجة الانقلابات السورية التي شغلت الرأي العربي العام، من حسني الزعيم الى سامي الحناوي الى اديب الشيشكلي!كل ذلك كنت اسمع عنه في صباي، رغم ندرة المصادر و...بُعدي عنها، جريدةً كانت ام مذياعـًا.

انتهى العام الدراسي، وحافظت على مركزي الاول، لنستعد للمرحلة الثانوية، ونبتعد عن البيت اكثر، الى مدينة طولكرم، الى المدرسة الثانوية -الفاضلية-الوحيدة لكل ابناء القضاء

شقاء السنين (٤٧)

كانت المرحلة الثانوية الحكومية في أوائل خمسينات القرن الماضي محصورة في المدن، ففي لواء نابلس كانت في نابلس وجنين وقلقيلية....في طولكرم، كانت المدرسة الفاضلية للبنين، والعدوية للبنات، وفِي نابلس كانت الصلاحية للبنين والعائشيةللبنات، وكانت مدرسة جنين الثانوية، والسعدية في قلقيليه، ...وكان على هذه المدارس ان تستوعب اكبر عدد ممكن من خريجي المرحلة الابتدائية، ممن تؤهلهم علاماتهم، ويرغبون في متابعة دراستهم، من أبناء قرى اللواء، والقضاء، وذلك يعني أبناء عتيل وزيتا وعلار، ودير الغصون، وشويكة، وعنبتا، و...هذا عدا عن المدرستين الخالدية والعمرية ضمن مدينة طولكرم.

نُمِيَ الينا في قفين ضرورة التثبُّت من معرفة إن كان اسمي بين اسماء الطلاب المرفوعة الى الوزارة للالتحاق بالمدرسة الفاضلية الثانوية في الصف الثانوي الاول...كان نظام التعليم حتى تاريخه يقتضي وجود سبعة صفوف ابتدائية واربعة ثانوية....الغت الوزارة الصف السابع فور تخرجنا منه، واصبحت المرحلة الابتدائية ستّ سنوات، يليها ثلاث اعدادية، ومثلها ثانوية، لتصبح سنوات الدراسة اثنتي عشرة بدلاً من احدى عشرة، ثم استعيض عن الاسماء بالارقام المتسلسلة من ١ الى ١٢، وهكذا يكون فوجنا والافواج الاربعة من بعدنا قد درسوا سنة أقل من الذين جاءوا من بعدهم، نحن قدّمنا (المترك، كما كانوا يسمون امتحان شهادة الدراسة الثانوية-تشبيهاً باسم الامتحان الذي كان يُعقد في فلسطين إبّان الانتداب البريطاني) ، وهم، وحتى يومنا هذا، قدموا، ويقدمون (التوجيهي-تشبيها باسم الامتحان الذي كان، ومازال، يعقد في مصر، لتأهيل الطالب للالتحاق بالمرحلة الجامعية) .....

ولما كانت المعلومة التي نحتاج اليها، لدى مدير مدرسة عتيل، والاتصالات الهاتفية مفقودة، بل غير واردة، كان لا بد ان نشدّ الرحال الى (بيت ليد) حيث مدير المدرسة، في العطلة الصيفية

لا بدَّ من صنعا ولو طال السفر

وإن تحَنّى كل عُودٍ ودَبَرْ!

وهكذا استعدّ اخي (رفيق) ، ليكون رفيقي في طريقي، إذ لا يُعقل ان أُترك، انا الفتى الغِرّ، وحيداً لاداء هذه المهمة، ويقيني أنّه لو كان سفراً قاصداً، لقام ابي بهذه المهمة...ولكن بعدت الشُّقَّة ....كان لا بد من الوصول الى طولكرم اولاً ثم التوجه شرقًا في الطريق الى نابلس، حيث تقع قرية بيت ليد على احدى المرتفعات الواقعة الى يمين المسافر الى نابلس، شرقي طولكرم بأكثر من عشرين كيلو متراً...ارتدى رفيق معطفه الوحيد، ولا ادري لماذا حرص على ارتدائه في صيف ١٩٥٢، الذي كان متميزاً في شدته سنتئذٍ، فلعله ظنّ ذلك (أستر او أهْيأ) ، ...ولبستُ ما تيسّر، وأقلعنا الى طولكرم صباح احد ايام الصيف، وصيف طولكرم وقضائها حارٌّ رطب عادة، حتى اذا ما توجهنا شرقا، والشمس، رأْد الضحى، في وجهينا، اشترى رفيق جريدة (الدفاع) قبل مغادرة طولكرم، (ما لزومها؟) ، واودعها جيب معطفه الداخلي، ورحنا نغُذّ السير (على الاقدام-طبعًا) نحو بيت ليد، مروراً ب (نور شمس) ، وبيارات (حافظ الحمد الله) ، ثم، بعد قليل، أطلّت خربة (اكتابا) من مرتفعات الى الشرق من دير الغصون، الى يسارنا

كلما رحّبت بنا الرَّوضُ قلنا

حلبٌ قصْدنا وانت السبيلو!

ومشينا ثم مشينا، على شبه الرصيف الذي يحجزنا عن الشارع الرئيسي المعبّد والمؤدي الى نابلس، والسيارات تمرّ بنا ولا تلوي علينا (ولا ينبغي لها) ...وفي منتصف الطريق تذكّر رفيق انه وضع جريدة في جيب معطفه، وليته لم يتذكر، فلقد وجدها كتلة من الاوراق المبللة بالعرق، لا تصلح لقراءة حتى عناوينها الرئيسية!!

كان الوقت ظهراًعندما دخلنا بيت ليد، وقد اخذ منا التعب والعرق كل مأْخذ، واهتدينا الى بيت المدير (حسن محد عبد الرحمن) ، بعدما سالنا رجالاً في حارة القرية، فوجدناه في

(الصيد) ، فاجلسونا في منزله، منتظرين، ولم يكن انتظارنا ليزعجنا، فلقد كنا في حاجة ماسة الى الراحة، حتى اذا ما عاد من صَيده، رحب بنا اجمل ترحيب، وتناولنا في بيته طعام الغداء، وطمننا على المهمة التي جئنا من اجلها وأنّ اسمي كان في رأس اللائحة المرفوعة الى الفاضلية، فشكرناه وعدنا أدراجنا، في رحلة تكررت خلالها معاناة الذهاب، واخذنا نصيبنا من الحر، إذ نهار الصيف طويل.

ربما كنا في غنى عما تجشمناه من (شقاء) رحلة بيت ليد، لو لا حرصنا (كل الاسرة) على استمرار دراستي في المرحلة الثانوية، مثلما حرصنا على الالتحاق بالصف السابع خارج قفين، حرصاً ليس له رصيد من مال، الا تفوقي الدراسي، وقَدَرٌ ينتظرني، ليقضي الله امراً كان مفعولا، فلم اكن المتفوق الوحيدفي كثير من مراحل حياته الدراسية!

لا خيل عندك تهديها ولا مالو

فليُسْعِد النطق إن لم تُسعد الحالو

ها قد اقترب افتتاح المدارس، وصار لا بد من تأمين المسكن في طولكرم، فالسلة التموينية جاهزة وباص الشيخ رشيد ما زال على الخط، وان صار الى (بيت ابو خلف، من باقة الغربية؟ فيما بعد)

لا عهدَ لي بالمدن، ولم ادخل مدينة طولكرم قبل الالتحاق بمدرستها الفاضلية، وكل شيء فيها عليّ جديد، من الحمام الى الكهرباء الى انابيب الماء وشرب الماء من صنابيرها الخ...

دار ابو العبددار واسعة، لها بوابة خشبية من درفتين متهالكتين، تمنعان الحيوانات الضالة، لا اكثر، تفضي الى ساحة واسعة (قاع الدار) ، ومنها، بعد صعود بضع درجات، ثم بضعة امتار، الى بيت الاسرة المكونة من ابو العبد وامه، وعبد ال؟ ، و....نظمية (نزمية) ، و...؟

على يسار الداخل من البوابة، بنوا (خُشَّتين) اطلقوا على كل واحدة منهما اسم (سقيفة) - تُذَكِّرك بسقيفة بني ساعدة!!لا تتسع الواحدة منهما لاكثر من واحد الا بالتعاون

والتسامح وما يفرضه التعايش والرضى بالمتيسّر!يسكن احداهماعفيف عبد الرحمن، من (عين حوض) ، وفلاح الفرخ، من (عنبتا) ، ويسكن الاخرى-الاقرب الى البوابة-فهمي عبد الحوراني، من قفين،، من السنة الماضية، إذ هم الآن في الصف الثانوي . الثاني، فشاركت فهمي (سقيفته) ، فهو وحده-وكان وحيد ابويه بين عدة بنات، !ويبدو ان ابو العبد قد انشأ هاتين الخشتين لينتفع بتأجيرهما (business) ، حيث انهما من اجل ذلك منذ سنين (وسوف آتي بالدليل عند مجيء السياق الزمني) .لا اذكر كم كان ابو العبد يتقاضى على كل سقيفة شهريًا، ويبدو لي انه كان زهيداً بدليل قدرتي على دفعه!واظنه لم يكن محترفًا، وينمّ هندامه على انه كان من خارج طولكرم، بقمبازه العادي، وغطرته وعقاله السنارة، ولباسه تحت القمباز، هذا الى لهجته، وملبس ام العبد الذي لا يبعدها عن هندام فلاحات القضاء، ثم هندام نزمية التي كانت في عنفوان صباها، شديدة الشبه بوالدتها، تتدفق حيويةً وحياءً يضفي على بساطة جمالهاجمالاً غير ملَوَّث بزينة او (مكياج) ، مستنكر لدى فلاحات بلادنا

حُسْن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ

وفي (الفلاحة) حسنٌ غير مجلوبي

أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفْنَ بها

مضغ الكلام ولا صَبغ الحواجيبي

ولا برزنَ من الحمّام بارزةً

اوراكهنّ صقيلات العراقيبي!!

كانت صفوف الثانوية عدة فروع، لتستوعب اكبر عدد ممكن من وافدي قرى القضاء، وطولكرم نفسها، وازدحمت الفروع بالكفاءات اللافتة........

شقاء السنين (٤٨)

أوَّل ما يتلقّاك عند نزولك من باص (قفين-طولكرم وبالعكس) ، جلجلة مذياع مقهى الكرمول، على يسار الداخل الى الشارع الرئيسي المُفضي الى قلب المدينة، يردد بصوت (وديع الصافي) ، واحدةً من اقدم أغانيه الشعبية-ومعظمها شعبي-:عاللوما اللوما اللوما، أو بصوت (صباح) :دخْل عيونك حاكينا، ماراً بالمحلات التجارية الرئيسيّة : الحاج يوسف الصغير للأقمشة، وجميل السفاريني، وعادل القطب، للاحذية، وحلويات ابو سماحةوصيدلية (السختيان) -الى يسارك، ...والى يمينك محل ا لحاج صقر، للحبوب، ثم محل الغضبان، ومحل الصّدَّر (وكان مشهوراً بخياطة القمصان، وكان أبكم) ، للخياطة، ثم مكتبة الحاج زكي السفاريني وبجانبها مكتب وكيل جريدة الدفاع، السيد عبد الرحيم العلي الحمدان (رحم الله كل من رحل) ، ثم تزلف الى ساحة مركز البلد، وتنعطف يمينـًا فترى المراحيض العامة الى يسارك، ومحل (الثور) -ملك الفلافل -الى يمينك، ، ثم تنحدر غربـًا ماراً بسينما (فريد السليم) ، الوحيدة في طولكرم، يومئذٍ، ليصبح (استوديو حموده) الى يسارك، بعد قليل، وما هي الا امتار حتى تصل الى المدرسة الفاضلية الثانوية، الى يمينك، وقبل بوابة مدرسة (خضوري) الزراعية بحوالي مئة متر، ثم يأخذك الشارع العريض، إياه، الى شارع المحطة، لتقف عند نهايته وقوفـًا اجباريـًا فرضه الاحتلال الصهيوني في محيط السكة الحديدية!

تتكوّن الفاضلية من بناء مستطيل من الإسمنت المسلح، الممتد من الشمال الى الجنوب، بابه الرّئيسي في منتصفه المُطِل على ساحة واسعة هي ملعب المدرسة، في ركنه الشمالي مراحيض ومغاسل الطلاب التي منها يشربون (وماء طولكرم من اعذب مياه فلسطين) ....تدخل من الباب الرئيسي الى ممر واسع (كوريدور) ، يقسم المبنى الى نصفين يضمان غرف الصفوف، عن يمين وشمال، في الجهتين الشرقية والغربية، وفِي

الجناح الغربي، في منتصفه، مكتب المعلمين، وفِي أقصى (الكوريدور) الجنوبي مكتب المدير ونائبه، يُصعد اليه بضعَ درجات، ثم مختبر المدرسة ومكتبتها المتواضعان!

كانت الحصة الاولى من العام الدراسي الثانوي الاول (١٩٥٢-١٩٥٣) ، للشيخ (توفيق البرقاوي) ، أستاذ الدين الاسلامي لكل المدرسة بشتى فروع صفوفها الاربعة. ..حافظ الشيخ الازهري على هندام الجامع الازهر:عمامة بيضاء، أقلّ سمكًا من عمائم مشائخ مصر، وقميص عادي فوقه سترة متعددة الأزرار، وبنطال يتحد في اللون مع السترة، والجبّة، التي هي بمثابة جلباب فضفاض يكسو الجسم من العنق الى الكعبين...كانت الحصة فرصة للتعارف، والتعرّف. كنت اجلس في احد مقاعد الصف (السرب) الاول، عندما بادرني الشيخ- وكان بسيطًا طيّبًا طيبة يستغلها لئام الطلاب في إجاباتهم الشفهية والمكتوبة، بالسؤال عن اسمي (ولم يعلِّق على اسم عائلتي!) ، لكنه علّق على اسم بلدي، محلِّلاً معناه بقوله:أُمّ معناه الأصل، والشوْف معناه الرؤية، فيكون معنى بلدك (أصل الرؤية) !ثم استأنف:كم كانت درجتك في العام الماضي؟ وأجبته: كنت الأول......ثم انتقل الى ثانٍ وثالث، وكلهم كان الأول في مدرسته، فذُهِل من المصادفة، وتبسم ثم توقّف ليردد مع المعرّي :

وإنّي، وإن كنتُ الأخير زمانهو

لَآتٍ بما لم تستطعه الأوائلو

وهكذا انقضت الحصة الأولى، في تعرّف وتعليقات....ولسوف يكون لي مع الشيخ (الوسيم الطيب) لقاءات ولقاءات في قادم الأيام

كانت الحصة الثانية حصة اللغة الانجليزية، وكان فارسَها الاستاذ (فريد البرَكة) -نائب المدير وابن طولكرم العريق.وكانت في الشعر، وفي قصيدة لشكسبير، مطلعها:

Where the bee sucks,there suck I

In a cowslip’s bell I lie,etc

قضينا الحصة في شرح المعنى، معنى المفردات، ثم المقاطع، وهيمنت محاولة ترجمة النص الشعري الى صيغة شعرية بالعربية، استحضرُ منها:

أمصّ الزهرَ حيثُ النحل يُلفى

لأرقدَ طَيَّ (ناقوس الربيعي) ....

و (ناقوس الربيع) نوع من الزهر المألوف، عند، وفي عصر شكسبير!

وانتهت الحصة ويا ليتها لم تنتهِ!إذ لاحظ الاستاذ فريد، مذهولاً، بعد شدة إعجابه بمشاركتي في الشرح والترجمة ومحاولة الصياغة الشعرية العربية، لاحظ، لدى خروجنا من الصف. أني.....خرجتُ حافي القدمين!! فاستوقفني جانبـاً وهو يقول (أيش هاد؟ !ليش حافي؟) ، فبادرته على الفور بكذبة (بيضاء؟ ؟) :فصّلْت كندره، ولما تخلص بلبسها.وكان جوابه: لا ترجع الى المدرسة حافياً....ممنوع!

وصل الخبر الى الادارة، ووصل قبل ذلك الى (بوابَي المدرسة:ابو محمود، وابو العبد)، وانطلق المهتمون من الطلاب القدامى، معهما، من اجل (تصويب) وضع طالب متفوق ......محتاج!

لا خيل عندك تهديها ولا مالو

فليسعد النطق ان لم تُسعد الحالو

لولا المشقة ساد الناس كلهمو

الجود يُفقِر والإقدام قتّالو

شقاء السنين (٤٩)

كان رسمي عزيز محمد طُعمة يعتكف في (خشّة) من دارهم في الحارة (التحتا) من قفين، معزولة عن بقية البيت، تُطِلّ على الزقاق المفضي من باب ضيّق، الى الحارة الغربية يميناً والى الوسطى (ومنها البوابة إياها) ، ثم الحارة الشرقية، ويصعد رسمي اليها في بضع درجات، أما أنا، فكنت ادخل اليها من ذلك الباب الضيق، كلما سمح لي الوقت والظروف.....كنت في السنتين الأخريين من المرحلة الابتدائية، وكان رسمي يستعد لامتحانات (المترك) ، ..هو منهمك في الدراسة، وانا استخرج له معاني الكلمات من اللغة الانجليزية الى العربية، من قاموس في حجم الكف.كان يعتمد عليّ، بناء على أدائي المدرسي، وثقته بقدرتي، وقُرب المسافة بين (البوابة) ، ودارهم....كان يجد في ما أنقله له من معاني مفردات القاموس، عوناً يوفر له الجهد والوقت، وكنت أجد فيما أعمل متعة، لعلها ثقته بي، وشعوري بقدرتي على أداء جهد متميز.

كان يتردد على بيت رسمي عزيز، زائراً، رجل أسمر السحنة، طويلَ وممتلئَ القامة، في إحدى عينيه ضعف، في كثير من أيام نهايات الاسبوع، والعُطَل المدرسية، قادماً من طولكرم، وكنا نتصادف في بيت رسمي وانا انقل له الترجمة من قاموسه، ويستغرب ضيفه اعتماده على طالب ما زال في المرحلة الابتدائية، ولا استبعد ان رسمي كان يُسمع ضيفه ما يطمئنه عن أدائي...

كان ذلك الضيف القادم من طولكرم هو (احمد محمود تايه) من احدى العائلات الأصيلة الأصلية من طولكرم، وثاني اثنين هما بوابا المدرسة الفاضلية...كانوا ينادونه (ابو محمود) ، علماً بأنه لم يتزوج (او لم يُنجب) ، وأظن ّ أنّ كنيته كانت تيمّناً، كعادتنا في إعطاء الحفيد الاول اسم جده، حتى قبل ان يولد! (كما أن رسمي لم ينجِب) !أما البواب الثاني فكان (رشيد عبد الفتاح الحاج موسى التايه) والمشهور بكنية (ابو العبد) أكثر من اسمه، الذي كان مجهولاً لكثيرين من ابناء المدرسة و...معلميها. كان ابو محمود هادئاً

لطيفـًا سكوتـًا، بعكس ابو العبد الـذي كـان متحركـًا، متكلمـًا، معتدّاً بنفسـه، اكتسـب ثقـة الادارة في الممكن وغير الممكـن مـن شـؤون الفاضـلية، وكـم كـان يـردد علـى الاسـماع انـه (زمبرك المدير!)

كان الاثنان على تفاهم لافت، ليس بالضرورة لوحدة الحَمولـة،، ويطلعـان، ويشـتركان في كل ما يهم الطلاب والمعلمين.

تعرفت الى معظم الطلبة الاوائل الذين قدموا من قرى الشـعراوية، ومـا حـول طـولكرم، ومـنهم (سـعيد عبـد الـرازق احمـد سـعيد) ، مـن (عِـلّار) ، الـى الشـمال الشـرقي مـن طولكرم...وكان. قد سبق (سعيداً) الى الفاضلية اخوه (شقيقه عليّ) ، حيث كان في الرابـع الثـانوي–آخـر سـنة في المرحلـة–، ...كـان سـعيد مطّلعـًا علـى حـالي، وعلـى رفضـي مـن المدرسة بقرار نائب المدير!

في يوم مـن ايـام الاسـبوع الدراسـي، فاجـأَ صـفّنا أحـد طـلاب الصـفوف المتقدمـة، بـين حصتين، بالدعوة الى التبرع (لمساعدةالطلبة المحتاجين!) ، ...جمع ما تيسّر واختفى ولـم يعد مرة اخرى في اليوم التالي.ثم علمت فيمـا بعـد أنّ حملـة للتبـرع قـد نُظِّمـت في المدرسـة بإشراف الطالب المتفوق (علي عبد الرازق احمد سعيد) ، وبعلم ورضى وتشـجيع الإدارة، وأنّ الطالب الذي فاجأ صفنا قد أخطأ، إذ كـان الاتفـاق بـين قـادة الحملـة ان يُسـتثنى فرعنـا، لتجنُّب الشبهة!

وهكذا، انتهت ازمة الحفاء، وكنت أثناءها أتجنب التصادف مع الاستاذ فريد بركة، فلم انقطع عن المدرسة يومـًا واحداً، وبعد انتهاءإحدى حصصه، لاذ بي جانبـًا ليسـألني سـؤالاً أراد به ان يُشعرني أنه مطّلع ومشارك في الحملة، رحمه الله، وأطال في عمر (علي) ، وسعيد، إذ اننا ما زلنا اخوة اصدقاء وأحبابـًا حتى تدوين هذه الصفحة!وإنني لعلى مثل اليقين أنّ أمر أزمتي تسرّب من (ابو محمود) الى (ابو العبد) النشيط (المتنفِّذ) ، ومنه الى نائـب المـدير، مثلما تسرّب من (سعيد) الى (عليّ) (فالتقى الماء على أَمْرٍ قد قُدِر) !

كانت دار (ابو العبِد) التي استأجرنا فيها إحدى (السقيفتين) مع فهمي عبد حوراني (رح) ، تبعد قرابة مئة متر عن الجامع الجديد، كما كانوا يسمونه، تمييزاً له عن الجامع القديم، وكانا الوحيدَين في طولكرم، يومئذٍ، وكنت، بفضلِ إغراء القُرب، حريصًا على أداء صلاة الفجر، فيه، قبل أن أتعلّم أنْ (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد) ، ...

كانت خيوط الفجر الاولى تتسلّل من خلف الأفق البعيد، ولمّ تكتمل حمرتها المائلة الى اللون البرتقالي، وأقرب الى شفافية الماء الصافي، ويصدق فيها قول المعري:

يكاد الفجر تشربه المطايا

وتُملأُ منه أَشرِبةٌ شنانو

كان ذلك وانا أفتح إحدى درفتي البوابة المتهالكة، قاصداً الجامع الجديد، عندما لمحت على الارض ورقة مطبوعة، فتناولتها وقد بلل معظمها الندى، لأقرأ فيما سلِم منها، عند الصباح، ما تبيّن لي أنّه (منشور) للحزب الشيوعي الاردني، يخاطب في عنوانه العريض وزير الخارجية الاميركي، يومئذٍ: عُدْ الى بلادك يا (جون فُستَر دلَس) .

لم يكن لي عهد بالاحزاب ولا بالحياة الحزبية، ولا يُنتَظر من (خرّيج كُتّاب) مثلي، كان يحفظ معظم القرآ ن الكريم غيبًا، أن يكون لغير الاسلام مكان في عقله أو قلبه...وتجاهلت المنشور، وإن فتح ذهني على أمرٍ سياسي، خارج عن مناهج الدراسة الثانوية، كان له ما بَعده!!

شقاء السنين (٥٠)

لم يكن سهلاً شَقُّ الطريق الى المرتبة الاولى في صفوف المرحلة الثانوية الاربعة، وإن تَحقّق، بعد أن ألقتْ كل قرية من قرى القضاء بنُخبة ابنائها في حلَبة السباق، ما جعل التنافس محمومـًا وعلى أشَدّه...وكما ورد في الحلقة (٤٨) ، فلقد تجمّع في فرعي كفاءات عالية، كانوا أوائل صفوفهم، ..ولقد ادى ذلك التنافس الى تثبيت مستوى عالٍ من الكفاءة وضَع (الفاضلية) في طليعة المدارس الثانوية في المملكة، إذْ ندرَ ألّا يكون طالب أو اكثر من طلابها من العشرة الاوائل في امتحان شهادة الدراسة الثانوية (المترك، ثم التوجيهي، فيما بعد) كل عام !ومثلما كان التنافس شديدا بين طلابها، كان شديداً بينها وبين المدارس الثانوية الاخرى، في المملكة، كالصلاحية في نابلس، والسعدية في قلقيلية، وثانوية جِنين، وكلية الحسين في عمان و....أيُّها يتسنّم مواقع عشرة أوائل المملكة!!!

وانني ارى واجبـًا عليّ، كما فعلت في حلقات سابقة، ان اذكر بعض الاسماء التي ما زالت عالقة في ذاكرتي، من طلاب المرحلة الثانوية، الذين كانوا شركاء سجال وتنافس حادّ، ورفاق درب وعِرٍ طويل، لم يخلّف الا الودّ والاحترام المتبادل، والصداقة المستمرة المتواصلة حتى اللحظة، مع من (ما زال يواصل المسير) منهم:

كان من قرية (فرعون) كامل عبد الرحمن عمر، ومن (ذِنّابة) يوسف جابر ملحم، ومن (ارتاح) محمد علي عبد الكريم-الخولي، ومن (زيتا) عبدالله محمد علَم.....كما كان لآخرين حضور لا يقلّ مكانة دراسية، مثل سعيد عبد الرازق احمد سعيد من (علار) و عبد الجبار ناجي (علار) ، وجميل عبد الحليم الجبالي (الطيبة-ثم طولكرم) ، واديب نايف ذياب (المنسي-ثم طولكرم) ، وغيرهم، ممّن أفلتوا من الذاكرة!

لم يكن يشغلنا عن الدراسة شيء من (مشَتِّتات) التكنولوجيا الحديثة (على حسناتها الكثيرة التي منها هذا اللوح الذي أُدوِّن فيه) ، فلا راديو ولا تلفاز، ولا خلويات ذكية ولا العاب (الكترونية ذكية)

ومثلما كان طلاب يومئذ يجتهدون لينجحوا ويتفوقوا، كان معلموهم يُجهِدون انفسهم ليضمنوا القدر الكافي من العطاء الذي تتطلبه المناهج المقررة، إذ لم يكونوا كلهم يحملون الشهادات الجامعية التي تؤهلهم لتدريس المرحلة الثانوية، ولكن التقاء الاجتهاد (من الطلاب) والجُهد (من المعلمين) حقق النجاح والتفوق!

في اواخر السنة الدراسية الاولى من المرحلة الثانوية، وفي الثاني من أيار، عام ١٩٥٣، تحديداً، كان موعد تنصيب الملك الحسين بن طلال، وجلوسه على عرش المملكة، بعد ان بلغ السن القانونية وانتهت فترة الوصاية على العرش، التي أُسندت الى كل من عمّه الامير نايف وسمير الرفاعي، رئيس وزراء يومئذٍ، وآخرين ....كان من مظاهر احتفال البلاد بالمناسبة أن خرج طلاب وطالبات مدارس طولكرم في شوارع المدينة متجهين الى مبنى البلدية الواقع بالقرب من المدرسة (العدوية) للبنات، حيث أقيم الاحتفال الرسمي، وأُلقيت الكلمات في المناسبة، وألقى شاب (فيه رعونة ممزوجة بذكاء) قصيدة وطنية مؤثرة، لم تختزن ذاكرتي شيئًامنها، غير قافية القاف المفتوحة، والبحر الخفيف، رغم انفعالي الآني بوقعها، كلماتٍ وإلقاءً، ولقد علمت فيما بعد ان الشاب كان ابن شقيقة الشاعر الفلسطيني الشهير، الشهيد، ابن قرية عنبتا، قضاء طولكرم، عبد الرحيم محمود، صاحب القصيدة المشهورة:

سأحمل روحي على راحتي
وأُلقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياةٌ تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا.....

ثمّ كانت المفاجأة عندما سمعتُ، من مكبرات الصوت، اسم الاستاذ (حسن محمد عبد الرحمن مدير مدرسة عتيل) ، يلقي بصوته الضعيف المشوب ببحة ناعمة، قصيدته في الحفل . كان المحتفلون في القسم العالي من مبنى البلدية (الذي تحوّ ل الى مستشفى فيما بعد) ، والطلاب على الارض يحيطون بالمبنى ويستمعون .وأصغيت الى استاذي، متمعنًا في كل بيت منها. كانت منظومةً على البحر الكامل، بقافية الراء، ربما لنِيّة الشاعر ذكر شهر

(أيار) في نهاية احد ابيات القصيدة، وهكذا كان، إذ كان منها، في ما عَلِق بالذاكرة بسبب التركيز الخاص، وتعبيرا عن البهجة بالمناسبة:

رقصت فراشات الربيع بحقلها

فرحًا، وهنّأ صنوه أيارو

إشارة الى أيار ١٩٤٨، شهر انتهاء انتداب بريطانيا على فلسطين، واحتلال العصابات الصهيونية النصف الاول منها، أي ان احدهما هنأ الآخر بالمناسبة السعيدة

ومما جاء فيها، ووعته الذاكرة، تنديداً بتسهيل هجرة اليهود الى فلسطين:

أوَ كلما لفظتهمو أقطارها

قذفت بهم مهدَ المسيح بحارو؟

وانفضّ الجمع وانتهى الاحتفال وعاد الطلاب الى مدارسهم

كنت في السقيفة إياها، ساهراً لامتحان غدٍ، اتلوّى من ألم مُمِضٍّ من التهاب عميق في نهاية الاصبع الشاهد من يدي اليسرى، عندما قرع الباب، فكان (ابو العبد) ، صاحب السقيفة، وابو (نزمية) ، ما غيره. لم يكن موعد تقاضي اجرة السقيفة ولا الوقت مناسب للتقاضي!....استأذن للدخول، وجلس على حافة الارضية، ثم راح يتحدث، واعظـًا أن لا أطيل السهر خشية على عينيّ، ولم يخلُ وعظه من إعجاب باجتهادي، ثم عرّج على تاريخ السقيفة، إذ انها، كما أشرت سابقًا، مخصصة للاجرة منذ سنين، فقال:-كان في مكانك هذا تلميذ من (سفارين) ، نسيت اسمه، لكنني اتذكره لعاهة كانت فيه (كان عطيله، أي أعرج)، وكانت الكتب تملُّه ولا يملها، ويطيل السهر، وقد ذكّرتني به. دخلت عليه ذات مساء لانصحه هكذا، فكان جوابه لي:يا عم.اهلي فقراء، وانا كما تراني، فليس امامي غير الاجتهاد سبيل الى مستقبل افضل!

كان ابو العبد مسترسلاً وانا اكاد ابتسم، لسخريات؟ القدر، لانه لم يعلم انه يحدثني عن استاذي في الاجتماعيات، وثاني اثنين ألّفا كتاب (تاريخ العرب والمسلمين) المقرر في المملكة لامتحان التوجيهي- المترك، حيث كان الاستاذ عبد الرحيم مرعب، من قرية

شويكة-طولكرم، المؤلف الثاني الشريك!.....كان يحدثني عن الاستاذ (محمد حسين علي) الذي صرت طبيبه المتدرِّب يوم جاؤوا به مريضاً بمضاعفات غدة البروستات، الى مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٦٣،، وطبيب احفاده من اولاده وبناته فيما بعد، في عمان!

كان الوقت بعيد صلاة العصر في احد الأيام من عام ١٩٥٣، في الجامع الجديد في طولكرم، اقرب مسجد الى السقيفة، عندما تقدّم اليّ احد المصلين الشبان، واسمه (عبد الرحمن جرّاد) ، من ابناء طولكرم، ومن الصف الثانوي الثالث في الفاضلية، يحمل في يمناه حزمة من مطبوعات مطوية، ثم بادرني بالتعريف بنفسه، ثم ما لبث ان انتقل الى الحديث عن وضع الامة الاسلامية والقضية الفلسطينية.

شقاء السنين (٥١)

تكررت لقاءاتي بعبد الرحمن جرّاد في الجامع الجديد بعد الصلاة وراح يسهب في شرح مضمون الحزمة المطبوعة

من المنشورات التي حمّلني اياها في اللقاء الاول

لم يكن يومئذ لدى (حزب التحرير) كتب مطبوعة، بل نشرات مطبوعة على الآلة الكاتبة تُتَداول سراً بين الدارسين، اذ كان (وما زال؟) تثقيف الافراد يعتمد على شرح الفكرة في الفقرة شرحًا تفصيليًا دقيقًا خاضعًا للنقاش، يؤديه عضو الحزب المؤهّل المكلّف بالتدريس في اجتماعات مبرمجة في (حلقات)

راقت لي الافكار المعروضة الهادفة الى إيجاد دولة اسلامية في العالم العربي، تتحد حولها الامة الاسلامية، لتتوفر لها القوة بتطبيق نظام الاسلام، وتتمكن من تحرير فلسطين، وتصبح دولة مهيبة مرهوبة الجانب، تخطب ودّها كل امم الارض وتتمنى اللحاق بها والانضواء تحت لوائها

انتهت مهمة عبد الرحمن (نضّر الله وجهه في الاولى والآخرة،) بعدما انتظمتُ دارسًا في حلقات مختلفة ومدرِّسين مختلفين (وكان معظمهم معلمين في مدارس ابتدائية) ، امثال الاستاذ (فاروق حبايب) ، وكان طويل القامة، جهوري الصوت، ممتلئًا ايمانًا وحماسًا، والاستاذ (عادل خضير) ، وكان مرجعًا في مفاهيم الحزب الفكرية والسياسية. ...كانت

تُعقد الحلقات في منازل المدرّسين، . كانوا هم أعضاءً ونحن (دارسين) ، ولم تكن العضوية تسجيلاً رسميًا مدوّنًا، بل قَسَمًا يقسمه الدارس امام العضو، ليصبح حزبيًا مثله، بعد الاطمئنان الى تقواه وإخلاصه لمفاهيم الحزب العامة، ووعيه الكافي، واستعداده لحمل مسؤولية ان يكون عضواً ملتزمًا منضبطًا مطيعًا ومنفذاً تعليمات الحزب وتعاليمه المتعلقة بافكاره وآرائه ومواقفه السياسية، وإن خالفت قناعاته الشخصية!

كانت معظم الاجتماعات المتعلقة بـالادارة وتوزيـع النشـاطات، تعقـد في بيـت (الحـاج يوسـف الصـغيّر) ، مـن الخليـل، الواقـع في شـارع نـابلس، ويُنـزل اليـه بعـدة درجـات تحـت مستوى الشارع، كما كانت معظم لقاءات الاعضـاء او الدارسـين، تـتم في متجـره في الشـارع الرئيسي في طولكرم-ولقدحضرت (في مرحلة متأخرة من النشاط الحزبـي، بعـد تحزيبـي،) لقاءً في بيته، ضمّ عدداً من الاعضاء البـارزين، لـيعلن عريـف الجلسـة-السـرية- اسـتقالة، او إقالة، اثنين من قيادة الحزب الثلاثية، هما (داود حمدان) ، الذي كانت مقدمة كتـاب (نظـام الاسلام-أول وأبرز مطبوعات الحزب) تحمل توقيعه، وربما كانت تأليفه، وكان من شيوخ او قضـاة القـدس، .....و (نمـر المصـري) ، وكـان يحتـل منصـبًا هامـًا في وكالـة غـوث اللاجئين، على مستوى المنطقة (الإقليم) ، وأصبح الشـيخ (تقـي الـدين النبهـاني، مـن قريـة إجزم، قضـاء حيفـا، وعضـو محكمـة الاستئناف الشـرعية في القـدس، ومؤسـس الحـزب) ، وحيداً، حتى إشعار آخر، حيث انضم اليه الشيخ عبـد العزيـز الخيـاط، مـن نـابلس، والشـيخ عبد القديم زلّوم، من الخليل، فيما بعد

لمست، بعد احتكاكي بالعديد من طلاب المرحلة الثانويـة، ومخـالطتي للدارسـين، انـه ندر ألّا يكون طالب في الفاضلية دون علاقة بحزب مـن الاحـزاب التـي استشـرى نشـاطها في خمسينات القرن الماضي، الى جانب حزب التحرير، كحزب البعـث، والحـزب الشـيوعي، والقوميين العرب (وقليل من الحزب القومي السوري الاجتمـاعي) ، ولـم يكـن شـأن يـذكر لجماعـة الاخـوان المسـلمين...غير ان حـزب التحريـر كـان كاسـحًا في قضـاء طـولكرم، وقلقيلية، وخاصة في اوساط الطلاب والمعلمين والمتعلمين، حتى انـه أدخـل أحـد اعضـائه البرلمـان عـام ١٩٥٥، هـو الشـيخ احمـد الـداعور مـن قلقيليـة.....وكان معظـم الطـلاب المنتسبين اليـه متفـوقين في صـفوفهم، ومـنهم اثنـان اصـبح لهـم حضـور في عـالم الاقتصـاد الاردني، فيمابعد، هما عصام سمارة و مروان الدحله.

واذا كان لي، بعد ان انتهى كل شيء، وبُدِّلتْ الأرض غير الأرض، ان انظر الى الخلف، ناقداً أو معلّقـًا

واذا فاتك التفاتٌ الى الما

ضي فقد غاب عنك وجه التأَسّي،

ارى ان الحزب أوغل في الجانب السياسي من نشاطه، فغطى على الجانب الفكري الايماني، من جهة، ووضعه امام تحديات الانظمة والكيانات السياسية، وجها لوجه، ابتداءً بالاردن، ما ادى الى اصطدامه بالشعبية الطاغية التي تميَّز بها النظام المصري في عهد جمال عبد الناصر....

على انني ما زلت على يقين لا مكان حوله لذرّة من شك أو مخالطة أنّه لا يصلح حاضر هذه الأمة إلّا بما صَلُح به أوّلها!

لم أنمْ، بعدما غادر (ابو العبد) السقيفة إلا لماما، وبشكل متقطع، كما يفعل كل التهاب في الجسم ينتهي بخُرّاج يتزامن نبض المه مع نبض قلب المصاب.!...لم يكن لي عهد بالمعالجة ولا بالطب، فالمرض الوحيد الذي حفر مكانـًا مميزا في ذاكرتي كان مرض (الحصبة)، قبل رحيلنا من (ام الشوف)، ولم أفعل حياله أي شيء أو شكل من أشكال المعالجة، ولازمت الفراش الى ان اكتفى مني المرض، ورحل ولم يخلّف أيّ أثر، والحمد لله، وهكذا كان أهل الريف، عمومـًا، يمرضون، ويشفوْن، أو يقضي عليهم المرض، فلا طبيب ولا علاج، الا الوصفات الشعبية التي لا تجدي، وقد تؤذي!

عانيت من التهاب اصبعي كثيراً، بين ألم وحُمّى، ويبدو أنّ الجسد النحيل المعرّض للبردالذي لا يحجبه الحد الادنى من دفء الملبس، او المسكن، او التغذية، فلم يتوفر له الحد الادنى من المناعة والمقاومة، سمح لالتهاب الاصبع ان يتحول الى خُرّاج (دُمّل) عميق، انفجر تلقائيا بعد عدة أيام، واستمر سَيله بطيئـًا أيامـًا، الى ان ظهر لي وانا أعصره ان قطعة عظم صغيرة مثقوبة تقترب من فوهة الخراج، فأدخلت (نكّاشة بابور الكاز- البريموس) في الثقب وجذبتها فخرجت بسهولة، فإذا هي جزء من آخر عظمة في سبّابة يدي

اليسرى!وبخروج تلك العظمة، التأم الخراج في وقت قصير، بعد ما ترك تلك الاصبع مشوّهة....أي أنّي (بلغة الطب) كنت مصاباً بمرض (تسوُّس العظم -! (osteomyelitis المرض الذي يتطلب علاجه عقارات خاصة، تحقن بالوريد ثلاثة اسابيع......في المستشفى!..جرى كل ما جرى ولم يشاركني فيه من الاهل احد (وما الفائدة؟) ، ولا عرضت اصبعي على طبيب، ولم يكن لي بالمسكّنات علم ولا خبرة، ولا تغيبت عن المدرسة (لاني مريض) ....

غير ان جراثيم المرض عاودتني في فصل لاحق، بعدما وجدت ضالتها في جسم ضعيف البنية، ضعيف المناعة، على شكل ثلاثة خراجات في الرقبة، حوّلتني المدرسة، على أثرها، الى عيادة الدكتور (صلاح البسطامي) طبيب المدينة الوحيد، يومئذٍ، رحمه الله، وكان شاباً وسيماً دمِثاً لطيفاً، فأدخلني مستشفى الجهاد بضعة ايام، أُعطيت خلالها عدة حقَن من البنيسلين (قبل أن يتلاشى مفعوله ضد البكتيريا العنقودية!) ، خرجت بعدها معافى، والحمد لله، بعدما أشرفت علي ممرضة المستشفى، وكانت مشهورة لدى اهالي طولكرم، ومساعدتها، وكانت في أدائها ضائعةً بين الطفولة والصبا، واظن ان حضورها وعنايتها حرّكا فيّ مشاعر لا عهدَ لي بها، لاحقتني فترة بعد مغادرتي، مع مشط صغير تركَته معي عند الباب! ولا تسعفني ذاكرتي بحضور اسمها ولا اسم الممرضة المسؤولة، على شهرتها.....

هذا، وتدور الايام، لتُعرَض على لجنة الاختصاص في نقابة الاطباءفي عمان، في ثمانينات القرن الماضي، اوراق الدكتور صلاح (قبل نشوء المجلس الطبي) ، وكنت عضوا من تسعة، لأدققها لمنحه شهادة التخصص في الامراض الباطنية، ولكنها لم تكن كافية...وتمر الايام واصبِح طبيب حفيده من ابنه وابنة الدكتور توفيق ابو الرب، بعد ذلك بسنوات!

ثلاث قصائد

كانت حصة انشاء، ودخل معلم العربي، ولعله كان فهمي عودة، وفاجأنا بقراره أن يختار كل منا موضوعه، ولا ادري لماذا قررت ان يكون موضوعي قصيدة في زمن الحصة.

شقاء السنين (٥٢)

ثلاث قصائد

في حصة الانشاء، ترك لنا معلم العربية حرية اختيار الموضوع، ولا أدري ما الذي حدا بي ان انظم قصيدة (وطنية) تملأ الزمن المخصص للحصة، وبالمناسبة، فأنا لست شاعراً، وإن كنت قادراً على النظم الجيد، واتذوق الشعر العامودي، والعاطفي منه يُدْمع عينيّ، واحفظه بسرعة، ربما لأول مرة، قراءة او سماعـًا، وسوف أدلّل على ذلك عند الحديث على السنة الاولى في الجامعة الاميركية في بيروت، سنة١٩٥٧، ولا أعتبر شعر التفعيلة المعاصر شعراً، بالمعنى الصميم، ولا التفت الى من يرفض قولي هذا!

كما انني ربأتُ بنفسي ان انظم في الغزل، ولوشئت لنظمتُ في (نزمية) بنت (ابو العبد) او في مساعدة الممرضة في مستشفى الجهاد، ولو تغزّلتُ لنسَبْتُ نسيبـًا تسمعه العجوز فتبكي على شبابها!، كما يقول البحتري، شاعر الوصف والطبيعة...فلقد استحوذ على مشاعري الجدّ، وهموم العيش، وقضية القضايا (فلسطين!) ، و....الحياة الحزبية

ما زلت اتذكر مطلع القصيدة وكانت اكثر من خمسة عشر بيتـًا على البحر الخفيف (لمن له إلمام بالعروض) ، :

يا سهولاً كانت لنا وجبالا

ورياضـًا فوّاحة وتلالا

ثم خضْتُ في ماضي الأمة كي استنهض همم الشباب، فعرّجتُ على بطولات معركة اليرموك، مشيراً الى بلاء خالد بن الوليد، وغامزاً من جبن الروم، وكيف ان قادتهم وضعوا جنودهم في القيود لكيلا يهربوا من المعركة:!

إنّ يوم اليرموك خير مثالٍ

إنْ أردتم ان نضرب الامثالا

خالدٌ يصطلي بلفح لظاها

ويبيد الفرسان والأبطالا

فاذا النصر لاح، وازدهى وتجلّى

بعدما الروم حطموا الأغلالا!

ثم انثنيتُ معَرِّجاً على عقبة بن نافع وفتوح المغرب، وكيف اندفع عقبة بحصانه بعد الفتح نحو الغرب ليفاجئه شاطئ المحيط الاطلسي (بحر الظلمات) !

خَطَّ في شاطئ المحيط مثال ال

عزمِ وازورَّ عن مناهُ ومالا

قال :يا ربّ، لو عرفتُ وراء ال

بحر برّاً لخضته أميالا!

انتهت الحصة وسلمنا دفاترنا، ليطلبني البواب في اليوم التالي الى غرفة المعلمين، للاستفسار عن القصيدة والتحقق من أصالتها وبراءتها من السرقة!.....وبعد أخذٍ وردّ بيني وبينهم، تدخّل الشيخ توفيق البرقاوي، معلم الدين الاسلامي، مقترحاً نظم قصيدة أخرى، أَردُّ فيها على المعلمين المتشككين، عنوانها: (شك المعلمون في قصيدتي) ....

وعُدت بعد يومين، أحمل قصيدة من عدة ابيات على نفس البحر والقافية، وما زلت اذكر مخاطبتي للشيخ توفيق، قائلاً:

سيِّدي الشيخ، كن نصيريَ انت ال

حكَم العدلُ، لن تقول ضلالا

ثم أشرتُ الى القصيدة، مبالغاً:

إنّها استنزفت عصارة جسمي

ما تروني في هيكلي تمثالا؟

وهكذا انتهت قصة قصيدتين، دون تخطيط سابق، وبلا عواقب غير الاعجاب والاستغراب

لم اكن اعرف من الدنيا شيئاً ذا قيمة، قبل وصولي الى مدينة طولكرم، سواء كان طريقة العيش اليومية أو الحياة الفكرية

كانت الايام الاولى من إقامتي فيها، حين كنت اتجول في الساحة العامة المؤدية الى الحمامات، ...نصب احدهم فرشاً عالياًتحمله اربع ارجل خشبية مُعَدّة لذلك الهدف، وراح ينثر عليه كمية من مأكول شهيّ المنظر، محشوّ بعشب أخضر، حسبته البقدونس،، ثم ما لبثت الساحة ان امتلأت برجال، هندامهم ينبئ بقدومهم من القرى، في ذلك الصباح، تحلّقوا حول الفرش، وقد اخرج كل منهم رغيفه، وراحوا يلتهمون ذلك الطعام، بنهَم، وتبيّن لي، فيما بعد أنه كان (طُحَلاً) مشويةً للتوّ.....ووقفت مثلما وقفوا، وكدت أمدّ يدي، مثلما مدّوا، واهماً انه طعام مباح، لولا انّ احدهم، وقد فرغ من الاكل، مدّ يده الى جيبه وناول صاحب الفرش بضعة قروش يخلو منها جيبي، ثمن فطوره، فعرفت انه فطور شعبي للبيع، فانسحبت قبل أن (أتورّط) ، وفي نفسي أن أذوقه!...الى اليوم

كان يظهر في ساحة المدرسة في فترة (التنفس) ، فقط.كان في الستينات من العمر، يحمل (سدراً) مليئاً بحلوى تشبه المعمول، وان كانت الواحدة منها اكبر وأغنى بما نثر عليها من سكر مطحون ونكهات أخرى...يضع السدر على (حمّالة) خاصة، ويستقر في احدى زوايا الملعب، لا يتنقّل، وينادي على بضاعته بصوت منخفض، مالوف للطلاب، بكلمة واحدة، عرفت، فيما بعدُ، انها (زاكيين) ....وكنت ارى الطلاب يتهافتون على (العمّ) ، فلا ينقضي التنفس إلا وقد أجهزوا على (السدر) ، وقد أعذرتهم، بعدما تعرفتُ الى مذاق بضاعته، مرةً، على حساب (أحدهم!) وتأكدتُ من صدق دعواه أنهم كانوا......زاكيين!

في السنوات الاربع التي عشتها في طولكرم وفي الفاضلية، كانت الفاضلية خلية نحل في الدراسة والمنافسة والحوارات الفكرية الحزبية الملتهبة، بين الطلاب، فيما بينهم، وبين الطلاب والمعلمين، رغم عدم انتماء أيّ من المعلمين الى حزب معيّن، وان كان مدير المدرسة الاستاذ وهيب البيطار عروبياً قومي االتوجّه، شأْنَ معظم المعلمين، منجرفين بالتيار القومي الوطني العروبي الذي خلقه الإعلام المصري من (اذاعة صوت العرب)

وخُطَب (جمال عبد الناصر) التي كانت تستحوذ على سمع الناس (كل الناس)، وتفكيرهم و....مشاعرهم، حتى ولو كانوا يرفضون سياسته وأداءه، فلقد كان عبد الناصر، (ربَّ) المنابرإن خطب!!!

الحياة الحزبية تجربة قاسية، فهي وان كانت توسّع مدارك الطالب، وتزيده وعياً على الحياة السياسية، وتفرض عليه تثقيف نفسه بأفكار حزبه، وافكار الاحزاب الاخرى، وتهيؤه للحوار اللبق وفنّ الجدَل، الا انها تستنفد من وقته الكثير الذي أولى ان ينفق في الدروس المقررة التي هي سرّ وجوده في المدرسة!

وفي حال المنتمين الى حزب التحرير كان الوضع اقسى واكثر خشونة، إذ لم يكن الحزب مرخّصاً من قبَل الدولة، ولا مرحّباً به في المجتمع، خصوصاً بعدما راح يتبنى مواقف سياسية محضة، حول مستجدات احداث خمسينات القرن الماضي، وما كان اكثرها، وأعنفها، ابتداءً بالانقلاب المصري عام ١٩٥٢، ثم مظاهرات حلف بغداد، ثم العدوان الثلاثي على مصر، ثم انقلاب العراق على العهد الملكي، ثم الحرب الاهلية الاولى في لبنان عام ١٩٥٨، و....هكذا....ما فرض عليه صداماً او مخاشنة مع الانظمة المحيطة به، حدّ الاعتقالات، وما فرض على المتحزّب ان يتسلح بأوسع دائرة من المعلومات والاخبار والتحليلات السياسية ليعزز موقفه حيال خصومه من حزبي البعث والشيوعي، ....

كنت قد قطعتُ شوطاً طويلاً في الحياة الحزبية عام ١٩٥٤، بفعل الدروس المكثفة، التي أخذت من وقت المدرسة حظاً وافراً، وأخذ الهمّ السياسي النصيب الاوفى منها، بحكُم، تتابع الاحداث في المنطقة، ولقد ادى التزامي واندفاعي في هذا المضمار، الى ان أنظم قصيدتي (الثالثة) التي جاء مضمونها بمثابة بيان او خلاصة لأفكار الحزب، غير انها تميزت عن سابقتيها، في المحتوى ووسيلة النشر.

كان في المملكة ثلاث جرائد، اثنتان يوميتان، هما الدفاع و فلسطين وأخرى اسبوعية هي الصريح.

شقاء السنين (٥٣)

ثالثة الأثافيّ-القصيدة الثالثة

في اوائل خمسينات القرن الماضي، كان في المملكة ثلاث جرائد، اثنتان يوميتان، هما الدفاع، و فلسطين، والثالثة اسبوعية هي الصريح (ولا علاقة لها بقضاء اربد!) .

كانت جريدة الصريح تتعمّد نشر الاخبار والتعليقات والمقالات المثيرة، وأدّت (مشاغباتها) الى إغلاقها اكثر من مرة، وتعرّض صاحبها (هاشم السبع- من قلقيلية) الى اكثر من مساءلة من طرف الدولة، بسبب مجاوزة (الخطوط الحمراء) !

وبسبب من هذه (المزايا!) ، عقدت العزم على أن أركب موجتها.

كنت قد قطعت شوطًا بعيداً في المناخ الحزبي، فكراً ونشاطًا، فاختمر في ذهني، فوق كل الالتزامات المدرسية، التي حافظت بها على المركز الاول، أن أنظم قصيدة تلخص أفكار الحزب، واهدافه، بشكل يمكن اعتباره بمثابة بيان يعَرّف قارئها عليه، بالخطوط العريضة، ولكي أغلّف الافكار بشيء من الطرافة والجاذبية، راق لي ان اضعها في قصيدة!

وفي غضون أيام من عام١٩٥٤، أنجزتُ نظم قصيدة على البحر الوافر، يكفي مطلعها والبيت الذي يليه لأن يوحي الى القارئ بمجمل الموضوع:

عجبًا لقومٍ أذهبوا أحلامي

إذ يرفضون شريعة الاسلامِ

هم ينكرون صلاحها، وهي التي

من قدْرهم رفعت على الأيامِ

ورحتُ أفصِّل، في زهاء عشرين بيتًا، أفكار الحزب العامة، متجنبًا مواقفه السياسية، ناعيًا على دعاة القومية والاشتراكية فساد دعواهم، :

والله لو وُرِّطتُ في (قومية)

لوددت لو أنآى بكسر عظامي!

ثم انثنيت حافزاً ابناء الامة الى التحرك والعمل نحو النهضة واسترداد الوطن السليب، :

يا مسلمون، أما كفاكم هجعةً؟

ومتى تحقق مطلب لنيامِ؟

يا أيّها النُّوّام فيمَ رقادكم

والخصم يطغى العامَ إثرَ العامِ؟

ولكي أصوِّر حجم ما ينتظر العاملين من مسؤولية وهَمٍّ، قُلت:

ليست فلسطين الذبيحةَ وحدها

هذي مصيبة عالم إسلامي

ثم يتخلل القصيدة عدة ابيات، موغلة في نشر الافكار بمنتهى الصراحة ووضوح الهدف، ولا ارى هذه الصفحة، وقد أصبح كل شيء من الماضي، المجال الأنسب لسردها، ....غير انها (القصيدة) تنتهي ببيتين مثقلين بتسويق حزبي مكشوف:!

تحريرُ سِرْ، فالله مظهرُ حزبهِ

لا تكترث لمضللين لئامِ

وأَعِدْ الى الاسلام دولته التي

حَبَت السعادة سائر الأقوامِ

رتبت ابيات القصيدة وانا اشعر بالسعادة اني انجزت شيئًا متميزاً، حتى عن القصيدتين سالفتي الذكر، ثم نقلتها على ورقة اكثر ترتيبـًا واناقة، بخطّ اليد، ثم جعلتها في غلاف يحمل عنوان جريدة الصريح، وأودعتها البريد، ورحت انتظر أول كتابة احاول نشرها في حياتي، في صحيفة!وانا بين متفائل بالنشر ومتشائم، فالقصيدة شديدة الخصوصية، والجريدة كذلك، إذ هي حريصةعلى نشر كل مثير موضع خلاف وجدل.

لم تطُل فترة انتظاري، حيث صدر عدد الصريح في وقته، وفيه القصيدة كاملة، كأن المحرر كان يتبناها ويتمناها.....في غضون ساعات كانت الجريدة في مكتب عبد الرحيم

العلي الحمدان، وماان علم الناس بخبر القصيدة حتى تهافتوا على المكتب ولاحقوا الباعة، بدافع الفضول لدى بعضهم والاهتمام والسرور لدى المعنيين (الحزبيين) ، وهكذا اصبحت القصيدة حديث الساعة في ساعات!

فرِحت بنشر (المولود الاول) ، إذ تكرر نشر مقالاتي في الصحف، وخاصة الدستور، فيما بعد، مرات ومرات.الا ان فرحتي لم تكتمل، بل انقلبت غمّاً، ففي اليوم التالي، قرع ابو العبد التايه (البواب) باب الصف الذي كنت فيه، يطلبني الى مكتب المدير الاستاذ وهيب البيطار!!!

كان الاستاذ وهيب البيطار شخصية قوية فذّة، يقف دائماً منتصب القامة، ملامح وجهه تشعّ حزماً، وجدّيّةً، لم (أضبطه) يوماً متلبساً بابتسامة، ؛نظازاته لا تفارق عينيه، ...اذا علا الضجيج، وارتفع الهرج والمرج عند دخول الطلاب الصفوف في أول الدوام او بعد (التنفس) ، يكفي ان يقف عند الدرج الصاعد الى مكتبه، في نهاية القاعة، ويطْلق صرخة (يا عريس) ، بصوته االمليء السميك المائل الى البحة والخشونة، حتى تهدأ المدرسة، كل المدرسة، رهبةً و (رعباً؟) ...!كان، رحمه الله، يكثر من كلمة (يا عريس) يصيح بها على اي طالب، خارج النظام والانضباط، ويستعيض بها عن تعبير (يا ولد) .

هذا هو المدير الذي انا ذاهب الى مكتبه، مصفّحاً بشيء واحد فقط-علاماتي في المدرسة، حيث حافظت على ترتيبي الاول حتى السنة الرابعة، التي نذرتها لامتحان المترك (التوجيهي) .

دخلت المكتب وفرائصي ترتعد، وإن تحاملتُ على نفسي وتماسكت، مظهراً وقوفاً عادياً امام مسؤول متجهم الوجه، كعادته، بدون ما يزعج، ولم يُضع وقته في مقدمات، بل بادرني بانفعاله وهو يحتجّ على مضمون القصيدة المنشورة في الصريح، رافضاً محتواها، ومستغرباً هجومي على القومية، ثم صاح:وما شأنك والنواب؟ وكيف اعتذر للمسؤولين، وبأي وجه أقابلهم، حول ما نُشر، من احد طلاب مدرستي؟ اردت ان اشرح له ان (النواب)

خطأ مطبعي في الجريدة والكلمة الاصلية هي (النوام) ، الا ان ذلك، وان خفف من حدة موقفه نوعـًا ما، الا انه لم يغير من قرار طردي من المدرسة، والا اعود الابصحبة والدي، رحمه الله!!!

خرجت من مكتب المدير، مرعوبـًا، مكسور الخاطريتبعني (ابو العبد) ، وكأنه كان ينصت الى ما كان يدور في مكتب المدير، فناداني يريد ان يخفف مما كنت فيه، وراح يعظني قائلاً:يلعن ابو الاحزاب وابو يومها.هو احنا جايين نتعلم وِلّا نتحزّب؟ ثم انتقل الى طردي من المدرسة قائلاً: ولا يهمك.انت خلي ابوك ييجي وانا بَدَّخِّل، وبفهِّمه شو يعمل، وبحضر معكم......انا بمون عالمدير..انا زمبرك المدير!

غبت عن المدرسة الى ان حضر والدي من قفين، وجئت به الى (ابو العبد) ، في ساحة المدرسة، فكانت خطته ان يستأذن هو على المدير وندخل الثلاثة، ويبادرني ابي بالتوبيخ والتهديد امام المدير، وان التفت الى دروسي، فقط، وان يتخلل ذلك ان (يصفعني) ، حانقـًا، في حضرته، وان لا اعود لمثلها ابداً....وتمّ تنفيذ الخطة بحذافيرها، وأُسدِل الستار على ازمة مصيرية، وعدت الى الصف بصحبة (ابو العبد) ، رحمه الله رحمة واسعة، وعاد ابي الى قفين!

وكالعادة، تمر الايام والليالي، ونتصادف (المدير السابق وهيب البيطار وانا) عند مدخل مستشفى ملحس في ثمانينات القرن الماضي، هو خارج من المستشفى بعد زيارة احد ابنائه لكَسرٍ اصابه، وانا لتفقُّد مريض لي، وعرفته للتو فسلمت عليه وعرّفتُ بنفسي، فابتهج، ولم ينس ان يسألني مشيراً الى ذلك اليوم، ان كان في نفسي شيء من غِلٍّ، من يومئذٍ، وأشار الى صدره، فطمأنته عن كل شيء.

شقاء السنين (٥٤)

كلما استحضرت ازمة القصيدة الثالثة (الحزبية بامتياز!) ، سألتُ نفسي:لماذا كل هذا الإصرار على متابعة الدراسة، الابتدائية، أولاً، ثم الثانوية، رغم العوائق المادية الكأداء، المستمرة، ثم التصادم المصيري مع الادارة، في المرحلة الثانوية، ذلك الإصرار الذي حدا بهذه الاسرة البسيطة الفقيرة، المكونة من أمّيين وأنصاف متعلمين، ان تبيع نحاس مطبخها، وتفعل ما لم تفعله، ولم يلامس قناعتها، إذ كان ذلك (الكف الصفعة) الاول والوحيد الذي أناله من والدي، رحمه الله، في حياته (لا في حياتي!) ، ؟ ...الذين تفوقوا في أُسَرهم كثيرون، وكثير منهم لم يتابع دراسته واكتفى بما وصل اليه، تلك الايام، من قدرة على القراءة والكتابة، وأنا على يقين أن من هؤلاء من، لو أتيح له ما أتيح لي، لكان له في الناس ذكْر لافت مميّز.....أوَلَمْ تكن حادثة طردي المؤقت فرصة سانحة كافية للتوقف عند هذا الحد من التعليم، وهمّه، وقد توفرت كل المبررات لاتخاذ هكذا قرار؟ ....أمْ أن الله في خلقه شؤونًا، وأنّ (ذلك تقدير العزيز العليم) -كما يلخصها لي، دائمًا، صديق عليه مسحةٌ من تصوّف وبه نعمة من ......تسليم!

كان لنشر قصيدة ذات مضمون فكري وتوجّه حزبي، صدى لافت في اوساط الطلاب، فمعظمهم، إما منتمٍ الى احد الاحزاب الثلاثة الرائجة، أو متعاطف.كما ان طردي المؤقت ترك صدى اوسع في صفوف المعلمين، وفي المجتمع الكرمي الذي كان لحزب التحرير فيه حضور لافت، روّج خبر القصيدة والطرد، في آن معًا.

كان حزب البعث، اكثر أتباعًا وأشدّ شراسة تجاه حزب التحرير، من الحزب الشيوعي. وكان اكثر ابناء صفي نشاطًا في الأول (عبد الله الصوصه) ، وفي الثاني (عمر جرّاد) ، وكان من الشخصيات البارزة في البعث في المجتمع الكرمي، واوساط المعلمين، (سامي العطاري) ، و (احسان سمارة) ، ولقد علمت في حينه، وإن لم اطّلع، ان البعث كلّف (عبد الله) -وكان شاعراً، او ناظمًا مثلي او اكثر، -وربما حماسًا ذاتيًا منه، لا اكثر، ان

ينظم قصيدة يهاجم فيها ما ورد في قصيدتي، ويشيد بالقومية، ولقد تسرّب الى مسامعي منها البيت الذي يعنيني (بيت القصيد؟) كما يلي:

قوميتي قوميتي مرحى لها

تحرير إخسأْ انّ فيك سقاما (ولست متأكداً ان كانت قافية القصيدة مرفوعة، وبذلك يقع الناظم في خطأ نحوي يسمونه في علم العروض (إقواء) ...المهم أن حظ القصيدة من الانتشار والاهتمام كان محدوداً، ..هذا وسوف يرد ذكر (عبدالله) في الحلقات القادمة، عند الحديث عن مسرحية (عنترة)

في السنوات الاربع التي عشتها في الفاضلية (وفي طولكرم) ، أقامت المدرسة عدة نشاطات :عامة، وادبية ووطنية، فعلى مستوى المدرسة فقط كانت هناك مسابقة القصة القصيرة، ولقد شاركت في المسابقة ولم يكن لي في القصة القصيرة خبرة، ولا حتى ميْل، كما كان صديقي (اديب نايف) ، ومع ذلك فلقد فازت قصتي (ضحية التقاليد) بالجائزة الاولى!وكانت عبارة عن كتاب عن الحركة الادبية في العالم العربي، بإهداء وتوقيع الاستاذ حكمت فارس لبادة، نائب المدير، رحمه الله....كانت بطلة القصة، وضحيتها في آنٍ معـًا، فتاة ريفية متعلمة اسمها (هدى) ، قرر ذووها، بحكم التقاليد، تزويجها من ابن عمها الأُمّي، دون رغبة منها، وفي ليلة ظلماء غاب قمرها، تقرر الفرار من البيت ومن القرية، الى ...المجهول!وهكذا تخرج هدى على غير هدى (النص الاصلي في القصة!) ، ويعترضها بعد طول سفر، وإعياء، وادٍ سميته (وادي القاق) ، فتحاول قطعه، عبثـًا، وتحتضنهامياهه، وتكون فيه نهايتها المأساوية!

كما شاركت في مسابقة الانشاءالعربي على مستوى القضاء، اولاً، وكنت الأول، وامتدت المسابقةالى اللواء، وعقدت المسابقة في المدرسة الصلاحية، وكانت لجنة التحكيم مؤلفة من ثلاثة، احدهم (رفعت النمر) ، مدير البنك العربي في نابلس، آنذاك، وكان المتسابقون مخيّرين في الكتابة في احد ثلاثة مواضيع، اذكر منها:قضيةفلسطين قضية العرب

عامة، و:الامم لا تموت ولكنها قد تنتحر...!واخترت الكتابة في الموضوع الثاني، وفزت بالترتيب الاول في مسابقة اللواء، واذكر ان مدير المدرسة سألني (قبل ظهور النتائج) عن موضوعي، وكان تعليقه: لا تحب الخوض الا في الامور الوعرة!

اما في تصفية المملكة التي عقدت في عمان، فلم اوفق، كعادتي، ولا تحتفظ ذاكرتي بتفاصيل التصفية!

كان للفاضلية (منزلhostel) ، يقيم فيه الطلاب الذين يفضلونه على المساكن العادية، بالاجرة، ويقدرون على ذلك، وكان عبارة عن مبنى من طابق من عدة غرف، وقاعة (صالون) ، وتسوية واسعة، اقرب ما تكون من طابق ارضي، يحتوي على مطبخ واسع بادارة (حسن الجمل) ، وكان الاستاذ (رأفت قشوع) مدير المنزل، وكان خريج مدرسة خضوري الزراعية، وبعثي الانتماء (او الولاء) !وكانت قد جرت العادة ان تختار ادارة المدرسة الفاضلية عدداً من الطلبة المتفوقين المحتاجين، كل عام، لقضاء بضعة اشهر في المنزل مجانًا، من كل المراحل الدراسية، ولقد كنت احد هؤلاء الطلبة، فلقد (تنعّمتُ) بالاقامة المجانية في ذلك المنزل ثلاثة أشهر (من العمر) !متنقلاً بين اللحم والارز، اللذَين طال اختفاؤهما من مؤونتي اليومية!والنوم في سرير، وتحت فراش وثير! كان للمنزل مكتبة متواضعة، التهمتُ معظم ما راق لي مطالعته من كتب، مثل (العدالة الاجتماعية في الاسلام) لمؤلفه (سيد قطب) ، و (من هنا نبدأ) و (الديمقراطية ابداً) و (هذا او الطوفان) ، للشيخ (خالد محمد خالد) الازهري الذي تمرّد على ما تعلّم، فألّف ما ألف، ثم أفاق، بعد لأْي، وثاب الى رشده، وألّف (رجال حول الرسول) و (بين يدي عمر) وغيرهما......و (مصرع كليب) ، على شكل مسرحية شعرية، ومذكرات دجاجة، تأليف (اسحق موسى الحسيني) ، ....وغيرهم

هذا، ولم ينغّص هناء العيش في المنزل، إلا حادثة تذكّر بتوابع قصيدة جريدة الصريح...لا اذكر ما الذي جمعني بالاستاذ رأفت قشوع، مدير المنزل، في مكتبه، حيث دار

نقاش حاد بيننا، وكنت يومئذٍ في قمة الاندفاع، والثقة بالنفس، معززاً بالرتبة الاولى باستمرار، ولم يكن للمهادنة الفكرية، ولا للمداهنة، مكان في القضايا الحزبية التي تأصّلت في نفسي، إذ ذاك، وللحق والصدق والانصاف، فاني لا اتذكر الكلمات التي استفزّت المدير البعثي، وأثارت حفيظته، ففقد أعصابه و (صفعني) صفعة بكفه الرحب (وكان، سامحه الله، طويل القامة) ، كادت تُفقدني توازني!....وهكذا ذقتُ طعم صفعتين في السنوات الثانوية الاربع العجاف، وشتّان بين الصفعتين، في الحافز والطَّعم!!!

شقاء السنين (٥٥)

كان (راضي صدّوق) في بدايات (معاقرته) للشعر، حين دلف الى (الخُشة) التي اقيم فيها، بعد رحيلي من سقيفة (ابو العبد) ، -قبل ان يصبح شاعراً لامعًا ملء السمع والبصر، في شبابه وكهولته -...كانت الخشة، اختياري الجديد، الذي املته عليّ ظروفي المادية الجديدة، بمشاركة قريبي (احمد ابراهيم احمد اسماعيل) ، الذي كان يصغرني بسنة، وكان وحيد ابويه وشقيقاته، ... (وقد توفي رحمه الله في حادث سير في غور الاردن وهو في سلك التعليم) ....كانت الخشة جزءاً مختصراً من دار (ابو السبع الترّجلّي) الواسعة، خلف الخشة، حيث الساحة الرحبة التي كان فيها ابو السبع يصنع وينشر الطوب الاسمنتي، ليبيعه في السوق، وكانت خشتي تطل على زقاق ضيق، يفضي من احدى جهتيه الى سوق الخضار والشارع الرئيس، ومن الجهة الاخرى الى (المنشية) ، متنزه المدينة العام، والحي الجنوبي الغربي، حيث مقبرة البلد، والمدرسة العمرية الابتدائية، و...، وكان يُصعد اليها على بضع درجات، ولها مظلة، ومعزولة عن بقية الدار عزلاً تامًا، ويصل الماشي منها الى (الفاضلية) في بضع دقائق

كان الفصل شتاءً، والمطر غزيراً، حينما وصل (راضي) حاملاً قصيدة سطّرها في صفحة (فولسكاب) ، مديدة، يشيد فيها بالثورة المصرية (الانقلاب) ، الذي قام به مجموعة الضباط الاحرار في مصر، للقضاء على حكم فاروق الفاسد، وعلى الذين كانوا وراء الاسلحة الفاسدة التي افشلت فعاليات الجيش المصري في الحرب العربية الصهيونية عام١٩٤٨!.

كانت الثورة المصرية (الانقلاب الأبيض الذي لم يسفك فيه دم) ، حديث الناس، الشارع، والمدرسة، والسوق، علاوة على الاوساط السياسية المحلية والإقليمية والعالمية، وكان اسم اللواء (محمد نجيب) على كل لسان، حيث صُدِّر الانقلاب باسمه، لا باسم البكباشي (جمال عبد الناصر) ، ليكتسب وجاهة الرتبة العسكرية الأعلى (وهكذا فعل قائد

انقلاب الجيش الليبي، العقيد معمر القذافي، على الملكية ممثلة في (ادريس السنوسي) ، حين صُدِّر الانقلاب باسم (أسعد ابو الشوارب) ، الاعلى رتبة، لما لذلك من وقْعٍ ابلغ، في نفوس العسكر) !

كانت قصيدة طويلة، لم يعلق في ذاكرتي منها غير المطلع:

حيِّ النجيب وحيّ الثورة الكبرى..........

لم يطُل بقاء اسم النجيب، فلقد انقلب عليه صَحبُه-كما هي العادة في الانقلابات العسكرية والثورات (الثورات كالقطط، تأكل ابناءها!) ، وتسنّم االمنصب، جمال عبد الناصر، الرجل الاقوى في المجموعة، ...كما اختفى راضي من حياتي بعدئذٍ، فلم يتكرر لقاؤنا

ولا اكمل الصفوف الثانوية في طولكرم، غير انه تقلّب في عدة مناصب اعلامية على مستوى العالم العربي (الخليج بخاصة) ، كما اصبح (رحمه الله) شاعراً له حضوره، ويشار اليه بالبنان!

دوّنْتُ هذا الذي دوّنت، عن راضي صدّوق، لانوّه بواقعة من احداث الفترة (الفاضلية) ، اولاً، ولاشير الى صفحة من حياة سياسية عشتها، وعاشتها المنطقة، ولأسجّل استغرابي من اهتمام شاعر (بالقوة) ، أي في مرحلة التكوين، كما اصطلح الفلاسفة، بإسماع مثلي شعره في موضوع وطني سياسي محْض، وكيف، ومن أين، عرف اهتمامي بالشعر وتذوّقي له، وتفاعلي معه، في تلك المرحلة من حياتنا الدراسية، وتحت مظلة (خُشتي) ، وماء المطر منهمر لا يتوقف؟

هذا، ولأنّ الشيء بالشيء يذكر، والشجى يبعث الشجى، فلقد دأب زميلي (حكمت العتيلي-رحمه الله) ، في وقت متأخر من المرحلة الثانوية، على عرض (بضاعته) من محاولاته الشعرية، على مسامعي، مستمزجًا ومعجبًا بإنتاجه في آن معًا، في اوقات فراغنا. كانت ميول حكمت رياضياتية بامتياز، منذ تزاملنا في الصف السابع في عتيل، وابعد ما

تكون عن الادب، بلْهَ الشعر، فسبحان الذي يغيّر ولا يتغير، غير أن شعره لم يكن (عاموديًا) ، بل انتحى نحو شعر (التفعيلة) ، منزوع الدسم-كما اراه-وتسهل صياغته لتحرره من القافية، ومن الوزن (في كثير من الاحيان) ، خصوصًا في هذا الذي يطلقون عليه (قصيدة النثر) !....وكانت بواكير (شعر) حكمت، ما نظمه في اول اولاده، وقد سماه (جاد) ، واستهله هكذا:

عينا جادو زرقاوان-الخ، كما سمى ديوانه (الاول؟): (براعم تتفتّح) ، وكان يتلاعب بالكلمة الاولى فيقسمها نصفين ويضع فتحة على العين!

ومن طرائف مرارة العيش التي رافقني فيها حكمت، اننا توجهنا معًا، وقد استبدّ بنا الجوع، الى مطعم (ابو فخري البلعاوي) المطِل عل ساحة باصات الشعراوية، يحمل كل منا رغيفه، وطلبنا صحن فول، لنكتشف، ونحن ننتظر الفول، اننا أجهزنا على معظم ما لدينا من خبز بالملح المنضود على المائدة، قبل وصول الطلب!

كم تمنيت لو حظيتُ بفصل واحد (على الأقل) من تدريس اللغة العربية على يد الاستاذ وهيب البيطار، مدير المدرسة، إلا أن ذلك لم يحصل، فلقد كان متفرغًا للإدارة، تفرغًا كاملاً.....وفي يوم من الايام السعيدة، فوجئ فرعنا بدخوله ليملأ حصة فراغ، عندنا......وعنده، وراح، خرّيج دار العلوم المصرية، يصول ويجول في آفاق العربية، ويعرّج على المتنبي في معرض الإشادة بشعره، وينشد منه نماذج في عظمة الشاعر وعظمة شعره، ويردد، بصوته الكثيف السميك، عالي النبرة:

ذي (أي هذه هي) المعالي، فليعلوَنْ من تعالى

هكذا، هكذا، وإلّا فلا لا، مُشيداً ببلاغة التكرار المحبّب، في شطر البيت الثاني!

هذا وقد اختزنت ذاكرتي من خيرات تلك الحصة التي ملأ المدير فراغها أنّ المصدر على وزن (تفعال) يأتي دائمًا بفتح التاء، ولم يشذّ، بكسرها، إلّا (تلقاء) و (تبيان) !

وكم كانت حصص الفراغ تجلب لنا من النفع ما لا يجلبه امتلاؤها!...دخل علينا، ذات حصة فراغ، الاستاذ (عمر احمد ابو حجلة) ، من ابناء (دير استيا) ، قضاء نابلس، وكان احد الذين درّسونا اللغة الانجليزية، بالاضافة الى الاساتذة فريد البركة، وسلامة خليل، ونظمي السفاريني (ولم نحظَ بتدريس الاستاذ حكمت لبادة، المتخصص في تلك المادة) .

كان عمر ابو حجلة، عائداً، للتو، من الجيش العراقي (كيف انخرط فيه؟) ، بعد أن حلّ بالقضية الفلسطينية ما حلّ، وعادت الجيوش العربية الى......أوكارها!!!وكان ما زال متأثّراً باللهجة العراقية في حديثه...كان عمر شيوعي الافكار، والانتماء؟ وكان (موسوعيًا) في معلوماته العامة، يجيد (او يتقن) العربية والانجليزية..ترك لنا الدخول في أي موضوع، وتدخّل هو في التنسيق..ومما تعلمت منه في باب الحكمة او الفلسفة أنّ مقارنة الشيء بنفسه سخافة، قياسًا على التشبيه السخيف في بيت الشعر القائل:

كأننا، والماء من حولنا

قوم جلوس حولهم ماءو!

وعندما أُثير موضوع الترخيم الذي هو حذف آخر المنادى، ضربتُ له مثال (ألفية ابن مالك) التي ضمّنها كل قواعد النحو في الف بيت من شعر الرجَز الذي تتغير فيه القافية في كل بيت:

ترخيمًا احذف آخر المنادى

كيا سُعا في من دعا (سعادا) ،

فعقّب هو، متحدّيًا، قائلاً:ومِثْل ذلك حذْفُ آخر الحواشي، ولما حمّلني مسؤولية الإصرار على مثال حذف آخر الحواشي، قال:ترخيمًا احذفْ آخر الحواشي

كيا....في من دعا خراشي!

ثم طلب الينا ان نورد شعراً جميلاً في قصيدة او اكثر، فطرقنا اكثر من قصيدة، مثالاً، الى ان توقفنا، وتوقف معنا، عند القصيدة المشهورة التي مطلعها:

الا يا صبا نجدٍ متى هجتِ من نجدِ

لقد زادني مسراكِ وجْداً على وجْدِ

شقاء السنين (٥٦)

كان الاستاذ عمر احمد ابوحِجْله اديبـًا، ذوّاقةً واسع الثقافة، الى جانب تَوَجّهه الشيوعي (الذي كانت سوقه رائجة يومئذٍ) ، فعلى الصعيد الادبي، لـم يمرّ عـن القصيدة التي توقفنا عندها، كأروع ما قيل في الحب والشوق الى الوطن، لم يمرّ مرور الكرام، بل راح يحاورنـا، في الصف، حول ما لم يرِدْ في القصيدة ولا خطر لنا على بال

القصيدة، لشاعر اموي، عُذْرِيّ مُقِلّ، اسـمه عبـد الله بـن الدمينـة (منسـوبـًا لأُمّـه) ، وهـي واقعة في بضعة ابيات، كل بيت فيها قمة في الواقعية والتعبير عن دخيلة النفس البشرية:

أَإن هتفتْ ورقاءُ في رونق الضحى

على فننٍ غضّ النبات من الرندِ

بكيتَ كما يبكي الوليد ولم تكنْ

جزوعـًا، وأَبديتَ الذي لم تكن ْ تُبدي

....

...............بكلٍّ تداوينا فلم يَشْفَ ما بنا

على أنّ قُرب الدار خيرٌ من البعدِ

على أنّ قرب الدار ليس بنافعٍ

اذا كان من تهواه ليس بذي ودِّي!

كلمات واضحة لا غريب فيها وأداء في منتهى السلاسة والانسياب والعفويـة، أَيْ أنهـا (لا شِيَةَ فيها) ، ويفاجئنا الاستاذ المرحوم بالسؤال:ما عيْبُ هذه القصيدة؟

وعلى الرغم من إعجابنا الشديد بكل بيت في القصيدة، إلا أننا رحنا (نتمحّك) ونتلمّس عيبـًا هنا او هناك، وكأنّ لسان حال القصيدة والشاعر، قول المتنبي، بعد اكثر من قرنين:

كمْ تطلبون لنا عيبـًا فيعجزكمْ

ويكره الله ما تأتون، والكرَمو!

وبعد أَخْذٍ وردّ، وتشريق وتغريب، ينفي استاذناكل ادّعاءاتنا، بقوله:

عيبها أنّها ....قصيرة!

وأنا، بعد أكثر من نصف قرن من ذلك الحوار، أعترف لأستاذنا بصحة وجهة نظره، ونقاوة ذوقه الأدبي

ثم ينثني ويخرج استاذنا عن الجو الادبي الى المتاهات الفكرية، والمعتقدات الاشتراكية-الشيوعية، فيعرض علينا القضية الافتراضية التالية: لو كنت المسؤول عن مجموعة في قارب، واضطرب البحر، وعلا موجه، وكان لا بدّ من التضحية بواحد من الراكبين، ليسلم القارب من الغرق، فبِمنْ تضحي؟ ....وعندما لم يجدْ منّا جوابا شافيًا، كان رأيه:نضحي بأَقلّ المجموعة نفعًا للمجتمع...انسجامًا مع مبدأ التضحية بالفرد من أجل المجتمع!

وتمر السنون، ونلتقي في عيادتي في عمان، حيث جاءني يستكتبني لمجلة كان يشرف على تحريرها في عمان، مقالة عن مرض الحصبة، ولم اتردد في التلبية، ولقد ساءني أنني لم أتبيّن في ملامح وجهه ذلك العنفوان، ولا تلك الحيوية، ولا ذلك الاندفاع الذي عهدته في (عمر ابوحجلة) في غابر الدهر!أهكذا تنزع الأيام من النفوس حيويتها؟ وتحيلها سكينة وهدوءاً بلا لون ولا طعْم ولا .....نكهة؟ ؟ ؟ !!

في العام الدراسي١٩٥٤/ ١٩٥٥، قررت إدارة الفاضلية إقامة حفل تخريج لمجموعة ذلك العام، وأن يتكلل الحفل بمسرحية (عنترة) ، للأجواء البطولية التي تصاحبها، والرجولات التي تتجسد في أدوار الممثلين.ولما لم يكن للفاضلية مسرح، يومئذٍ، فقد وقع الاختيار على (المدرسة العمرية) ، برعاية مديرها الاستاذ (ابو فاروق البشناق) .فيها يقام الحفل والتمثيل.هذا، وقد اختار الاستاذ وهيب البيطار، مدير الفاضلية، استاذه (اكرم زعيتر) خطيب الحفل، أما المسرحية فقد عَهِدتْ بها ادارة المدرسة الفاضلية الى الاستاذ (يوسف الحافظ الناشف) ، معلم (تاريخ العرب والمسلمين) ، ليختار الطلاب والادوار،

والمقاطع من المسرحية الشعرية التي تعتبر، هي و (مجنون ليلى) ، انجازا ادبيًا متميزاً لامير الشعراء (احمد شوقي) .

وقع الاختيار على (محمود شاكر ابو كشك) ليقوم بدور (عنترة) ، وعلى (عبد الله الصوصة) ، الشاعر الذي نظم قصيدته القومية رداًعلى قصيدتي في جريدة (الصريح) ليقوم بدور (ضرغام) منافس عنترة في حب عبلة، ووقع الاختيار على (ابراهيم الصايغ) ، الشاب الوسيم فاتح لون البشرة، دون اي انتقاص من رجولته، طبعًا، ليقوم بدور (عبلة) ، ....وكنت انا (مالكًا) ، والد (عبلة) ، ...وأُسند إليّ حفظ جميع الادوار، احتياطًا، ولعب الاستاذ (الناشف) دور (المُلَقِّن) ، كما هو المألوف في المسرحيات

كان (اكرم زعيتر) نجم الحفل، بكل جدارة، فهو الخطيب المصقع الذي يعرفه تلميذه (البيطار) معرفة جيدة، ...كان صوته ونبراته، اكبر من حجم جسده بكثير، وكان يتفتق حماسًا للوحدة والعرب والعروبة، ما رفع بعباراته حرارة الجمع، علاوة على حرارة الجو فصلئذٍ

ثم جاء دور المسرح وال (ممثلين!)

يقف (عنترة) -محمود ابو كشك، -على المسرح وحيداً يشكو ما يكابد في حب (عبلة) ، من شوق، ومن تجاهل عمّه له:

سلي الصبح عني كيف يا (عبلَ) أُصبحو

وكيف يراني نجمهُ حين يلمحو

أفي خيمتي، كالناس، أم في بيوتكمْ

أَبُثُّ الخيام الشوق، وهو مُبَرِّحو

أبوكِ غرير القلب، لم يعرف الهوى

ولم يدْرِ ما يأْسو القلوب ويجرحو!

وهذه بعض المقاطع والمشاهد المسرحية التي لعب الطلاب ادوارها، شعراً:

في معرض التنافس الشديد (والمكشوف!) في حب عبلة، يلتقي العاشقان (عنترة-محمود-و ضرغام-عبد الله) ، وجهاً لوجه، ويدور بينهما الحوار التالي، الذي هو استعراض بطولات جسدية، هي مؤهلات العصر، واقتراح عنترة:

تعالَ نذهب الى شمس النهار ضحىً

نقول : عبلةُ قد خُيِّرتِ فاختاري

رأسي ورأسكَ في الميزان قد وُضِعا

وحُكْم سيفك أو سيفي هو الجاري

من مات منا قضى حق الهوى شرفاً

وليس في الموت دون الحب من عار..ي!

ويتقدم (رَبْع) ضرغام لخطبة عبلة، بعد أن أصرّ ابوها (مالك) ، زعيم بني عبس، على إقصاء عنترة، الأسْود بن السوداء التي (الشَّعر منها مثل حب الفلفلي) !، ويروح مالك يستفسر منهم عن مؤهلات (الخطيب) :

أَصيخوا لي:أَصاحبكم فصيحٌ

فعبلة تكره الرجل العيِيّا

ويردّ (الناطق باسم الجاهة!) ، وبكثير من المبالغة:

أَلَمْ ترَ قطُّ (قسّاً) في (عكاظٍ)

و (سَحبانـاً) اذا شهِد النديّا؟ -مشبهـاً الخطيب بقس بن ساعدة الإيادي، وسَحبان وائل، في الفصاحة وبلاغة الخطابة!

ثم يعود مالك فيتساءل:

شقاء السنين (٥٧)

ويسترسل (مالك)، ابو عبلة، وزعيم بني عبس، في (الاستفسار) عن مؤهلات الخطيب العريس، خطيب بني عامر:

اصيخوا لي: أصاحبكم شجاعٌ

فعبلة تُبغض الرجل الجبانا

ويردّ قائلهم، بنفس الدرجة من المبالغة:

كليث الغاب إقدامًا وكرّاً

اذا اعتقل المهند والسنانا!

ويعود مالك متسائلاً:

أصيخوا لي: أصاحبكم غنيّ

فعبلة طفلة تهوى الثراءَ

ويرد قائل بني عامر:

سنسكنها القصور كبنت كسرى

ونُلبسها الجواهر والفراءا!

وهكذا، يستعرض مالك (مناقب) الخاطب، واحدة واحدة، الى ان يبدو للقوم رضى مالك المبدئي، فيعلن قائلهم:

في غدٍ نحْرٌ وقِدْرٌ

في غدٍ دُفٌّ وزامر

انهضوا، بورك في الصهر لعبسٍ ولعامر

ويهم القوم بالخروج من الخيمة، فيستوقفهم مالك ليقدّم للضيوف (المَجيع) الذي هو مزيج من حليب وتمر (كنافة الجاهلية!)، ويسترسل القوم في مدح البان عبس وتمرها:

ألبان عبسٍ تفضل العُقارا

وتَمرها كحَلَم العذارى!

هذا وتكون نهاية (الطلب) مؤسفة عند تحديد المهر الذي هو (رأس عنترة) ، ويدب الخلاف الحاد بين الفريقين، ويعود بنو عامر كما جاءوا، !

وتنتهي المسرحية بزواج عبلة من عنترة، وزواج منافسه الآخر في حبّها (صخْر، الشريّ) من احدى عذارى الحي.

هذا، وتمرّ الأيام، ويشاء الله ان ألتقي بمحمود على متن طائرة الملكية المتجهة الى (نيو يورك) ، هو للعلاج من مرضٍ ألَمّ به، وأنا لزيارة الاولاد في الولايات المتحدة الاميركية، وذلك في اواخر تسعينات القرن الماضي، اما عبدالله وابراهيم فلا اعرف ان كانا ما زال على قيد الحياة، فلقد علمت ان محموداً انتقل الى رحمة الله منذ عهد قريب؟........

في أول آذار، من عام ١٩٥٦ ، تمّ تعريب قيادة الجيش الاردني، بالتخلص بإنهاء عقود ضباطه البريطانيين، وترفيع ضباط اردنيين ليأخذوا امكنتهم، وكان للحدث وقع وصدى مدوٍّ في النفوس، تحركت على أثره الاحزاب، بل استغلته، وركبت موجته للترويج لافكارها، من خلال الدعوة الى التحرر من قيود الاستعمار، بكل اشكاله ومظاهره، فعُقدت الندوات والقيت الكلمات، مباركة قرار التعريب، والتخلص من الهيمنة البريطانية

وكان من نشاطات الحركات القومية، وبمشاركة شيوعية، أن أقيم مهرجان خطابي امام محلات (المبروك) المطلة على الساحة المركزية الرئيسية في طولكرم، وتداعى للمشاركة فيه شخصيات عدة، متعددة الاتجاهات، يوحدها حدَث واحد، هو التعريب، وهدف واحد هو الاستعمار البريطاني

كنت يومئذ اشاهد ما يجري عن كثب، واتفاعل مع عبارات الخطباء، الداعية الى التحرر، ولا ادري كيف وجدتُ نفسي على المنصة، احمل المكبّر (المايكروفون) ، ولأول مرة في حياتي!، لأخطب في الجمهور المحتشد في الساحة، مفتتحًا مشاركتي بمخاطبة الأمة:

شُقّي طريقكِ لا تليني

وتحرري، لا تستكيني

ودوى صـوت المكبـر في السـاحة، واذا بصـيحة معاكسـة غاضـبة تصـدمني مـن بعيد:يونس.......انزلْ

ونظـرتُ فـاذا هـو الاسـتاذ (حسـن خيـري المنصـور) ، رحمـه الله، ولا ادري كيـف (صدعْتُ بأمره) على الفور، وتركت المكبّر، ونزلـت عـن المنصة بمثـل مـا اعتليتهـا، دون تردّد!

كان (حسن) ، -مدير مدرسة قرية دير شرف القريبة من نـابلس، أقـدم مني وأعـرق، في حزب التحرير، وبذلك كان اشـدّ انضـباطـًا والتزامـًا بمفـاهيم الحـزب التـي لـم تكـن تـؤمن بالمظاهرات وما شاكلها وسيلةً لنشر الفكر وترويج المفاهيم واعلان المواقف، ....وهكـذا خرجت من الساحة، بعد ان ذكّرني، رحمه الله، بما كنت اعرفه، لولا شيطان الحمـاس الـذي أنسانيه ان أذكره!

هذا، وسوف يكون لي مع هذا (الحسن) ، شأْن، بل شؤون، في قادم الايام!

في اليوم التالي لحديث المنصّة، كان طلاب الفاضلية على موعد مع الادارة، حين أطَلّ مدير المدرسة على الطلاب في لقاء الصباح، على غير عادته، ليلقي كلمة وطنية في المناسـبة (التعريب) ، مشيداً بالحدث، ومعَظّمـًا قرار جلالـة الملـك (الحسـين) ، ومـا أن انتهـى مـن كلمته، حتى تساءل إن كان لطالب رغبـة في ان يقـول شيئـًا، ...ومـرةً اخـرى، ولا ادري بـأيّ حافز، وجدت نفسي امام الطلاب ارتجـل كلامـًا في الوطنيـة والحريـة، مسـتخدمـًا مـا كنـت احفظه مما كنـت اقـرأه واستحسـنه، مـن عبـارات رنانـة في الحريـة والعـزة والوطنيـة، مُنهيـًا كلمتي بعبارة حفظتها من احدى مؤلفات (خالد محمـد خالـد) : (ولقـد آن لهـذه الشـعوب الهاجدة أن تتململ تحت أشعّة فجر جديد!)

هذا، ولقد نالت كلمتي تلك استحسان المعلمين والطلاب، بالتصفيق، ثم عبرنا جميعنا الى الصفوف.

لم تخْلُ الحياة في السنوات الاربع التي عشتها (ولا أقول :قضيتها) في الفاضلية الثانوية، وفي مدينة طولكرم (الحبيبة) ، من مواقف وطرائف متعددة، علِق بعضها بذاكرتي بفعل عمقها وتأثيرها في نفسي يومئذٍ، ...منها ما كان بطلها احد المعلمين، ومنها ما كان بطلهااحد طلاب المدرسة

في عام١٩٥٤/ ٥٥، التحق بالهيأة التدريسية الاستاذ (عبد الخالق جرار) لتدريس مادة الفيزياء، وكان كما بدا لنا حينئذٍ، انه حديث التخرج من احدى الجامعات المصريةإذ انه كانت تغلب على كلامه اللهجة المصرية، فكلما كان يشرح سبباً لخطوة من خطوات الحل في مسائل الفيزياء، كان يكثر من عبارة (علَشان خاطر يحصل) !وعلى الرغم من كفاءته العلمية، إلا أنه كان ضعيف الشخصية مهزوزها، بعض الشيء، بحيث ان طلاب الصف كانوا يستخِفون بلهجته ويسخرون منها، ومن بعض حركاته اثناء الشرح، من غير ان يلفت ذلك نظره (ولا اعتقد أنّ ذلك كان عائداً الى نظاراته السميكة التي لم تفارق عينيه) !

شقاء السنين (٥٨)

عندما التحق الاستاذ عبد الخالق جرار بالهيأة التدريسية في المدرسة الفاضلية، معلمـًا لمادة الفيزياء، كـان حديث عهدٍ بالتخرج من احدى الجامعات المصرية...يَشِي بذلك استمرار اللهجة المصرية على لسانه وهو يشرح او يحلّ احدى مسائل الفيزياء، حيث كان يُكثر من تعبير (على شان خاطر يحصل...) .كانت شخصية الاستاذ (جرّار) مهزوزةً بعض الشيء، فلطالما اعاد طلاب الصف بعض عباراته المستهجنة المذكورة، استهزاءً بها، دون ان يلفت ذلك انتباهه ابداً، كما كانوا يقومون بحركات استهزائية به، وهو يدير ظهره الى الصف والطبشورة في يده ليشرح على اللوح نقطة معينة، ولا اعتقد انه كان لنظاراته السميكة التي لم تكن تفارق وجهه، دور في عدم انتباهه....هذا الى الهرج الذي كان يسود الصف في حضوره وهو يشرح، بين الفينة والفينة!

كان خالد محمد العارف الناشف زميلاً في فرع (ج) ، وكان خالد شاباً وسيمًا مدللاً مستهتراً خفيف الظل، مهملاً بعض الشيء، ...ابوه الاستاذ محمد العارف من أقدم وأعرق معلمي الفاضلية، تراوح تدريسه بين الرياضة (نعم...الرياضة) والزراعة والاحياء، كان في تدريسه لا يشرح بل يملي علينا ونحن نكتب ونحفظ!

كان خالد لطيف المعشر، وتبدو عليه مظاهر النعمة في وجهه وهندامه، ولقد كان لي شرف مساعدته في دروسه على شكل تقوية بيتية، بعض الوقت.

(وسوف أتناول موضوع الدروس الخصوصية، أو دروس التقوية، في حلقات قادمة) .

كانت مسألة الفيزياء حول الأجسام الساقطة تبدأ كالمعتاد (سقط حجر من على مئذنة.........) ، وانهمك الطلاب في الحل، والاستاذعبد الخالق على كرسيه، ينتظر الحلول، عندما سمع همهمة ما لبثت ان تحولت الى هرج مسموع، ينبعث من مقعد خالد، فالتفت الاستاذ الى المصدر ونادى على خالد ليعرف سبب الهرج (الذي كان تذمُّراً من

خالد من صعوبة الحل) ، فما كان من خالد الا ان أجاب، وبكل خفة دمه المعروفة:مشكلتي، استاذ، ان السؤال لم يحدد أي المئذنتين يعني، مئذنة الجامع القديم أم مئذنة الجامع الجديد! (هذا، وكان في طولكرم جامعان فقط مشهوران بهذين الاسمين) ، فانفجر الصف بالضحك الذي تطور الى قهقهة صاحبها بعض الفوضى!

كان الاستاذ فهمي عودة احد معلمي اللغة العربية في الفاضلية، ...كان نحيف الجسم معتدل القامة، أقرب الى القِصَر، (فقير ملامح الوجه) ، لا يبتسم، أو لم أعثر عليه يمارس الابتسام...!

دخل علينا يومــًا ليشرح درســًا في الادب العربي يدور حول الشعر الأموي، وحول (النقائض) ، تحديداً...وشعر النقائض، لمن لا يعرف، شعر يقوم على الهجاء المتبادل بين أشهر ثلاثة شعراء ذلك العصر، وهم جرير والفرزدق والأخطل، ويصاحب الهجاءَ المُقْذِع مديح مفرط بقوم الهاجي، بطبيعة الحال.وفي معرض شرحه المستفيض، وجّه الينا السؤال التقليدي:ما أهجى شعر قاله هؤلاء؟ وبعد أخذ وردّ، قطع هو القول، وفي قمة النشوة والارتياح، بقوله:هذان البيتان من قصيدة للأخطل في هجاء جرير، يعيِّره بشدة بخل أمه، حتى في ما يفرزه الجسم ليتخلص منه، ألا وهو.....البول:!

قومٌ، إذا استنبح الأضياف ُ كلبَهمو

قالوا لأُمهمو بُولي على النارِ

(لإطفائها)

فتمنع البولَ، شُحّـًا، أن تجود بهِ

ولا تجود بهِ الا بمقداري!!!

إذ ان كلاب الحي هي التي تُحِسّ بقدوم طارق بالليل، ضيفـًا كان أم لصـًا أم معتديـًا، فتبادره بالنباح لإيقاظ النائمين، أما إشعال النار، فهو ديدن أهل البادية، يضيء حول الخيام، ويهدي من ضل سبيله، يستضيفه ويؤويه، وهو، عادةً، مؤشِّر على الكرم

كان الاستاذ محمد سعيد القصراوي (ابو بسام) ، معلم مادة الفيزياء للصفوف الثانوية المتقدمة، ..كان ابو بسام قصير القامة، ذا كرش يزيد قِصَر قامته في بروزه، ولا تفارق حقيبته قبضة يده، في الذهاب والإياب

وكان يحرص على ان يستهل درسه بحكمة او آية، يزيّن بها عنوانه، فاذا كان الموضوع يتعلق بانكسار الضوء وانعكاسه، وعلاقة ذلك بالرؤية، سارع الى القول (وفي انفسكم، أفلا تبصرون) وراح يشرح كيف نرى......وهكذا

دخل الصف في احد الايام، وكان الشرح يدور حول الاجسام والكتلة والذرة، ثم توجه الى اللوح الاسود وتناول الطبشورة، وراح يكتب وهو يشرح: يقول العلماء إنّ عدد ذرات الكرة الارضية هو. ١٠ مرفوعة الى القوة٢٣!ولماأثار الرقم استغرابنا، سأله سائل عن كيفية الوصول الى هكذا (إحصائية!) ، كان جوابه المشفوع بالسخرية:اذا مش مصدق، روح عِدّ!

كان الاستاذ امين حطاب (وكان لقب الشيخ يغلب على لقب استاذ) معلم اللغة العربية للصفوف العليا، بلا منازع، فهو خريج دار العلوم المصرية، التي تخرّج فيها (أو منها!) الاستاذ وهيب البيطار، ولعل لقب الشيخ جاء من هناك، إذ لم يكن الاستاذ معمّماً (لكن الطربوش لم يكن يفارق رأسه) ، ولا لابس جُبّة، بل بدلة رسمية عادية، ....هذا في ما يخص المظهر، اما الجوهر، فمرجعه الى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم خائنة الأعيُن وما تخفي الصدور!

كانت مواد اللغة العربية في المرحلة الثانوية موزعة بين القواعد، والادب (تاريخا ونصوصًا) ، والبلاغة، والعروض، والقراءة (أي قراءة قطعة ادبية بلفظ وحركات سليمة)...

كان (عدنان) يسبقنا بسنة، وكان يجلس في المقاعد الخلفية في صفه، وكان عيِيّـًا يتَأتئ في كلامه وقراءته، وتزداد تأتأته اذا أحسّ أنه مراقب....وفي يوم من ايام الدراسة، والشيخ امين مستغرق في الشرح سمع هرْجـًا صاعداً من المقاعد الخلفية، وعندما استفسر عن مصدر الضجة والكلام أجاب زملاؤه من حوله (زوراً) : عدنان، يا استاذ.فما كان من الشيخ

امين (وكان يعرف عُقدة عدنان) إلا أن قال، ساخراً:عدنان!خلاص .حطيت لك علامة القراءة!!!

في المدرسة، وفي المرحلة الثانوية، تتفاوت درجة الزمالة بين الطلاب، لعدة أسباب، وعلى الرغم من المنافسة التي لم تفتر حدتها يومـًا، على مدى اربع سنوات، الا أنّ زمالة نظيفة كانت تربطني بكثيرين، من شتى الفروع، وفرعي بخاصة، وبعدد محدود من طلاب السنوات السابقة

لكن صداقة حميمة قامت بيني وبين......

شقاء السنين (٥٩)

صداقات مدرسية

كان عبد الفتاح الحاج موسى التايه، وحيد والديه وشقيقاته، متوسط الاجتهاد والتحصيل الدراسيين، مدللاً في غير ترف ولا إفساد، ..تعارفنا بعد السنة الثانوية الاولى، صدفةً، وعلى الرغم من أن (ابو العبد) ، بواب الفاضلية المشهور، كان عمّه، أخا أبيه، إلا أنني لم المس بينهما من حرارة الود والحظوة في المعاملة ما يوحي بتلك القربى!

تعززت صداقتنا، مع الايام، ..كان هو ينظر إليّ طالبًا مجتهداً، رقيق الحال، بإعجاب وتقدير، وأنا انظر اليه (وحدانيًا) ، ينتظره مستقبل مثقل بمسؤولية (عمادة) أسرته، حيث كان والده (يوم تصادقنا) مفلوجًا مقعداً،، أدت مضاعفات إصابته بالسكري الى بتْر ءإحدى ساقيه، ما جعلني أعطف عليه، وأحرص على مساعدته، عند اللزوم، في بعض مواد الدراسة، إذ لا أملك إلا تلك البضاعة!

لا خيل عندك تهديها ولا مالو

فليُسْعِدِ النطق إن لم تُسعد الحالو

ومع الايام، اقتربنا اكثر، وتعرفت الى اهل عبد الفتاح : والده المفلوج، (سليم) ووالدته (امينه، ام العبد) ، وشقيقاته، (نوال و...نسيت الاسماء الاخرى) ، وخالته الأرمله (آمنة–ام فاروق) ، وابنائها (فاروق، ورقية، والصغير عُمر، الذي اصبحتُ طبيب احفاده، هذه الايام !) ولقد كان لهم أخت كبرى، غير شقيقة؟ ، تعمل معلمة مدرسة، تدعى (أمية) ، تعرفت اليها في لقاء وحيد، حيث تزوجتْ بعد ذلك بقليل، من ابن خالتها المتزوجة في قلقيلية من (راجي الشنطي) الميسور الحال، وصاحب محطة محروقات عند مدخل البلد، ووالد كل من عصام؟ ومازن ومنذر (وسوف يرِد ذكر هذَين في قادم الحلقات) !!

هذا وكنت اتردد الى منزل عبد الفتاح الواقع قريباً من الجامع القديم، وكان بيتا مزدوجاً حيث ضمّ اسرتي الشقيقَين (والشقيقتين-حيث كان الشقيقان عديلَين) ، حيث كان مكوناً من طابقين، يصلهما درج خشبي كثير العدد، ...وكثيراً ما كان يدعوني الى غداء أو عشاء، عطفاً عليّ، ووداً صادقاً. هذا ولقد تعززت الصداقة بيننا، والود والاحترام المتبادل مع كل افراد الاسرتين، حدّ التمازج ورفع الكلفة (كما يقال) ، ولمّا لم يَطُلْ بابي العبد العمر، وانتقل الى ربه، عُهِد إليّ بتبليغ احدى بناته بخبر وفاته، في عملها، مُدَرّسةًفي قرية (ترمس عيًّا) من قضاء رام الله.

واستمرت صداقتنا، بل توثقت، بعد وفاة والد عبدالفتاح، ودرسنا معاً في بيتهم لامتحان المترك، وكان كل من مازن الشنطي وشقيقه منذر، يتردد على بيت خالتهم في طولكرم، ما أدى الى تعارفنا وتصادقنا.ولم يفرّق بيننا الا انتهاء المرحلة الثانوية، والتحاقي بالجامعة الاميركية في بيروت، والتحاقه باحدى الجامعات الالمانية، لدراسة الطب، وتواصل الود بعد الجامعات، وابتعاد مواقع العمل، في حفل زفاف احدى بناته في عمان، ثم في تعرفي الى ابنه (سليم) ، الذي فقدت الاتصال به منذ بضع سنين!

رحم الله عبد الفتاح، فلقد توفي منذ بضع سنين، بعدما أصابه ما أصاب أباه!! السكري وضغط الدم والفالج، في اواخر ايامه، كما علمت من معارفه الذين عايشوه في الامارات العربية، حيث كان يعمل طبيب اطفال!

وتوثقتْ معرفتي ب (سعيد عبد الرازق احمد سعيد) ، وتطورت الى صداقة حميمة، منذ الايام الاولى في الفاضلية، وزرته في دارهم في قرية (عِلّار) ، وتعرفت الى ابيه الذي (رحمه الله) كان يعاني من مرض الربو، كما توثقت صلتي بشقيقه (علي) الذي كان يكبرنا بثلاث سنين، وتواصلت علاقتنا، إذ عاصرته وهو في سنته الاخيرة من بعثته الى الجامعة الاميركية في بيروت، على حساب وزارة التربية، حيث كان من العشرة الاوائل في المملكة في امتحان المترك، كما عزّز علاقتنا انتماؤنا الى حزب التحرير، يومئذٍ.

وتخرجنا، وافترقنا، بعد المترك، حيث ذهب سعيد الى المانيا لدراسة الطب، وأنا الى الجامعة الاميركية في بيروت، .وعاد سعيد ليعمل طبيب اسرة في الكويت، ويُهَجَّر، مثل كثيرين، بعد غزو الكويت عام ١٩٩٠، ليستأنف عمله في عيادته الخاصة في عمان، ويجدني فيها، منذ عام١٩٧٥، ويجدد سعيد الصلة بي في لقاء حميم ضمّ مجموعة من ابناء الصف الثانوي الواحد، في منزله، عند (عبدون) .....

وفي يوم من الايام، يفاجئني سعيد بصورة لي، كنت اهديته إياها قبل افتراقنا، في الفاضلية (وكان تهادي صور الفراق المنتظر تقليداًممارسا يومئذٍ) ، كتبتُ على ظهرها عبارات إهداء في منتهى الرقة والحميمية!كان عمر الصورة يزيد على نصف قرن، غير أنها كانت سليمةمن كل سوء، ما دفع سعيداً الى تكبيرها، وطبْع خمس نسخ منها على صدور خمسة قمصان رياضة، بيضاء، واسعة، لأولادي الخمسة، لتكون (أيقونة) على صدورهم!!!

وتستمر صداقتنا، وان قلّتْ لقاءاتنا، الى يومنا هذا، والى ان يقضي الله فينا قضاءه

كما توطدت الصداقة بيني وبين أحد الذين نافسوني بقوة على الرتبة الاولى (كامل عبد الرحمن عمر) ، من قرية فرعون القريبة من طولكرم. ...لم يوفق كامل في امتحان المترك، وإن جمع علامات عالية، فجنح الى أن يعمل معلم مدرسة، الى حين.وكنت اتردد على دارهم في فرعون، وتناولت طعام (المسخّن) فيها في احدى عطل الجامعة الصيفية

وفي يوم من الايام، قرأت على لوحة إعلانات الجامعة الاميركية في بيروت، وكنت في السنة الثانية، أنّ مؤسسة (ركفلر) الاميركية، تنوي ابتعاث طلاب من العالم العربي، لدراسة مادة الإحصاء، وما يتبعها من الرياضيات، في الجامعة الاميركية إياها، بعثة كاملة، إذا أهلتهم علاماتهم بالمنافسة لهذا الهدف

تذكرت كاملاً وكفاءته التي اعرفها، فكتبت اليه ان يبعث اليّ بعلامات المترك، بالانجليزية، مصدّقة، على الفور، وما هي الا ايام قليلة، حتى وصلت علاماته بريدي،

فحملتها الى الجهة المعنية، وفاز في المنافسة ببعثة الإحصاء، وتخرج وتعاقد مع شركة الزيت العربية الاميركية (أرامكو) ، في الظهران، في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، ليعمل في شئون الحاسوب، الذي كان في بواكير عهد الناس والشركات، بعالمه غير المحدود.

وتمر الايام، وألتحق انا بهذه (الارامكو) ، طبيبًا، ويكون كامل في انتظاري، ليعرفني على مرافق الحي الاميركي الذي كان هو ايضًااحد سكانه المتميزين، وأتعلم لعبة الورق المشهورة (الطرنيب) على يديه، أُزجّي بها، وبالقراءة، وقت فراغي، وما كان أطوله في تلك الايام!، ويسافر كامل الى مصر، زائراً، وأوصيه، ويحضر لي ديوان المتنبي، كاملاً...ويشاء الله ان ان ءأرزق بابنتي الاولى (اروى) ، ويحملها كامل على كتفيه، ملاعبا كلما زارنا في بيتنا هناك، ونلتقي في الولايات المتحدة، في منزله في (هيوستون) ، من ولاية (تكساس، قادمين اليه من مدينة (أيَوا) ، إبّان تخصصي، حيث كان هو هناك في مهمة أسندتها اليه الشركة، ولمدة اسبوع قضيناه معًا......ثم نلتقي مرة اخرى في مسكنه في الشركة عام١٩٨٩، ولا اراه بعد ذلك حتى اللحظة، ولا اعلم عن اخباره شيئًا، رغم اللجوء الى وسائل التواصل بشتى أشكالها!

كما كنت على صلة ودية خاصة مع المرحوم (جميل عبد الحليم الجبالي) -من أهالي الطيبة اصلاً-وزرته في بيتهم المطل على السوق والساحة الرئيسية في طولكرم، والمفروش بالارائك، فلا مكان للحصير ولا لمساند القش، ولا حتى لزرابي مبثوثة!فلقد كان جميل يعيش نمط حياة مترفة (مدنية) ، ما شكل حاجزاًنفسيًا بيننا!

ومن ابناء صفي الذين عاشرتهم فوق الاجواء الدراسية (اديب نايف ذياب-وكان يحب اضافة كلمةالعامري في آخر اسمه) ....هو من قرية (المنسي) القريبة نسبيًا من (ام الشوف) ، والمتميزة بكثافة هائلة من حمَلة الشهادات الجامعية العليا، بالنسبة لعدد السكان

كان اديب أدبي الميول، ويكثر من قراءة القصص المترجمة، على العكس مني، ورغم سبقي له في مسابقة القصة القصيرة!وكان يعجبني فيه بساطة مظهره ومعاملته، ولهجته ذات

النكهة البدوية،، ....كان اديب يحب السينما وتسمح له ظروفه المادية بارتيادها، حيث كان اخوه انيس مدير مدرسة ابتدائية، ...ولا انسى انه كان السبب في دخولي السينما للمرة الاولى في حياتي (بعد صندوق العجب في ام الشوف) !حيث شاهدت في معيته فيلم (صراع في الميناء) ، في سينما العاصي بنابلس، بطولة ممثل اميركي، من اصل ايطالي؟ ، يدعى (مارلون براندو) ، وقد تكفل اديب بكل تكاليف المشاهدة من مواصلات وتذاكر، الى ....التسالي!!!

وافترقنا بعد المترك، ودرس اديب مادة الفلسفة في مصر ونال فيها شهادة الدكتوراه، ليعمل استاذاً في الجامعة الاردنية، وتكون لقاءاتنا شحيحة، بعد عودتي من الولايات المتحدة، لتقتصر على مناسبات العزاء، وآخرها تعزيته بشقيقته انيسه، منذ أقل من عامين

وتنقضي ثلاث سنوات ثانوية عجاف، وتبدأ الاستعدادات لامتحان المترك المصيري في السنة الرابعة والاخيرة، على قدم وساق......

شقاء السنين (٦٠)

اذا كان هناك محطات (مصيرية) في حياة طالب المدرسة، وفي خمسينات القرن الماضي، على وجه التحديد، فلقد كان امتحان المترك (والتوجيهي، لاحقًا) مصيريًا، بكل معنى الكلمة، فالراسب فيه توصد في وجهه شتى فرص العمل المتميز، والمتفوق يجدها مشرعة على مصاريعها، كما يجد الآفاق واسعة لمزيد من التحصيل الدراسي والتأهيل العلمي الأعلى، سعياً وراء التميز الذي يمنح صاحبه موقعًا كريمًا وحياةً أفضل.

تغير مسكني في المرحلة الثانوية عدة مرات في مدينة طولكرم، التي لم تكن مؤهلة لاستيعاب طلاب من خارج المدينة في مساكن مختصرة يملكها الاهالي لهذه الغاية، فكان العثور على (مأوى) لشاب او اكثر، في احدى زوايا بيوتهم، أمراً صعبًا، بقدر ما كان محرجًا للمالك، (والطالب) ، على حدٍ سواء

لم تكن القدرة المادية تسمح لي بغير المأوى البسيط، بحرفية معنى الإيواء، وفي إحدى المحطات التي انفرضت عليّ، سكنت في غرفة من دار تملكها (وتسكنها) عجوز، في الحي الواقع خلف دار (الساحلي) ، كانت مسرحًا للفئران-التي ضلّت طريقها، اذ لم تجد مبتغاها!ما عجّل في (هروبي) منها بعد أسابيع قليلة، لأنضمّ الى مجموعة من الطلاب، متفاوتي المراحل الدراسية، يسكنون في اكثر من غرفة، يملكها (أو يتضمنها؟) رشيد مصطفى ابو سعدة (من عتّيل) ، وكان يملك مكتبة عند مدخل طولكرم الرئيسي، للقرطاسية وشؤون الدراسة الاخرى

وهكذا، تجدني لم اتردد في قبول عرض تدريس (تقوية) ، بيتية، كما فعل غيري من ابناء القرى، من الطلاب النابهين، وإنْ على نطاق محدود، لتغطية ما استجد من تكاليف السكن الجديد.....مارست تدريس التقوية لفترة محدودة، مع زميلي خالد محمد العارف، غير اني لبّيت طلب استاذ الاحياء، احمد سعيد الطيبي، لمساعدة ابنته في دروسها عامة، في بيتهم،

لفترة زمنية قصيرة، ايضـًا، فلقد كان اقتراب موعد امتحان المترك يلحّ عليّ أن أتفرغ له، وله فقط!

لـم تكـن أجـواء السـكن الجديـد مثاليـة للتحضـير للمتـرك، وإن كانـت كافيـة للدراسـة اليومية، فوجدت رغبة (عبد الفتاح) في الدراسة للمترك في دارهم، فرصة ذهبيـة، تتحقـق بهـا منفعة متبادلة، في جو هادئ مـريح، وإنـارة ليليـة كافيـة للسـهر الطويـل، فلقـد كـان يـدوّي في رأسي، دون توقّف، وعلى مدى عام ١٩٥٥/ ١٩٥٦، رجَزُ (شُرَيْح بن ضُبَيعة) :

هذا أوان الشدّ فاشتدّي زِيَمْ

قد لفّها الليل بسَواق حُطَمْ (قد كان يرعى الخيل من دون الغنم) ، والشطرة الاخيرة مـن تأليفي

نام الحُداةُ وابن هندٍ لم ينمْ!

شهدَتْ سنة المتـرك هـذه قحْطـًا في المعلمـين الأكفـاء، إذ انضـم الـى الهيـأة التدريسـية الاستاذ (عقلة حداد) لتدريس مادة الكيمياء، وكان عُقلة اديبـًا ممارسـًا، حيث كان عضواً في (رابطة القلم) التي اسسها الراحل (عيسى الناعوري) ، في عمـان، يومئـذٍ، !!!!كـان الاسـتاذ (عقلة) يملي علينا المعادلات الكيميائية إملاء، وبالحروف العربية، ونحن نكتب ونحفظ، دون ان نفهم كيف تمّ التفاعل بين المركّبات الكيماوية، ولم أخرج من الكيمياء الا بمعلومة واحـدة مختصَـرها أنـه اذا صـببنا حـامض الكبريتيـك علـى الخارصـين (الزنـك) ، تتولّـد كبريتـات الزنـك وينطلـق الهايـدروجين !!!مـا حـدا بـي أن اقنـع زملائـي بالطلـب الـى مـدير المدرسة أن نحذف الكيمياء من المواضيع الاختيارية في امتحان المترك، وحذفناها

كما انضم (مؤقتـًا) الى الهيأة (جميـل؟ الصـالح) لتـدريس اللغـة العربيـة، ولقـد كنـت انفق قسطـًا وافراً من وقت الحصة في تصليح أخطائه أثناء الشرح!

هذا بالإضافة الى (إملاء) مادة الأحياء إملاءً، علينا، لنحفظها غيبـًا!

كان الطالب النابه، ما يكاد يحصل على شهادة المترك، بمعدّل مرموق، حتى يلتحق بالهيأة التدريسية ليصبح (زميلاً) لمعلميه بالأمس!في الفاضلية وغيرها من المدارس الثانوية.....ذلك لأن الالتحاق بالجامعات لم يكن سهلاً، فلم يكن في الاردن جامعات، يومئذ، والسفر الى الخارج يتطلب قدرة مادية لا تتوفر الا للاغنياء (الذين كان التعليم الجامعي في آخر درجات سلّم أولويات معظمهم!) ...وفي الوقت نفسه، كان الطالب ما يكاد يحمل شهادة الدراسة الثانوية حتى يبحث بحثًا حثيثًا عن وظيفة يسد بمعاشها رمق الاسرة التي تنتظر العون والفرج، إذ كانت ظروف معظم الناس المادية، ضيقة، بحكم ظروف المرحلة في خمسينات القرن الماضي...والخريج الذي لم يجد عملاً بشهادته، في سلك التعليم (أو غيره) ، يبحث عن عمل خارج الاردن...والسعيد السعيد، يومئذٍ، كان الذي يحصل على تأشيرة (فيزا) تمكنه من دخول الكويت او أية بلدة (نفطية) يحظى فيها بعمل ينفق من دخله على عائلته المحتاجة!!....أي أنّ التفكير في الدراسة الجامعية لم يكن وارداً، حتى في عُرف المجتمع الاردني في تلك الايام، وظلّ محصوراً في البعثات الدراسية خارج البلد، وكانت مقصورة على وزارة التربية، في ما يلزمها من مواد تدريسية، أما بعثات المواد المهنية، كالطب والهندسة، فكانت شحيحة للغاية، بعضها من القوات المسلحة والامن العام (وبالواسطة، طبعًا!) ، وبعضها الآخر من (النقطة الرابعة) الاميركية، للهندسة او الزراعة، بالاضافة الى المواد التدريسية النظرية (وهذه لم تسلم من الواسطة والتلاعب الذي شهدتُ على جانب منه، إذ أنّ ترشيح الطالب للبعثة محكوم بتنسيق وزارة التربية او غيرها) ، وبعضٌ آخر يأتي من (وكالة غوث اللاجئين- الانروا) ، التي أعطت للطالب المؤهّل بعلاماته حرية اختيار الموضوع، شريطة نجاحه فيه سنويًا

لكل ذلك، كان المعلم في الثانوية يُجهِد نفسه ليعطي المقرّر حقه من الاستيعاب ليتمكّن من سلامة الشرح والتوضيح، ويعطي الطالب حقه من التفهيم و.......استيعاب البحث....وفي الجانب الآخر، كان على الطالب ان يعتمد كثيراً على نفسه، ويبحث عن

(مراجع) إضافية، ليتمكن من فهم المادة والسيطرة على المبحث، ولقد راجت في تلك الآونة أسماء مراجع اجنبية، أمثالShakleوDurrel، في مباحث الفيزياء والرياضيات!!!

في عام ١٩٥٥/ ١٩٥٦، تقدّم لامتحان المترك الفان واربعة وعشرون طالبــًا (٢٠٢٤)، اذا لم تخُنّي ذاكرتي، وقلّما تفعل!، ولا أعلم عدد البنات

شقاء السنين (٦١)

في العـام الدراسـي١٩٥٥/ ١٩٥٦، تقـدم لامتحـان المتـرك (شـهادة الدراسـة الثانويـة) (٢٠٢٤) –الفان واربعة وعشرون طالبـًا، من كافة انحاء المملكة، بضفتيها يومئذٍ، ...ذلـك ما تختزنه ذاكرتي، التي قلّما تخونني، ...!ولا أعلم كم من الطالبات تقدّم.وجدير بالذكر أنه كان هناك بعض الاختلاف في مواد الامتحـان، إذ كانـت مـادة الرياضيات التي تمتحن بها البنات تدعى (الرياضيات المخففة) ، هذا الى مواد اخرى خاصة بهنّ، كالتدبير المنزلي.

ربما يبدو عدد المتقدمين صغيراً، نسبيـًا، اذا مـا قـورن بمثلـه هـذه الايـام، رغـم انفصـال الضـفتين، ويعـود ذلـك الـى عـدد السـكان في خمسـينات القـرن الماضـي، والـى صـغر عـدد المدارس الثانوية يومها، إذ كانت مقصورة على المدن الرئيسية في المملكة، كما أن الإقبـال على متابعة الدراسة الثانوية لم يكن مثلما هو عليه اليـوم، حيـث اصبـح التحصـيل الجـامعي أمراً مفروغـًا منه!

كان امتحان المترك يجرى مرةً واحدة، في نهاية العام الدراسي، وتشرف كل ثانوية علـى طلابها وهم يؤدون الامتحانات، حسب برنامج موحّد على مستوى المملكة.

كلما خرجتُ من قاعة الامتحان، بعد أداء مادةٍ من المواد المقررة، شعرت بما يشعر بـه رجال الفضاء من (فقدان) الوزن، !مختلطـًا بمشاعر النشوة والرضا عن الأداء

كانت المواد الاساسية التي يجب النجـاح فيهـا سـتّـًا هـي: العربيـة والانجليزيـة والـدين الاسـلامي والرياضـيات والفيزيـاء وتـاريخ العـرب والمسـلمين...وكانت شـهادة المتـرك مستويين (أ–ألف) و (ب–باء) ، بناءً على معدل الطالب الكلي في جميع المواد، كما كانـت الشهادة الممنوحة تحمل تقييمـًا أمام كل مادة، حسـب علامـة الطالـب في تلـك المـادة، فإمـا امتياز أو تفوّق او .....ناجح....ولا تمنح الشهادة للطالب (المكمِـل) في مـادة اساسـية مـن المواد الست المذكورة–أي لم يحصل فيها على علامة النجاح–الا بعد نجاحه فيها

انتهت امتحانات المترك، مع بداية صيف عام ١٩٥٦، وبدا لي، كما بدا لغيري، انني (خرجتُ من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر!) ، ابحث عن جواب على سؤال ظلّ يؤرقني طيلة فترة انتظار نتائج الامتحان، ذلك الصيف القائظ:وماذا بعد؟ ؟ ...لم يكن هناك ما أعمله، لا في قفين ولا في طولكرم، غير الانتظار المفرّغ من كل نافع، واللقاءات (الحزبية) نتابع فيها آخر التطورات والأحداث السياسية، ففي تلك الآونةأعلن زعيم مصر، جمال عبد الناصر، تأميم قناة السويس، وكانت ملكـاً وادارة لشركات بريطانية وفرنسية، ما رفع حرارة الجو السياسي، وشحنه بالتوتر المفضي الى شتى الاحتمالات، بما في ذلك الصدام المسلّح!

كلما اقترب موعد نتائج امتحان المترك، كثرت الاشاعات عن موعد اعلانها، همسـاً، إذلم تكن، يومئذٍ، وسائل التواصل المتاحة هذه الايام، واجتاحتني مشاعر غامضة متناقضة، حول نتيجتي، كان للوسواس الخنّاس فيها حظ غير قليل!!كنت، في نفسي، أشرّق وأُغرّب، بين سقوطٍ ونجاح، وبين فشل وتفوق، وبين الأول والأخير...

في ايام انتظار النتائج، التهب اصبع قدمي الأكبر، بسبب دخول اظفره في انسجته الجانبية، ما استدعى مراجعة الدكتور (الوحيد) المرحوم (صلاح البسطامي) في عيادته الواقعة عند مدخل طولكرم الرئيسي من الشمال الشرقي، ليقرّر قصّ الاظفر كله، وانتعال حذاءمفتوح لتجنب الضغط على الاصبع المجروح، فكنت اجوب الشوارع بِ (زنّوبا) لذلك الغرض!

جرت العادة في تلك الايام ان تنشر الجريدة اسماء الناجحين والمُكملين، كلّ مدرسة على حدة، أمّا العشرة الأوائل (من الجنسين) فكانت تُقرأ اسماؤهم في الاذاعة الرسمية الحكومية (ولم تكن يومئذٍ اذاعات خاصة) ، في مستهَلّ نشرة الأخبار المسائية...

انتشر الخبر، وتأكّد، أن نتائج امتحان المترك لعام ١٩٥٥/ ١٩٥٦، جاهزة، وأنّ وزير التربية، سعيد علاء الدين، سيعقد مؤتمراً صحفيـاًمساء ذلك اليوم، يعلن فيه النتائج، عامة، وأسماء العشرة الأواءئل، خاصة، وستعلن أسماء العشرة الأوائل في نشرة اخبار مساء ذات اليوم.

كان ....؟ حامد، من قرية (ذِنّابة) ، احدى ضواحي طولكرم، يملك محلاً للادوات المنزلية، على الشارع الرئيسي للمدينة، ويطل على ساحة البلد الرئيسية، ويملك مذياعـًاللمحل، ..كان المالك أعرج، وذا صلة بالحزب، وكنت أجرّ قدميّ جراً في حذاء (زنوبا) ، بصحبة ثُلة من الزملاء الاصدقاء، باحثين عن مذياع نسمع منه نشرة المساء، واخبار المترك، لعلّ وعسى، نجوب الشارع الرئيسي، مارّين من امام المحل، فلما رآنا نادانا ورحب بنا أن نسمع النشرة عنده

كانت عقارب الساعة تزحف، ثقيلة بطيئة منهكة، نحو الثامنة، حينما كنت اكاد (أسمع) خفقان قلبي المتسارع، يكاد يُفلت من صدري لحظة نشرة الاخبار!

(عقد معالي وزر التربية والتعليم سعيد علاء الدين مؤتمراًصحفيًا اعلن فيه نتائج امتحان شهادة الدراسة الثانوية، وهذه أسماء العشرة الأوائل:) عند هذه اللحظة، كاد قلبي يتوقف عن البثّ، فلم استبعد ان اكون الاول، كما لم استبعد أية درجة من درجات الفشل!هكذا كانت مشاعري متضاربة حيال أول تجربة مصيرية في حياتي........واستأنف المذيع:الأول حسين علي رشيد موسى، من كلية الحسين بعمان، فدَبّ اليأس في صدري لثوانٍ معدودة، ليتلاشى عندما استأنف:الثاني:يونس مصطفى صالح شناعة، من المدرسة الفاضلية بطولكرم!!!

في لحظات الانفعال، تسبق دموعي لساني، وكلَّ ادوات التعبير التي اعتاد عليها الناس، وفي تلك اللحظةالتي انعقد فيها لساني، شخصتْ، مثل لمعَة برق، أمامي، هيأة أخي (رفيق) وهويضرب بطوريته في مستنقعات الغور الجنوبي في حملة التجفيف من مكافحة الملاريا!

لم أتمكن من متابعة النشرة وقد انهالت علي القُبل من شتى الجهات والأصدقاء والمعارف وحتى الذين لا يعرفونني.ألستُ ابن الفاضلية، وابن طولكرم المتبَنّى، وكفى؟ وأصدقاء النجاح كثيرون.

ثم رحنا نطوف في الشوارع، والكل يبارك، فلقد كان الاهالي يتابعون بكل اهتمام، كل سنة، اخبار المترك، والعشرة الاوائل ...المستبشرين بالفلاح!!

شقاء السنين (٦٢)

كانت لحظة اعلان نتائج امتحان المترك أسعد لحظة في حياتي على الإطلاق، إذ شعرتُ عندها أن كل بوابات الدنيا قد تفتحت لي على مصاريعها، وكل الفرص نحو الصعود، منثورة بين يدَيّ!

قضيت مساء اعلان النتائج، مع ثلّة من الزملاء والمحبين المعجبين، نجوب شوارع طولكرم الرئيسية، (وانا أجرجر قدمي بحذاء زنوبا) ، والناس في متاجرهم ومكاتبهم، يباركون ويهنئون، عن معرفة وغير معرفة، ...ولا أدري كيف قضيت الليل يومئذٍ.

جرت العادة أن تسجّل الفاضلية اكثر من طالب من طلابها من العشرة الأوائل في المملكة، كل سنة، إلا سنة ١٩٥٦، التي تخرجتُ فيها، فلم يكن فيها من الأوائل غيري، ما عزز تلك النتيجة وذلك الانفراد في نفوس القوم، معلمين وطلاباً وأهالي

تناولت طعام الافطار، صبيحة اليوم التالي بمعية، وفي دار المرحوم سعيد مصطفى قزمار، الذي تخرج في السنة المنصرمة، ويزاملني حزبياً، ويحبني، ...لنتوجه ظهر ذلك اليوم الى قفين لنحتفل بالمناسبة هناك، !

لا يعرف الفقير كيف يفرح!صدقوني!فهو لا يملك ادوات الفرح، وإن اتيحت له فجأة، لا يحسن توظيفها فهي غير مألوفة لديه، ...وفي هذا السياق، تحضرني عبارة لوالدتي رحمها الله، حين تساءلنا، اخوتي وانا، عن سرّ كَون طعام دار عمي (المختار) ، وعمي (السعيد) ، وطبيخهم، أطيب من طبيخنا، وبدون تحَفّظ، : يَمّه...الخير بِخَيِّر...أَيْ أن الغنيّ يملك القدرة على (تطييب) طعامه بالإضافات المحببة والمنكّهات المرغوبة!

كنا على الغداء ظهر ذلك اليوم في قفين، بعد ان حضّرت أمّي، رحمها الله، بعض زغاليل (البوابة) ، بمساعدة جاراتها، ولم يكن في البيت غير ابي، فبقية افراد الاسرة يضربون في الارض يبتغون من فضل الله!

لم يكن البيت الذي كنا نسكنه يتسع، ولا يليق، بالحضور، المحتفلين! فوقع الاختيار على تناول الغداء في بيت (ابراهيم الاسماعيل) ، احد اثرياء الحارة الشرقية في قفين، حيث بارك ورحّب...كان (ابو العبد-رحمه الله- يملك (دارةً) مؤلفة من عدة بيوت تحيط بساحة واسعة لا تقلّ عن دونومين، مستطيلة الشكل، تنتهي في الجانب الغربي منها بدكان، كان يتسلى به ابو العبد مع الصحْب والعاطلين عن العمل، يجلسون على مقاعد قشّ قصيرة في (قُصّة) الدكان، امام باب الدكان الغربي، يقتلون الوقت في ما يجدي وما لا يجدي، من ساقط الكلام، الذي لا يخلو احيانـًا، من مغيبة اونفاق!

عدنا من قفين الى طولكرم، في نفس اليوم، لأجد برقية بعث بها مازن الشنطي، رحمه الله، في متجر الحاج (يوسف الصغيّر) ، رحمه الله، حيث اتخذت من محله عنوانـًا لي، ومن تلفون المحل وسيلة اتصال، وفي البرقية مباركة من مازن، ودعوة مِلِحّة لزيارتهم في قلقيلية، للاحتفال بي، حيث اننا قضينا الاسابيع، معـًا، هو وعبد الفتاح التايه، ابن خالته، وانا، (نذاكر) في بيت عبد الفتاح، كما ذكرتُ في حلقة سابقة...لبيت دعوة مازن وقضيت معه، وبصحبة شقيقه منذر، ليلة سعيدة في الطابق الثاني من منزلهم المطل على الشارع الرئيسي، عند مدخل قلقيلية، وعلى (الكازية) التي يملكونها....

بعد نتائج المترك بايام قليلة وصلتني دعوة بالتلفون، من (ركن الطالب) في دار الاذاعة، برام الله (حيث كانت دار الاذاعة، يومئذ، قبل انتقالها الى عمان بعد سقوط واحتلال الضفة الغربية من المملكة) ، وتحدد اليوم والساعة لإجراء مقابلة مع مدير البرنامج، السيد (نديم ناصر)

في اليوم المحدد، لملمت ما تيسر من القروش، التي تكفي للذهاب (والعودة) بالباص، الى، ومن، رام الله، عصرَ ذلك اليوم

كان علي ان اذهب مشياً الى دار الاذاعة، من موقف الباصات، هناك، فوصلت في الموعد المضروب، لاجد نديم ناصر في ا انتظاري، ..بعد التحضير الفني للبرنامج، كان معظم أسئلة البرنامج جاهز، وكلها تدور حول كيفية الدراسةوالتحضير للامتحان، وأفضل الطرق لتوزيع الوقت للدراسة، وكيف تلقيت خبر النتيجة، وهل كنتَ تتوقعها، وهكذا

ولما كان يعرف الاستاذ نديم انني قادم من (طولكرم) المدينة الحدوديةالتي تقف املاكها عند السكة الحديدية، في نهاية (شارع المحطة) ، لمّا كان يعرف ذلك، توقف قليلاً قبل ان ينهي التسجيل، ووجّه الي السؤال. التالي:كيف تشعر، وانت تُطِل على الجانب الغربي من حدود طولكرم، وما بعدها ؟ وأجبت على الفور (مستحضراً قول المتنبي) :

ومِنْ نَكَد الدنيا على الحُرّ أن يَرى

عدواً له ما من مداراته بُدُّو!

ونظرت اليه ورأيت ملامح الاعجاب في وجهه، فشكرني وختم البرنامج....

كان الوقت متاخراً للّحاق بآخر باص يعود الى طولكرم، عندما هممت بالنهوض ومغادرة الاذاعة، وشعرت بالحرج والارتباك، وبدت امارات القلق على حركاتي، فانا لا املك في جيبي ما يمكنني من العودة بالتكسي، بلْهَ المبيت في رام الله، فبادرني بالسؤال عما يربكني، فشرحت له الحقيقة بكل صراحة، فابتسم، ومدّ يده الى جيبه وناولني (ديناراً) ، قائلاً: ولا يهمك سافر بالتكسي!

كان ذلك أغلى دينار قبضته في حياتي، من شاب كان غايةًفي اللطف والوطنية التي يعرفها الناس في عائلته المشهورةفي (بير زيت بمحاذاة رام الله) !

وفي اليوم التالي لعودتي من الاذاعة، علمت ان الاستاذ (حسن خيري المنصور) يسأل عني.

شقاء السنين (٦٣)

بعد عودتي من الإذاعة، علمت ان الاستاذ (حسن خيري المنصور) يسأل عني، فالتقيته في اليوم التالي على مقهى (الكرمول) ، الشهير، عند مدخل المدينة، وعلى الشارع الرئيسي، على يسار الداخل اليها، حيث كان يملأ فراغه في عطلة صيف المدارس، شأنَ معظم المعلمين والموظفين، بلعب النَّرْد (الطاولة) ، ...ومن دون أية مقدمات، عاجلني، بعد التهنئة، بالطلب إليّ أن (أراجع) مقرّر مادة (تاريخ العرب والمسلمين) مع شقيقته (....) التي (أكملت) فيها، في امتحان المترك، إيّاه، ....وأصرّ عليّ، بعد ان رفض اعتذاري، فلبيت طلبه، فلقد كان (رحمه الله) ، ذا دالّة عليّ، بحُكم صلتنا الحزبية، وكان أقدم مني في الحزب، وأعرق، وهو الذي حال بيني وبين استرسالي في خطبة شاركتُ بها في مهرجان (تعريب الجيش) ، بصيحة رافضةٍ، من بعيد! ...لقد كان (حسن) مدير مدرسة قرية (دير شرف) القريبة من نابلس، والى الغرب منها، ومن اهالي طولكرم، بالمساكنة، إذ أنه، وأهله، انتقلوا الى طولكرم، من (الطيبة) ، الى الجنوب الغربي من طولكرم، شأْن كثير من عائلات الطيبة، أمثال (الناشف) ، و (الجبالي) ، وبَنوا، أو تملّكوا فيها.....أمّا غالبية الحمولة (المنصور) ، فما زالت متجذّرة في الطيبة، بعد تسليمها مع بقية قرى ما سُمِّيَ ب (المثلث) ، طبقاً لاتفاقية (رودس) ، سنة ١٩٤٩، ورئيس بلديتها الحالي، (شعاع منصور) ، أحد ابناء عمومته ....، كان لحَسن (رحمه الله) ، حضور في طولكرم، على المستويات التربوية، والحزبية والاجتماعية، نظيف السيرة، نقِيَّ السريرة؟ ، مرْضيّاً.....

وباشرنا (المراجعة) في اليوم التالي، فالوقت ضيق، وظروفي مجهولة الغد....كانت المراجعة يومياً، في بيتهم الكائن على مشارف (المنشية) ، التي اصبح اسمها (المنتزه) ، هذه الايام، .....وجاء وقت الامتحان، ونجحت (.......) في إكمالها، وسُرّ الجميع بنجاحها، وسُرِرْتُ، وحمدت الله على ذلك، وشكرني الاستاذ (حسن) حين هنّأته، ولم يكن

يعلم، كما لم أكن أعلم، أنّ القَدَر كان يتربّص بكِلَينا، لتكون الخطوة الأولى الى ذلك البيت، من صيف عام ١٩٥٦، بداية رحلة عُمْرٍ، يصبح هو فيها خال أولادي، بعد عشر سنين!!!ومِن شقيقةٍ أُخرى....

رتّبت وزارة التربية، بالتنسيق مع (النقطة الرابعةpoint 4) ، وهي إحدى المشاريع الاميركية الحكومية التعليمية الاقليمية، آنئذٍ، أن يُبتعث اوائل الألوية في امتحان المترك، لدراسة الهندسة في الجامعة الاميركية في بيروت، على حساب النقطة الرابعة، وكنت، بحكم نتيجتي، أوّل لواء نابلس (اكبر الوية المملكة الستة، يومئذٍ) ، وأحد الستة المبشَّرين المختارين للبعثة!

كانت الصوَر المستحضرة في (استوديو حسن حمودة) كافية لشهادة المترك، وللالصاق على جواز سفر، لا بُدّ منه، ولأول مرة في العمر، لغرض السفر الى لبنان...

كان استخراج جواز سفر للذين هم من أصل فلسطيني، في خمسينات القرن الماضي، في صعوبة استخراج النفط لأوّل مرة!كانت شروط إجراء معاملة الجواز، قاسيةً معقدة، منها أن تُثبت وجودك في المملكةقبل عام ١٩٥٤، ولم اكن، ومازلت، أعرف السر المقدس في الرقم المذكور!!!ولقد تكررت زياراتي الى (القطاع) ، في نابلس، لتحقيق شرط جديد، كلما لبيت شرطًا سابقًا، حدّ الملل واليأس، ولولا وجود هوية فلسطينية (تعود الى عهد الانتداب البريطاني) لأخي الأكبر، ابراهيم، رحمه الله، بحُكم وظيفته الحكومية، يومئذٍ، لما تكللت جهودي بالنجاح في استخراج جواز سفر، يمكنني من الخروج من المملكة الاردنية الهاشمية!

وهكذا، وبعد حصولي على جواز السفر، تمَّ (تظهير) جوازات الطلاب الستة، إشارةً الى انهم، مبتعثون على حساب (النقطة الرابعة) الاميركية، الى الجامعة الاميركية في بيروت، وجلسنا ننتظر اقتراب موعد افتتاح الجامعة في بداية اكتوبر (تشرين الاول) ....

قادتني (معاملات) وزارة التربية والتعليم-وكانت تسمى وزارة المعارف في الفترة الاولى من إنشاء المملكة-في عمان، الى التعرف الى الاخ (حسين علي رشيد) ، صاحب الدرجة الاولى، في المترك، وامتد التعارف الى جميع افراد عائلته، من لفتا (بجوار القدس) ، حيث زرته في بيتهم المتواضع الواقع في شِبْه مخيم على مشارف الزرقاء الجنوبية الغربية، وكان ذلك التعرف بداية علاقة وطيدة حميمة بيننا على كافة المستويات، ولما كانت بيوت الطين (اللّبِن) متراصّة في مخيمات اللاجئين التي بلا خيام، فقد تعرفت الى ابن خاله (علي احمد مشعل) جارهم في الموقع ذاته، حيث ارتبطت الاسرتان بزواج (البدل) ، ...ولقد كنت سعيد الحظ بتعرفي الى الاسرتين الكريمتين، حيث كانتا من أطيب وألطف وأبسط من خلق الله!وقامت بيننا، منذئذٍ، علاقة عائلية حميمة متواصلة

ومرّت الايام، ولم اسمع من قسم البعثات في الوزارة جديداً حول التحضير للسفر الى بيروت، بعد (ولادة) جواز السفر العسرة، لا من هاتف متجر الحاج يوسف الصغيّر، ولا من الجريدة، فقرّرت، دون مشورة احد، ان اتوجه الى عمان (من قفين) ، لمراجعة القوم هناك، رغم التكاليف الباهظة التي تتطلبها الرحلة....!

منذ تقررت بعثتنا السداسية على حساب (النقطة الرابعة) اصبحت علاقتنا مع القسم القنصلي في السفارة الاميركية، التي كان مقرها جبل (اللويبده) ، وكنت قد سمعت باسم الجبل يومئذٍ لأول مرة

وصلت السفارة الاميركية بعد طول عناء، فانا أجهل تضاريس عمان الطبيعية تمامـًا، الى ان افتتحت عيادتي فيها عام١٩٧٥ ...سألت عن القسم القنصلي، وعن فرع البعثات والنقطة الرابعة، فارشدوني الى السيد (بْليرBlair) فدخلت عليه وعرّفته بنفسي والمهمة التي جئت من اجلها، ففاجأني بالخبر الاسود: لقد تمّ تحويل بعثتكما (انت وحسين) الى وكالة غوث اللاجئين-الانروا-باعتباركما لاجئَين!!!

جُنّ جنوني، ولم اكد اصدق ما سمعت، فلقد تمّ كلّ ذلك، دون اشعارنا، فتيقنت انها مؤامرة، حِيكت بلَيل، ورفعت صوتي محتجاً على اجراء تعسفي فيه ضياع بعثتينا في وضح النهار!..سألته عن المسؤول عن فَعلتهم، فاعتذر لي قائلاً (بلغَتِه) :لستُ انا المسؤول عن ذلك، وانما هو السيد (خليل السالم) مسؤول البعثات في وزارة التربية

شقاء السنين (٦٤)

(لسْتُ المرجع المسؤول عن بِعثاتكم، ..إنّه الاستاذ خليل السالم، في وزارة التربية والتعليم) ..هكذا أجابني السيد Blair مسؤول البعثات في (النقطة الرابعة)، التي كانت تكفلت ببعثات أوائل الالوية الستة لدراسة الهندسة في الجامعة الاميركية في بيروت، على حسابها.....وبِجُرأةٍ لم أعهدها في نفسي. قبلئذٍ، طلبت مهاتفة السيد خليل السالم، ان كان ذلك ممكناً، ولم يتردد في طلب المذكور على الهاتف (الأسود، الذي قدّمتْ لي مثله مؤسسة الاتصالات، عندما تم ترخيص عيادتي في عمان عام١٩٧٥، مع رقم هاتف العيادة!) ، ودار بيننا حوار، بدأته ُعتاباً ثم تطوّر الى احتجاج انتهى بتهديد مني، لا رصيد له، أملاه انفعالي وخوفي على مستقبلي!وعندما احتجّ عليّ بإضاعة وقته بحواري، ذكّرته بأنه يضيع بعثتين في المقابل، وأغلقت الهاتف!!

لقد تم حذف بعثتينا (حسين وأنا)، من حساب النقطة الرابعة، لنتحوّل الى حساب وكالة غوث اللاجئين (الانروا)، باعتبارنا لاجئين، و......نعطي فرصة للآخرين (وقد عرفتُ أولئك الآخرين، فيما بعد!) ...

لم يكن خليل السالم، يعلم، ولم أكن أعلم، أنه بفعلته التي فعلها، كان يخدمني، ويساهم في رسم مستقبلي، من غير قصْد منه، إذ تبيّنتُ، بعدئذٍ، أن (الانروا) تترك لأمثالنا حرية اختيار الموضوع الذي ندرسه، شريطة النجاح والترفيع السنوي، ...بينما تحدد الجهات الاخرى من البعثات (النقطة الرابعة والوزارات.....)، موضوع البعثة المزمع الالتحاق به....

وهكذا، علمت، بمحض الصدفة، وهاجس الحاسة.... (السادسة)، بل (بتقدير العزيز العليم) بأمر بعثتينا، فلم يتصل بنا مسؤول، يعلمنا بأمْر التحويل، ولا أُعلِن عنه في الجريدة.

خرجت من القنصلية الاميركية مكسور القلب، فلقد كنت متهالكـاً على بعثة النقطة الرابعة، لقِصَر مدة دراسة الهندسة، نسبيـاً، ولسخائها في مصروف البعثة الشهري، ما يمَكِّنني من توفير بعضه للذين هم في مسيس الحاجة اليه في قفين (ثم في اربد بعد ذلك) !..... (وتُقَدِّرون، وتَضحك الأقدارو!)

وفي الطريق، اشتريت جريدة اليوم، للتسلية، وللاطلاع على آخر اخبار مصر، وتأميم قناة السويس، ولدى استعراضي لصفحة الاعلانات، أذهلني الاعلان التالي: (على الطلبة المرشحين لنيل بعثات وكالة غوث اللاجئين، مراجعة مكاتب الوكالة في حي الشيخ جراح، في القدس، غداً صباحـاً، ومن لا يحضر يعتبر مستنكفـاً،) !!!

سُقِط في يدي، بعد قراءة الاعلان المذكور، ولم أكد اصدق ما قرأت، فلقد علمت، بعدها أنه الاعلان الاخير، ونحن لا نعلم، ولم يكن يهمنا لو علمنا، فنحن بعثة النقطة الرابعة، وجوازات سفرنا تم (تظهيرها) لتلك البعثة... ويممت نحو (الزرقا) ، قاصداً منزل، رفيقي في الهمّ، حسين، فوجدته-يغُطّ في نوم عميق!ولا علم له بشيء من امر النقطة الرابعة، وبالطبع، ولا من أمر بعثات (الانروا) ، فعقدنا العزم على السفر الى القدس غداة غدٍ...بعد ان قضيناها في بيتهم (ليلةً نابغيّة) محْورها الحديث عن (مؤامرة) على حقوق الاثنين الأوّلين في المترك!!!

كانت لجنة انتقاء البعثات في مكاتب الانروا في حي الشيخ جراح بالقدس، مؤلفة من ثلاثة أشخاص، أحدهم، استاذي للغة الانجليزية في الفاضلية (سلامة خليل) ، والثاني (عبد الله صلاح؟) ، ولما كنت مصرّاً على دراسة الهندسة، نصحني عبد الله صلاح بتعبئة استمارات (نماذج) الجامعة العراقية في بغداد، قائلاً: الهندسة فيها مسموعاتها جيدة-ولم أعلم ماذا كان اختيار رفيقي.

وهكذا انتهت ازمة البعثة، في الساعات الاخيرة، بعد ان كادت تفلت من ايدينا، جهاراً نهاراً، ....!وويلٌ للضعيف، أينما حلّ!...ثم قفلنا عائدين، حسين الى الزرقا، وانا الى ....قفين، وجلسنا ننتظر التنسيق الاخير لأمر بعثات وكالة غوث اللاجئين.

كانت الاجواء السياسية مكفهرة، ملبّدة بغيوم حرب شبه حتمية، في المنطقة، وعلى مصر، تحديداً، فلم يكن تأميم شركة قناة السويس، الشريان الحيوي الذي يربط اوروبا بالهند وجنوب شرق آسيا، عبر البحر المتوسط، نفاذا الى البحر الاحمر، لم يكن ذلك التأميم، ونزع هيمنة بريطانيا وفرنسا على القناة، لقمة يسهل ازدرادها، فتداعتا الى الردّ (المناسب) ، ووجدتا في (اسرائيل) - الدولة الجديدة في المنطقة-شريكًا في الهم، والمصلحة، على المدى القريب، فراح الثلاثة يخططن، ونحن ننتظر مصيرنا الدراسي!

كانت مفاجأةً سعيدةً، بعد اسابيع، أن نقرأ في الجريدة (التي كنت ارقبها يوميًا) نبأ التنسيق النهائي لبعثات وكالة غوث اللاجئين، والذي جاء على غير ما (كتبنا) أو توقعنا، إذ تقرر التحاقنا (كلينا) ، بالجامعة الاميركية في بيروت، سنة أولى (فرشمن علوم freshman science) ، دون تحديد موضوع الدراسة...وهكذا، تقرر التحاقنا بالجامعة الاميركية من باب وكالة الغوث، بدلاً من باب (النقطة الرابعة) وبمشيئة الله، لا بمشيئة خليل السالم!!!

شقاء السنين (٦٥)

لا عهد لي بالسفر، خارج فلسطين، سابقًا، ولا خارج المملكة، لاحقًا، قبل اليوم، ...كما لاعهد لي، بالطبع، بركوب الطائرة، وإنْ كنتُ احفظ قصيدة كاملة عن الطيران، مطلعها:

لنا في الجو اجنحة تطيرُو

فتفزع عند رؤيتها النسورُو

كان مطار (قلنديا) المجاور لمدينة (رام الله) ، بفلسطين، هو مطار المملكة الوحيد، المعتمد للسفر العامّ، وكنّا في المطار على الموعد المضروب للإقلاع، والتوجه الى بيروت، والى الجامعة الاميركية، لدخول مرحلة فاصلة في حياتي، رسمتْ خارطة بقية عمري!

للالتحاق بالجامعة الاميركية في بيروت، لا بدّ من اجتياز (امتحان قبول، او دخولEntrance examination) ، غير أنّ قانون الجامعة كان يُعفي من الامتحان مَن حصل على تقدير (امتياز) في شهادة الدراسة الثانوية (المترك) الاردنية، فلم اتقدم للامتحان، لحسن الحظ! (إذ تبيّن لي، فيما بعد، أنّ الامتحان ليس بالسهولة التي تُمكّن امثالي من خريجي المنهج الانجليزي الاردني، من اجتيازه، ولو بتقدير امتياز!...ولطريقة تعليم الانجليزية في الاردن حديث يطول).

ولما كانت المرحلة الثانوية في المملكة، في ايامنا، اربع سنوات، كان على مثلي ان يلتحق بالسنة الاولى (التي تعادل سنة التوجيهي المصري، وسنة البكالوريا-الجزءالثاني؟ ، في النظام الفرنسي السائد يومئذٍ في كلٍّ من سوريا ولبنان) ويسمونهاFreshman

كانت نقلةً حادةً، تلك التي انتقلتها في هذه المرحلة الحادة الفاصلة من حياتي، على المستويات الدراسية، والاجتماعية، والنفسية

فعلى المستوى الدراسي، واجهتني مشكلة اللغة، فكل المواد المقررة، تدرّس بالانجليزية، عدا عن مبحث واحدبالعربية، بعنوان (معالم الفكر العربي) ، ونحن في الاردن لم ندرس بالانجليزية (الا اللغة الانجليزية!) ، أما الفيزياء والكيمياء والرياضيات، والمواد والمعارف الثقافية الاخرى، فبالانجليزية، إذْ نحن في جامعة اميركية لغتها الرسمية اللغة الانجليزية!

بعد التسجيل لدى المسجّل العام (السيد فليحان) ، على حساب الانروا، تُصرف لك الكتب المقررة، من مخزن كتب الجامعة، جديدة لم يمسسها سوء، تفرح لجِدّتها، وتجهل حجم المعاناة التي ستواجهها، في استيعاب محتواها!..كان لا بد لي من (قاموس انجليزي-عربي) أستعين به على فهم كثير من المفردات والمصطلحات، !...كنت أضع القاموس الى جانب الكتاب المقرر، لإخراج معاني الكلمات، وما زالت معاني بعض المفردات مخطوطة بقلم الرصاص الى جانب تلك الكلمات بالعربية، في كتاب الكيمياء للسنة الجامعية الاولى، الذي ما زلت احتفظ به وبغيره، وخصوصاً (أطلس التشريح) ، الى يومنا هذا!!

هذا عن المفردات العلمية التي لم نتعلمها ولم نألفها في دراستنا الثانوية، ولقد واجهتُ مشقةً مماثلة في مادة الرياضيات المقررة للفصل الاول من السنة الاولى، وهي (الرياضيات المعاصرة) ، التي تدور حول (المسَلَّماتaxioms) ، والافتراضات والمغالطات المنطقية، وما زلت اذكر منها مغالطة (حلاق اشبيلية-ولا ادري لماذا اشبيلية بالذات-) ، إذْ أنّ حلاق اشبيلية يحلق للذين لا يحلقون لأنفسهم، فإذا قُلتَ إنه يحلق لنفسه تكون أخطأْتَ لأنه يحلق للذين (لا) يحلقون لأنفسهم، فقط، واذا قلتَ انه لا يحلق لنفسه، وجبَ ان يحلق لنفسه لانه يحلق للذين (لا) يحلقون لانفسهم، وهو منهم!!!.....وهكذا

وفي اللغة الانجليزية، وكان هناك مساق اساسي لها في السنة الاولى، تبيّن لي أننا في الاردن تعلمنا كيف يجب ان تُمارَس اللغة الانجليزية، بالتركيز على القواعد (grammar) ،

لكننا لم نمارس اللغة نفسها، في ما نكتب (الانشاء) ، ونحَدث (conversation) ، فجاءت عباراتنا جافة معقدة عقيمة، فاقدة للسلاسة التي هي عماد أيّة لغة، فكأننا (نَلِدها ولادةً، لا نشوة بعدها!) ...ربما كان ذلك ديدن تعليم الانجليزية في مدارس الحكومة عامةً، إذ تبيّن لي أن كثيرين من الطلبة الاردنيين، خريجي المدارس الخاصة (مثل الفرِندز، والفرير، يومئذٍ) ، الذين التحقوا بالجامعة الاميركية، على حسابهم، كانوا أطلق مني (ومنّا) لسانًا في شتى المواضيع، لأنهم تعلموا الانجليزية بالانجليزية (لا بالعربية!) ، وفي شتى المواضيع، وكان الطالب (عيسى حنّوش) مثالا واضحًا على ما أزعم....

ذكرت كل هذا الذي ذكرت، حول المستوى الدراسي، لأصوّر حجم المعاناة التي كابدتها في السنة الاولى، والجهد الذي كان عليّ ان ابذله في (المحاربة) على جبهتين: ترجمة النص، وفهمه واستيعاب فحواه، في نفس الوقت:

ولو كان هَمّـًا واحداً لاحتملتُهُو

ولكنه هَمٌّ وثانٍ وثالثُو !!

أما على المستوى الاجتماعي، فللقارئ أن يتصور عُمْق الهُوَّة الناشئة بين الحياة في (قفين) ، التي لم افارقها، حتى في المرحلة الثانوية، والحياة في بيروت، عاصمة لبنان، بلد الإشعاع–كما كانوا يطلقون عليه يومئذٍ

كان علينا، شأنَ كل الطلاب الجُدد، الأغراب، ان نسكن في مساكن الجامعة الداخلية، طيلة السنة الجامعية الاولى، حرصًا علينا من معاناة لم نتهيأ لها، بعدُ، ولما كان عدد الغرف داخل الحرم الجامعي محدوداً، وعدد الطلاب الجدد في ازدياد، استأجرت الجامعة مبنى قريبًا منها لإيواء العدد الزائد من الطلاب، وكنا (حسين وأنا) منهم، وكانت البناية بناية (الكنجKinj building)

شقاء السنين (٦٦)

في السنة الجامعية الاولى، سكنت و (حسين) في غرفة واحدة في مبنى (الكِنِج) الواقع في راس بيروت، القريب من الحرم الجامعي، والمؤلف من عدة طوابق، والذي كان يشرف عليه الطالب (محمد السلايمة) ، من (الخليل) ، وكان يدرس في الجامعة الاميركية على حسابه، وكان في المراحل الاخيرة من كلية الطب (وقد تزوج في وقت متأخر من فتاة طرابلسية من آل (منقارة) ، قبل ان يغادر الى الولايات المتحدة

كان من حسنات السكن المشترك، والمجاورة، أنه كان حافزاً الى الاجتهاد، بحُكْم المنافسة او المقارنة، وإن لم نجتمع في فرع واحد من الفروع الكثيرة من السنة الاولى...غير أنّ اختلاف انتماءاتنا الحزبية (التي رافقتنا في المرحلة الجامعية!) نغّص علينا تعايشنا الى حد كبير، فلقد كان حسين عنصراً هامـًا في (جماعة الاخوان المسلمين) ، مثلما كنتُ في (حزب التحرير) ، وما إن انتظمنا في الدراسة الجامعية حتى تلقّفه (اخوانه) الذين سبقوه في الجامعة، وعلى رأسهم (اسحق احمد فرحان) ، وكان في اواخر ايامه في التحضير لدرجة المجستير في الكيمياء،، مثلما تلقفني اخوتي في (الحزب) ، امثال (علي عبد الرازق) ، وفتحي يوسف خلف، واحمد سالم صالح، وعثمان محمد صالحية وعبد الفتاح الطبال، وعبد المعز شاور (وكان أقدمهم، في السنة الرابعة من كليةالطب، وعلى حسابه) ...ولما كانت قيادة (الحزب) قد انتقلت الى لبنان، كان نشاط الحزب يومئذ في قمته، في لبنان، ولما كان جو الحرية السياسية واسعـًا في لبنان، اتيح للحزب ان يصدر جريدة ناطقة بافكاره، لفترة من الوقت، هذا فضلاً عن المنشورات التي كانت تركز كثيراً على التحليل السياسي للاحداث التي كانت كثافتها، وتسارعها، يأخذ بعضها برقاب بعض!كنت اضع المنشور الحزبي على سرير (حسين) ليقرأه بعد عودته من الجامعة، ثم يحتدم النقاش بيننا، حيث كانت مواقف الفريقين تتقاطع حول معظم الامور السياسية....لكن ذلك لم يفسد للود

قضية، ولا انقطع حبله حتى هذه اللحظة، وان تباعدنا في المساكن بعد السنة الاولى، فأقام هو مع (جماعته) وسكنتُ مع (عبد المعز شاور) ، في (مجمّع-زكّور) القريب جداً من الجامعة.

بما انني عقدت النية منذ السنة الاولى (الفرِشمن) على دراسة الهندسة، فقد اخذتُ المساقات (courses) التي تؤهلني للالتحاق بكلية الهندسة (التي التحق بها، قبلي، كل من ابراهيم ابو عياش، وعوني المصري، وطلعت الكواليت، وفتحي خلف، وعبد الفتاح الطبال، وفي سنتي داود خلف-وكان الثالث في المترك، وجرير الدجاني (الذي استفاد من تحويلي على نفقة الانروا!!) وهكذا سجّلتُ مساقَي كل من الفيزياء والرياضيات المطلوبين لدخول الهندسة، بالرقمين١٠١، و١٠٢، للفصلين اللذين يشكلان السنة الدراسية الاولى، بدلاً من المساقين١٠٣و١٠٤، في المادتين لمن اراد الالتحاق بالطب او الصيدلة او الزراعة، ...وانخرطْتُ في كلا المساقين الى نهاية العام الدراسي الاول

تسارعت التحديات السياسية في المنطقة، واذا كانت الحرب (اولها كلامُو) ، فان آخرها (صدامو) ، إذ لم تكن بريطانيا (العظمى يومئذ) ولا فرنسا، لتهضما اهانة تأميم شركتهما-شركة قناة السويس-، فراحتا تُعِدّان العدة لاستعادة هيمنتهما بالقوة، ووجدتا في (اسرائيل) شريكاً مناسباً، في الضرر والمصلحة

وفي ليل ٢٩ اكتوبر، من عام ١٩٥٦، صحَت الدنيا على ازيز الطائرات البريطانية والفرنسية، وهدير المدفعية الاسرائيلية عبر سيناء، هادفة قناة السويس ومدينتها، بالنار، والانزال المظلي، ويتصدى لها الجيش المصري بما لديه من قوة، ويدب الرعب في القلوب، ويسارع الرئيس المصري (جمال عبد الناصر) الى تهدئة الجماهير، فيلقي خطاباً متلفزاًفي مسجد الجامع الازهر، ويتداعى الاهالي الى القتال....

ويتداعى طلاب الجامعة الاميركية في بيروت (وكانت معقلاً لحركة القوميين العرب، بزعامة مؤسسها، الاستاذ في الجامعة (قسطنطين زُريق)) ، الى القتال، فيطلبوا من وزارة

الدفاع اللبنانية فتح باب التدريب العسكري لهذا الغرض، فترفض، وتستجيب وزارة الدفاع السورية، ويملأ طلاب الجامعة، ومن انضم اليهم من غيرها، خمسة باصات، تنطلق من بيروت، عبر طرابلس، قاطعة الحدود اللبنانية السورية، المصطنعة، والرخوة، نحو (مدينة حمص) ، حيث (ثكنة خالد بن الوليد) لتلقّي (التدريب العسكري) والالتحاق بالجبهة المصرية، للدفاع عن (الاخوة) ، هناك!!

لم يكن قد مضى على بداية العام الدراسي شهر، عندما هُرعْتُ، كما هُرع، آخرون، لنجدة الاخوة على القناة، وانخرطت مع العشرات، بل المئات، من طلاب الجامعة، حيث سمحت الجامعة بالغياب المشروع لكل من احب ان يتدرب في سوريا، ولا ادري حتى اللحظة، إن كان انخراطي في الجمع، بدافع الحميّة، ام الهروب من قسوة الدراسة في اسابيعها الاولى!

أقمنا في ثكنة خالد بن الوليد اسبوعاً كاملاً، عشناه كما يعيشه العسكر، في (مهاجع) من طابقين، وتحت حرامات (بطانيات) تخلو من النعومة (ولم يكن ذلك غريباً ولا جديداً عليّ) ، وكان لكل منا (قصعة) من (الالومنيوم) تُغلق بآلية خاصة، إغلاقاًمحكماً، على طعام اليوم، وعلى حاملها جلْيها كل يوم...

كان البرد في حمص شديدا في مطلع تشرين الثاني (عكس ما هو عليه في بيروت) ، وفي الليل تحديداً، حتى ان الضابطالسوري المخصص لتدريبنا، علّق في احدى محاضراته علينا، على برد حمص، بإيراد الطرفة (النكتة) المتداولة هناك، ومفادها ان خالد بن الوليد، لم يقتل ولا في واحدة من المعارك الكثيرة التي خاضها، ولكنّ برد حمص قتله!وهو مدفون فيها!!!

في الاسبوع اليتيم الذي (تدرّبنا) فيه على (القتال) ، خضْنا ببصاطيرنا سواقي نهر العاصي، واوحاله، واطلقنا من (بواريدنا) الرصاص (الخُلَّب-كما كانوا يسمونه في المعسكر) ، أي الرصاص الكاذب الذي يشبه (الفلّين) ، ينفجر ويحدث صوتاً فقط (شأْن الدول العربية في مواقفها من الاحداث!) ...وفي اليومين الاخيرين، تسنى لنا ان نطلق على

هدف منصوب، بضع رصاصات من رشاش، متعدد الطلقات، ولا انسى الجرح الذي اصاب جبيني يومها، جراء ارتداد قطعة الاطلاق بعد الرشّ، بسبب شدة اقترابي من آلة التسديد، جهلاً مني، حيث كان ذلك أول (وآخر) عهدي بالسلاح الناري!!

عدنا من حمص بعدما وضعت الحرب اوزارها (ذهبنا الى الحج بعد عودة الحجيج!!) ، إذ، لما لم تكن الولايات المتحدة (ولا الاتحاد السوفييتي، بالطبع) على علم بخطة العدوان الثلاثي، فقد انذر الاثنان كلاً من الثلاثة المعتديات، بالانسحاب من مصر، أعقبه انذار من (آيزنهاور) ، رئيس الولايات المتحدة، يومئذٍ، لاسرائيل، بالانسحاب من سناء، ومن غزة، وكان للانذارين مفعولهما، ....والتحقنا بصفوفنا، بعدما عاد كل منا (بخفّي حنَين) ، ورضينا من الغنيمة بالاياب!

شقاء السنين (٦٧)

ساحة البرج في بيروت غارقة في الانوار المتلألئة التي تُحيل ليلها نهاراً، لكنّي لم أشهد مثل تلك الكلمات المضيئة على اسطُح عدة بنايات حول الساحة، تزنّرها وتلفّ حولها، بلا توقّف ولا ملل، تتحدث عن (مرطّبات) متميزة المذاق، أو ملبس حسن الهندام، او مطعم شهيّ المأكولات، أو....مناظر لافتة للانظار، استوقفتني طويلاً، واذهلتني بتكرارها، لأعلم فيما بعد، انها احدث وسائل الدعاية المرئية في خمسينات القرن الماضي!.

وعلى الارض، تعجّ الساحة بالبشر، من شتى الملامح، والكل يتحرك نحو غرض يبتغيه، عدا عن متسكعين يقتلون وقتهم قتلاً، ومتصيّدين يتربصون بالمغفلين، يكشفون لهم حُجُب الغيب (بصّارين) أو (برّاجين) ، سلاحهم (مسبحة) طويلة، او ورقات (شدة) ، وهندام غريب الهيأة، معزز بقدرة فائقة على الفراسة والتلاعب بشخصية الغريب (الغشيم) أمثال (محمد عطية سويلم) رحمه الله، لاستخلاص (ليرة) لبنانية مقابل (تبصيرهِ) بمستقبله!

في ساحة البرج تلتقي كل الملل والنِّحَل، والامزجة والاعراق، سحابة النهار، الى ان يعود ابناء (الضِّيَع) ، كلٌّ الى ضيعته، بنفس (الحافلة) التي حملته الى بيروت، والذي أخرتْه ظروفه الى ما بعد ذلك، هُرِع الى (السرفيس) الذي ما انفك ينادي على امثاله (اللي على عاليه، اللي على كيفون، ...) ، كيلا يضطر الى المبيت في بيروت.....ويظل المقيمون يموج بعضهم في بعض حتى الهزيع الاخير من الليل....!ولا تتوقف الدعاية الكهربائية على اسطح المباني العالية عن الدوران!!

يتوسط المباني الرئيسية في الجامعة الاميركية مبنى ضخم، هو كنيسة الجامعة، وكانوا يطلقون عليه بالانجليزية لفظة (chapel) ، بدلاً من(church) ، على جميع طلاب الصف الاول (الفرشمن) ، ان يأخذ كلٌّ مقعده فيه، حسب التسلسل الهجائي بالانجليزية، الساعة

الثامنة من صباح كل يوم اثنين، للاستماع الى كلمة من عشر دقائق، يلقيها أحد اساتذة الجامعة القدامى، او المتميزين، حول فكرة ما، لا صلة لها بالدين والمعتقد، بالضرورة، رغم ما يوحي به اسم المبنى–هذا بالاضافة الى النشاطات الدينية والموسيقية والاجتماعية التي تقام في المبنى، في بقية الاوقات (وسوف اعود الى هذا المبنى في قادم السرْد) ...وعلى ذكر التسلسل الهجائي، فلقد كانت تجلس الى جانبي، وعلى مرور العام، فتاة تدعى (ماغي شمّاس) ، بحكْم حرف الشين في الحمولتين، لم تؤْتَ حظـًا، ولو بسيطـًا، من الجمال، لحسن الحظ او سوئه!كما أنني كنت أشيح بوجهي عن موقعها، وعن غيرها، تجنبـًا للمخالطة، التي أخذتني وثلة من أمثالي المتشددين الى شاطئ (الأوزاعي) ، البعيد جداً عن موقع تدريب طلاب (وطالبات) السنة الاولى، الذي حجزته الجامعة في البحر بالقرب من أسوارها، ما عرّض زميلاً لنا اسمه (سليمان العمري) ، من الرمشا، وكان أعرج، لخطر الموت غرقـًا لوقوعه في (حوّام) في أحد جيوب ذلك الشاطئ، لولا استغاثتنا بأحد السباحين المحترفين الذين كانوا (يتشمسون) هناك!!!!

بعد تمام التسجيل في الصف الاول، يخضع الطالب الجديد لفحص سريري، يتلوه فحص مخبري للدم، في مستوصف الجامعة، الكائن في احد مبانيها القديمة، في الحرم الجامعي ذاته، وكانوا يدعونه ....(infirmary) وقفنا في صف طويل، ننتظر دورنا لسحْب الدم، تقوم به ممرضة ارمنية عجوز، وكانت الممرضات الارمنيات يشكلن معظم ممرضات مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت!، ....وكان يتقدمنا في الدَّوْر، طالب قادم من دمشق، يدعى سعيد الكرمي، فما ان جاء دوره، بعد سحب الدم من سابقِه، حتى سقط مغشيـًا عليه، مُكِبّـًا على وجهه، مرعوبـًا من الموقف، فانكسر القاطعان العلويان من اسنانه!!تبيّن لي، فيما بعد، انه الولد الوحيد للشاعر عبد الكريم الكرمي، المعروف ب (ابو سلمى) ، صاحب ديوان (المشرَّد) ، من مدينة طولكرم، وكان قد لجأ الى سوريـًا على أثر ملاحقته من انجليز الانتداب على فلسطين!......الطريف في كل الرواية ان سعيداً هذا دخل كلية الطب وكان

زميلي في الصف ثماني سنوات، وتخصص في (جراحة) المسالك البولية في الولايات المتحدة، والأطرف انه كان رياضيـاً متميزاً في فريق كرة السلة، ممشوق القد، لكنه، رحمه الله، توفي بنوبة قلبية!!!!

خصصت لنا وكالة الغوث (الانروا)، مبلغ ١٦٠ ليرة لبنانية شهريـاً، ننفقها على المسكن والمأكل، وتكفلت برسوم الجامعة، والكتب المقررة، وكفالة اية (كسور) نتسبب بها في مختبرات الجامعة

كانت الليرة اللبنانية في عام ١٩٥٦ تساوي١٢ قرشـاً ونصف القرش الاردني، أي ان الدينار الاردني كان يساوي ٨ ليرات لبنانية، بالتمام والكمال، وهكذا كان المبلغ المذكور ينفق على الوجه التالي: ٥٠ ليرة اجرة سرير في غرفة من سريرين، يشارك فيها طالب آخر...و ٨٠ ليرة مشاهَرَة في مطعم (east hall)، القريب جداً من بوابة الجامعة الرئيسية، لأصحابه (إميل) واخوته، القادمين من يافا....ويبقى ثلاثون ليرة لحلاقة الرأس والوجه...ومصروف الجيب!!

هذا، بينما كانت مخصصات البعثات الاخرى، ومنها النقطة الرابعة، ضعف ذلك المبلغ، ما حدا بي، وبمؤازرة آخرين من مصادر اخرى، تجمعنا نفس الظروف، الى مراجعة مكاتب الوكالة الواقعة في مبنى (اليونسكو)، لعل المسؤولين يتفهمون حاجتنا الى (تحسين) اوضاعنا، ولقد حرصتُ، وأيّدني آخرون، ان (نعزز) وفدنا باحدى الطالبات!

كان المسؤول عن طلاب بعثات وكالة غوث اللاجئين في بيروت، المرحوم (احمد طوقان)، ودار بيننا حوار حاد بيّنّا فيه سوء وضعنا المالي، انتهى بطلب من (احمد طوقان)، ان احمد الله على ما انا فيه، ولما استنكرت طلبه، عاتبني على ذلك قائلاً:وقوفك الآن هكذا نعمة من الله، لكن جوابي اغضبه عندما ذكرتُ له انني، في ذلك، استوي والحيوانات!

المهم اننا عدنا من (اليونسكو) بخفي حنين، بل بأقل من ذلك، اذا اخذنا في الاعتبار اسعار الاحذية!، ورضينا من الغنيمة بالإياب، إضافة الى نفقات المحاولة

الفاشلة!....ووجدت نفسي في نهاية العـام الدراسـي الاول خـالي الوفـاض، غيـر قـادر علـى تكاليف السفر الى الاردن لقضاء العطلة الصيفية، لولا تبرع الاخ (احمد حمدالله بكر هزيم) من (قرية عزّون) ، قضاء طولكرم والاقرب الى قلقيلية، حيث كان في بحبوحة مالية أمّنته لـه بعثته (جزاه الله الخير كله، ولا اعلم من اخباره شيئـاً منذ افترقنا عـام ١٩٦٠، بعـدما وحـدتنا الاخوة الحزبية اربع سنوات!!)

زاملني في نفس السنة الجامعية الاولى، في اختصاصات مختلفة، الاخ (عبد الله النسور) وكان مبعوثـاً على نفقة وزارة التربية، لدراسة الرياضيات،

شقاء السنين (٦٨)

تنوعت البعثات القادمة من المملكة الى الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٥٦، فمنها ما كان على نفقة الجيش او الامن العام، ومنها ما كان على نفقة وزارة التربية، او وزارة الزراعة او وزارة الصحة، ومنها ما كان على نفقة النقطة الرابعة الاميركية، ومنها ما كان على نفقة وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين...كما تنوعت الدراسةلهذه البعثات، التي كانت تحددها الجهة الراعية لها بالنفقة وغيرها، وتُلزِم المبعوث بعدد من السنين للعمل لديها، بعد انتهاء مدة البعثة....إلا وكالة الغوث، فلم تحدد لنا دراسة معينة، فالمهم ان تنجح في السنة الدراسية لتُرفّع الى ما بعدها، وإلا فقدْت بعثتك، كما لم تكن تُلزِم المتخرّج بالعمل لديها، بل تلتزم هي بتوظيفه خلال شهرين من تاريخ تخريجه، واذا لم يطالبها هو بالعمل خلال تلك المدة، تعتبره وجد له عملاً، وتُعفَى من التزامها، لكنها (تشطب) اسمه من مجموع افراد الاسرة المدرجة في بطاقة الوكالة!

زاملني في السنة الجامعية الاولى، لدراسة الطب، كلٌّ من :عبد الله الحياري، ونائل عجلوني، وجهاد البرغوثي، رحمهم الله ! وكانوا على نفقة الجيش، او الامن العام، بواسطة أقربائهم في المؤسسة العسكرية....وفي التخصصات الاخرى، زاملني عبد الله النسور، على نفقة وزارة التربية، لدراسة الرياضيات، وعدنان البخيت، لدراسة التاريخ، ومنصور بن طريف، للزراعة.كما زاملني احمد حمد الله بكر في كلية الآداب والعلوم، على نفقة النقطة الرابعة، وجرير الدجاني للهندسة على حساب النقطة الرابعة، وقريبه رجائي الدجاني للطب، على حسابه؟

في اواخر ايام السنة الاولى، وفي ساعة صفاء، جلسنا معـاًفي الغرفة المشتركة في مبنى (الكِنج) ، حسين وأنا، نستعرض خطة الدراسة للاعوام القادمة، إذ كانت السنة الاولى مجرد تمهيد، وقاعدة ينطلق منها الطالب الى حيث يريد ان يكون.ولقد فاجأني حسين

بإصراره على دراسة الطب، ما دامت وكالة الغوث لا تمانع، ولمّا واجهته بطول المدة، وحاجة أهله الى إغاثته، إذ لم يكونوا احسن حالاًمن (قَومي) !، كان جوابه المفعم باللامبالاة، والإصرار:يدَبّروا حالهم!

ذهب كل منا في حال سبيله، بعد تلك الجلسة، ورافقتني جملته الاخيرة (يدبروا حالهم) ، سحابة نهار ذلك اليوم (المصيري) ، وزُلَفًا من الليل، الى اليوم التالي، وانا أقلّب امري على عدة وجوه، حتى اتخذت قراري بالالتحاق بكلية الطب، والعدول عن الهندسة، وقلتُ في نفسي (الذي يتحمل صبر خمس سنوات، يتحمل صبر ثمانٍ) !

لم يكن هذا التحويل في المسار، يتطلب تحويلاً في أيٍّ من المساقات للسنة القادمة، فمساقات١٠١، و١٠٢ التي درستها في السنة الاولى، اعلى مستوى من مساقات١٠٣ و ١٠٤، لغرض الالتحاق بكلية الطب

كانت الجامعة الاميركية، يومئذٍ، تعِج بالنشاطات الفكرية والادبية والاجتماعية (الوطنية) وخصوصاً في السنة الاولى، قبل ان ينشغل كل طالب بمتطلبات كليته، الا طلاب كلية الاداب والعلوم، فنشاطاتهم لا تتوقف طيلة السنوات الاربع، وقاعة (وِست) الشهيرة، مشغولة بهم معظم ايام السنة..

كانت السنة الاولى في منتصفها، يوم أُعلن عن مسابقة (ثقافية) تعقد في القاعة إياها، تدور حول فكرة ما، وحددوا لها يوماً وساعة، ولجنة تحكيم كان من بين اعضائها (محمد يوسف نجم) و (سعدي الخياط) ، الاول استاذ في الجامعة، للادب العربي، والآخر كان ملحقاً ثقافياً في السفارة الاردنية في بيروت

وما ان علمت بالاعلان، حتى احتواني حماس عارم على المشاركة في المسابقة، وكتبت مقالاً معجوناً بالسياسة، وبمثابة صدى للقصيدةالتي كاد نشرها يوْدي بدراستي الثانوية في الفاضلية، وجعلت عنوان المقال:نحو معسكر عالمي ثالث.....كان مضمون المقال دعوة الى ايجاد معسكر من العالم الاسلامي، يملك امر نفسه، ويكون نِدّاً لمعسكر الاتحاد

السوفييتي من جهة، والمعسكر الغربي الرأسمالي، بقيادة الولايات المتحدة الاميركية، من جهة اخرى!المهم اني القيت كلمتي في حشد من الحضور، من انصاري، وانصار منافسي من الحزب القومي السوري، الذين غصت بهم القاعة، وكانت حصته من التصفيق اكبر، وكان ان نال الدرجة الاولى، ونلت الثانية، بناء على قرار لجنة التحكيم، واللجنةمعذورة في تفضيله عليّ، فلقد كنت ألقي على اللجنة (وعلى الحضور) قولاً ثقيلاً، ولغة غير مألوفة ولا متداولة، في تلك الايام!

لم اكن اقضي عطلة الصيف في قفين، الا اياماًمعدودة، فالسنوات الدراسية الاربع، في الفاضلية في طولكرم، خلقت لديّ علاقات وصداقات، ومعارف، جعلتني اشعر انني من ابناء طولكرم، ولا ابالغ اذا قلت ان كثيرين منها، بعد تقادم العهد، كانوا يعتقدون ذلك، ولئن كانت (ام الشوف) مسقط رأسي (وانا اكره هذا التعبير) ، فلقد كانت قفين، ملعب صباي، كما كانت طولكرم (حاضنة) وعيي، وثقافتي وإدراكي، وانفتاحي على الدنيا، .....لذلك كنت اجد نفسي فيها اكثر من قفين، ومن غير قفين،، ولكلٍّ من الثلاثة عاطفة خاصة متميزة، وشوق مشحون بنكهة خاصة، وحنين خاص، هو حنين الطفولة الى ام الشوف، وحنين الصبا الى قفين، وحنين الشباب الغضّ، والعنفوان، الى طولكرم

يا موطناً عبث الزمان بهِ

من ذا الذي أغرى بك الزمنا

قد كان لي بِكَ عن سواك غنىً

لا كان لي بسواك عنك غنى

ما كنتَ الا روضةاُنُفاً

كرُمتْ وطابت مغرساًوجنى

عطفوا عليك فأوسعوك اذىً

وهُمو يسمون الاذى مِننا

يا طائراً غنى على غُصُنٍ
والطلّ يسقي ذلك الغصنا
زدني وهِجْ ما شئتَ من شجني
ان كنت مثلي تعرف الشجنا
اذكرتني ما لست ناسيهُو
ولرُبّ ذكرى جدّدت حَزَنا
لي ذكريات في ربوعهمو
هُنّ الحياة تألّقـًا وسنا

شقاء السنين (٦٩)

الرحيل

لـم يعُـد لبقائنـا معنـى في (قفين) ، هكـذا قـال أخـواي (رفيـق ومحمـد) ، فهـذا انـت في بيروت، معظم السنة، ونحـن في عملنـا في كهـوف (الرصّـيفة) مـع شـركة انتـاج الفوسـفات، (بما في ذلك اخي الاصغر، الذي توقف عن التعليم، مؤقتـًا، بعد الصـف السـادس، ليسـتأنفه فيما بعد،،) ، وهكذا لا يبقى في البلدة غير الوالـدين، والشُّـقة واسـعة بـين الرصّـيفة وقفـين، وزيارتها محفوفة بالمشقة والتكاليف الباهظة!

ولكن الى اين؟

الى مخيّم اربد، حيث سبقَنا للاقامة فيه، عدد لا بأس به من ابناء عمومتنا، واهالي بلدتنا (ام الشوف) ، وكانوا اثناء لقاءاتهم بإخوتي، يشجعونهم على الرحيـل، حتـى قبـل التحـاقي بالجامعة، وتحديداً الى مخيم اربد، ذلك المخيم الذي لا خيام فيه، لانه عبارة عـن وحـدات سكنية متراصّة، مبنية من الطوب الطيني، سريع التآكل بفعل الريح والمطـر (عوامـل التعريـة المعروفة) ، أُقيمت عند اسفل سفح تـلّ المدينـة، وتُطـلّ وتمتـد علـى سـهل امامهـا، فسـيح، أملس، من الجهة الشمالية لمدينة اربد....أنشـأتها وكالـة غـوث اللاجئـين، لاحتـواء وإيـواء اكبر عدد من اللاجئين في المنطقة، وزودت الوكالة المخيم بكافة الخـدمات اللازمـة، فكـان السكان يشربون من صنبور كبير على انبوبة ماء ضخمة ممدودة عند سفح التل، ويحصـلون على مخصصاتهم الثابتة (البطاقة) ، من مركز توزيع منظّم، ....كمـا انشـأت مدرسـة للبنـين واخرى للبنات، بالقرب من المخيم.

لم يكن قرار الرحيـل هيّنـاً علـيّ وعلـى والـديّ، كمـا كـان علـى رفيـق ومحمـد، اللـذين (أيديهما في النار) ، ولـم تكن لأحد منا حجة ضده، غير العاطفة، فلقد (رَبيتُ) في قفين تسع سنين، هي بقية طفولتي، وصميم صباي وشرخ شبابي، ...أَلِفْتُ اهلها، شيبـًا وشبانـًا، وكـل

حاراتها وأزقتها، وعمائر زيتونها، من (الشايفات) الى (فراسين) الى (شمسين)، ف (الظهره الطويله)، الى (بير التَّخم)، شرقًا، الى وادي سالم شمالا، ...لاعبًا او منغمسًا في صيد عصفور، او (متبعّراً) بضع حبات زيتون منسية-على الارض او تحت الشجر.....كما تعرفت الى كل عائلات (قفين)، وحمائلها، من اقصى شرقها، حيث يقيم آل الحوراني، و (سعيد اليوسف الصباح) الى اقصى الغرب، حيث يقيم آل طعمة وآل الخصيب، والزبداوي، وذيب الزرقيه، ومسجد البلد، ومعصرة زيتون الحارة الغربية....وأحببتهم وأحبوني، وصادقت ابناءهم، ونَعِمْتُ بطيبة الجميع، ...وفوق كل ذلك، خالتي خديجة وعيالها، ابناء ابنتها الوحيدة فاطمة، إذ لم يكن لخالتي ذكور، واختي الوحيدة (مريم) -رحم الله الجميع-وابناءها الذي جايلوني (خليل ومحمود والطاهر، وابنتها الكبرى (عديلة) ....وكل سكان (البوابة)..

كانت العطلة الصيفية انسب فرصة للرحيل، ولم يكن في البيت ما يُثقل الكاهل، فادواته محدودة، وترحيلها سهل، غير أنه كان رحيلاً مبلّلا بالدموع، ومعززاً بنواح (مريم) التي لم (تقصّر) في (حرق دمي) بنحيبها المسموع، وهي تردد:يا خوي يا ابن إمي وبويي! وعبارات اخرى مألوفةلدى (النائحات)!!!!

وقف اهالي الحارة الوسطى، المحيطة بالبوابة، يودعون، عند موقف باص البلد، والحرقة في عيونهم بادية، كما لو كنا من الذين أسسوا قفين:

اذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا

ان لا تفارقهم، فالراحلون هُمو

أما انا، في ذلك الموقف الرهيب، فقد أُصبت بالصمت، وكان لسان حالي، يدوّي في أعماقي:

ودعتهُ، وبودّي لو يودعني

شوق الحياةوأني لا أودعهو!!

ورحلنا الى مخيم اربد، لكن بالجسد فقط، واستقبلنا الاقارب بالترحاب، لييسروا لنا شؤون العيش الجديد في (الموطن) الجديد

وجاءت السنة الجامعية الثانية، وانضم الى المجموعة الاردنية من البعثات، وكان للصيدلة حصة بارزة فيها، كل من (عبد الرؤوف الروابدة) ، وكان محسوباً على الاخوان المسلمين، منضوياً تحت لواء رفيقي (حسين رشيد) ، وخليل ربّاع، واحمد شوقي السيد (رحمه الله) ، والثلاثة في كلية الصيدلة. ..كان خليل (اخوانياً) بامتياز، هادئاً، طيب المعشر، بعكس عبد الرؤوف الذي كان لا يخلو حضوره من المزاح، ..اما احمد السيد، فكان يتأرجح بين (التحرير) ، والاخوان، حسب ما كان يسمع مني او من حسين....وانضم في ذات السنة، ولدراسة الطب على نفقة وكالة غوث اللاجئين، متخرجاً من المدرسة السعدية في قلقيلية (ابراهيم محمد رؤوف ناصر) ، وكان (تحريرياً) جاهزاً، فانضم الى المجموعة الحزبية، تدريساً، وتوزيع نشرات، مثلما انخرط (احمد حمد الله بكر) في المجموعة، بعدما تمّ تحزيبه على (يدَيّ!) ...ومن مدرسة جنين الثانوية، انضم الى (المجموعة) مبعوثاً لدراسة الطب على حساب وكالة غوث اللاجئين، (محمد شهاب الاحمد) ، وكان (تحريرياً) جاهزاً، ايضاً ....والى كلية الهندسة انضم الى المجموعة إياها (عنان محمد علي حمدان) ، على حساب الدولة، وكان الاول في (مترك) سنته على المملكة، وكان (تحريرياً) جاهزا بامتياز....!!!

سجلت مساقاتي للسنةالثانية (الصوفومور) ، المطلوبة للتحضير لدخول كلية الطب، او ما كانوا يسمونه (ما قبل الطبpre-medicine) ، بكل سلاسة، ولما كان اختيار المسكن حراً، فقد تم الترتيب الحزبي ان أساكن (عبد المعز شاور) في غرفة واحدة، من شقة في راس بيروت قريبة جداً من الجامعة الاميركية، كانت ملتقى قيادة (الحزب) ، تعقد فيها الحلقات الحزبية بانتظام، وبكثافة، بإشراف الرئيس المؤسس (تقي الدين النبهاني) ، وبحضور (عبد القديم زلّوم) ، شريكه في القيادة، احياناً.

كان عبد المعز حريصـًا على عمل قهوة الصباح التي كنت شريكا ثابتـًا فيها (شُربًا فقط) ، ثم ننطلق الى مطعم (إيست هول) ، للفطور، حيث كنا (مشاهرين) فيه للوجبات الثلاث، ومن هناك، يتوجه كل الى شأنه

كان للالتزام الحزبي اثر سلبي على دراسة الطب، حيث كان يلتهم مني مزيداً من الوقت، على حساب الدراسة، التي كانت تتطلّب كل دقيقة من وقت طالب الطب، يومئذٍ

شقاء السنين (٧٠)

حلقة سياسية بامتياز!!!

كنت عائداً للتوّ من الضفة الغربية، عندما فاجأني والدي بخبر انقلاب العراق، بقوله (تخربطت الدنيا وانت مش هون! كتلو نوري السعيد في الشارع) !!!

لم أصدّق صحة الخبر، للوهلة الاولى، واعتبرته إشاعة لا يبعد ان يكون وراءها الإعلام الناصري الذي كان في صراع محتدم مع النظام العراقي المتجسّد في (نوري) ، ابرز عملاء بريطانيا في العالم العربي، في اربعينات وخمسينات القرن الماضي، على الاطلاق.

كنت اقضي إجازة صيف السنة الجامعية الثانية، في كل من قفين وطولكرم، حيث الاقارب في قفين، والاصدقاء والمعارف والخلان من اهالي قفين وطولكرم، والقضاء، ولم اتمكن، لقِصر الوقت، من تكوين علاقات بديلة في اربد ومخيمها، عدا عن ابناء العمومة واهل بلدتنا (ام الشوف) ، ...وعلى الرغم من تغيير المسكن الاول الذي خُصِّص لنا عند قدومنا من قفين، (بعدما تبين انه كان موبوءاً ب (البقّ) الذي حرمني النوم في عطلة السنة الاولى، لاقضي بقيتها في طولكرم !!)

وقع الانقلاب العراقي في ١٤ تموز من عام ١٩٥٨، على يد ابرز ضابطين نُسبَ اليهما، هما (عبد الكريم قاسم) و (عبد السلام عارف) ، وكان انقلاباً دموياً أطاح بالاسرة الهاشمية الحاكمة، هناك، وبرؤوس الفئة الشريكة في الحكم، وعلى رأسها (نوري السعيد) ، رئيس الوزراء المزمن! وتوفيق السويدي وفاضل الجمالي (وكان وزيراً للخارجية) ، وآخرون، وبذلك الانقلاب انفرط عقد الاتحاد الهاشمي بين كل من العراق والاردن، الى غير رجعة، رغم ان ذلك الانقلاب لم يعش طويلاً بفعل انقلاب (بعثي) اودى بزعيمه وطائفة من الذين كانوا معه!

كانت وحدات السكن المتاحة في مخيم اربد صغيرة جداً، ف (البيت) الذي سكناه بديلاً عن ذلك الموبوء لم تزد مساحته عن ٥٠ متراً مربعاً توزعت على ثلاث حجيرات

ومرحاض، وبينها ساحة صغيرة اعتُبرت متنفّساً للساكنين!اما ماء الشرب والغسل والغسيل والاستحمام ففي الجرار او الصفائح المعدنية، ولك ان تتخيل فُرَص الراحة في هكذا مساكن....ولا تختلف تفاصيل الوحدات السكنية الاخرى عن وحدتنا...ولا بدّ من استحداث طبقة من الطين (المسلّح بالقصَل) تغطي سطح الوحدة لمنع تسرب ماء المطر من مساماته (الدلْف) كل صيف!

شهدتْ السنوات الاولى من دراستي الجامعية احداثاً سياسية مصيرية، افتُتحت بالعدوان الثلاثي على مصر، لاستعادة الهيمنة على قناة السويس، من قِبَل كل من بريطانيا وفرنسا و (اسرائيل) ، الذي باء بالفشل، وانتهى بانسحاب الدول الثلاث، من مصر، وسيناء، بل من معظم المنطقة الواقعة شرق القناة (الشرق الادنى، تحديداً،) ، لتفسح المجال للقوة العظمى الجديدة، الولايات المحدة الاميركية، لتجرب هي الاخرى (سُمّها) فينا، فأعلنت مشروع (آيزنهاور) في محاولة ل (مَلْ ء) الفراغ السياسي الناشيء عن انسحاب (المعتدين) من منطقتنا!.....كان ذلك عام ١٩٥٧م، وقد مهّدت له القوة الجديدة، التي خرجت من الحرب العالمية الثانية، أقوى ما تكون، بارسال مبعوثين الى دول المنطقة، لتنضم الى المشروع الاميركي، بدلاًمن (حلف بغداد) الذي دعت اليه بريطانيا، واحتضنه عملاؤها في المنطقة، بزعامة...... (نوري السعيد) ...وكان لبنان المحطة الاولى للمبعوث الاميركي، ما حدا جريدة الحياة اللبنانية، يومئذٍ، ان تنشر (كاريكاتوراً) وضعت فيه على احدى صفحاتها المبعوث، يركب جملاً، وكتبت تحت الصورة:

سائق الاظعان يطوي البيد طَيّ

منعمًا، عرِّجْ على كثبان طي!

كل ذلك عشناه في السنة الجامعية الاولى، ولم تكد تنتهي السنة الثانية حتى التهبت الاجواء السياسية مرة اخرى، وكانت مفاجئة في العراق، لكنها كانت متدرجةًفي لبنان.كان (كميل شمعون) ، رئيس الجمهورية اللبنانية، مع (حلف بغداد) ، الذي ناصبه التيار

الناصري (المصري) العداء، ورفض فكرة الانضمام الى الوحدة المصرية السورية المنعقدة في اول شباط من عام١٩٥٨، وراح يعمل على تجديد رئاسته، ما ادى الى انفجار ثورة ضد تجديده في١٥ تموز، اليوم التالي للانقلاب العراقي!هنا تحركت الولايات المتحدة، باسطولها السادس، لتضع حداً للنزاع اللبناني وتراقب الانقلاب العراقي عن كثب...

خرجت المظاهرات في شوارع بيروت، وقاد جانبًا منها (صائب سلام) رئيس الوزراء السابق، وجُرِح في وجهه، وأقنع المبعوث الاميركي رئيس الجمهورية بعدم التجديد، لتهدأ الاجواء بالموافقة على ان يصبح (فؤاد شهاب) ، قائد الجيش، رئيسًا للجمهورية (رغم الدستور اللبناني!) وتعود المياه الى مجاريها في لبنان....الا في المشرق (بغداد) ، فقد عقد الانقلاب محكمة عسكرية برئاسة العقيد (فاضل عباس المهداوي) ، لمحاكمة رؤوس النظام الذين ظلوا على قيد الحياة ولم (يُسحلوا) في شوارع بغداد، في جلسات علنية شعبية شغلت الجماهير في كافة ارجاء العالم العربي!!!

شقاء السنين (٧١)

في هذه الاوضاع السياسية المضطربة وهذه الاجواء المحمومة، دخلتُ السنة الجامعية الثالثة، بعد النجاح التام في جميع المواد المطلوبة للترفيع.

في ٢٥ اكتوبر (تشرين اول) ، انتهت مهمة (الخفاش الازرق) ، التي كان قوامها ١٤ الف جندي اميركي من (المارينز) ، وانسحبت البحرية الاميركية، وتسنّم (اللواء فؤاد شهاب) رئاسة الجمهورية، برضا؟ كافة الاطراف، بما في ذلك، جمال عبد الناصر، الذي اصبح رئيساً للجمهورية العربية المتحدة التي لم تعمّر أكثر من سنتين ونيّف، حيث انقلب عليها فريق من الضباط السوريين، بزعامة الفريق (امين الحافظ) ، وانفرط عقدها، رغم عدة محاولات عسكرية معاكسة!

أما في بغداد، فقد ابرزت المحكمة العسكرية عدة (مستمسكات) سياسية، لإدانة المعتقلين من رؤوس النظام السابق، أو (العهد البائد) ، كما كان يطلق عليه (فاضل عباس المهداوي) رئيس المحكمة آنئذ، والذي كان سليط اللسان بَذيئه، وهو يعلق على إدانات المتهمين، مكرراً بيت الشعر المشهور:

قومٌ، إذا صفعَ النعالَ وجوهُهمْ
شكَت النعالُ، بأيّ ذنبٍ تُصفعُو!

كان المرحوم (نزار سعيد الكردي، أو الملّي) ، طالبـاً في كلية الهندسة، مبعوثـاً على نفقة الجيش السعودي، حيث كان والده رئيس اركان الجيش، يومئذٍ، ..كان نزار (تحريريـاً) بامتياز، وكان في صف، كل من فتحي خلف، وعبد الفتاح الطبال، وكان يملك سيارة (تاونس؟) ، خصوصية (طبعـاً!) ، فكنا نقضي الليالي، جلوسـاً في سيارته، نتابع محاكمات (المهداوي) من مذياع سيارته، ضاربين بالدراسة عرض الحائط!...هكذا كان اعضاء الحزب (مسَيَّسين) حتى النخاع، على حساب الافكار الاساسية التي قام عليها الحزب، ما ابعد كثيرين منهم عن الاجواء الروحية الاسلامية، وما جعلهم يصطدمون مع الانظمة

القائمة يومئذ، وجهـاً لوجه، حيث لا مجاملة ولا مهادنة ولا ليونة في مواقفهم، وما ضعضع كيان الحزب، بفقدان كثير من اتباعه، سجناً او انسحاباً أو!......

كان طلاب كلية الهندسة اكثر طلاب الكليات الاخرى نشاطـاً، سياسيا واجتماعيـاً، ....وذات يومٍ، زار الشاعر السوري المشهور (عمر ابو ريشه) ، رحمه الله، مدينة بيروت، فالتقطه طلاب الكلية، ودعوه الى امسية شعرية في رحاب الجامعة الاميركية، ولبى الدعوة.

وفي مساء احد الايام من تلك السنة، غصّت قاعة الكنيسة، ال (Chapel) ، اكبر قاعات مباني الجامعة، بالمدعوين، وكانت دعوةً مفتوحة، ...وأنَّى لمثلي ان يفوّت هكذا فرصة؟

وقف ابو ريشة، على المنصة، بقامته الطويلة النحيفة، نوعـاًما، وراح يلقي علينا من قصائده ما هبّ ودبّ، وترتفع حرارة راحات الكفوف من حدة التصفيق، في نهاية كل قصيدة، وأحيانا عند نهاية بعض المقاطع!....وبعد وهْلة، تعالت الاصوات من القاعة، مطالبة بسماع قصيدة (أمّتي) !...وبعد تردد، استجاب الشاعر لنداءات الحضور (أمتي....أمتي!!) ، وراح يلقي القصيدة، وعندما صاح (أمتي) ، رأيت دموعه تتساقط على خديه، وأصابته (حُبسة) لعدة ثوان، لم يستطع حيالها ان يكمل شطر البيت المَطلَع، ثم استأنف:

امتي، هل لكِ بين الاممِ

منبرٌ للسيف او للقلمِ

الى آخر القصيدة، والجمهور يقاطع القاءه بالتصفيق بين البيت والبيتين، وأجود، بل اعذب، ما يكون القاء الشعر، اذا ألقاه شاعره!

ثم جاءت المبادرة الاخيرة من الشاعر نفسه، فروى للحضور، مناسبة نظْم احدى قصائده:

كنت في لندن، يوم نشرت احدى صحفها خبراً مُفاده أنّ احد شيوخ (النفط) أنفق على (فريسة) شقراء، في ليلة حمراء، نيِّفـاً ومليون جنيه استرليني!فهاجني الامر، وأملى عليّ

القصيدة التالية (وأُقسم أني حفظت معظمها لحظة سماعها من فم الشاعر، وهاأنذا أملي معظمها، لا كلها، خشية الازعاج) :

بدويٌّ أورق الصخر لهُ

وجرى بالسلسبيل البلقعُو

منتهى دنياه نهْدٌ شَرِسٌ

وفمٌ سمْحٌ وخصر ٌ طَيِّعُو

قال يا حسناء ما شئتِ اطلبي

فكلانا بالغوالي مولعُو

اختك الشقراء مدّتْ كفها

فاكتسى من كل نجم اصبعُو

فانتقي أجود ما يهفو لهُ

معصمٌ غَضٌّ وجِيْدٌ أتلعُو

هانت الخيل على فرسانها

وانطوت تلك السيوف القُطَّعُو

والخيام الشَّمُّ مالت وهَوَتْ

وعَوَتْ فيها الرياح الاربعُو

...

هكذا تُقْتَحم القدس على

غاصبيها، هكذا تُسترجعُو!!!!

وما كاد ينهي البيت الاخير حتى دوّت قاعة الكنيسة بالهتافات الوطنية، مجلجلة اصداؤها في اركان الكنيسة الاربعة

شقاء السنين (٧٢)

على سفحٍ مُطِلٍّ على البحر المتوسط، من (رأس بيروت)، وقع اختيار القسّيس المبَشِّر (دانيال بْلِسّ)، ليكون موقع الحرم الجامعي لِ (الكلية السورية البروتستنطية)، التي اتخذت اسم (الجامعة الاميركية)، لاحقاً.

كان ذلك عام ١٨٦٠ م، حين غادر قاربه الشاطئ الأطلسي، من احد موانئ مدينة (نيو يورك)، بالولايات المتحدة الاميركية، ميمِّمًا شطر الشواطئ اللبنانية، في عصبة من رفاقه، في رحلة استغرقت زُهاء ثلاثة أشهر!ليضعوا حجر الاساس لأُولى مباني (الكلية)، في غابة مجهولة منسية، تستوطن الضباع والافاعي معظم أرجائها!!.

في نهاية ذلك السفح، في مطمئنٍّ من ارضه، أقيمت ملاعب الجامعة، لشتى انواع الرياضة، لا يفصلها عن البحر إلا (كورنيش) بيروت، الذي يزنِّر معظم (رأس بيروت)، كما أُنشئ نفق يصل الملاعب بجيب طبيعي من البحر، محجوز للجامعة، تدرّب فيه طلاب السنة الاولى، والذين تدربوا، على السباحة، ذلك الفرع من مساق (الرياضة البدنية)، الذي، لا يتخرج الطالب من الجامعة قبل ان ينجح فيه، طال الزمن أم قصُر!

لم يكن لي عهد بالسباحة، يومئذٍ، فقرية (ام الشوف) بعيدة عن الساحل الفلسطيني، أي عن البحر، وعيون الماء التي حولها، ضحلة، رغم غزارتها، ضيقة المدى، إلا أنّ وادي (الاكراد) الذي يجري بعيداً عن البلدة، قادما ماؤه من حدود قرية (خبيزة) في الشرق، يحتفظ بمنسوب جيد، في الصيف، اذا جادت السماء بالمطر في الشتاء، وأذكر أن أخي محمد (رحمه الله) سبح في مائه ذاتَ صيف، وأركبني على ظهره وهو يسبح، بعض الوقت، مستخفًا وزني الطفولي، يومئذٍ!!تلك كانت تجربتي السلبية الوحيدة مع الماء، ومع السباحة....الى أن فُرضت عليّ فرضًا، في الجامعة، ونجحت في امتحانها، بعد جهد جهيد، ولم امارسها مرة اخرى بعد تسجيل نجاحي، الا بعد ثماني سنوات!!التصيبني بالإدمان عليها حتى اللحظة!

دخول الجامعة الاميركية لا يعني، بالضرورة، دخول كلية الطب، إذ لا بد من اتمام النجاح في المساقات المقررة للسنتين الجامعيتين الثانية والثالثة، ثُم يُنظر في أمرك في مقابلة امام لجنة من اساتذة الكلية، يحكمون على مؤهّلاتك الشخصية، بالاضافة الى تحصيلك العلمي في المواد المقررة....ذلك لأنّ كلية الطب في الجامعة الاميركية لا تستقبل اكثر من اربعين طالباً جديداً للسنة الطبية الاولى، فهي تختار أفضل المتقدمين، والذين لا يتم اختيارهم، يكملون دراستهم في السنة الرابعة لينالوا شهادة (البكالوريوس) العلمية في تخصص (الاحياءBiology) ، لينافسوا على كلية الطب الذين تقدموا اليها في السنة الجديدة....كما أنّ الالتحاق بالكلية لا يعني التخرج فيها طبيباً، بالضرورة، فلقد دخلناها أربعين وتخرجنا سبعة وعشرين!

مضت السنوات الثلاث الاولى عليى خير ما يُرام، خصوصاً بعد أن تمّ تعديل مخصصاتنا من (الانروا) ، لتصبح (١٨٠) ليرة لبنانية في الشهر، بزيادة (٢٠) ليرة في السنة الثالثة، تحت بنْد (غلاء معيشة) !...ولقد فرحتُ بتلك الزيادة، حيث مكنتني من (توفير) بعض المال، ليبلغ قدر تسعين ديناراً فيما بعد، كانت هي مهر (نوال مصطفى عبد المالك صباح) ، زوجة اخي محمد، رحمهما الله!وكم كنت سعيداً بذلك التوفير وذلك الإنجاز!!الذي كان باكورة (عطائي) لهذه الاسرة الكادحة.

كنت في بداية (غربتي) اتردد كثيراًعلى صندوق بريدي، يومياً، باحثاً عن رسالة، من الاهل او من صديق....وفي يوم من ايام ١٩٥٨ وصلتني الرسالة التالية من (رضا جميل ابراهيم سليط) ، احد اصدقائي من قرية (خبيزة) ، الذين تعرفت عليهم في اربد بعد إقامتنا في مخيمها...وفي افتتاحها ما يلي:

أخي يونس...نعزيكم بوفاة والدتكم، رحمها الله، وعظّم اجركم....و.....

لم اكمل بقية الرسالة لحظتئذٍ، ولم اتمالك نفسي من النحيب المخنوق، فلقد وقع الخبر عليّ، في وَحدتي، وقوع الصاعقة، حيث كان خبراً مفاجئاً، فأنا فارقتها في الاجازة

الصيفية، ولـم يكـن بهـا مـا يـوحي بقـرب أجل، رغـم انـه لا سـبيل الـى ذلـك، ولكـلّ أجـل كتاب...صحيح انها لم تكن، منذ وعيت عليها أُمّـًا وربة بيت، تتمتع بصحة جيدة، إذ كانـت تعاني من مرض الربو المزمن الشديد، بلا علاج!، ثم تعقّد وضـعها الصـحي بظهـور مـرض مجاور له، هو توسُّع القصبات الهوائية، وكنت منذ طفولتي اراها (تلهث) وهي تبذل جهداً إضافيا، يتكرر كل يوم، وهي تقوم على خدمة ستة انفار، بلا معين!

معذورٌ (رضا) ، فهو، بعد ان مضـى علـى وفاتهـا اسـابيع، رأى أن مـن واجبـه ان يعزينـي برسالة، ولم يعلم انني لا اعلـم، فلقـد كـتم الاهـل خبـر وفاتهـا خوفـًا علـى دراسـتي!ولعدم جدوى الخبر في الوضع الذي كنت فيه، وماذا عساني ان أفعل، لو علمت، وانـا لا املـك مـن المال ما يمكنني من حضور عاجل؟

مسكينة انت يا (أسماء) ، يشهد الله أنك ما عرفـتِ في حياتـك أيّ طعـم للسـعادة، فلقـد لازمك شقاء العيش، وسوء الحظ، من باكورة شبابك، فما كِدت تبدئين حياتك الزوجية مع ابن عمكِ (محمود) حتى التحق بالجيش العثمـاني وقضـى شـهيداً في معـارك (سـالونيك) ، باليونان، تاركـًا لك (مريم) ، ابنتـك الوحيـدة، (تنعمين) بالترمُّـل، و (تـنعم) هـي بـاليُتم، لتقترني بوالدي، ابن عمٍّ جديد، ليتكفلها ويُحسن كفالتها، الى يوم زفافها الى (علي سليمان شناعة) ، من أبنـاء عمومتهـا، وتبـدئي حيـاة زوجيـة جديـدة، تحملـين فيهـا عـبء اسـرة مـن خمسة ذكور، غير قادرين ولا مؤهلين للمسـاهمة في حملـه، وتتحمّلـين قسـوة زوج جديـد، ومرض مزمن رافقك حتى النفَس الاخير!!...كأني بـك لـم تكـوني حريصـة علـى حياةمُثقلـة بالشقاء، وكأنّ لسان حالك يقول:

كفى بكَ داءً أن ترى الموت شافيا

وحسْب المنايا أن يكُنَّ أمانيا

رحمك الله رحمة واسعة، وجزاك عن أسرةٍ فارقتِها خير الجزاء، فلقـد تركـتِ في نفسـي حسـرةًأن لـم (تصـبري) قلـيلاً، ولـم تعطِنـي فرصـةً أعـوِّض فيهـا لـكِ (لُعاعـةً) ممـا كنـت تستحقين، أم أنك وجدتِ بطن الارض خيراً من ظهرها، مع الرفيق الأعلى؟ ؟

أغلقت الرسالة ولملمت فتات نفسي الكسيرة، وعدت الى غرفتي في (عين المريسة- راس بيروت) ، لأسطّر رثاءً لأُمٍّ ماتت دون حضوري أو علمي، رثاءً مبللاً بدموع الحسرة والتفجُّع، وحروف مضمّخةٍ بالحسرة والالم، عزّيت فيه نفسي واهلي، و...استرحت!!!

شقاء السنين (٧٣)

الى متى؟

بعد انتهاء مرحلة التأقلم مع نظام الدراسة، ونمط الحياة في الجامعة الاميركية، وفي بيروت، شعرت بانني امتلك فسحة من فراغ، يكفي للتفكير في (نظْم قصيدة جديدة) !

وبدلاً من أن تكون في الغزل، بحكم الاجواء الاجتماعية الجديدة في بيروت، حيث الحرية (يومئذٍ) في كل شيء! إلا ان الاحداث السياسية المتلاحقة، من العدوان الثلاثي على مصر عام١٩٥٦، الى الحرب الاهلية اللبنانية عام ١٩٥٨، الى الانقلاب العراقي على الملكية عام١٩٥٨، الى الوحدة المصرية السورية في نفس السنة، ...كل ذلك، وفوق ذلك، النشاط الحزبي المكثّف يومئذٍ في بيروت، فرض عليّ ان اتفاعل مع تلك الاحداث، متجاهلاً ما عداها من الحياة اليومية، لأنظم قصيدة (هائجة) ، هي الاخيرة، عنوانها يُنبئ بمضمونها (الى متى) ، !...وكلما استذكرت تلك القصيدة، حيث ضاع تدوينها في خضَمّ الظروف اللاحقة، شعرت بانها نُظمت تحت وطأة أوضاعنا الراهنة، إذْ ما أشبه اليوم بالبارحة!!وهاكم بعض ما جاء فيها، وأكتفي بالبعض، لاعتبارات خاصة، وتلافياً للملل!

ألا يا أولي الالباب روّعني أمرُو

أليس لهذا الليل بعد الدجى فجرُو؟

ألا يا شعوباً غلّل البغْي خَطْوها

وأسرف في تمزيقها الناب والظُّفْرُو

إلامَ التدنّي والخضوع، تكلمي

فهل كُمّت الافواه واعتُقِل الفكرُو؟

وتلمح القصيدة الى (حلف بغداد) ، حديث تلك الايام، والصراع الدائر، والتشظي القائم، بين الدول العربية:

متى يستفيق النائمون ليبصروا

بلاداً رِداها البؤس والعار والقهر

فهذا العراق (الشهم) يمضي محالفـًا

وتستنكر الحلفَ الذي اختطهُ، مصرُو

وسورية الكبرى تُجيل بطَرفها

وقد وجمت حيرى، تمَلّكها الذُّعرُو!

أفيقوا أفيقوا من سمادير سُكركم

فقد صحَت الدنيا ولازمنا السكرُو!!

وتأبى الثقافة والتعاليم الحزبية إلاان تُطِلّ برأسها، من خلال الابيات:

بني أمتي، هبوا نقرّرْ مصيرنا

وننهج سبيلاًواضحـًا ولنا النصرُو

لنا في رسول الله أحسن أُسوةٍ

وفي صحبه الغُرّ الهدايةُ والبِشرُو

....

....

ويختم البيت الاخير القصيدة بحروف مشتعلة:!

ففي لُجّة النيران تُلْفون حقكمْ

ومن رام قنْص اللؤلؤ اشتاقه البحرُو!

هذا، وأحمد الله انها لم تنشر!!!

في العطلتين الصيفيتين وجزءٍ من الثالثة، تعرفتُ، وتوثقت علاقتي مع (جاسر محمد حسين الشوبكي) ، الذي كان من سكان اربد، يومئذ......كان جاسر من طلاب المدرسة الفاضلية، بطولكرم، يومـًا ما، بحكم انتقال ابيه اليها، ضابطـًا في سلاح الفرسان، قبل ان يُنقل

الى اربد...وبحُكْم وجود جاسر في الفاضلية، شمله حزب التحرير بمظلته، ولو لفترة قصيرة، ...كان جاسر يسبقني بسنة دراسية، وحصل على بعثة لدراسة الفيزياء في بغداد، وكنا نلتقي في الصيف، كل سنة، وتعرفت على والده، ذي الجسم الفارع الممتلئ، البسيط الطيب في تعامله اليومي..كان جاسر قد فقد والدته، قبل فترة عندما دعاني الى غداء في دارهم، احتفالاً بولادة زوجة ابيه شامية الجذور، لتوأمين، وكان ذلك اول عهدي بطعام (المنسف) ، الذي لم أذق أطيب منه منسفًا في حياتي، واذكر ان سطحه كان مجللاً برأسي ماعز، تعبيراً عن التوأمة!

وتعرفت، من خلال جاسر، على أحد ابناء استاذ اللغة العربية الشهير في ثانوية اربد، واصف الصليبي. كان ذلك الشاب حزبيًا منتظمًا، بامتياز، على العكس من ابيه!....وقد علمت فيما بعد انه توفي في شرخ شبابه متأثراً بخلل في احد صمامات قلبه، رحمه الله....هذا وكنا نتردد على مخيطة على الشارع الرئيسي الذي يقسم اربد نصفين، شرقي وغربي، يملكها فتى (حزبي) يدعى (طاهر لبنية) .

وعن طريق جاسر، تعرفت الى شاب متميز بثقافته، برتبة دون الملازم، في الامن العام، اسمه (احمد صالح مريش) ، واستمرت علاقتنا الى ان انتقل، مُعاراً، الى الإمارات العربية المتحدة، ونال من الثراء ما ضعضع علاقتنا، الى حد انتهائها مع الايام، باستثناء لقاء قصير لاحدى بناته، من زوجته الاولى، في عيادتي، منذ ما يزيد على عشرين سنة!

اما جاسر، فقد انقطعت عني اخباره، اثناء دراسته لشهادة الدكتوراه في الفيزياء في الولايات المتحدة، لنلتقي في عيادتي في عمان باولاده من زوجة اميركية!

قضيت بعض الوقت، من عطلة صيف ١٩٥٩، في اربد ومخيمها، لاقضي الجزء الاكبر منها في كل من قفين وطولكرم، كعادتي في كل صيف، حيث الرفاق والاصحاب والمعارف والخلان، وما ان علم بي الاستاذ (حسن خيري المنصور) ، سالف الذكر، رحمه الله، وكان ما زال مديراً لمدرسة (دير شرف-على مشارف نابلس) ، حتى داهمني بطلب خاص، يتعلق

بدروس (تقوية) في اللغتين، وخصوصاً الانجليزية، لشقيقته الصغرى، التي سوف تتقدم لامتحان (المترك) في الصيف القادم من ١٩٦٠، تفاؤلاً بنجاح شقيقته الكبرى، بعدما ساعدتها افي اكمالها عام ١٩٥٦، وما كان لي ان اعتذر، فلقد كان له، رحمه الله، دالّة عليّ، بحكم العلاقة الحزبية!

دخلت دارهم، هذه المرة، خالياً من التوتر الذي جللني قبل اربع سنوات، حيث موقع البيت صار مألوفاً، بمحاذاة (المنشية)، متنزه مدينة طولكرم العزيز على قلبي، وكذلك غرفة الدراسة الصغيرة، وصوت الوالدة، سيدة البيت، التي كانت تكلمني من وراء حجاب، رغم ان موجة التحجب والتبرقع لم تكن دارجة يومئذٍ، بل كان ذلك مقصوراً على مُسِنّات المجتمع المدني، لا على القرى والارياف....غير أنّ شعوراً غريباً تملّكني هذا الصيف، وفي تلك الغرفة الصغيرة، منذ اليوم الاول، ليمتدّ ويتمادى طيلة ما تبقى من تلك العطلة، أحسست معه بسرعة مرور ايامها، ولما انتهت مهمتي التي حرصت على ادائها خير أداء، والى غير رجعة، كنت على قناعة تامة أني خرجت من تلك الغرفة الصغيرة بغير القلب الذي دخلتها به!!!!

شقاء السنين (٧٤)

تستغرق دراسة الطب في الجامعة الاميركية في بيروت ثماني سنوات عجاف!، يتخرج خلالها افواج من اصدقاء تعرفنا اليهم في الكليات الاخرى، ونحن ننتظر!ولكيلا يستحوذ على طالب الطب الملل، فقد عمدت الجامعة الى منحه شهادة البكالوريوس في العلوم، في نهاية السنة الرابعة، مثل بقية الطلاب المتخرجين في الكليات الاخرى، غير أنه لا يشارك في حفل التخريج مثلهم، فتكون شهادة البكالوريوس تلك، بمثابة (تصبيرة) !

وهكذا فقد مُنِحتُ تلك (التصبيرة) عام ١٩٦٠، بالاضافة الى شهادة (الصوفومور) التي تمنحها الجامعة في نهاية السنة الثانية، وأكون بذلك قد انهيت السنة الاولى من كلية الطب، ليبقى اربع سنوات من المعاناة والمشقةوالارهاب الدراسي المحفوف بالمكاره، مما أُعفي قرائي من الدخول في تفاصيله!

لم يغب عن خاطري يوماً واحداً مصير التي فارقتها في طولكرم، في الصيف السابق، لتستعد لتقديم امتحان شهادة الدراسة الثانوية (المترك) ، صيف العام الذي انهيت معه السنة الجامعية الرابعة وشهادتها (التصبيرة) .....تُرى، كيف كان أداؤها في الامتحان، ومتى تظهر النتائج؟ ...كان صيفاً طويلاً صيف عام ١٩٦٠، وكانت عطلته الصيفية قصيرة، بعد ان راحت عُطَل صيف كلية الطب تتقلص تدريجياً، فلم أتمكن، طيلة الايام القليلة التي قضيتها في كل من قفين وطولكرم، من تحصيل أيّ طائل يطمئنني عن توقعاتها، إذ عدتُ الى اربد، ومنها الى بيروت، ولمّا تظهر نتائج المترك، بعدُ، كما لم أملك الحجة المعقولة التي تبرِّر لي أيّ نوع من الاستفسار، أو الدخول الى تلك الدار، فلا الدار دار عمي، كما كانت حال (قَيْس) ، ولا (خَلَتْ من نارنا الدارُو) ، لأجد حجتي في جلب الحطب!

كيف الوصول الى حماكِ

وليس لي في الامر حيلهْ؟

وهكذا عدت الى الجامعة، لابدأ السنة الخامسة، بخفَّيْ حُنَين، كما يقولون، وظلّ خاطري هناك، الى ان نُمِيَ اليّ من طولكرم انها نجحت نجاحًا تامًا، لا إكمال معه، فانتهزتها فرصة (ماسيّةً) ان ابعث برسالة تهنئة الى شقيقها (حسن) ، داعيًا لها بالتوفيق!...وجاءتني منه رسالة شُكرٍ، مجرّدة، جافّةً، أوحتْ لي أنّ مهمتي، بالنسبة اليه، انتهت، ولم يعلم أنّ مهمّتي، أو هَمّي، كان قد ابتدأ!!!

لهوى النفوس سريرةٌ لا تُعْلَمُو

عَرَضًا نظرْتُ وخِلْتُ أنِّي أَسْلَمُو!!!

منذ السنة الاولى في كلية الطب، وبعد ان تخرج (عبد المعز شاور) ، وغادر بيروت، والى ان تخرجْتُ، تساكنّا معًا، أنا و (ابراهيم محمد رؤوف ناصر) في غرفة واحدة من شقة في (عين المريّسه) القريبة من الجامعة، ومن السفارة الاميركية (يومئذٍ) ، ومن (كورنيش) راس بيروت، تملكها، وتسكنها عجوز أرمنية، كانت تتقاضى منا مئة ليرة لبنانية شهريًا، وعلى ذكر الاجرة والليرة، فلقد رفعت وكالة غوث اللاجئين مخصصاتنا في نهاية السنة الجامعية الخامسة الى (٢٣٥) ليرة شهريًا، علاوة غلاء معيشة، وبدونما مطالبة منا، بزيادة قدرها (٥٥) ليرة، ما جعلنا في (بحبوحة) من العيش!!!

لم يكن (ابراهيم) ذلك الشاب الاجتماعي الذي يُسَلّيك بحديثه، رغم طيبته، ونقاء سريرته، فكانت مساكنتنا (منزوعة الدسم) رغم كل العوامل التي كانت توحّدنا، فالخلفية متشابهة، فهو من قرية (كفر سابا) القريبة من (سلمة) و (يافا) ، الذين لجأوا الى (قلقيلية) عام ١٩٤٨ ، وكنت قبله بسنة في كلية الطب، وكلانا على حساب وكالة الغوث، وكلانا (حزبي) بامتياز، ومع ذلك، كنت أقضي فراغي مع مجموعة (حسين رشيد) ، حيث كنت (أجدُ نفسي) معهم، رغم اختلاف وجهات النظر، فلم يكن ذلك الاختلاف ليفسد للود قضية!....وهكذا فقد كانت لذلك الجو الجاف حسنة بارزة، هي (الانشغال) بالدراسة، والدراسة فقط، فعلى مدى خمس سنوات، دخلنا (معًا) السينما المجاورة لنا، والتي كنا نصلها على الاقدام في بضع دقائق، مرتين فقط!!!....ولكي نظل على صلة باحداث العالم،

استأجرنا جهاز (راديو) بخمس ليرات شهريـًا، من محلات (بوتاجي) القريبة جداً، فكنت اجد فيه سلوتي بمتابعة مسلسل (العسل المُرّ) ، والاستماع الى الاخبار، والى الاغاني الشعبية، من عتابا، وميجنا، وابو الزلف، وبعض حفلات الزجل اللبناني الراقي، ....هذا، وقلما كان ذلك يعني (ابراهيم) الذي كان يردد مقطعـًا من اغنية لفريد الاطرش، بين الفينة والفينة، لتعبئة فراغ، او تعبيراً عن ملل، او ضيق صدر!!فلقد كنت ارى الجِدّ الغامض يملك عليه معظم مشاعره.

كنا في السنة الثانية من كلية الطب، حينما دُعينا (كل طلاب الكلية) لزيارة حاملة الطائرات الاميركية (فورستال) ، التي رست في اطراف ميناء بيروت، في زيارة ودية للبنان، وعلمت، مؤخراً، ان الهدف من دعوة كلية الطب التعرف على (مستشفى) السفينة!

كان ذلك اول عهدي بركوب السفن. صعدنا سطح السفينة، فوجدناه مغطى بعشرات الطائرات الحربية الرشيقة، راقدة في مواقعها، لتشكّل منظراً أشبه ما يكون برَفّ مجموعة من الحمائم، على انها ترمز للقتال، بدلاً من السلام المقترن بالحمام!.....ثم هبطنا الى الطابق الذي يتكون منه المستشفى، حيث راح الاطباء والممرضات يشرحون وهم يعرضون لنا الاقسام، زاوية زاوية.....بهرني ما وصلت اليه عظمة الدولة التي وصلت الى هذا الحد من التقدم العلمي والتكنولوجي، وخرجت من تلك الزيارة مكتئبـًا، متألمـًا لما آلت اليه امتي من تخلف وضعف وضعها في الحضيض، وقلت في نفسي:-هكذا يكون النهوض، وهؤلاء هم الذين يحق لهم أن يرددوا:

ملأنا الجو حتى ضاق عنا
ونحن البحر نملؤه سفينا!

وهؤلاء هم الذين يحق لهم ان يرددوا:

ترى الناس، ما سِرْنا، يسيرون خلفنا
وإنْ نحن أومأْنا الى الناس وقّفوا!!!

شقاء السنين (٧٥)

كان النشاط الاجتماعي الوحيد الذي مارسته كلية الطب في السنوات الثلاث الاخيرة من دراستي في الجامعة الاميركية في بيروت (ما بين ١٩٦١ و١٩٦٤) ، هو إصدار مجلة تُعنى بالجانب غير الطبي من حياة طلاب الكلية والاطباء الاساتذة، وان كان محاذيًا له، فالمرء لا يستطيع الخروج من جلده!

يومئذ تداعى مجموعة من طلاب الكلية، من مختلف المراحل، ما بين متبرع بماله ومتبرع بوقته وجهده، لاصدار مجلة شبه شهرية، اطلقنا عليها اسم (مديكس , medicus) ومعناها المقصود (الطبيب) ، ولكي تجمع المجلة بين العربي والافرنجي!، جعلت باللغتين العربية والانجليزية، مع عدم الترابط او التشابه او التطابق بين فحوى القسمين، بالضرورة، بل، ربما كانت مواضيع كل منهما، ابعد ما يكون بعضها عن بعض!!

توكّل بالقسم الانجليزي فريق ممن يجيدون الانجليزية اكثر من العربية، اما القسم العربي فتعهّد بالاشراف عليه ثُلّة من الاردنيين، يجيدون العربية اكثر من الانجليزية، وكنت في طليعتهم، بالطبع، وكانوا، على وجه التحديد:-حسين رشيد ونائل عجلوني (رحمه الله) وعبد الله الحياري (رحمه الله) ومحمد بركات و.....أنا، بالإضافة الى شابين او ثلاثة من ابناء لبنان، بمشاركات (موسمية) ، وابرزهم (سليم صعب) ، الطالب النحيف جداً، الاليف بلا حدود، والذي كان يصرّ على التخصص في (.....الجراحة) !!!

كانت مشاركة عبد الله مخصصة لتاريخ الطب عند العرب، فكان يتحفنا بنبذة عن احد مشاهيرهم في كل عدد، او انجازاته في مجال ابداعه، اما حسين فكانت حصته التعليق (الساخر) على الاطباء الاساتذة، بتناول أبرز ما في سلوك وعادات وعبارات كلٍ منهم، ....وكانت مشاركات محمد بركات تتسم بشيء من الطرافة، فهو، بحكم كونه اديبًا وشاعراً (مُقِلًّا) ، يطوف بالقارئ في عالم (حبيبته) التي لا تكاد تفارقه، ولا هو يطيق فراقها،

لتكتشف في نهاية القصة أنه يتحدث عن (السيجارة) ، !حيث كان (وما زال؟) ، مدخنًا مزمنًا....مدمنًا!!

أما أنا، فكانت مساهماتي، مطوّلةً، ومن العيار الثقيل!ولقد استعرضتُ بعض الاعداد من تلك المجلة (مديكس) -وانا احتفظ بمعظمها في مكتبتي حتى الساعة-فعثرت على مقالة لي بعنوان (قضيّة من؟) ، من بين المقالات الطويلة المتعددة، فوجدتها تصلح للنشر هذه الايام، كما لو أنّ حال امتنا لم يتغير، بعد مرور نَيّفٍ وخمسين عامًا....ذلك لأنّ الاجواء الحزبية الجادّة كانت تملك عليّ كل تفكيري!ومن بين الاعداد، عثرت على مقالة رثاء لأستاذ مرموق في كلية الطب، وفي عالم امراض الانسجةPathology، وذي شعبية لافتة، بين زملائه الاطباء المدرّسين، وطلاب الكلية، هو المرحوم (نمر طوقان) ، النابلسي....الساخر، بامتياز!

كان الدكتور نمر طوقان صديقًا ملازمًا للمليونير اللبناني المشهور (قبل ان يظهر على مسرح الثراء، رفيق الحريري وأَضرابه) ، رجل الاعمال بلا منازع، (إميل البستاني) .....كانا معًا، في رحلة إمتاع، في الجو، بطائرة البستاني الخاصة، فوق الشواطئ اللبنانية، بالقرب من بيروت، وكان الجو مصحوبًا بحالة عدم استقرار، تحولت الى عاصفة، لم تصمد لها الطائرة، فهوت في البحر، ولم يُعثر عليها ولا على معظم من كان فيها منذئذٍ!!!

كان الحدث صادمًا على المستويين اللبناني والجامعي، وفي كلية الطب ومستشفى الجامعة الاميركية، كان وقع الكارثة، بفقدان نمر طوقان، أليمًا، يصعب وصفه:!

وما كان قيسٌ هُلْكهُ هُلْكُ واحدٍ

ولكنه بنيان قوم تهدّما

كما قيل في الماضي في الحليم المشهور بحلمه (قيس بن عاصم)

أقول، وانا استعرض اعداد المجلة ذات الغلاف الاخضر، وقعت على رثاء الاستاذ الدكتور نمر طوقان، في الصفحة الاولى من احد اعدادها، مستهلاً إياه بالعبارة التالية:-

الوجوم الذي علا الوجوه في الجامعة والمستشفى، صبيحة هذا اليوم (آذار ١٩٦٣) ، ينبئ عن حجم الكارثة.......!الخ

كنت في قسم الجراحة في مستشفى الجامعة الاميركية، حينما فوجئتُ بالتحضير لجراحة إسعافية طارئة، لمريض من موظفي هيأة الامم المتحدة، جيء به من احدى دول القارة الافريقية، يعاني من انحصار بولي ناشئ عن تضخم شديد في غدة (البروستاتا) ، أدى الى اضطراب في وظائف عمل الكليتين، ....وَلَشَدّ ما كانت دهشتي، عندما علمت (ثم رأيت) أنَّ المريض هو الاستاذ (محمد حسين علي) ، استاذي في الفاضلية بطولكرم، لمادتي الجغرافيا والتاريخ، وشريك (عبد الرحيم مرعب) في تأليف كتاب (تاريخ العرب والمسلمين) المقرر لامتحان شهادة الدراسة الثانوية في الاردن! ....عرفته ولم يعرفني (طبعًا) ، الا بعد تعريفه بي، وطمأنته عن وضعه الصحي، فقد كانت ملامح المرض والتعب والقلق تكسو وجهه، وعُدْ ت بالسنين القهقرى، وانا أتفرّس في وجهه، لاتذكر حديث (ابو العبد) ، مالك (السقيفة) التي سكنتها في سنتي الاولى في طولكرم، حديثه عن الطالب (العطيله) الذي كان يسهر الليل بطوله من اجل ان ينجح، يوم كان يسكن نفس الموقع، قبل سنين!!!كان قد تطور وضع الاستاذ، وحصل على شهادة الدكتوراه في تعليم مادة الحساب للصفوف الاساسية، قبل ان يعتمد مستشاراً لدى هيأة الامم المتحدة.

ما كنت لانسى ان الاحق اخبار (طولكرم) ، خطوة بخطوة، بعد ان اصبحت (نزيلتها) ، شغلي الشاغل، رغم الحصار الدراسي الذي فرضته دراسة الطب، ذلك الحصار الذي عزلني، وزملائي، في بناية الكلية التي كانت تحمل (الى عهد قريب) اسم مؤسسها المستشرق (فان دايكVan Dyk) ، ثم في مستشفى الجامعة، فلم نعد نرى اصدقاءنا ومعارفنا في الجامعة وبيروت إلّا لِمامًا!

بعد نجاحها في المترك، علمتُ (من مصادري الخاصة) أنها عملت في التدريس في قرية (فرعون) القريبة جداً من طولكرم، بانتظار توظيفها مدرّسة في الكويت، بواسطة قريبها

وزوج شقيقتها (صدقي حطاب) الذي كان يحتلّ موقعـًا مرموقـًا في اكثر من مؤسسة، هناك، ويقيم باسرته فيها!

ودِّعْ هُرَيْرَةَ، إنّ الرَّكْب مُرتحِلُو

وهل تطيق وداعـًا أيُّها الرجلُو؟ ؟ !

شقاء السنين (٧٦)

لا بد لطالب الطب في الجامعة الاميركية في بيروت في ستينات القرن الماضي، من ان يقضي شهراً في العصفورية، ذلك المصحّ، الواقع في منطقة الحازمية، احدى ضواحي بيروت، المرتفعة، ذات الإطلالة الخلابة، والطبيعة الفاتنة، والاشجار الحرجية الكثيفة، التي جعلت من المصح (ملفى) لشتى انواع العصافير (ومن ذلك اكتسبت تسميتها!).

أقيم مصح العصفورية للامراض العقلية في اواخر القرن التاسع عشر، وفي عام ١٨٩٠م، تحديداً، بمبادرة من الارسالية التبشيرية، ليكون رديفاً للجامعة الأمريكية (ومستشفاها) اللذَين تأسسا عام ١٨٦٦م، بعد إذْنٍ من السلطات العثمانية، يومئذٍ.

ولكي يتمكن الطلاب من استيعاب اكبر قدر من التعلّم، والممارسة المحدودة، كانوا يوفدون الى العصفورية على دفعات، بعد قضاء مرحلة متقدمة في الجزء السريري من دراسة الطب.

كان في استقبال مجموعتنا، في مسكنه في المصح، الدكتور علاء الدين الدروبي، بقامته الممتدة، ونظاراته السميكة...رحب بنا االطبيب النفساني، والقى علينا كلمة موجزة عن المصح وما نتوقع ان نرى، وما تتوقع الكليةمنا ان نجني من هكذا (دورة)، وما زلت اذكر احدى عباراته، في معرض التركيز على تمحيص ما نسمع او نقرأ، وألّا نأخذ المعلومة على علاتها، بقوله: (انّ الحقائق العلمية الثابتة في الحياة، لا تكاد تملأ نصف صفحة!)

ثم انطلق بنا الى الدكتور (مانوغيان)، الطبيب النفسي المسؤول في المصح، ليعرف مجموعتنا على مباني المستشفى الموزعةعلى ما يزيد على مئة واربعين دونماً، لكل مبنى اختصاصه في المعالجة، واسمه الذي قد يحمل اسم الجهة التي تبرعت بتكاليف إنشائه، وكان اكثرها فعاليات (البيت الانجليزيEnglish House)، حيث كانت تنفذ (الصدمات الكهربائية للدماغ) للذين لم يستجيبوا للعلاجات الدوائية!باشراف الآنسة (رامونا حلبي)، شديدة البأس!

في العصفورية كل الحالات العقلية والنفسية التي استوجبت الرعاية المتواصلة، داخل مستشفى، من الاكتئاب الشديد، الى انفصام الشخصية باشكاله الثلاثة، واخطرها (الانفصام الارتيابي paranoid schizophrenia) الذي كان مدير المستشفى أحد ضحاياه، حين طعنه احد نزلاء المستشفى المصابين بهذا النوع طعنة نجلاء وهو يغادر احد مباني المصحّ، تحت تأثير الريبة المستحكمة في تفكيره!، ولا يظنّنَّ ظانّ أن كل حالات انفصام الشخصية مكشوف بيّنٌ، فبعضها قد يخفى امره حتى على الطبيب الحاذق المتمرّس، ولقد قضينا (زميلي حسين، وانا) ، ساعة مركزة كاملة مع احدهم، وكان يعمل طياراً حربياً، بطلب من الاستاذ الذي زودنا بتشخيص حالته، سلفًا، لنجد (مطبّـًا) واحداًيقودنا الى نفس التشخيص، فلم نجدْ، وغادرناه وفي النفس شيء من الشك في تشخيصه، ويكاد لسان حالنا يقول (أين المشكلة؟) !!ونسينا (أنّ الجنون فنون) !

في شهر العصفورية (التي لم تعد مستشفى ولا مصحًا بعد عام١٩٧٢) ، تعلمت ان امزجة البشر متنوعة، وان ضحايا العلل النفسية، أكثر بكثير مما يتبادر الى التفكير العادي اليومي، وان علاج الاصابات العميقة منها أصعب على الطب من إصابات الجسد، وغادرت العصفورية (سليمًا معافى) ، قبل ان تعصف بي الرياح النفسية وأحدُ (منخفضاتها) ، حامداً الله على سلامة العقل، مردداً مع شوقي، حين كان يخاطب عصفوراً على غصن احدى اشجار الموز في منفاه في الاندلس:

أُساةُ (أيْ أطبّاء) جسمك شتّى، حين تطلبهم

فمَنْ لِروحكَ بالنُّطْس المداوينا؟ !كما أنّ المشاهد التي تعرضتُ لها في ارجاء المستشفى من بؤس وضياع، وأشكال والوان من المعاناة، متجسّدةً في شبان فقدواصوابهم في شرخ شبابهم، وشاخوا بين جدرانه، تنزع عن ضحايا هذا العالم من العلل البشرية إنسانيتهم، تلك المشاهد القاسية، كفّرتني بقول القائل، قديمًا:

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلت لهم

ما لذة العيش الا للمجانينِ!!

في الوقت الذي كنت أخوض معركة المصير والمستقبل في كلية الطب، كان اربعتهم، في احدى فترات شقائهم، يكدحون، عمالا في كهوف مناجم الفوسفات، في قرية (الرصَيّفة)، بمن فيهم اخي الاصغر (لوط) الذي توقف عن الدراسة بعد الصف السادس في قفين، لعدم القدرة على تكاليف دراسة طالبَين، خارج القرية، في نفس الوقت، ليعود بعد لأْيٍ ويستأنف الدراسة بعدما عادت مدارس وكالة الغوث وفتحت ابوابها لامثاله، وبتنسيق وتشجيع من اخي (رفيق) ، رحمه الله.

وفي احدى اجازاتي الصيفية، على قصرها المستمر، قررت ان ازورهم حيث يسكنون، وأقضي ليلة، على الاقل، حيث ينامون، شركاء مع بعض اقاربهم، في حجرة واحدة، على مشارف (سيل الزرقا) ، وعلى مقربة من المكاره الصحية حول السيل، والغزو المكثف للبعوض الجائع الشرس!...كانت ليلة (نابغيةً) تلك الليلة التي قضيتها بين سبعة اجسام مرهَقة، هدّها تعب اليوم الفائت، فاستسلمت لنومٍ عميق، لم يأبه للبعوض (الزائر الليلي) ، أما انا فلم يزُرْ أجفاني نوم ولا سهاد، تحت أزيز البعوض الذي لم يتوقف، ورحت انتظر طلوع النهار، بعدما أرّقني وخز البعوض ووخز (......الضمير) ، على شقاء أحبَّةٍ لم املك لهم شيئًا من أمرهم، !......واذا كان لتلك الزيارة من ايجابيات، فلقد جددت فيَّ العزم والعزيمة على مزيد من الكدّ والاجتهاد، والاستهانة بمعاناة الدراسة وهموم الامتحانات، على قسوتها!

اشتهر الدكتور (ابراهيم داغر) ، جراح القلب الأول في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت، بأنه أول جراح تمكن من فتح صمام ضيق في قلب احد المرضى نتيجة حمى الروماتزم الرثوية، على مستوى المنطقة، في بواكير ستينات القرن الماضي، ما أشاع يومئذٍ في لبنان، على لسان إحدى المُعجَبات، وللطرافة، أنه (ابراهيم) ، وإن تمكّن من فتح صمام ذلك القلب، إلا أنه لن يتمكن من فتح قلبها (لهُ) !!!

كان (ابراهيم داغر) معتدل الطول والحجم، أقرب الى القِصَر، قليل اللحم، قليل الكلام، بسيطًا جداً، شديد التواضع في حياته العادية، من إحدى ضِيَع جنوب لبنان البسيطة (وقد استزار مجموعتناإليها في احد الايام) .

كنت معه مساعداً في احدى عملياته الجراحية، بدورٍ تافه!وكنا كثيراً ما نتجادل في الامور السياسية، في المراحل الروتينية من الجراحة (مرحلة إغلاق الجرح) ، عندما فرغنا من العملية، وتناول ملف المريض ليدوّن، كتابةً، خلاصة ما فعل، وكنت ارقبه عن كثب، ففوجئت برداءة خطه، بالانجليزية، فلم أملك نفسي من التعليق: ما هذا الخط يا استاذي؟ وكيف ينسجم مع كل هذه الدقة والاناقة في الجراحة التي تؤديها؟ !!!

ولَكَمْ كان جوابه مفحمًا حينما قال:-يونس:

في العندليب صُداحهُو

لاريشهُو وجناحهُو

شقاء السنين (٧٧)

لم تكن الاحداث السياسية وحدها التي اقتطعت حصة وافية من وقتي، وقت طالب في كلية طب، فلقد حفزني التزامي الحزبي معززاً بقدرتي على الكتابة، ان انشر بعض المقالات الفكرية، في موقعين، كنت اراسلهما في عمان، هما مجلة (الافق الجديد) ، و (جريدة الدستور) ، ...كانت (الافق الجديد) المجلة الفكرية الثقافية الفريدة في بواكير ستينات القرن الماضي، على مستوى الاردن، وان لم تعمَّر طويلاً، شأْن مثيلاتها من حمَلَة الفكر الملتزم، وفي طليعتها مجلة (الرسالة) المصرية، لصاحبها (احمد حسن الزيّات) ...كان يشرف على اصدار (الافق) الاستاذ (امين شنار) ، رحمه الله، وكانت معظم مقالاتها اسلامية المضمون والنكهة، في البداية، قبل ان تفتح ابوابها لكل ذي رأي او وجهة نظر، وكانت لي شبه دالّة على المجلة، كون صاحبها أمين حزبيـًا معروفـًا (قبل ان يتصوّف في اواخر أيامه) ، فلقد اصدر إبّان انطلاقه الحزبي ديوان شعر له، سماه (المشعل الخالد) ، ...أذكرُ، واحتفظ ببعض اعداد (الافق) ، انني نشرت ثلاث مقالات (في صُلْب العقيدة) ، جاءت على شكل حوارات مع (الدكتور عبد الرحيم بدر) ، الذي كان يكتب في المجلة عن نشأة الكون، بنكهة (يسارية) ، شارحـًا بعض ما ورد في كتاب له، سماه (الكون الاحدب) ، محاولاً شرح نظرية آينشتاين النسبية!....ومقال حول المفهوم نفسه، تحت عنوان (هذه الخليّة) ، مستفيداً مما توصلتُ اليه في دروس الطب العلمية الاساسية!

اما جريدة الدستور، فلانها كانت ترحب بالمقالات ذات التوجه الاسلامي، عمومـًا، بحكمِ صلة الجريدة بالمرحوم (كامل الشريف) ، اخواني الانتساب او اخواني الهوى في اضعف الاحوال (هذا، وقد استأنفت الكتابة فيها، بعد عودتي الى عمان، معظم ثمانينات القرن الماضي.)

ولـم تقتصـر نشـاطاتي علـى الكتابـة، فلقـد سـاهمت في ترتيـب حـروف طباعـة جريـدة (الحضارة) التي استأجر (واستغلّ) الحزب رخصتها لـدى الحكومـة اللبنانيـة، لنشـر آرائـه السياسية وافكاره الحزبية، تحت ستار ترخيصها القانوني!غير ان ذلـك لـم يـدم طـويلاً فلقـد انكشف الامر لدى الدولـة، وأُغلقـت علـى الفور!كمـاانني، وزمـلاء آخـرون، دخلـت بيوتـاً مجهولة لي، من اجل تبليغ الافكار الحزبية للناس وجهاً لوجه!!تطبيقاً لتعليمات الحزب، آنذاك......

وفي احدى الامسيات، وبُعَيد صلاة المغـرب، وفي جـوف (المسـجد العمـري الكبيـر) ، اكبر مساجد بيروت، في سـتينات القـرن الماضـي، وبينمـا كنـا نسـتمع الـى درس دينـي يلقيـه (أحَدُنا) ، بكل انسجام واندماج، داهمتنا مجموعة من رجال الامن اللبناني، وقادتنـا جميعـاً الى سيارة عسكرية (حُشينا) فيها حشواً، ليتم تفريغنا في (نظـارة) احـد المخـافر في (حـارة حريك) ، احدى مناطق بيروت الغربية!لكن اقامتنا في النظارة لم تطُل، فلقد أطلّ علينـا احـد ضباط الامن العام، واسمه (...علامه) ، وأطلق سراحنا، حيث تبين له (براءة) ذلك التجمع من الاخلال بأمن البلد!!!

كان ذلـك الحـدث، علـى بسـاطته، بمثابـة (صـعقة) أفقـتُ منهـا علـى حقيقـة صـارخة، موجَزها:الى أين؟ ووجهْتُ بعدها الى نفسي عدة اسئلة، اهمها وابسطها:ترى، لو طال بقائي في النظارة، ومنها الى السجن الاحترازي، ماذا سيكون مصير دراستي والبعثة؟

كان الشاب (طلال البساط) ، من احـدى عـائلات (مدينـة صـيدا) المرموقـة، مسـؤولاً مباشراً عن نشاطات الحزب الطلابية، وزميلاً أخـاً في علاقتي معه، فتواعدنا على لقاء خاص (مستعجل) ، شرحت فيه الظروف الدراسية والعائلية التي كنت أمرّ بها، وكيف انها تتقـاطع مع التزاماتي الحزبية تقاطعـاً حاداً، وأنـني، حيـال ذلـك، لا أسـتطيع الاسـتمرار اكثـر، وانني فضلت ان أُعفى من العضوية الحزبية، للظروف المذكورة، لا لأي شيء آخر، وقبـل ان يـتم إعفائي تحت اوضاع او ملابسات يُساء تفسيرها، أو لا تليق بي ولا ارضـى عنهـا...دار بيننـا

ساعتئذٍ حوار طويل أبعاده مألوفة معروفة لديّ، تدور حول التضحية بالمصالح الفردية، في المسيرة الحزبية، غير أنّي أكّدت له، رغم قناعتي التامة بكل ما قال، انني دون مستوى ما قد يواجهه الحزبيّ من تضحيات....وودعته، باكياً، وودعني متألماً، متفهماً، وداعاً لا لقاء بعده!!!وهكذا، كانت البداية في (مسجد الجامع الجديد) في مدينة طولكرم، على يدي (عبد الرحمن جرّاد) ، وكانت النهاية في (المسجد العمري الكبير) في مدينة بيروت، وعلى يدي (طلال البساط) ، وانطوت صفحة الحياة الحزبية الرسمية، والرسمية فقط!

كان (ألبَير كنعان) قيِّماً على مكتبة كلية الطب في بناية (فان دايك) بالحرم الجامعي، وكان، بحُكم قدَمه، وتكريسه اللافت، يعرف كل زاوية، بل كل مسلسل، من مراجع أو أبحاث او مصادر، من مادة الطب التي احتوتها المكتبة...كان ألبير رجلاً رَبْعةً ممتلئاً قليلاً، نظاراته السميكة جداً لا تفارق عينيه، وكنا (حسين وانا) رُوّاده في المكتبة، المقربين اليه، واللافتين اهتمامه، بكثرة بحثنا عن مراجع طبية في سجلات (الفهرس الطبي index medicus) ، فكان يمنحنا اهتماماً خاصاً ووقتاً اضافياً، ولمّا كان ذا ميول ادبية (عربية) ، لمس لدَيّ مثل ذلك، فوجد ضالّته فينا، ليروي لنا، بين الفينة والفينة، ما يحفظ من طرائف ونوادر وأشعار، تدور كلها حول الحب!وما زال في ذاكرتي منها روايتان مشفوعتان ببيت من الشعر، يلخص فحوى كل منهما....ففي الطرفة الاولى، يحب احدهما احداهن، وبعد طول تدلّهٍ والتياع، يكتشف انها (تحبّ) شخصاً آآخر، في الوقت ذاته، فتفرض عليه موهبته الشعرية (وبطل كل من الروايتين شاعر!) نظْم بضعة ابيات، أبرزُها:

تريدين كَيما تضمديني وخالداً؟

وهل يُجمع السيفان، ويحكِ، في غِمدِي؟

وكان غريم الشاعر يسمى (خالداً)

اما الطرفة الاخرى فعلى العكس من الاولى، حيث تبدي للشاعر حبيبته استغرابها من حبه الشديد لها، فيقول لها، فيما يقول:

تقولين:ما في الناس مثلك عاشقٌ

جِدِي مثل من احببتهُ تجدي مثلي!!

كنت في دورةقسم الجراحة، في مستشفى الجامعة الاميركية، مع الدكتور (جون ويلسُن)، رئيس قسم الجراحة في المستشفى، ثم عميد كلية الطب فيما بعد، عندما طُلب إليّ تحضير مريض له جديد، قادم من مدينة نا بلس، لإجراء عملية جراحية له في بطنه، لاستئصال ورم يُخشى أن يكون خبيثًا

شقاء السنين (٧٨)

الاطباء الذين فحصوا (الحاج طالب دروزة) في نابلس، لآلام متكررة في بطنه، لمسوا وجود (ورم) في أحشائه، ساورهم الشك في براءته، فنصحوه بمتابعة حاله الصحية في (الخارج) ، ولأنّ الحاج من كبار تجار نابلس، القادرين على ذلك، قرر المعالجة في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت، وعلى يد امهر جراحيه، في الجراحة العمومية، الدكتور (جون وِلسُن) .

هكذا روى لي الحاج (رح) سيرته المرضية، عندما توجهت لفحصه وتجهيزه للجراحة، حيث كنت مرافقـاً للدكتور وِلسن، يومئذٍ، في دورة الجراحة التدريبية، كما يقتضي برنامج تدريب طلاب كلية الطب.....حضر الحاج طالب الى بيروت، يرافقه ابنه الاكبر (خالد) ، وافراد من آل (الدَّدُو) ، شركاء آل دروزة القدامى، في التجارة، واصدقائهم، في الوقت نفسه، أذكر منهم الحاج عادل الددو والحاج محمد، وأحد شبانهم (ولعله احد ابناء المذكورَين) ....

كان لخلفيتي الدراسية في طولكرم وقعٌ ايجابي في نفوس الجميع، المريض ومرافقيه، ولّد ارتياحـاً و (رفْعَ كُلْفة) دفعهم الى طلب استثنائي مفاجئ....كان القلق على براءة الورم المذكور يقُض مضاجع القوم، وتمنوا لو يطمئنون على (وضْع) الحاج، في اقرب وقت ممكن...

كانت العمليات الجراحية في المستشفى، تجرى في الطابق العلوي (الاخير) ، من مبنى المستشفى، ويعلو غرفة العمليات قُبّة زجاجية تنفذ منها أشعة الشمس فتبعث فيها مزيداً من ضياء، يسمح بوضوح الرؤية المزدوجة، من الخارج الى الداخل وبالعكس.....وعلى الرغم من عدم السماح بالصعود الى سطح المبنى، فالوصول الى القبة، إلّا أنني استأذنت رئيسة ممرضات الجراحة، اميركية الجنسية، بالسماح للشاب من آل الددو ان يصعد الى

السطح، ليصل الى القبة، أثناء جراحة (الحاج) ، لتصله مني (إشارة) في الوقت المناسب من العملية، تطمئنه على براءة الورم؟ ثم يغادر السطح، ويُغلق بابه من بعده!

كنا في غرفة العمليات، في صبيحة اليوم التالي، الدكتور وِلسُن، وأنا، وممرضات الغرفة، على الموعد المضروب، وكان الشاب (الددو) ، على السطح، يرمقنا من خلال زجاج القبة، وما هي الا دقائق معدودة، حتى انكشفت لنا حقيقة الورم و.....براءته (حيث كان كيساً مائيًا، يطول شرح كيفية تكوينه) ، وسارعت بإعطاء إشارة (التطمين) ، وغادر الشاب السطح حاملاً البشرى الى المرافقين، وفي طليعتهم (خالد) !!!

تم استئصال الورم (الكيس المائي) (hydatid cyst) كاملاً سالمًا، وخرج الحاج طالب من المستشفى معافى، وتتكرر اللقاءات بيننا، خارج المستشفى، في دعوات ومسائيات، عدة، على مطعم (يلدز لار) وغيره، ....الى ان عاد القوم الى نابلس بغير الروح التي خرجوا بها، حامدين شاكرين!

وتدور الايام دورتها، لاعود الى عمان، بعد نيّفٍ وعشر سنين، طبيب اطفال، ويلفت إعلاني في جريدة (الدستور) افتتاح عيادتي في جبل عمان عام ١٩٧٥، نظر (الحاج خالد) ، ونلتقي، واصبح طبيب أبناء آل دروزة، (خالد، وزاهي وسميح) و....أحفادهم!!!

كانت مدرسة (حَوَلّي) ، بالكويت، موعدنا على .....الورق، وسيلة التواصل (الاجتماعي) الوحيدة، يومئذٍ، ....كم أهرقنا من مِداد، واستهلكنا من قرطاس، وأحرقنا من أعصاب! وألهبنا من مشاعر ودّ واشتياق، لم يزدها البعد الا تأجُّجًا ...كان صيف١٩٥٩ شرارة شعلة مَيل جارف لم يَخْبُ أُوارها، ولا أطفأت لهيبها اربع سنوات متعاقبة، امتلأت بالرسائل المشحونة بكل عواطف الحب الصادق، وأُقسم، لو لم تُحرَق وتأكلها النار لإخفاء سرّ غالٍ على قلبين، لكان لها في الادب العذري نصيب وافر!!!

كانوا ثلاثة، ابتعثتهم وزارة التربية الاردنية الى الجامعة الاميركية في بيروت، لتعميق قدراتهم التعليمية وتطوير كفاءاتهم الادارية، كمدراء مدارس، هم (...قطينة) من منطقة

القـدس، و (.....الشـنطي) ، مـن منطقـة قلقيليـة، و (احمـد السـاحلي) مـن منطقـة طولكرم...تعارفنا، وتكررت لقاءاتنا في مجمّع (زكّور) ، براس بيروت، وتطورت، بحكم قربى الجغرافيا، بيني وبين الاستاذ احمد الساحلي العلاقة الى صداقة، عرفت من خلالها ان بيتهم في الحي ذاته في طولكرم، ولا يبعد كثيراً عن بيتها، بالقرب من (المنشية) ، .....كان احمد حديث عهد بزواجه، كماكانت بعثتهم لبضعة اشهر، وكنا في لقاءاتنا المتكررة، نتبادل المشاعر والعواطف، وكان أن بُحْتُ له بسرّي، ورغبتي العارمة في نسب قريب، فرحب بالفكرة، إذ كانت لديه فكرة عامة عن الاسرة بحكم الجوار، ....وانتهت بعثتهم، وعاد كل الى موقعه.

في قسم الجراحة، كان مريضي في اليوم التالي (ابو ابراهيم) .كان ابو ابراهيم، يعاني من علة صدرية استوجبت إجراء جراحة على يد جراح الصدر الدكتور الارمني (يعقوبيان) ، أبيض الرأس بشيب جامح مبَكّر، قليل الكلام المطعّم باللكنة الارمنية، (وللعلم، فلقد كان للارمن حصة لا بأس بها في المستشفى، من اعضاء في الهيأة التدريسية، الى طلاب في الكلية، الى ممرضات في شتى اقسام المستشفى، تزيد نسبتهن عن التسعين في المئة!) ....

لدى الحصول على السيرة المرضية، تبيّن لي ان العم (ابو ابراهيم–وكان يصرّ على كلمة (عم) –من يهود بيروت القدماء، ولما كانت المهنة لا تفرّق بين الناس في المعاملة–كلّكم لآدم، وآدم من تراب–فقد هددته (مازحـًا) إذ اخبرته أن حياته مع (فلسطيني) في خطر، وأنه قد آن اوان السداد!

عاملت (العم ابو ابراهيم) كأفضل ما تكون المعاملة بين الطبيب ومريضه، قبل الجراحة وبعدها، وعندما تقرر خروجه ودعني بحرارة لم آلفها من مريض قبله، على ان يراجع المستشفى بعد اسبوع، شأنَ معظم الحالات الجراحية، وجاء على موعده، وطمأنّاه عن صحته، وعدم اللزوم الى مراجعة اخرى....غير انه، رغم ذلك، سيعود ليراني رؤيةً خاصة...

لـم التفـت الـى مـا قـال، فالـذين يقولـون مثـل قولـه، بعـدما يقضـون أوطـارهم، وتنعـدم مصـلحتهم، ولا نـراهم، اكثـر مـن ان يعـدوا!.....ومرّت الايـام، وبعـد اسبوعين علـى وداع (العم ابو ابراهيم) ، واذا بسماعات المستشفى تناديني الى مكتـب الاسـتقبال، لأجـد (العـم ابو ابراهيم) في انتظاري، وما لبث ان عانقني آخذاً إيّاي بحضنه المعافى، ثم أخرج علبة انيقة فيها أزرار أكمام مذهّبة، ما زلت احتفظ بهـا، علـى نـدرة اسـتعمالها، حتـى اليوم..ناولنيهـا، وقبّلني، ولمحت في عينيه مشروع دمعتين، دمعتَـي وفـاء صـادق، وكانـت أول هديـة أ هـداها ذات صلة بالمهنة!!!

تذكرت ما نقله الادب العربي الجاهلي عن وفاء السموأل بن عادياء (اليهودي) ، حينما اودع امـرؤ القـيس الكِنـدي عنـده عـدة دروع لـه، وهـو في طريقـه الـى قيصـر الـروم، ورفـض السموأل تسليمها الى الحارث الغساني، مفضلاًالتضحية بولده المخطوف على الغدر بعهده للشاعر، منشداً:

وفَيت بادرع الكندي إني

اذا ما خان اقوامٌ وفيتُ

ام انها حالات فردية لا يقاس عليها، والتعميم ظالم في كل الاحوال؟ . والقـرآن الكـريم يقول. : (ليسوا سواءً) ؟ ؟ ؟

شقاء السنين (٧٩)

كان صيفًاحاراً حافلاً صيف عام ١٩٦٣، إذ لم يكن أفراد أسرتها على وفاق (كما علمت فيما بعد) ، عندما تقدمتُ إليها، خاطبـًا، بعدما فاتحتُ أخاها بالامر، في العام السابق، ورفض البحث في الموضوع، بحجة أني ما زلت طالبـًا، والوقت مبكراً، على بحثٍ من هذا القبيل!

في قانون كلية الطب في الجامعة الاميركية في بيروت، أنك لا تعود طالبـًا في نهاية السنة الرابعة في الكلية، غير أنك لا تتخرّج وتمنح شهادة (دكتور في الطب) الا بعدما تقضي سنة كاملة، هي سنة الامتياز (Internship) ، في مستشفى الجامعة تحديداً، تدور خلالها على شتى اقسام المستشفى، بالتفصيل، وتقضي بعض الوقت في مستشفى الدكتور (لبيب ابو ظهر) في مدينة (صيدا) ......ولقد كان عام ١٩٦٣/ ١٩٦٤، سنة امتيازي، وشعوري بانني لم اعدْ طالبـًا، وانني أصبحت مؤهلاً لمفاتحة أهلها بالخطبة!

كان اخوها الاكبر أميَل الى مصاهرة احد اطباء المدينة الذي تخرج في احدى الجامعات المصرية وينتمي الى احدى عائلات طولكرم العريقة، أما الوالدة والاخ الاصغر فكانا أميل اليّ، شعوراً منهما ان الفتاة تعرفني وأعرفها، ومراهنةً على مؤهلاتي الشخصية، والشخصية فقط، إذ لم يكن لأهلي وعائلتي حضور لافت، مثلما كان لي، ...

مقهى الكرمول منتجع العاطلين عن العمل، والمعلمين في اجازاتهم، والمتقاعدين...يقع على الشارع الرئيسي الذي كان يشق طولكرم نصفين رئيسيين، قبل نهاية الشارع الشمالية...كان اخوها الاكبر، المرجع، ورب العائلة، يقضي فراغه، هناك، مع ثلة من أقرانه، يلعب النرد (الطاولة) ...تركت له خبراً في المقهى كي نلتقي، لأقف على جلية الامر بعدما كررت طلبي باللهجة الرسمية!

كان هناك عنصر ترجيحي هام، غير مُعْلن، خارج الاسرة الاساسية، هـو صـهر العائلة، الاستاذ صدقي حطاب، رحمه الله. ..كان لصدقي شبه دالة على الاسرة، فهو، بالاضافة الى قرابته من والدتها، من كبار موظفي الكويت، وهي واختها الاكبر، في رعايته، هناك، بعدما وظفهما في وزارة التربية، مدرِّستَين، وكان لديه هذا الشعور بالتميز، ولطالما كرر، في صيغة المزاح المبطَّن، أنه (عميد أصهار آل منصور) !

لذلك، وبعد الموافقة المبدأية!، رأت الأسرة أن (تُبرِق) الى الكويت تستمزج رأيه في طلبي..

كان (صدقي حطاب) ، رحمه الله، على علم بالرسائل التي أشرْتُ إليها سابقاً، إذْ تبرّع له أحد أقربائه؟ (كما علمت، فيما بعد) ، تزلُّفاً وحِرصاً مدَّعىً، بالمعلومة، وكان قد وظّفه (صدقي) في دائرة بريد الكويت، حين لفت نظره وصول رسائل باسمها (الذي كان يعرفه) من بيروت، لا من الاردن!.....أقول، كان رحمه الله على علم بذلك، واحتفظ بالامر لنفسه، فلما وصلته البرقية تأكّد له ان تلك الرسائل لم تكن (عبثيةً) ، بل تأسيسية تثبيتية هادفة، إلا أنه وقف على الحياد، فكان جوابه البرقي (الأمر لكم) !

كان مساءً حاسماً، ذلك المساء الذي توجهتْ فيه (جاهة الخطبة) ، برئاسة الاستاذ عبد الفتاح درويش، مدير المدرسة الفاضلية الثانوية يومئذٍ، لا لشيء إلا لغرض الاعلان والتعميم والإشهار...كانت الجاهة في بيتهم، وكنت في بيت الاستاذ (احمد الساحلي) المشار اليه في حلقة سابقة، القريب من بيتهم، انتظر خروج الجاهة، ليبارك لي الجميع، ولأدخله، للمرة الاولى، مفعماً بالرضى، وراحة البال، غير هيّاب ولا وجِل!!!

لم يكن الدكتور (جون وِلسُن) جراحاً متأنِّقاً متمهّلاً فقط، بل كان معلّماً في شتى شؤون الحياة....هدوءه قلَّ نظيره، وبساطته وتواضعه، كذلك..يعاملك ويخاطبك باسمك الأول، كأنه يعرفك (من زمان) ، ولا يعرف غيرك، فتحسّ بقربه منك، بل من نفْسك.....لم يكن نشاطه مقصوراً على الجراحة العامة، التي كانت تخصصه، بل كان يوْلي عنايته آفاقاً تعليمية اخرى، مطلوبة منا في مراحل تدريبنا السريري، خارج نطاق الكلية والمستشفى، وراس بيروت....يأخذ الطلبة على دفعات، في سيارته الاميركية الواسعةstation wagon،

لحضور نشاط علمي قد لا يزيد على ساعة، ويعود بهم، فيها، منشرح الصدر، بابتسامة تلقائية لا تكاد تفارق مُحَيّاه!

كانت مجموعتنا على موعد معه في سيارته إياها، للذهاب الى مِصَحٍّ للامراض الصدرية، في أعالي جبال لبنان، حيث كان اختيار المواقع العاليةسنّة طبية متبعة، ...كان هو السائق دائمًا، وكنت الى جانبه في تلك الرحلة، حيث كان مرضى (السل) في انتظارنا، هناك...وبدأت السيارة بالصعود، وبدأ الجو بالتغيّر، ..برد الطقس، وتكاثر الضباب، حتى حجب الرؤية البعيدة، ثم راح يحجب الرؤية الأقرب فالأقرب، ما دفعني الى رجاء الدكتور (السائق) ، ان يتوقف يمينًا ريثما يتحسن الجو، ويستمر سيره، ولا يصغي إلى رجائي ولا يتوقف، ولمّا ألححت بالرجاء المصبوغ بالخوف!، خاطبني، دون ان يلتفت، وبالانجليزية، طبعـًا:يونس، إيّاك أن تستسلم!!...ولم يتوقف، وما هي الا دقائق، حتى كنا في قاعة المحاضرات، نشاهد عرْضـًا مشروحـًا لمجموعة من الصوَر الشعاعية السينية (لم يكن يومئذ طبَقية ولا رنين مغناطيسي!) ، لتشكيلة من الاصابات الرئوية.....!وغادرنا المصح، وعبارة الدكتور (إياك أن تستسلم) تجلجل في كياني، .....وإلى يومنا هذا، وحمّلْتُها أولادي!!وحفَّظتهم:

اذا غامرتَ في أمْرٍ مَرومِي
فلا تَقْنعْ بما دون النجومِي
فَطَعْمُ الموت في أمْرٍ حقيرٍ
كطعم الموت في امر عظيمِي!!

كان لا بدّ من (توثيٍق) الخطبة دون تأجيل، لتصبح العلاقة الجديدة (شرعية) ، و (رسمية) ، فتمّ الاتفاق على (مهر المِثْل) ، مهر شقيقتها، فالمساواة عدالة،، وتمّ عقدالقران في ١١/ ٨/ ١٩٦٣، في بيت الخطيبة، وبخط يد الشيخ (نجيب اللبدي) ، رحم الله الجميع، وشهادة شقيقها الاكبر وخالها، لتعود هي، بعدئذ، الى عملها في الكويت، واستأنف سنة الامتياز في مستشفى الجامعة.

شقاء السنين (٨٠)

لم يشأْ اخي الاصغر (لوط) بعدما استأنف دراسته في مدارس وكالة غوث اللاجئين في مخيم اربد، ان يتقدم لامتحان شهادة الدراسة الثانوية (التوجيهي) ، عندما اعلنت الوكالة استعدادها لاستقبال امثاله، ممن انهوا الدراسة الثانوية، في دار المعلمين التابعة لها، في رام الله، بادارة الاستاذ (استاذي) -سلامة خليل- رحمه الله، فالتحق بها، دون تردد، وللسنتين المخصصتين فيها.......ولقد حرصت، في احدى اجازاتي الصيفية، ان ازور دار المعلمين، واستاذي سلامة خليل بالذات، لتعزيز مكانة اخي في الدار، ولقد استقبلني في منزله المخصص له في ركن من الدار، استقبالا حاراً مصحوباً بغداء، فلقد كان، رحمه الله، يحبني، وكنت معجباً بشخصيته التعليمية والادارية، وكم كان يُنهي اسمي، وهو يوزع اوراق امتحانات اللغة الانجليزية في الفاضلية، بلقب (بيك) ! إعجابـاً بالعلامة......ولم تكن زوجه، المرحومة، سميحة القُبّج، أقلّ حفاوة وترحاباً....هذا، وقد تخرج أخي في تلك الدار، بشهادة أهّلته للعمل مدرّساً في أحد أصقاع المملكة العربية السعودية، الى ما بعد تخرجي في الجامعة الاميركية..

في السنوات الاخيرة من وجودي في الجامعة، تعرفت الى (نعيم يوسف شناعة) ، من ابناء عمومتنا في قرية (طيطبا) قضاء صفد، وكان يتخصص في اللغة العربية، بعد طول انقطاع عن الدراسة، وبعدما اصبح زوجاً وأباً لأكثر من طفلين، ...وقادني هذا التعارف الى التعرف الى كل ابناء عمومته الأقربين (اللزم) ، في (برج البراجنة) ، ومخيّم عين الحلوة القريب من مدينة صيدا، وكنت، طيلة وجودي في لبنان، اتردد عليهم، في نهايات الاسبوع، وفترة تدريبي في مستشفى الدكتور (لبيب ابو ظهر) في صيدا، ...أؤاكلهم، وأُشاربهم، وتدور بيننا حوارات سياسية (حامية الوطيس) ، حيث كنا على طرفَي نقيض!....بعد احتلال النصف الاول من فلسطين، عام ١٩٤٨، رحل هؤلاء الى جنوب لبنان، الاقرب الى منطقتهم، في شمال فلسطين،

-ورحلنا نحن الى النصف الباقي منها، في منطقة طولكرم...ولقد توثقت علاقتي بشبانهم، مثلما توثقت بكبار السن فيهم، ولم تسمح لي ظروفي، ولا موقعهم، من التعرف الى الذين أقاموا منهم، وهم ابناء عمومتهم (اللزم) ، في مخيم الرشيدية، القريب من مدينة صور، في اقصى الجنوب اللبناني، باستثاء الاستاذ (فضل محمود علي شناعة) ، شقيقهم، الذي كان يعمل مدرساً للغة العربية لغير الناطقين بها، في معهد (شملان) ، في الجبل، ويقيم في ضيعة (كيفون) ، القريبة من (شملان) ...هذا، ولقد توثقت علاقتي بفضل، الى حد المآكلة والمشاربة والمبيت عنده، احياناً، عدا عن تنقلنا بسيارته (الفولكس واجن) ، بين الفينة والاخرى، ولقد عرض عليّ، مرةًحضور حفلة غنائية تحييها (سميرة توفيق) ، فاعتذرت له، موضّحا أني لا احضر هكذا حفلات، فقبل عذري مبتسماً، !!

كنت في سنة الامتياز، وفي مبنى قسم الامراض الداخلية، حينما فوجئنا بإدخال أحد المرضى، من قسم الطوارئ، ليلاً، الى حيث كنت، مع بعض زملائي المقيمين، الذين هم أقدم مني بسَنةٍ،، أذكر منهم (امين حداد) ، الذي كان متميزاً بذكائه (ولقد حزنتُ عليه، بعدما علمت فيما بعد، انه توفي .....منتحراً!) ، و (ابراهيم سلطي) ، الشاب الخلوق المتميز في كل شيء، والذي اصبح رئيساً للجامعة الاميركية (نعم، لكل الجامعة) ، مؤقتاً، في فترة الحرب الاهلية اللبنانية (ما بين ١٩٧٥ و ١٩٩٠) ، .....

كان دخول المريض، إياه، مصحوباً بجَلَبة وارتباك لدى جميع افراد الطابق، ينُمّان عن أهمية المريض في المجتمع!...وتبيَّن لي صدق تلك التوقّعات، عندما باشرت بالاستماع الى السيرة المرضية، حيث علمتُ أن السيد (منذر احمد شِبّو) ، من كبار ضباط الامن العام اللبناني، من قرية (برجا) التابعة لمدينة صيدا، والمدير العام لكافة اقسام اللوازم والابنية، لقوى الامن الداخلي، في لبنان، التي تجاوز ميزانيتها عشرات الملايين.... (كما تبيّن لي، فيما بعد، ان مريضي كان محسوباً على رئيس الجمهوية اللبنانيةالسابق-كميل شمعون- الذي زاره في غرفته في المستشفى، في اليوم التالي!!!)

كان (الضابط) يعاني من التهاب رئوي حاد، مصحوب بارتشاح رئوي، شكّ الدكتور الاستاذ (منيب شهيد) ، اختصاصي امراض الدم، في براءة خلايا عينة سُحبت من صدره، للوهلة الاولى.

باشرنا العلاجات اللازمة، على الفور، بإشراف الزميلين المذكورين، وتكررت زياراتي المرضية له، وبصورة مكثفة، نظراً لخطورة الإصابة، و......أهمية ومكانة المريض....وبسببٍ من طول إقامته في المستشفى، ولأني في مهنتي، وطبعي (الذي ورثه مني اولادي) ، أتبنى همّ مريضي الصحي-وغير الصحي، أحيانًا-تبنّيًا يحِيله صديقًا ومريضًا في آن واحد، ....بسبب من كل ذلك، أطلعني (منذر) على خصوصيات حياته العائلية، وعلاقاته الاجتماعية، ونشأت بيننا صداقة انطلقت من مستشفى الجامعة، وامتدت، وتوسعت فيما بعد، لتشمل اسرتينا، طول عمره، والى ما بعد وفاته، ما زاد على ربع قرن من الزمان.....!

تماثل مريضي للشفاء، ولم يكن مرضه الا التهابًا رئويًا شديداً، واصبحت زياراتي له، اجتماعية، اكثر منها طبية، وتبادلنا المفاتحة الشخصية، واطلعته على (سيرتي) الاجتماعية، و (سريرتي) العائلية، وعرف اني حديث عهْد بالخطبة، وان خطيبتي تعمل مدرّسةً في الكويت، فسألني إن كنت ارغب في زيارتها، اذا سمحت ظروف الامتياز الصعبة، فأجبته بالايجاب، المحفوف بالتمني، والتمني فقط، فانا ادرك ما يتطلبه السفر الى الكويت يومئذ، من مال ووقت لازمَين..

وفي احدى زياراتي له في اليوم التالي، كانت المفاجأة:أخرج لي من (دُرْج) غرفته تذكرة طيران خاصة بكبار الشخصياتVIP، مفتوحة على الاسم والوجهة والتاريخ، صادرة من مكتب طيران في راس بيروت، !ثم قال:رتِّب مواعيدك، واذهب الى المكتب إياه، يكمل المعلومات اللازمة على التذكرة، و....الى الكويت، فإني خارج غداً، وانتظرك في بيتي في (برج البراجنة) ، بعد عودتك الميمونة!!!

شقاء السنين (٨١)

ما كنت لأدع الفرصة الذهبية تفلت من يدي، وما ظننتها تلوح مرة اخرى:

اذا هبّت رياحك فاغتنمها

فعقبى كل عاصفة سكونُو!!!

تذكرة السفر جواً، وفي الدرجة الاولى المخصصة لرجال الاعمال، بين يدي، وما علي الا تحديد الوجهة (الكويت) وتاريخ الذهاب والعودة الى بيروت.....غير ان عاملاً هاماً جداً يقف في وجه الخطة:الوقت...

سنة الامتياز في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت ليست تزجية وقت، ففيها يتعلم الطالب الذي على وشك التخرج الكثير مما قد فاته في السنوات السابقة، والدوام فيها مكثف و المناوبات الليلية الحافلة بكل مفاجأة تتكرر في الاسبوع الواحد ثلاث مرات، ....فأين المفر؟

بُحْتُ بسرّي وشرحت وضعي للمقيمَين المسؤولَين عني مباشرة: ابراهيم سلطي و أمين حداد، وطلبت السماح بغياب ثلاثة ايام فقط، اعود بعدها وأعوّض ما فات من واجبات ومناويات ليلية....وفي اليوم التالي ابلغني الاثنان موافقتهما المبنية على سجلي الطبي السليم.....

كان عديلي (صدقي حطاب) رحمه الله، في انتظاري في مطار الكويت، عندما حطت الطائرة فيه، ولم تكن (هيَ) ولا أيّ من شقيقاتها، معه، !!فلم أفاجأ ولم استغرب ..فالقيود الموضوعة على تحركاتهن ليست جديدة، وذرْني وما يجيزه الشرع وما لا يجيزه، فالكلمة الاولى والاخيرة والهيمنة للعُرْف ولتقليد العائلة، فلقد فرضت عليهن مساراً لائذاً (محدداً) لدى الذهاب الى المدرسة (العدوية الثانوية) والعودة منها، يوميًا، يختلف عن المسارات

الطلابية التقليدية المالوفة !!!! وعليه، فلم يكن هذا (التشدد) -غير المشروع! غريباً عليّ، وان اضاف الى الجو الصحراوي هناك، مزيداً من التصحّر وال (جفاف) !!!

فرضت وزارة التربية الكويتية على المعلمات (الاجنبيات) العازبات قيوداً على تحركاتهن، منها عدم السماح بمغادرة السكن المخصص لهن الا باذن خاص لا يتم الحصول عليه بسهولة، غير ان منصب عديلي في الكويت ذلل هذه الصعوبة ما اتاح لها وشقيقتها مغادرة السكن للقاء بي في بيته في منطقة (النقرة) ، ثلاثة الايام التي حصلت عليها من مستشفى الجامعة، ...

لم تكن تلك اللقاءات المتقطعة لتروي غليل مشتاقَين طال ابتعادهما بفعل الزمن والمسافات وتباين الظروف، فلقد كان (صدقي) ، رحمه الله، وزوجته، اكثر تشدداً (وحرصًا) !عليها وعلى شقيقتها، حِرْص الامين على امانته!اذا قدمنا حسن الظن على وساوس الشيطان الرجيم....ورضيت بالقليل المتاح، ومن الزهر بالشذى، وكان شعوري وشعاري المدوي في ارجاء نفسي:

قليلٌ منك يكفيني ولكنْ

قليلك لا يقال له قليلُو!!!!

وودعتها بقلب جائع الى مزيد، وودعتني والخجل والحرج يملكان عليها كل مشاعرها، آملَين في لقاء قريب، في حفل التخرّج (الذي لم يتطابق فيه حساب الحقل مع حساب البيدر!!)

كان الوداع ابتسامات مبللة بالدمع حيناًوبالتذكار احيانا

يا رحلةً في مدى النسيان موجعةً

ما كان اغنى الهوى عنها واغنانا

وعدت الى موقعي في مستشفى الجامعة لاشكر زميلَيّ الكريمين واواصل انضباطي المعهود، وكأنّ شيئًا لم يكن!!

دأبت شركة الزيت العربية الاميركية (ارامكو) على التعاقد مع خريجين جدد من طلاب الجامعة الاميركية في بيروت في شتى المجالات، وفي الطب بخاصة، قبيل نهاية العام الدراسي، سنويًا، وبناء على كفاءات الطلاب التي تحصل الشركة عليها من الجامعة...وعليه، فقد اتصل مكتب الشركة في بيروت بادارة السيد (قمبرجي)، بزميلي (حسين) وبي، وذلك قبل تخرجنا بثلاثة اشهر، وعرض علينا ان نعمل لدى مرافق الشركة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية طبيبين عموميين، تحت شروط واجور محددة، وما كان لامثالنا ان ترفض، فالحاجة مِلحّة، والعرض يغري القانع والمعترّ، وتعطي الشركة اولوية في التوظيف لخريجي الجامعة الاميركية بسبب من تشابه الانظمة الطبية ووحدة اللغة (الانجليزية)، كما تعطي اجوراً متميزة لقاء ذلك التميّز...

وجاء وقت التخريج، ودخلت الاسرة في حوارات (عرفت عنها فيما بعد)، يجوز ويليق ان تحضر حفل الجامعة مع بعض افراد اسرتها، ام لا؟

لم تكن لدى اسرتي مشكلة، اذ لم يكن يملك الوقت اللاز م للحضور غير اخي محمد (رح)

شقاء السنين (٨٢)

الاستعدادات للحفل السنوي لتخريج فوج جديد من طلاب الجامعة الاميركية، على قدم وساق، وميدان الحفل هو الملعب الرئيسي لشتى النشاطات الرياضية. وموقعه في اسفل السفح الذي شِيدت عليه مباني كليات الجامعة وادارتها...ارضه مستوية مستقرة، ولا يفصله عن البحر المتوسط إلا سور الجامعة و (كورنيش) راس بيروت الذي (يزنّره) ، من فندق (السان جورج) الشهير، شمالاً، الى (صخرة الروشة) -التي اصطلحوا على تسميتها الاضافية ب (صخرة الانتحار) ، الواقعة في القسم الجنوبي من (الراس) ، وفي الجزء الجنوبي من البحر المحاذي للشاطئ، والتي تركت في وسطها عوامل التعرية الطبيعية ممراً مائيًا تمر منه القوارب بحُرية تامة، ...وتابع الزنار امتداده الى ما بعد الروشة الى منطقة (الاوزاعي) -تلك المنطقة التي حاولنا (ورفاق لنا من المتحفظين) التمرّن على السباحة في شاطئها الضحل، لاجتياز امتحان السباحة الاجباري، بعيداً عن مخالطة (الجنس الآخر) !في السنة الجامعية الاولى، وكاد احدنا (سليمان العمري) ان يغرق فيه لجهله وجهلنا..

كان من حقي وحقها ان تكون الى جانبي في حفل التخريج في صيف عام ١٩٦٤، بعد ان حان اوان الجنى، وطويت ثماني سنين من صباي وشبابي، للوصول الى تلك اللحظة، وبعد ان (تدرّعْنا) -كلانا-بالصبر اربع سنوات عجاف، قبل الخطبة وبعد الخطبة،

والذي كان (خطيبًا) . اصبح اليوم (طبيبا) !

غير أنّ ذلك لم يحدث! فلقد حالت المناكفات واالملابسات و (الحزازات) بين افراد الاسرة الواحدة، دون حضورها، رغم اكتمال كافةالاستعدادات من جانبها، هي وشقيقتها الاكبر، للحضور، واستعيض عنهما بشقيقها ووالدتها في اللحظة الاخيرة! وكظمت غيظي، وتجرّعتُ المي (شأني في كثير من المواقف) ، ورحبتُ بمن حضر، وأقام الاثنان في فندق (اللوردز) المطِل على منطقة (شاتيلا) ، والحمّام (العسكري) ، بانتظار يوم الحفل الموعود!

أما أخي (محمد) ، رحمه الله، فقد أقام معي في شقتي، تجنباً لإنفاق لا طائل تحته، ورغبة في بقائنا معاً فترة الاحتفال!...هذا، واذكر جيداً ان ظروفي المالية سمحت يومئذٍ بشراء غداء له، عبارة عن (فرّوج) مشوي على السيخ، وإنْ لم يكن ذلك (السخاء!) لينتزع منه مقدار البهجة التي شعرتُ بها، فلقد كانت (ساعاته الرحمانية) ، رحمه الله، معدودة، وقدرته على التأقلم مع الظروف والاماكن غير المالوفة، محدودة!!!

تقضي تقاليد الجامعة الاميركية أن يفتتح حفل التخريج من كل عام، احد اركان الدولة اللبنانية، ثم يُستأنف برنامج الحفل برئيس الجامعة، ثم عمداء الكليات، قبل ان تتلى اسماء الخريجين، كلٌّ في كليته.

كانت كلمة افتتاح حفل التخريج صيف ١٩٦٤، لرئيس وزراء لبنان، عامئذٍ، (صائب سلام) ، الذي قاد المظاهرات عام ١٩٥٨، ضد التجديد لولاية ثانية لرئيس الجمهورية (كميل شمعون) ، وهو والد السيد (تمّام سلام) الذي كان رئيساً (مكلّفاً) لوزراء لبنان، الى عهد قريب!

كان صائب سلام رجل دولة، بمعنى الكلمة، وإن كان محسوباً على الدولة السعودية، شأْن غيره من رجالات الدولة (السنّة) !...القى دولته كلمته (الموجزة) ، بلثغته المألوفة، مفتتحاً إياها بقوله:

يحضرني في هذه اللحظات حديث شريف (وكانت كلمته بالعربية الفصحى) ، نَصُّه:الناس هلْكى، الا العالِمين، والعالمون هلكى الا العاملين، والعاملون هلكى الا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم!.....واستمر في كلمته، واكتفت ذاكرتي بتسجيل الحديث الشريف الذي اغناها عما تلاه من كلمة الرئيس، (فإنّ القول ما قالت حذامِي) !!

وانتهى الحفل وانفضّ السامر، وحمل كل متخرّج (كتابه بيمينه) ، وانطلقنا، كلٌّ من حيث اتى، وعاد اهلها الى (طولكرم) ، وعدت وأخي، ابي عماد، الى (اربد) ، الى المخيّم الذي جئنا منه، وعشنا فيه سنينَ عددا....

وهكذا تنطوي صفحة من العناء والشقاء، وتنفتح صفحة جديدة على الرخاء، بعد ان اصبحت طبيباً موظفاً في شركة (ارامكو) ، اضخم واغنى شركات النفط في منطقة الشرق الاوسط، أيامئذٍ،، ...لالتحق بعملي لديها في مطلع تموز من ذات العام..تاركاً خلفي في كلية الطب خمسةاخوة أفذاذ، وأصدقاء خُلّص، ينتظرون دورهم، مثلما انتظرت، وتجمعني بهم ايام قادمة تقاس بالسنين، هم: محمد شهاب الاحمد، وراجح صبري صباح، وفتحي عبد الله، وصوان محمدصوان، وعمر النمر (رحم الله من غادرنا منهم) !

شقاء السنين (٨٣)

لم أُقِم في مخيم اربد اكثر من اسبوع بعد تخرجي في كلية الطب في الجامعة الاميركية، وحصولي على شهادة (دكتور في الطب) ، فلقد تمّ تعاقدي للعمل لدى (ارامكو) قبل تخرجي، وها قد انهيت الاجراءات اللازمة من فحص طبي وفحوص مخبرية، وشهد الدكتور (...الخوّام) على سلامة اسناني-فتأمين الشركة لا يغطي الاسنان-، وجهّز السيد (...الحلاق) ، مسؤول مكتبها في شارع الحمرا في بيروت، تذكرة السفر جواً الى (الظهران) ، ليكون الاقلاع من بيروت...وليبدأ تاريخ جديد في حياتي، لأدخل معه مرحلة رخاء العيش، بعد طول معاناة وجهد و.....شقاء، ويطال الفرج أسْرة بأكملها!!

كان مبنى مطار الظهران (انشط ميناء جوي لدى المملكة السعودية) ، عام ١٩٦٤، على شكل قبة ضخمة، لم يبخل مصممها في الاغداق عليها بالزينات والزخارف، ليشعر الناظر اليها والداخل، انه ...في الاندلس!....غير انه فات المصمم (او المصممين) بند كان في غاية الاهمية...إنه (الصدى) الذي كان يجلجل في ارجاءالقبة عند كل نداء، فلا يكاد المستمع ان يتبيّن وضوح ما يسمع!ما حدا بالمذيع ان يعلن اعلاناته بشكل متقطّع بالكلمة، كيلا تتداخل الاصداء ويطمس الكلام بعضه بعضا....هذا، ولقد طال عمر هذه المشكلة، الى ان تحايلوا عليها جزئياً بإلصاق طبقة اسفنجية على الجدران، لامتصاص الموجات الصوتية اولاً بأول، وتعطيل الصدى....

عند باب المطار، كان اثنان في انتظاري:موظف الشركة ليقِلّني الى مأواي في حيّ كبار الموظفين بالظهران، و....الهواء اللافح الرطب....اما الرطوبة فمألوفة لديّ، طيلة ثماني سنوات في بيروت، واما الحر الشديد فكان ذلك اول عهدي به في حياتي، حتى في غور الاردن.....سيارة الشركة، بل كل سياراتها، بل معظم سيارات المنطقة الشرقية من المملكة، حيث مراكز شركة (ارامكو) وما جاورها من مدن صغيرة، يومئذٍ، كانت من نوع (شفروليه) ، وكان اهالي المنطقة يسمونها (شَفَر) !! سيارة فارهة، مكيفة، وضعتْ حداً

لمعاناة الحر لحظة دخولها، وانطلقت بنا الى (حي كبار الموظفين) في (مُنشأة) الظهران، حيث سأقيم وأعمل، ستّ سنوات متتالية، قبل ان أغادر الى الولايات المتحدة الاميركية للتخصص.....

جعلت شركة (ارامكو) نشاطاتها في المنطقة الشرقية من المملكة، في ثلاثة مواقع، أصبحت، مع الايام، مدناً صغيرة، هي: (راس تنّورة،) على الخليج مباشرة، حيث تكرير النفط، و (أبقيق) ، حيث انتاج النفط، عموماً، و (الظهران) ، حيث الادارة العامة، ورئاسة الشركة...

أقمتُ في غرفة مستقلة، في مجمّع من عدة مبانٍ خشبية محمولة، قابلة للنقل، مزودة بكل وسائل العيش من ماء وكهرباء وغاز يجري في الانابيب...مؤقتاً، الى ان تتم الترتيبات للانتقال الى سكن خاص مستقل، اطلقوا عليه اسم (كفاءةefficiency) ، بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وفي واقع التطبيق والاستعمال.

العقلية الاميركية التي خبَرْتها، على السنين، لا تعرف التسويف، والمقدمات والمجاملات، فلقد كنت على رأس عملي في اليوم التالي، بعدما حصلت على بطاقة خاصة بي (badge) ، تحمل رقم ٣٩٦٦٥، في مكتب (عيادة) خاص بي، في (عيادة العائلات) ، فلا ارى غير امهات و....أطفال، وعلى مدى ست سنوات متواصلة، ما هيّأني للتخصص الذي اصبحت فيه!!!ثم ارسلوني الى الصيدلية دون تأخير للتعرف على العلاجات المتوفرة فيها، والتي هي كثيرة الاستعمال، بشكل خاص.

البطاقة الشخصية المصروفة لك هي هويتك في الشركة، ورقمها هو المرجع في كل معاملاتك، شأْنَ الرقم الوطني في الاردن هذه الايام!.....ودوام كل مرافق الشركة موحّد، يحدده بوقٌ ينفخ فيه عند الثامنة صباحاً وعند الرابعة مساء، خمسة ايام في الاسبوع، فيجلجل في كل الارجاء!!!

كانت المفاجأة اللطيفة، لي، ان أجد الدكتور (حمدي علاء الدين) هو المسؤول عن أداء الاطباء العموميين في مركز الظهران الصحي، والذي يلتقي بهم مرة صباحاً كل اسبوع،

للبحث في شتى شؤون العمل...وهو، رحمه الله، شقيق الدكتور (سعيد علاء الدين) الذي كان وزير المعارف الاردنية لحظة اعلان اسماء العشرة الاوائل في المترك عام ١٩٥٦!

نسبة كبيرة من اطباء مركز الظهران هنود او باكستانيون، والعرب موزعون بين مصري واردني، اما الممرضات فهنديات من ولاية (كيرالا) ، باستثناء مصرية او لبنانية هنا او هناك، في العيادات النسائية او داخل المستشفى، وللمستشفى (المركز) مكتبة طبية غنية بالمراجع لمن شاء ان يتزود، وفي كل شهر محاضرة في فرع من فروع الطب، يلقيها طبيب الاختصاص، وعلى الطبيب العام ان يحضر، كما ان له الحرية المطلقة في استشارة الاختصاص الذي يراه مناسباً حول مرضاه، حتى ان نسبة الزيادة في راتبه تتأثر ايجاباً بمقدار ما يستشير!

ومن اطرف ما سمعت ان عائلة الدكتور (علاء الدين) كانت قد أُخضعت لما يشبه الامتحان، عند توظيفه في الشركة في بواكير خمسينات القرن الماضي، للتأكد من صحة وسلامة استعماله، وزوجته (نزهة الدجاني) للشوكة والسكين عند تناول الطعام، قبل السماح لهما بالسكنى في حي كبار الموظفين، الذي كانوا يطلقون عليه (المدينة الاميركية) في المنطقة، نظراً الى ان سكانها (اميركيون) الا قِلّة غيرهم!!!

مرافق العيش في الظهران كاملة متكاملة، بحيث يستغني ساكنه عن اي شيء خارجه، الا اذا شاء ان يتعرف على اسواق المدينتين المجاورتين، (الخُبَر) و (الدمّام) .....فبريدك، وحلاقك (الهندي) ، وسوق الخضار والفواكه وكافة لوازم البيت من قوت وادوات منزلية وما هب ودب، كل ذلك تجده في المخزن الكبير، الذي تباع فيه الحاجات بأسعار مقبولة، وهناك مركز الاتصالات التلفونية لمن شاء ان يهاتف من اراد، بعد تسجيل طلبه لدى موظفي المركز،

اما المرافق الترفيهية فحدث عنها ولا حرج، فهناك بِرَك السباحة، وملاعب التنيس الارضى، والطاولة، والجولف، ودار السينما (التي تتحوّل الى كنيسة كل أحد، لمن شاء من المسيحيين، عرباً واميركيين) ، ومرفق هواة الخيل في حظائر جاهزة، وعلى شاطئ الخليج

نادي القوارب، بكامل استعداده لاعضائه وضيوفهم في (شاطئ نصف القمر) ، للسباحة البحرية والتجديف و.......الشواء!

اما على مستوى الإعلام والتثقيف، فهناك مكتبة عامة، ومحطة تلفاز وحيدة في المملكة، تعرض الافلام الاجنبية، والافلام العربية، والمسلسلات، والبرامج العربية والانجليزية، ....وتصدر الادارة مجلتين:عربية شهرية سمتها (قافلة الزيت) ، واسبوعية، بنفس الاسم، كما تصدر مجلة دورية كل ثلاثة اشهر سمتها (عالم ارامكو) بالانجليزية، واخرى اسبوعية، سمتها (الشمس والوهج) ....كما كانت الشركة تصدر نشرة خاصة باسعار الاسهم، في البورصة الاميركية لخدمة موظفيها الاميركان، مقرونة بنشرة اخبار عالمية يومية، في صفحتين....

لم ينتظر (كامل عبد الرحمن عمر) الى اليوم التالي لوصولي، الذي كان على علم بموعده، فجاء من أقصى المدينة (الاميركية) يسعى، متلهفـًا، فلقد سبقني الى الشركة موظفـًا في قطاع الحاسوب بحُكم تخصصه في الاحصاء من الجامعة الاميركية، وكان عقلية رياضية متميزة، وانطلقنا الى مطعم الحي، وسمعته يقول للنادل السعودي (هامبيرجر) ، فانفعلت كثيراً، ولاحظ ملامح الانفعال في وجهي......

شقاء السنين (٨٤)

ماذا جرى لصديق العمر، وزميل الصف، كي يطعمني لحم (خنزير) ؟ !

لا عهد لي بالهامبيرجر، ولا سمعت بالاسم، كطعام سريع، من قبلُ، لكن المقطع الاول من ذلك الاسم (ham) ، لدى لغويٍّ مثلي، مُغْرِقٍ في لغويته، وباللغتَين، يعني لحم الخنزير!

ربما تساهل؟ هو في أمْر الحِلّ والحرمة، لكنه يعرف ثوابتي حق المعرفة، فماذا جرى؟

لمحته يرمقني بنظرةٍ هازلة، مقرونة بابتسامة مفعمة بالخبث (البريء!) ، ثم مدّ يده وفيها شطيرة الهامبيرجر، قائلاً:كُلْ، ولا تتردد..هذا لحم بقر صافٍ، ولا علاقة له بالذي خطر على بالك!

في السنة الاولى لوجودي في الظهران، تعرفت الى ثلة من قدامى موظفي (ارامكو) ، من شتى الدوائر..عن طريق (كامل عمر) ، أوبمحض الصدفة...اخبرني كامل ان زميلاً له يعمل في قسم الترجمة، يحب ان يتعرف الي، اسمه (مروان دودين) ، ورتب لنا لقاءً تعرفت من خلاله الى زوجته وطفله الرضيع (صخر) ، وشقيقَي زوجته (بدر و عقل بلتاجي) ، الموظفَين لدى الشركة، والمقيمين في مساكنها، احدهما في الحي الاميركي، والآخر في (الحي المتوسط) ، ....كما عرفني الى شاب يعمل في دائرته (البرمجة) ، اسمه (محمد حجازي) ، والى زوجته (ابتهاج) ، ومِن خلالهما علمني الثلاثة لعبة الورق (الشدة) ، ولم أعرفها من قبل، ولعبة (الطرنيب) ، على وجه التحديد- وهي لعبة طريفة، اركانها اربعة يشكلون فريقين خصمين، يتألف كل فريق من اللاعب والذي يقابله.!...وكانت بعض سلوتنا، قبل الزواج، وبعده، وفي مسكن (محد حجازي) طيب الذكر (رحمه الله؟)

وتعرفت الى (جميل حطاب) ، من أخوال زوجة المستقبل، وكان يعمل في معرض ارامكو للبترول، وكان (رح) متزوجاً من سيدة اميركية، تعرف اليها اثناء تخصصه في (الاخراج السينمائي) في الولايات المتحدة، وكان، الى وظيفته، يقدم برنامج اطفال في التلفاز الوحيد في المملكة، سماه (بابا حطاب) ، يبث كل اربعاء....كما تعرفت، وبمحض

الصدفة الى (رفيق البيطار) وزوجته (إسمت) ، والى (خليل نزال) ، من قرية (قباطية) ، من أعمال (جنين) ...ثم الى (علي عبد الرحمن خليل) ، من لفتا- القدس.....وتطورت تلك المعارف الى صداقات ولقاءات متكررة، عائلية الطابع (بعد زواجي) ، وعلى مدى ست سنوات أقمناها في الشركة، والى ما بعد ذلك....

وجاء دور الوفاء!...في نهاية كل شهر، تذهب حوالة مالية (تحويلاً بنكيًا او شيكًا) ، الى (اربد) ، مرفقة بكيفية توزيعها على الوالد والاخوة، فلا يتوفر الا القليل مما كنت أتقاضى.....واستمر (ديدني) هذا، حتى اثناء سنوات تخصصي في الولايات المتحدة!

بعد قضاء خمس سنوات من السكن المشترك، ولأنه سوف يتخرج من كلية الطب، في العام التالي لتخرجي، رحل (ابراهيم محمد رؤوف ناصر) الى شقة صغيرة في (راس بيروت) ، وكان قد تزوج، قبل تخرجه، من فتاة من آل (الشنطي) -قلقيلية، حيث يقيم أهله، أيضًا، بعد لجوئهم من (كفر سابا) ، ....وانه، وان كانت سنة الامتياز الباقية لديه لا تتطلب دراسة مكثفة، شأن السنوات السالفة، تحول حياته الزوجية الجديدة دون أدائها، إلا أنها تتطلب نفقة (أوسع) ، لا تكاد مخصصات (الانروا) البالغة ٢٣٥ ليرة لبنانية، تغطيها....زرت ابراهيم في شقته الجديدة، مرة واحدة، ثم وعدته أني سأحوّل له على عنوانه في بيروت، مبلغًا شهريًا، اتفقنا عليه، يعينه على وضعه الجديد، يكون (قرضًا) يؤدى فيما بعد، ....ولقد وفيت بوعدي، ووفّى هو بوعده، فكان (ابراهيم الذي وفّى!) ، بعد التحاقه بشركة (ارامكو) ، في العام التالي....

دأبت شركة (ارامكو) على توزيع اجازات موظفيها على الوجه التالي: اسبوعين في نهاية السنة الاولى، من العمل، وشهرين في نهاية السنة الثانية، وتكون هذه مدفوعة تذكرة السفر الجوي، التام، الى (نقطة المنشأ)

ولأنّ الاجازة الثانية من الطول بحيث يمكن ان يتعرض الموظف اثناءها الى أية علة صحية، فقد فرضت الشركة فحصًا سريريا شاملاًعلى الموظف، قبيل سفره، لإخلاء مسؤوليتها عنه، إن سافر وهو معافى عند ابتداء اجازته....

في احـد ايـام الـدوام، انتـدِبتُ الـى العيـادة (أ) ، عيـادة صـغار المـوظفين، لاجـراء الفحـص السـريري علـى مـوظفين، قبيـل اجـازتهم الطويلـه ...كـان الموظـف شـابـًا سـودانيا في اربعيناتـه...خلع ملابسـه وجهـزه الممـرض للفحـص، فوجـدت عـدداً مـن الغـدد الليمفاويـة المتضخمة، حول عنقه، وفوق (ترقوتَيه) ، مع بروز في حجـم الطحـال، فأحلتـه الى اختصاصي الباطنية، مصري الجنسية (احمد شكري مصطفى) الذي اشاد بدقة الفحص، واصبحْتُ حـديث المركز، بعدما تبيّن إصابة الموظف بسرطان (الليمفوما) ، ومُنع من السفر!!

كنت، كما ورد سابقـًا، طبيبـًا ثابتا في عيادة العائلات، نهاراً، لكنني اساهم في مناوبـات (الطوارئ) بعد ساعات الدوام الرسمي، الى اليوم التالي، كل بضعة ايام...

تسابق ممرضو قسم الطوارئ، في احدى مناوباتي، ليخرجوا من سيارة الاسعاف، طفـلا في الرابعة، تعرض الى حادث سير، .....ادخلوا الطفل ودخلت فـوراً، واسـدلنا السـتائر مـن خلفنا، منعـًا للازعاج....وجدته مهشّـم الـرأس، ولا حيـاة فيـه، ولا نبض!...ولفتـت نظـري شدة وسامة المسكين !.....خرجت من خلف الستار، لألتقي والده، الذي لا يقل وسامة، في منتصف العمر، والـذي ظـل خـارج المستشـفى، ينتظـرني علـى أحـرّ مـن الجمر...طمّنّـي يـا (دختـر) ، وكـانوا يطلقونهـا بـدلاًمن (دكتـور) ...أجبتـه، ولـم اتمالـك نفسـي مـن البكـاء الصامت: الله يعوض عليك!

خِلْتُ انه سينهار، جزعـًا، ويولول، و...يبكي، كمـا بكيـت، غيـر اني رأيـت أبـًا، رجـلاً، متماسكـًا، قرأت في قسمات وجهه إيمانـًا، ما احوجنـا الـى بعضه!...صَـمَتَ ملِيّـًا، ومـا زاد على ان قال:حسبي الله ونعم الوكيل!فأضاف الى حرقتي على ولده حرقة اعمق!!!

في صبيحة التاسع من تموز، عـام ١٩٦٥، توجهـت قافلـة متواضـعة مـن السيارات مـن مدينة اربد الى مدينة طولكرم، قاطعة طريق الاغوار الطويلة، السيئة، ميممة شطر (المنشية- متنزه طولكرم الشهير والوحيد) ، حيث تقيم الخطيبة الى جوارهـا في منـزل شـقيقها الاسـتاذ (حسن خيري المنصور) ، رحمه الله.........

شقاء السنين (٨٥)

قاعة سينما (فريد السليم) -السينما الوحيدة في مدينة طولكرم، عام ١٩٦٥، -جاهزة بمنصَّتها، ومقاعد قاعتها، لاستقبال النساء من قومنا وقومهم، ذوي العريس والعروس، وتوابعهم......أما الرجال، من الفريقين، فقد انتشروا في ارجاء المتنزّه (المنشية) ، المجاور لمنزل العروس، وتكفّل شقيقها (ووليّ أمرها، حيث توفّي والدها قبل الحفلة بسنتين، وفي الجانب المحتل من فلسطين، عام ١٩٤٨) ، بضيافتهم!

اقتصرت مظاهر العرس ومراسمه على غناء النساء وزغاريدهن، في قاعة السينما، بوجاهة المرحومة (صفية السعيد-ام اسماعيل) ، ابنة عم والدي، رحم الله الجميع، فلقد كان لأسرتنا (حُظوة) خاصة ً عندها، من بين بقية أقاربها، ولقد أحسستُ أنها كانت تؤدي دور أمي (رح) ، التي رحلت قبل الحفلة ببضع سنين!!

وهكذا انتهى الاحتفال دون مشاركة الرجال فيه، وحالت قلة العدد، لبُعد الشقة بين اربد وطولكرم، واختصار عدد المدعوين (والمدعوات) ، على ذوي القربى، والأقرب، والأخص، ....حالت دون قيامهم بتقاليد الأعراس من حداء وغناء ودبكات، !!

وما هي الا ساعات قليلة، حتى انفضّ السامر، وعاد (رَبعنا) من الرجال والنساء من حيث أتوا، وتوجهنا، في سيارة عديلي (صدقي حطاب) ، الأوبِلopel، وبقيادته (رح) ، الى (رام الله) ، المحطة الاولى، لننطلق في اليوم التالي، من مطار قلنديا، الى فندق (كارلتونcarlton) ، المطِلّ على صخرة الروشة، في بيروت!!

لم ينقطع اتصالي بضابط الأمن العام اللبناني، منذر احمد شبّو، مريضي بالامس، في مستشفى الجامعة الاميركية، بل حفظت له صنيعهُ يوم حباني تذكرة سفره الشخصية، لأسافر بها الى الكويت، حيث خطيبتي، ...ففاجأته بالهاتف، ومنه الى زيارته في منزله في (برج البراجنة) ، وتعريفه بالعروس، والتعرف الى زوجته الفاضلة الصالحة، فاطمة الخطيب (أم

أحمد) ، فكانت بداية علاقة عائلية استمرت الى ما بعد وفاتها ووفاته (رحمهما الله) ....تكررت لقاءاتنا، بعدئذٍ، وكان لا بد من زيارة أهله في (برْجا) ، المطلة مرتفعاتها على صيدا، للتعرف على والديه، والعديد من ذوي قرباه، والتمتع بنقاوة جو الريف اللبناني، ونفوس اهله، والتمتع بمناظر الطبيعة البِكْر، في برجا وما حولها، ......وفي احدى لقاءاتنا العائلية، أصرّ (منذر، رحمه الله) على دعوتنا الى غداء في (مطعم بُرج الحمام) في أشهر مصائف الشمال اللبناني، ألا وهي (ظهور الشوير) ، التي ينتسب اليها كل (شويري) ....

تعرفتُ الى (احمد محمود السعدي) ، في زياراتي المتكررة الى زميلي ومنافسي في المترك (حسين رشيد) ، وا (لشلة المحيطة به) ، حيث كان احمد احد افرادها....كانت تجمع الشلة خلفية واحدة مشتركة، هي الاخوان المسلمون، وتبين لي فيما بعد، انهم يلتقون على تنظيم فدائي واحد، هو (جبهة تحرير فلسطين-ج ت ف) ، احدى فصائل العمل الفدائي المتعددة، كما تبين لي أن (احمد) هذا، كان قائد جناحها السياسي...كان احمد ملتحقاً بكلية (هاجازيان) لدراسة الاقتصاد، يوم كنت في السنتين الاخيرتين من كلية الطب، بعد ان عمل مدرساً بعد المترك، بعض الوقت، وكان يرغب في الانتقال الى الجامعة الاميركية، وأذكر انني ساهمتُ، من خلال مداخلتي لدى السيد (فليحان) ، مسجِّل الجامعة، في التحاقه بالجامعة، لينال شهادته منها، فيما بعد....وهكذا ازداد تقاربنا، ولمست فيه شخصية بسيطة نظيفة محببة، أدت الى صداقة متميزة!وعندما قررت القيادة المصرية، بزعامة جمال عبد الناصر، وباركت الجامعة العربية، انشاء (منظمة تحرير فلسطين) ، واختارت (أحمد الشقيري) -ممثل فلسطين في الجامعة-رئيساً لها، عمد هذا الى أن تضم المنظمة تحت جناحيها كافة الفصائل والجبهات الفلسطينية الفدائية، ومنها (جبهة تحرير فلسطين) ، ويكون قادتها أعضاء في لجنة المنظمة التنفيذية، وهكذا أصبح (أحمد السعدي) عضواً في اللجنة التنفيذية للمنظمة....ولما ضاقت (حركة تحرير فلسطين-ف ت ح) ، وكانت تملك اغلبية في اللجنة، ذرعاً، برئيس المنظمة، واصطدمت القناعات بالقناعات والاهداف بالاهداف والأساليب بالأساليب، عمدت الى استقالات (جماعية) ، حُلّتْ على

أثرها لجنة المنظمة، ليعاد تكوينها من جديد، وبرئاسة جديدة، في شخص (ياسر عرفات) ، بعد التخلص من أعضائها (غير المُريحين) ، ومنهم (أحمد) !

لـم يمنـع (شـهر العسـل-كمـا يقولـون) ، مـن لقـاءات متكـررة في بيـروت مـع (احمـد السعدي) ، أثنـاء وجـوده في (اللجنـة) ، وبعـد خروجـه منهـا، مـا أسّـس الـى علاقـة حميمـة متطورة، كان لها ما بعدها، من مصاهرة جديدة!

حددت لي الشركة المسكن العـائلي الجديـد، قُبَيـل إجـازتي القصيرة، المؤثـث تأثيثـًا ناقصـًا، يحتوي على الارائك، والسرير، ومزوداً بالماء والغاز والكهربـاء والهـاتف، ويخلـو من الادوات المنزلية، ومنها ادوات المطبخ على وجه التحديد....وما على الأسرة الجديـدة إلا ان تشتري (على حسـابها) كـل مـا تـراه لازمـًا لهـا، مـن نقطـة المنشـأ (بيـروت) ، وتقـوم الشركة بتعليبه، وتغليفـه، وتحزيمـه، ...وشـحنه، جـواً، الـى المسـكن الجديـد (كمـا تتعهـد بالقيام بنفس الاجراءات، في الاتجاه المعاكس، عند مغادرة الشركة...ومازالت لـدينا بعـض أطقم فونتانا حتى اللحظة!!!) ......وجاء دور (الضابط) ، ابن البلد...اتصلتُ ب (منـذر) ليدلني من أين أشتري حاجاتي هذه، فأرشدني الى محـلات (فونتانـاfontana) الضـخمة، في شارع عبد العزيز، في راس بيروت،، وطلب مني ان لا احاسـبهم، الا بعـد ان (يُجـري هـو - تعديلاته- على الفاتورة!) ....وهكذا، جُلْنا وصُـلْنا في (الفونتانـا) ، واشـترينا مـا يلـزم، ومـا (قـد) يلـزم، للمسـكن الجديـد-الـذي دَشّـنّاه بطبخـة ملوخية.....مالحـة!!!كانت تجربـة العروس الاولى في المطبخ، بل في المطابخ!

كان لا بد من زيـارة وداع لبيت الصـديق العزيـز (منـذر) ، في آخـر يـومين مـن اجـازتي، ...كانـت امسـية ممتعـة، تخللتهـا (نكـات) ، ومـداعبات (لبنانيـة) ، أضـفى عليهـا (منـذر) الكثير من روحه المرحة، وابتساماته المضيئة، رحمه الله، ....لولا نوبات من القيء أصـابت العـروس، في اواخـر السـهرة، غـاب تعليلهـا عنـا، جميعـًا، لكنـه لـم يغـب عـن (فاطمـة-ام احمد)، زوجة (منذر) !......

شقاء السنين (٨٦)

مساكن العائلات في (ارامكو) درجات، تحدّدها الرغبة والرتبة والوفرة، ومساكن ارامكو ليست مجانية الاستعمال، بل بالاجرة التي تظهر في بيانات الراتب الشهري المرفقة مع كل (شيك) ....نزلنا، في بداية حياتنا الزوجية لدى الشركة في مبنى خشبي محمول، مكون من منزلين متجاورين، يشغل احدهما (نبيل ابو عيطة) وزوجته وطفلتهما الجديدة، من بيت ساحور، وكانا نعْم الجارين.........

بعد ان استقر بنا المقام، دعينا الى عشاء في منزل المرحوم الدكتور (حمدي علاء الدين) ، رئيس قسم الطب العام، وكان لقاءً لطيفاً تعرفنا فيه الى زوجته (نزهة الدجاني) ، وسررنا بدماثتهما وودّيتهما، ...ويبدو ان تلك الدعوة كانت تقليداً متّبعاً لديهما، كلما حلّت بالحي الاميركي اسرة جديدة تابعة للطب العام....ثم توالت الدعوات من العائلات التي تعرفتُ اليها طيلة السنة الفائتة، وأخص منها بالذكر عائلة جميل حطاب وخليل نزال ورفيق البيطار، وكانت للاخيرة الحصة الكبرى من التلاقي، فالمسكنان متقاربان، وهما بلا اولاد، ووقت الموظف متسع لشتى العلاقات والتواصلات الاجتماعية، ولديهما سيارة خصوصية، وعضوية في نادي (اليخوط) ، المُقام على شريحة من شاطئ الخليج، اطلق عليها الموظفون الاميركيون (المؤسسون) اسم (نصف القمرhalf moon bay) ، فكثيراً ما كنا نرافقهما الى الشاطئ، لا للسباحة بالضرورة، بل للجلوس قرب ماء الشاطئ، ننعم بنسيم البحر، بُعَيد الغروب، مساء الاربعاء، يوم العمل الاسبوعي الاخير، وبعض الشواء المنوّع، نُحضر (خامته) ، ليتولى أمْر تجهيزها عمال (عُمانيون) ، في مواقد مُثْبتة في مواقع محددة، على الشاطئ، ....وحولها مغاسل ماء يميل الى الملوحة، ومثلها صنابير ماء رشاش للتخلص من ملح البحر العالق بالجسم، لمن اختار السباحة فيه...كل ذلك على انغام مقاطع انيقة من مسرحية (جسر القمر) ، باصوات فيروز وفرقتها، من جهاز (اسطوانات) جئنا به من بيروت، ليكون انيسنا قبل وجود الانيس الاكبر

(الاولاد)!!.....الى ان تشتد ظلمة الليل، حيث نقفل راجعين الى حيث نسكن، قبل ان يأخذ الكَرَى بمعاقد الاجفان!

في احدى زياراته الى القاهرة، كلفت (كامل عمر) ان يحضر لي معه ديوان (المتنبي)، فجاءني به، مجلداً من اربعة اجزاء، بشرح (البرقوقي)، فوجدته، بفضل الشرح المستطرد الوافي، دواوين في ديوان!..فالتهمته قراءةً وانسجاماً وانفعالاً....كان ذلك قبل ان تملأ لعبة (شدة الطرنيب) فراغنا، وقبل قدوم (أروى)، فاتحة عهدي بالأُبُوَّة....

لم انتظر كثيراً، بعد فراغي من قراءة الديوان، فسارعت الى كتابة مقالي (الاول) في مجلة (قافلة الزيت) الشهرية، تحت عنوان (جلسة مع المتنبي)...ما زالت نسخة ذلك العدد محفوظة لدى مكتبتي، مع اعداد اخرى منها!

كنت منهمكاً في عملي في عيادة العائلات، عندما اخبرتني الممرضة ان شخصاً من (العلاقات العامة)، وتحديداً، من (قافلة الزيت)، يريد مقابلتك....

أنا (محمد عارف اليونس)، المسؤول في مجلة (قافلة الزيت) الشهرية...لفتت انظارنا مقالتك المنشورة في عددها الاخير حول المتنبي، فوجدت هيأة التحرير فيك ضالتها المنشودة!....هذا كتاب بعنوان (مرض البُوال السكري)، ألّفه معالي وزير الصحة السعودي، وأهدانا نسخة منه، للاطلاع عليها، ونحن، بدورنا، نرغب في عرضه والتعليق عليه في (القافلة)، عرضاً (يليق بمقام معاليه)!....ونرى انك خير من يقوم بذلك، إذ أنك جمعت بين الطب والادب..

لم أتردد في قبول العرض، فلديّ من الوقت بعد ساعات الدوام الرسمي ما يكفي لمراجعة الكتاب، ذي القَطْع المتوسط والحجم الضئيل، ومثل ذلك من الوقت لعرض محتواه والتعليق عليه...وهكذا، أصبح لدي (حضور) في القافلة، لاحقني حتى الى ما بعد عودتي الى عمان عام ١٩٧٥!!!حيث نُشرت لي عدة مقالات طبية حول عدد من الامراض والشؤون الصحية....

واقبل (رمضان) ، وراحت ادارة (تلفاز الظهران) ، التابع لشركة (ارامكو) ، تستعد لتحضير برامج رمضان المسائية، فكان لي نصيب وافر منها في برنامج (الصيام والصحة) ، بأداء ادبي لافت، دفع بمدير التلفاز، يومئذ، السيد (صالح المزيني) ، الى مهاتفتي على البيت، شاكراً لي، ومبديًا إعجابه، من اولى حلقات البرنامج!!

في عام ١٩٦٦، كنّا على موعد مع الربيع، وعلى موعد مع (أروى) ، حيث كان ٢١/ ٤/ ١٩٦٦ بداية عهدي بالأُبُوَّة، ...كانت الولادة في مستشفى الظهران، ولادة طبيعية سليمة للوالدة والمولودة، والحمد لله، ...وقع اختياري على التسمية، متأثراً وتيمّنًا بعاملَين: الاول انه كان اسم الفتاة المقدسية (أروى العسلي) ، التي كانت الأولى على بنات المملكة في مترك سنتها (قبل متركي) ، والثاني انه اسم عمة رسول الله (ص) ، وابنة عمه (اروى بنت عبد المطلب، واروى بنت الحارث بن عبد المطلب) ...كان مهِمّا عندي، وما زال، حسن اختيار اسم المولود (ة) ، لأنه سوف يلازمه طول عمره، وبعد موته! وأتوخّى، عند التسمية، ان يكون الاسم سهل اللفظ، سهل الكتابة، والقراءة، والنداء، وأن يكون ذا معنى أو مرجعية تاريخية أو دينية.......سُرِرتُ بقدوم (اروى) ، بعد لأْيٍ في بادئ الامر، سروراً تطوّر الى حب تطوّر الى (تعلُّق) كرّهني في إنجاب جديد، ينتزع من قلبي شيئًا، ولو يسيراً، من حبي لها!!

في سوق مدينة الدمام، القريبة من الظهران، زاوية متخصصة بالعباءات، عباءات الرجال، وأثمنها، على ذمة الخبراء (ولا ينبِّئكَ مثلُ خبير) ، ما نُسِجَ من وبر الجمال، ....قصدته قبيل اجازتنا لشراء هدية لأبي (رح) ، وعزّزْت العباءة بساعة جَيْب، فخمة، نالت رضاه، وارتياحي....

ثم جاء وقت اتخاذ القرارات الصعبة

كان أخي الأصغر لوط ما زال يعمل مدرسًا لدى العربية السعودية، واخوتي الثلاثة الآخرون في مناجم شركة الفوسفات، وفي مؤسسة مكافحة الملاريا، ...ولقد فتح تحسّن الحال البابَ للتفكير في الخروج من (المخيّم) وإنهاء معاناة وشظف العيش الذي طال أمده، وزادالفكرة إلحاحًا معاناتنا في اجازاتنا، .....

شقاء السنين (٨٧)

كنت في السنة الثانية من العمل لدى شركة (ارامكو) ، وكان اخي الاصغر لوط ما زال يعمل مدرّساً لدى المملكة السعودية، عندما قررت العائلة البحث عن قطعة ارض، نشتريها بما توفر لنا من مال، للبناء عليها فيما بعد...وهكذا، وقع اختيارنا على قطعتين متقاربتين، مساحة كل منهما زهاء نصف دونم، في الحي الشمالي من مدينة اربد، في الواجهة المتاخمة لشركة الكهرباء....وكان موقع احدى القطعتين متميزاً بوجودها بين شارعين عريضين يلتقيان حولها، ما رجّح مشروع البناء عليها في المستقبل....

تمّ شراء القطعتين بمساهمة رئيسية من اخي الاصغر، وهكذا أصبحنا نملك ارضاً في الاردن، لأول مرة، في حياة الاسرة!وحرصْتُ على تسجيل كل من القطعتين بأسماء الإخوة الخمسة (على غرار الأفعال الخمسة! في الإعراب) ، للحفاظ على مشاعر الأُخُوّة، وبغَضّ النظر عن شروط الاستحقاق، ...حرصاً ادخلنا في متاهات الفرز، لتحديد حصة كل منهم، فيما بعد، وألجأني الى المحامي (تيسير حطاب) ، رحمه الله، ليحمل عبء تفاصيل الميراث، بعد وفاة أحد الاخوة، ووجود ورثة (قُصَّر) ، تولى أمر حصصهم، قضاء المحكمة الشرعية في اربد!!!بعد جهد جهيد!

تكررت لقاءاتنا، في اجازتنا القصيرة الثانية، مع (أحمد السعدي) ، في بيروت، حيث كان في اواخر مراحل دراسته، وبعد انفصاله عن اللجنة التنفيذية لمنظمة تحرير فلسطين، ما منح العلاقة حميمية خاصة، ...أما الجزء الآخر من الاجازة فكان من نصيب (منذر شِبّو) وعائلته، في لبنان.....

كانت (اروى) في حضن والدتها، آنئذٍ، عندما بلّغني مكتب (ارامكو) في بيروت، بنبأ اختياري، وفريق من أطباء الشركة، لحضور مؤتمر طبي في (شيراز) ، المدينة الواقعة في الجنوب الغربي من (ايران) ، وعليّ ان احصل على تأشيرة الدخول من بيروت، سلفاً، تجنباً للتأخير والمعاناة...

عملت بنصيحة المكتب، وحصلت على تأشيرة الدخول الى ايران، لي ولزوجتي، في نهاية اجازتي، وقبل العودة الى الظهران، لتواجهنا مشكلة اساسية....كانت (أروى) في الشهر السادس من العمر، يومئذٍ، فمن يتكفل برعايتها طيلة خمسة أيام المؤتمر، في غياب والدتها؟

كان (ابراهيم محمد عيسى) ، رحمه الله، يسكن في الحي الاميركي، قريباً من منزلنا فيه، هو وزوجته، قبل أن ينجبا...كان ابراهيم مزامناً لي بعض الوقت في الجامعة الاميركية في بيروت، حيث كان مبعوثاً على نفقة وكالة الغوث، إذ كان لاجئاً الى (قلقيلية) من (كفر سابا) عام ١٩٤٨، فالتحق بقسم الآداب والعلوم، والتحق بشركة (ارامكو) بعد تخرجه، ليعمل فيها مدرِّساً...وكانت تربطني به صداقة الجامعة، بالاضافة الى الرابطة الحزبية...فتبرعت زوجته باحتضان (اروى) في غيابنا في المؤتمر، وإلّا اقتصر السفر عليّ وحدي، مضطراً مكرهاً..

كان مؤتمراً دولياً، واسع الحضور، وكانت حصة اطباء (ارامكو) لافتة، وكان في صحبتنا من زملائنا الاصدقاء، كل من حسين رشيد (إياه!) ، والدكتور (ساكب مصلح النجار) ، وكانا عازبَين، وآخرون.....وقد افتتحه، يومئذٍ، الامبراطورة (فرح ديبا) ، نيابة عن الشاهنشاه (ملك الملوك) ، محمد رضا بهلوي، ! ...وكان من بين الحضور طبيب الاطفال الشهير، يومئذٍ، الدكتور (... أمين مجَج) ، عن فلسطين، وشارك في المؤتمر، بعرْض طريقة عملية تستوعب اكبر عدد من الاطفال المرضى بالتهاب الامعاء المؤدي الى الجفاف القاتل، بإسالة الامصال الوريدية فيهم، مصفوفين بمحاذاة بعضهم بعضاً، على منضدة طويلة في قاعة مشتركة مفتوحة، للجميع، لا في غرف مستقلة، كما هي عليه الحال، عادة، وفي الظروف العادية...

ولا بد، هنا، من الحديث عن الجانب (الترفيهي) من المؤتمر، ففي حقيقة الامر، يبدأ الفصل الاول منه، في الطريق الى قاعات المؤتمر، من فندق إقامتنا، بالتوقف عند (خمّارة wine cellar) ، إذ لم يكن ذلك مستهجناً في عهد الشاه، ولا غيره من (المنكَرات)

المشهودة، بلْه المخفية، كما لـم يكـن الشـارع الشـيرازي يتمتـع بـأي مظهـر اسـلامي، غيـر الحروف العربية!!

ولقد فات (شـلّتنا) هـذا الفصـل مـن الترفيـه، فلقـد حـال (التزامنـا) ، بـل تشـددنا، دون المرور بالخمارة، واستعضنا عن ذلك بجولة موجزة بسيارة اجرة في شوارع شيراز!

ولا ارى ان اتوقف مليّاً عند حفل عشاء جماعي، في متنـزه شـهير، زاد في شـهرته وجـود شجرة ذات صفات غريبة كانوا يطلقون عليها (...ناز) ، تدليلاً على ذلك، بالفارسية...كان عشاء فخماً، لم يفارقني طعم (شِوائه) عدة سنين!

ثم كانت الحلقة الاخيرة، والأهم، في البرنامج الترفيهي، ألا وهي زيارة عاصمة الفُرْس الأثرية، واسمها (بيرسي بـولِسpersi polis) ، أي (مدينـة فـارس) ، وهـم يطلقـون عليهـا اسم (تخْت جمشيد) ، أي عرش جمشيد، أحد شاهات الفرس القدماء، او مؤسس دولتهم، في القرن السادس قبل الميلاد...تبعد (تخت جمشـيد) حـوالي ٧٠ كيلـو متـراً الـى الشـمال الشرقي من (شيراز) ، وتمّ نقلنا اليها بالحافلات...كنـت حريصـاً علـى التـدقيق في مشـاهد هذا الاثر التاريخي الشهير، الذي يعبّر عن عظمة متميزة غابرة، لدولة عظمى، هيمنـت علـى مساحة ضخمة من الدنيا القديمة، وشاطرت الامبراطورية الرومانية حكم العالم المعروف،، عصرئذٍ!

حالت الحواجز والارتاج المقصودة، والابواب الموصدة، دون الوصـول الـى (عـرش داريوس)، احد عظماء دولة الفرس، فاكتفيـت بـالنظر مـن بعيـد، فرأيـت مقعـده منحوتـاً في الصخر، وتـداعت الـى ذاكرتـي، لحظتئـذٍ، ابيـات مـن قصـيدة (ابـي البقـاء الرنـدي) في رثـاء الاندلس، عرّج فيها على المشهد الذي اهتزت له أعطافي:

دار الزمان على (دارا) وقاتلهِي

وأَمَّ (كسرى) ، فما آواه إيوانُـو. ثـم بـذلت كـل جهـدي، تعويضـاً، في التركيـز علـى مـا حملته أعمدة ضخمة عند البوابة المفضية الى قاعة العرش، من نقـوش ورسـوم محفـورة في الصخر، تمَثِّل صورة الحروب التي خاضها الفرس مع اعدائهم، من رومان ويونان وآخرين،

تمثيلاً ناطقـاً يكـاد، لـو بُعثَـتْ فيـه الـروح، ان يتحرك!!...مـا ذكّـرني بسـينية (البحتـري) في وصف (ايوان كسـرى) في (المـدائن) بجنـوب (بغـداد)، وهـو يصـف مشـاهد القتـال بـين جنود الفرس وجنود أعدائهم:

والمنايا مَواثلٌ، وأنو شِروان يُزجي الصفوف تحت الدِّرَفْسِي

يغتلي فيهم ارتيابيَ حتى

تتقَرّاهمُو يدايَ بلَمسِي!!أي أنه لم ينكـر رؤيـة عينيـه الا بعـد لمْسِ يديـه!!!إذ أصـابه في ايوان كسرى، ما أصابني في (تخت جمشيد).....

كنت في مكتبي في عيادات العائلات، أتخلص من حلم ايـام (شـيراز) الخمسـة، حينمـا هاتفتني الممرضة الهندية، في جناح (حَقْن الادوية العضلية)، أنْ أحضر على جناح السرعة، فقدْ فقَدَ أحد مرضاي الاطفال، وعْيه، فجْأَةً....

شقاء السنين (٨٨)

العيادات الخارجية في مركز الظهران الصحي-ارامكو-ثلاث درجات:

العيادات-أ- وتستقبل صغار الموظفين وذوي الدرجة الوسطى منهم

العيادات-ب-وتستقبل كبار موظفي الشركة وعائلاتهم

العيادات-ج- وتستقبل عائلات رُوّاد العيادات-أ-، وهي مجمّع عيادات في مبانٍ أضيفت الى الخدمات الصحية، خارج مبنى المركز الصحي، وفيها قضيت ست سنوات متواصلة، اعالج امهات واطفالاً، فقط.

وانه وان اقتصرت الخدمات الصحية في الشركة على موظفيها وعائلاتهم، الا انه كان يتردد على عيادات-ج- بعض الأسر الاستثنائية، التي سمحت الشركة بمعالجتها مجاناً لاسباب اقتضتها (العلاقات العامة) ، مثل اسرة الشيخ (عثمان الحقيل) ، قاضي قضاة المنطقة الشرقية، وكان متزوجاً، بعد زواج سابق، من فتاة فلسطينية، وكانت تتردد على عيادتي، ما ادى الى بناء علاقة ودية، مشفوعة بالتزاور بين اسرتَينا......

ومثل زوجة (عبد الحفيظ ابو التين- من قرية ارتاح-طولكرم) الاولى، التي كنت اتابع اصابتها بمرض الكليتين االمزمن والمستفحل، حتى وفاتها، وزوجته الجديدة من بعدها...كان العم (ابو التين) رجلاً عصامياً .....أُمِّيّاً، يعمل لدى ادارة المنطقة الشرقية، خبيراً زراعياً، مكّن مزارعي المنطقة من استعمال المياه المالحة المحصول عليها من آبار المنطقة، بنجاح في زراعة بعض الخضار والاشجار!!

ولقد اتاحت لي عيادة العائلات التعرف الى المرحوم (عوني شاكر ابو كشك) وعائلته المكونة من زوجته (ابنة عمه) ، وابنهما (عبد الحكيم) ، ولقد اسعدني التعرف اليه، في (مجلة قافلة الزيت) في مبنى العلاقات العامة، والى زملائه:ابراهيم الشنطي، وعبد الله الغامدي، ومصطفى السلع، وابن عمومته حسين السلع....

لا يحدد نظام عيادة العائلات، طبيبا معينا لأسرة معينة، إذ يتوزع المرضى على الاطباء على التساهيل، وبحكم الحاجة والحاح الحالات المرضية، غير ان متابعة بعض الامراض تخلق نوعـًا من الارتياح والاطمئنان لدى بعض العائلات تجاه أطباء محددين من بين فريق المجَمع، فاذا ما تحقق ذلك، وسمحت ظروف العمل، جاز للاسرة ان تطلب (طبيبها) للفحص والمعالجة في زيارات قادمة....

(احضر حالاً الى غرفة المعالجات والحُقَن) !!!قالت ذلك الممرضة الهندية، واغلقت الخط.

هُرِعت الى غرفة المعالجات، لأجد مريضي الطفل ذا السنوات الثلاث قد فقد وعيه من الالم الذي اصابه على أثر حَقنه بمادة البنيسيلين الممزوج بالزيت، المصحوبة بمزيد من الالم، مقارنة بالبنيسيلين العادي (المبلْوَر) ، لكن الاطول مدى في المفعول......

كنت قد فرغتُ للتو من فحص الطفل وانعاشه والاطمئنان عليه، عندما فتح والده الستارة مذعوراً، ليجدني مكِبّـًا على اسعافه، فأغلق الستارة وتراجع قليلاً ثم قال : (شناعة!خلَص، والله ما يهمني لو يموت!!!!!!)

اخترقت عبارته شغاف قلبي، فسارعت بفتح الستارة من جديد، وعاجلته بالقول: (يا فلان . لا تقلق ...ولدك بخير)

كان بدويـًا عريقـًا موغلاً في البداوة، ذلك الوالد، وزوجته مبرقعة غير ان اسرته دأبت على اختياري من بين زملائي، كلما اعتلّ احد ابنائها، طيلة وجودي في عيادة العائلات، ما وطّد الثقة بين الطبيب والمريض وذويه، ثقة بعثت في نفس ذلك الوالد البدوي البسيط الخالي من (غَلَث) المدنية وسفسطتها، راحة، وفي قلبه طمأنينةً، وفي أعصابه بروداً، بعد ان جاء الى العيادة فزِعـًا، بعدما هاتفوه أن يسرع لان ولده في خطر

وجاء وقت البناء

لم يكن في اربد في ستينات القرن الماضي مكاتب هندسية يعتدُّ بها، فقام مقاول البناء بمهمة المخططات الهندسية بعدما اتفقنا على المطلوب....وقع اختيارنا على قطعة الارض

المحاطة بشارعين، على ان تقام عليها شقتان متلاصقتان يتحدان ببيت درج ومدخلين، ويكونان من نصيب عائلتي الاخوين المقيمين في اربد، وهما (رفيق ومحمد) ، من دون توثيق في دائرة الاراضي (فذلك همٌّ قادم!) ...وكان يغريني في تجاور هذين الاخوين، ويطمنني، انهما على قلب واحد منذ عرفتهما، فبقدر ما كان الاول حريصـًا على مصلحة الثاني، كان الثاني (الاصغرً) مطيعـًا للاول!

وهكذا انطلق الحفر مع الدفعة الاولى، ووعدني المقاول باساس متين يحمل اربعة طوابق!! واستمر العمل على مراحل تحددها الدفعات المالية المتوفرة من راتبي الشهري، الى ان انجزنا مسكنين مزودين بالماء وال.......كهرباء، فكان ذلك آخر العهد بقناديل الكاز، واباريق الماء، ومواقد الحطب!!كما كان بالمخيم..وتركنا قطعة الارض الثانية رصيداً للمستقبل

وجاء دور الوفاء مرة اخرى...كان اخي الاصغر لوط ما زال يعمل مدرسًا في السعودية، حينما أثرتُ مع العائلة، موضوع دراسته الجامعية، بعد اخراجه من مناجم الفوسفات والتحاقه بالمدرسة، ثم التحاقه بدار المعلمين

شقاء السنين (٨٩)

منذ السنة الثانية من عملي لدى شركة (ارامكو)،، وعلى الرغم من انشاء اسرة جديدة،، الا انني وضعت نصب عيني ان يلتحق اخي الاصغر لوط بالجامعة، ليدرس مادة تميزه، وتفتح امامه آفاقاً اكثر واكثر اتساعاً للعمل، على المدى الابعد....

يحفزني الى تلك الرغبة تقديري لعطائه منذ انقطاعه عن الدراسة بعد الصف السادس ومشاركته لبقية الاخوة في اعمال مناجم الفوسفات في مدينة الرصيفة، ثم مساهمته في النفقة على الاسرة، ومساهمته الرئيسية في شراء الارض التي نُفّذ البناء (لغيره)، على جزء منها، .....

كان ما زال على راس عمله في السعودية حينما عرضت الفكرة عليه في حضور الاخوين (رفيق ومحمد)...لم ترُقْ فكرة الالتحاق بالجامعة لرفيق، وأيده محمد (رح)، (وان لم يعارضا فكرة الدراسة الجامعية)، حرصاً على استمرار عمله معلماً في السعودية، لتوفير مزيد من المال لإعالة اسرة ممتدة لديها عدة افراد في كل فرع منها....كانت الدراسة الجامعية بالمراسلة ممارسة رائجة، يومئذ، وخصوصاً في جامعة بيروت العربية التي كانت فرعاً من جامعة الإسكندرية، يعمل في بيروت الغربية، والذين انتسبوا اليها كثيرون، فلماذا لا يدرس بالانتساب، كبقية الدارسين، ونحن أحوج من غيرنا الى المال؟

كانت حجة الاخوين قوية، ولم يكن لاخي الاصغر لوط موقف ترجيحي، غير انني أصررت على تنفيذ رغبتي، معرباً عن ايماني بان الجو الجامعي يصقل شخصية الطالب بحكم مخالطته بآخرين، طلاباً ومعلمين، ...وما هو الا ان انصاع الكل لرغبتي، من دون ما قناعة، وهكذا توجّه الى مصر (اذ لم تكن الجامعة الاردنية-اولى جامعات المملكة- قد تأسست، بعد،) وفي ذلك ما فيه من مزيد من النفقة، أين هي من نفقة الجامعات المحلية، هذه الايام !!لكن رسوم الجامعات في مصر، يومئذ، كانت شبه رمزية على الطلاب العرب......

سُقط في يدي، عندما وصلتنا منه رسالة يعرب فيها عن رغبته في الالتحاق بكلية التربية الرياضية!!!، رغبة خيبت املي فيما تمنيته له، فأكدتُ عليه دراسة اللغة الانجليزية، او الادب الانجليزي، ليحصل على شهادة، ويبني كفاءة مميزة، تضمن له موقعـًا متوفراً ومريحـًا في سوق العمل، حراً او غير حر، ......وبعد طول حوار، رست سفينته على اللغة العربية، ليتخصص فيها ويعود معلمـًا لها للصفوف العليا في مدارس المملكة، ولتتيح له إعارة خمس سنوات عمل اثناءها معلمـًا للغة العربية في مدارس المملكة المغربية.......

تحققت رغبتنا في الانتقال الى منزل حجري من منازل العائلات، في الظهران، فاخترنا بيتـًا من البيوت المزدوجة التي يوحد فيها البيتين جدار واحد يسمونهduplex، ولقد شاءت الاقدار ان نتجاور مع عائلة المهندس فتحي يحيى في مرحلة من اقامتنا في الظهران، قبل ان يرحل الى (ابو ظبي) مستجيبـًا لعَرْض أفضل، ثم مع عائلة الدكتور باسم الدجاني، فيما بعد، فكانوا نعم الجيران، تفاهمـًا وتناغمـًا وتجانسـًا (بفضل تفاهم النساء!!) ، .....هذا، وتشاء الاقدار ان يلتحق كلانا (باسم وانا) بنفس الجامعة في الولايات المتحدة الاميركية، فيما بعد، مع اختلاف تخصصنا، ويسبقونا بسنة، ليحجزوا لنا شقة ملاصقة في مساكن الجامعة، ونتجاور من جديد، ولسنتين كاملتين!!! ولم نغادر تلك الشقة ذات الرقم- B1 1198، الا عند انتهاء عملي مع الظهران

في احدى اجازاتنا السنوية، ولقاءاتنا المتكررة مع احمد السعدي، أُثير موضوع زواجه، ومن شقيقة زوجتي، تحديداً، من حيث المبدأ، وذلك بعد ان يزيد من التعارف في الكويت، مكان عملها في التدريس، بالقدوم من مكان عمله في الرياض، بعدما فارق منظمة التحرير، وفي منزل المرحوم صدقي حطاب....

أسفرت تلك اللقاءات عن (رضى) متبادل، ولما كان دخول أحمد الى الضفة الغربية محظوراً، وكلا الاهلين هناك، فقد لجأ الى توكيل عمه (امين) الساكن في (كفر زيباد) ، القريبة من طول كرم لينوب عنه في توقيع عقد قرانه، توكيلاً حضَرْت تنفيذه في منزل اهل

الخطيبة، الذين فوضوني، وعديلي صدقي، بتمثيلهم في كل ما يتعلق بأمر ابنتهم، بدافع ثقة أعتز بها كل الاعتزاز!!!! وبحُكم الظروف القاهرة التي لم تسمح بالقيام بما هو افضل او انسب.

في اواخر عام ١٩٦٦ والاشهر الاولى من عام ١٩٦٧، راح سماء منطقة الشرق الادنى يتجلل بالغيوم السياسية، وذلك على اثر تصعيدات عسكرية بين العدو الاسرائيلي من جهة وكل من الاردن وسوريا في معركة (بلدة السموع) ، قرب مدينة الخليل، في الاول، ومعركة (طبريا) في الثانية، حيث استخدم سلاح الجو في المعركتين، وكانت حجة العدو الرد على اعمال فدائية في المعركتين!

وتراكمت الغيوم، وتزاحمت الاحداث وتداعت الدولتان الكبريان (الاميركان والسفييت) لتهدئة الجو، بعدما طردت مصر القوات لدولية من مضيق تيران على البحر الاحمر وأغلقته في وجه ملاحة العدو الاسرائيلي.....

شقاء السنين (٩٠)

تكررت الدعوات الى ضبط النفس من كافة دول العالم، وبخاصة الدولتين الكبريين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وكانت الولايات المتحدة قد استدعت (زكريا محيي الدين) ، وزير الداخلية المصري للتاكيد على ان لاتبدأ مصر بالعدوان وهي تنوي ان تؤكد على مثل ذلك على الجانب الاسرائيلي، غير ان هؤلاء اعتبروا اغلاق مضيق تيران في وجه الملاحة البحرية في البحر الاحمر بمثابة اعلان حرب عليهم، وباتوا على نية عدوان يبدؤونه هم، فالبادئ بالضربة هو الفائز عادةً، .....أليسوا هم الذين (لا يؤمنون الا لمن تبع دينهم) ؟

وفي الخامس من حزيران، صحت الدنيا على صبحٍ رهيب، ابيدت فيه طائرات سلاح الجو المصري، او معظمها، في مرابضها!!! وان عمل الاعلام المصري على تضليل الناس الذين كانوا لا يروق لهم ان يستمعوا لغيره، فأخفى حقيقة الامر طيلة الايام الستة التي انتهت بسقوط الضفة الغربية من الاردن، وصحراء سيناء من الجانب المصري، وهضبة الجولان (التي لم يكن اسمها ولا اهميتها مألوفة للجماهير) على الجانب السوري، وباءت تمنيات (عمر ابو ريشة) بالفشل يوم قال، مادحًا (فاروق مصر) :

لم نربح الجولة الاولى، فلا حزنت على الغد المشتهى جولاتنا الأُخَرُو!!!

كانت المدمرة الاميركية (ليبرتيliberty) ، رابضة مرابطة في عُرض البحر المتوسط، ترقب سير المعركة عن كثب، عندما انهالت عليها الحمم من الطائرات والزوارق الحربية الاسرائيلية، فقتلت ٣٤من جنودها وجرحت اكثر من ذلك وأعطبت معظم اجهزة اتصالاتها، بدعوى التجسس على الجيش الاسرائيلي!معتذرة فيما بعد ان ذلك وقع (بطريق الخطأ!!)

أما في الجانب العربي فقد ساد الاجواء الاعلامية، والمصرية بخاصة، أن ذات السفينة (المدمرة) ، كانت وراء (الهزيمة) ، !!!فاشتعلت الجماهير في العالم العربي (والاسلامي) ، غضبًا، وخرجت المظاهرات في شوارع معظم المدن، منادية بالويل والثبور.......والسقوط لأميركا

ولم يكن الشعب السعودي بِدْعًا من بقية الشعوب العربية، فخرجت جماهيره في مظاهرات حاشدة، طالت كافة المدن، بما فيها مدينتي الدمّام والخُبَر، أقرب مدينتين الى الظهران والشركة الاميركية، وانضم الناس من الشركة الى الجماهير السعودية التي شاركت فيها الرجال بالدشاديش والنساء بالعباءات!!

في تلك الاثناء كانت الكاميرات ممعنة في التصوير من على اسطح المباني وفي الشوارع، وظن الناس ان الهدف تسجيل موقف وطني تاريخي، وتبيّن فيما بعد، انه لضبط المشاركين من موظفي الشركة، إذ أودعت الحكومة السعودي منهم السجن (مؤقتًا) ، وتم تسفير غير السعودي الى بلده......هذا، وكان من بين الذين سُفِّروا المرحوم (مروان دودين) ، وتولى ادارة مؤسسة الاذاعة والتلفاز، بعد عودته بقليل، ثم وزارة الثقافة!!

بعد تخرجه في الجامعة وحصوله على شهادته في اللغة العربية، لم يلبث أخي الاصغر ان توظف مدرسًا للصفوف العليا في مدارس الحكومة الاردنية، في تخصصه، كما لم يطل به المقام حتى اختار بنفسه (شريكة حياته) ، وتكفلْتُ بما ترتب على ذلك من تكاليف، والحمد لله.....

وبحكم الأُخُوة البريئة الصادقة، كان لي شرف تحديد (كُنية) أَخَوَيَّ (رفيق ومحمد) ، ليصبح الاول (ابا جهاد) ، والثاني (ابا عماد) ، أما أخي الأكبر، فقد ظفرت من تسمية ابنائه (بطلعت) ، اوسطهم، وتولى اخي الاصغر امر كنيته فيما بعد ليصبح (ابا رائد)

حالت الظروف السياسية الجديدة، بعد هزيمة حرب الايام الستة، وسقوط الضفة الغربية، دون التقاء احمد السعدي بأهل خطيبته، وتعارفهم، ما حدا بالجميع الى تقليص

مراسم الزواج الى الحد الادنى، فتم نقل العروسين من الكويت، حيث مكان عمل العروس، الى مسكننا في الظهران، حيث تم الزواج،، ومنه الى الرياض، حيث مكان اقامة العريس وعمله الجديد!!!

المسافة بين الظهران والكويت تقطعها السيارة في بضع ساعات، مع رداءة الطريق، في ستينات القرن الماضي، ما شجعنا على زيارة عديلي، المرحوم صدقي حطاب، اكثر من مرة....وفي احدى الزيارات، قررت ان ازور ابن اختي (محمود علي سليمان شناعة) ، في مكان اقامته في الكويت، حيث كان يعمل، بعد نجاحه في الثانوية، برفقة صدقي وسيارته!...كان الوقت مساءً، فوجدته يشارك مجموعة من ابناء (قفين) شبه مأوى، غايةً في التعاسة، فانفردتُ به جانبًا، وآليت عليه إلا ان يترك عمله (البسيط) ، ويلتحق بالجامعة الاردنية، على حسابي!...واستجاب والتحق بالجامعة، وتخرج فيها، .....وذات بريد، وصلتني رسالة من شقيقه الاكبر، (خليل) ، رحم الله الاثنين، من سبع صفحات، من مكان عمله مدرسًا في السعودية، يعاتبني ....ويوبخني فيها على تلك الفعلة التي حرمت بها العائلة من عامل ثانٍ يشاركه في الانفاق عليها!!!!

طويت رسالته كما هي، ووضعتها في غلاف جديد يحمل عنوانه واعدتها اليه، دون تعليق

في عملي في الظهران، وقبل ذلك في الجامعة، كنت مدخنًا متواضعًا

شقاء السنين (٩١)

كنت في الماضي مدخنًا معتدلاً ...كانت البداية، وبشكل متقطع، منذ المرحلة الجامعية الاولى، ...لم يكن في مقدوري ان اكون مدخنًا منتظمًا، فالوضع المادي لم يكن يسمح بذلك، وكانت ارخص انواع السجائر، يومئذ، في لبنان، هي البافرا، والتطلي سَرْت! وفي السنوات الجامعية الاخيرة، (عاقرتُ) الغليون، ولي صورة شمسية وهو في فمي وانا ارتدي المريول الابيض...غير ان ذلك كله لم يجعل مني مدخنًا محترفًا او (مدمنًا) .....

في نظام العمل لدى مركز الظهران الصحي، يطال الطبيب العام، امثالي، ليلة كل اسبوع او اكثر، يناوب فيها، في طوارئ المركز، ابتداءً من ساعة انتهاء دوام الموظفين الى صباح اليوم التالي..ومن اجل ذلك، يحق له، اذا شاء، ان يستعمل احدى سيارات المركز العادية (وكلها من نوع شفروله، واحدث ما يمكن اقتناؤه) ....كنت متردداً في شراء سيارة خاصة لي في الظهران، إذ لم أكن قد تدربت على القيادة، ولما عزمت على ذلك، وتوكلت على الله، قام بتدريبي شاب بدوي من شركة ارامكو، ولقد عانيت من استعماله لبعض الاصطلاحات التدريبية التي هي انجليزية محرّفة، مثل كلمة (ريوس) ، ويعني بها (الرجوع، من كلمة reverse) ، أو كلمة (هَرَن) ، ويعني بها الزامور (من كلمةhorn) ، ....وهكذا!....وبعد نجاحي في فحص قيادة السيارات، تجرأت على شراء سيارة عائلية مستعملة (.... station)

يوم احدى مناوباتي،، قادني فضولي (حب استطلاعي؟) الى ان اتعامل مع احدى سيارات الشركة، وكانت من احدث ما لدى المركز، ولا عهد ولا خبرة لي بمثلها....تمكنت من الوصول بها الى بيتنا في ١١٩٨-١ب، القريب من المركز، ثم قررت الوصول بها الى البريد، مصطحباً معي ابنتنا (اروى) ، التي لم تزد عن السنتين-وان كان لسانها يزيد كثيراً عن ذلك!-والسيجارة ....في طريقي فاجأني مطَبّ، جعلني ادوس الكابح فجأةً، وبقوة لا لزوم لها، ما قذف باروى خارج مقعدها،، وعندما مددت يدي لاعادتها،

لسعت السيجارة المشتعلة، يدها، فصاحت صيحة جلجلت في اعماقي، ثم قالت، توبخني: ليش تسوق السيارة اذا ما بتعرف تسوق!!!وهي تبكي بدموع الم غير معهودة....

لم يكن لي عهد ولاخبرة بكوابح القوة (power brakes) ، التي يكفي لمسها بدلاً من دوسها الذي يؤدي الى الوقوف المفاجئ القوي!

خيَّرتني تلك الحادثة بين ابنتي والسيجارة، فاخترت اروى، وكان ذلك آخر عهدي بالتدخين!

في السنوات الخمس التي عشناها في الظهران لعبت اسرتنا الصغيرة دور (الخطّابة!) ، ففيها اصطحبنا الاخ الدكتور ساكب مصلح النجار، وبسيارته المرسيدس، الى الكويت، لنعرفه على زوجة المستقبل، التي كانت تعمل في مصلحة الاذاعة الكويتية، في برنامج يشرف عليه السيد، سوداني الاصل، خالد العجباني الذي كان على صلة بربعنا في الكويت :!شاءت الظروف ان يكون السيد وصفي السعدي، ابن عم عديلي احمد مرافقاً لنا في نفس الرحلة بسيارته، حيث تعطلت سيارة الدكتور ساكب في منتصف الطريق البري وانتقلنا، بدونه الى سيارة وصفي، واكملنا السفر، والتحق بنا ساكب فيما بعد

وفي رحلة اخرى الى الكويت لزيارة عديلي المرحوم صدقي حطاب، التقينا بابن عمنا المرحوم اسعد عبد الكريم شناعة، الذي كان يعمل موظفاً في الكويت، وكان يومها يبحث عن زوجة مناسبة، فرافقنا في زيارة لنا الى ابن عمنا، فرع طيطبة، صفد، نعيم يوسف شناعة، وعرفنا اسعد على ابناء عمومته الذين لم يكن يعرفهم، وشاء النصيب ان يتعرف الى حنان، ابنة المرحوم نعيم،

وفي الرحلتين، الاولى والثانية، تركنا الاطراف المتعارفة تكمل مسيرتها، وتم زواج الاثنين، ساكب من الفتاة الصفدية، بشرى، واسعد من الفتاة حنان، فرع حمولتنا في شمال فلسطين

يُسْر الحياةُ وتنظيم العمل في ارامكو يُنسي الموظف نفسه والزمن....هذه حقيقة لا يماري فيها من ذاق طعم الحياة هناك

كنت بجانب الدكتور سامي الحسني، اختصاصي الاطفال، وحديثي الولادة، عراقي الجنسية ....واللهجة، عندما جاء الى الحاضنة في مركز الظهران الصحي، لفحص ابني (أنس) ، يوم ولادته في الثامن من حزيران سنةالف وتسعمئة وتسعة وستين، وكان يفحص وغليونه في فمه، حينما انثنى علي قائلاً: (يونس، عيني، انت شو قاعد تسوي هنا؟ انتَ تعرف أطفال اكثر مني، ما تروح تتخصص؟)

لم يكن سامي يجاملني، فلقد كان يقرأ شروحاتي على استشاراتي الموجهة اليه ولزملائه في الاختصاص، في ملفات مرضاي، ...

لم تفارق عبارات الدكتور سامي (رحمه الله؟) ، مسمعي، بل ظلت تجلجل طيلة ذلك النهار، الى ان كان المساء، فبُحتُ بها الى زوجتي، في سهرة هادئة

شقاء السنين (٩٢)

وقعت عبارات الدكتور سامي الحسني على موقع حساس من نفسي، وأجَلتها في فكري طيلة ذلك اليوم، الى ان عدت الى البيت، وهي تعاودني، في سهرتنا معـًا، زوجتي وانا، فبُحْتُ لها بمكتوم قلبي، وانا متردد النبرة، بين الجد والهزل، فالذي يعمل في شركة ارامكو، ينسى نفسه والزمن، بسببّ من لين العيش ويُسْر العمل المنتظم ....تذهب اليه كل صباح، خمسة ايام في الاسبوع، بين زامور الدوام وزامور انتهائه، ولا تُسأل بعد ذلك عن شيء، ولك اجازة قصيرة كل سنة، واخرى طويلة كل سنتين، ودخلك من راتبك ثابت، ويزيد قليلاً كل سنة، وكل الخدمات اللازمة للعيش الرغيد، بين يديك، فماذا بقي؟ وماذا تريد؟

لم تتردد هي، مثلما ترددتُ انا، اذ كانت ترى فيّ قدرة على المزيد، وضربت لي مثلاً في الدكتور سامي نفسه، الذي كان يفحص وغليونه في فمه، يُدِلُّ بتخصصه، على الشركة وعلى الطبيب العام!

وفي اليوم التالي، رحت أجمع عناوين الجامعات، في الولايات المتحدة الاميركية، لأراسلها، من أجل الالتحاق باحداها، للتخصص في طب الاطفال، بانيـًا بذلك على خبرة ست سنوات من التعامل والممارسة في نفس المجال..

.درجَت كلية الطب في الجامعة الاميركية في بيروت، على عقد امتحان (خريجي دراسة الطب في الجامعات الاجنبية) ، في نهاية العام الدراسي، سنويـًا، وكانت تنصح طلابها بالجلوس الى ذلك الامتحان، الذي يؤهّل الناجح فيه للالتحاق باحدى الجامعات الاميركية، للتخصص، وبدون ذلك لا تستقبله أية جامعة فيها ابداً، ...وكان المسؤولون في الكلية يشجعون الطلاب على تقديم الامتحان، في نهاية السنة الرابعة، أي قُبَيل الدخول في سنة الامتياز، التي يجب قضاؤها في مستشفى الجامعة، ولا يتم تخريج الطالب ومنحه شهادة (دكتور في الطب) ، الا بعد انقضائها، ذلك حيث تكون المعلومات (طازجة) ، ناجزة، قبل ان تتآكل، فيما بعد، بفعل النسيان!

كنت من بين الذين استجابوا لسنّة الكليه، فجلست لذلك الامتحان في نهاية عام١٩٦٣، وكان من حسن حظي أن معدلي جاء فوق ٧٥، الذي يسمح لصاحبه ان يتقدم للتخصص أنّى، شاء، فما دون ذلك المعدل، وان كان ناجحاً، الا انه لا يحق له اعتماده بعد سنتين من نجاحه!

هذا، وقد تفشّتْ حمى التخصص في كثيرين، تلك السنة، فراحوا يراسلون الجامعات الاميركية، ورحنا جميعاً ننتظر الردود، فالخطة السليمة هي ان تراسل اكبر عدد ممكن من الجامعات، وقبل الالتحاق بالتخصص بسنة، اي ان تبدأ اتصالاتك في اوائل الصيف السابق، حيث تبدأ سنة التخصص في اول تموز من كل عام.......

وأتى القبول المبدئي سريعاً من جامعة ولاية (أيَوا) ، على ان أُعزّز طلبي بتوصيات او تزكيات من أطباء أطفال علموني في الجامعة الاميركية في بيروت، ذكروا لي بأسمائهم، لأنهم تخصصوا في نفس الجامعة، وفي قسم الاطفال، في السنين الخالية، ....وعلمت فيما بعد، متانة العلاقة بين الجامعتين، وتخصص الاطفال، على وجه التحديد، حيث تخرج في (ايوا) ، بضعة افواج، نالت رضى اساتذتهم، وعادوا مدرسين في الجامعة الاميركية...

كاتبتُ اساتذتي المشار اليهم، راجياً تزكيتي لدى تلك الجامعة، ولبوا طلبي، مشكورين، وجاءني القبول الرسمي، بتعاقد موقّع يتناول تاريخ الالتحاق بالتخصص، والراتب الذي تقدمه الجامعة من اجل تكاليف العيش هناك، وتعليمات تفصيلية اخرى...

لم نقضِ السنوات الخمس كلها هنيئة، صافية، فلقد فقدنا في اواخر عام ١٩٦٨ شقيقة زوجتي، زوجة عديلي احمد السعدي، على اثر مضاعفات ولادتها الاولى (والوحيدة) ، توفيت بعد الولادة بايام قليلة، في مدينة الرياض، في المستشفى الوطني، الذي كان اشهر مستشفيات الرياض ..... (الخاصة) ، يومئذٍ، وكنا حولها، إذ ذاك، فكانت وفاتها كارثة، أذهلتنا، ولاحقنا الحزن عليها، زمناً طويلاً، وتركت لنا من ذكرياتها، ابنها الاوحد (فريد) ، الذي ظل في حضانتنا الى ما قبل سفرنا الى الولايات المتحدة!!

بعدما تحدد موعد السفر الى اميركا، للتخصص، خطر لنا أن نستغل وجودنا في الجزيرة العربية، بالحج الى بيت الله الحرام، فهو، أي الحج، فريضة على كل من ملك الزاد والراحلة، اما الزاد فقد توفر، والحمد لله، واما الراحلة، فسيارة العائلة، جاهزة، تستوعب اسرة كبيرة، وقد كان...! فلقد عرضنا فكرة الحج في العام القادم (١٩٧٠) ، على والدي، ووالدة زوجتي، إذ كانا هما الباقيين من الآباء، أما والدي فقد نسقت له الانضمام الى بعثة الحج الاردنية، ذلك العام، ونلتقيه في (منى) ، أما والدة زوجتي (حماتي) ، فقد تطلب وصولها الى الظهران الحصول على تصريح خروج من الضفة الغربية المحتلة (طولكرم) ، الى عمان، ومنها الى الكويت، حيث منزل عديلي المرحوم صدقي حطاب، ومن الكويت، براً، الى المنطقة المحايدة، (الخفجي) ، بين الكويت والمملكة السعودية، ونحن نستلمها، براً، عائدين الى الظهران، لترافقنا، في موسم الحج، بسيارتنا الى مكة!!وهكذا كان....

صادف موسم الحج عام ١٩٧٠، شهر شباط (فبراير) ،، فرحنا نُعدّ العدة للحج، بسيارة العائلة التي ستحمل، بالاضافة الى زوجتي ووالدتها، اروى، وكانت اربع سنوات، تقريبًا، وأنس، وكان ثمانية اشهر، و.....فريد، وكان ستة عشر شهراً...

وأهمّ من كل الاستعدادات الفنية، والغذائية، والصحية، كانت .....الصُّحبة!

كان من حسن حظنا، وتوفيق الله، عز وجل، أننا توجهنا بالسيارة، من أقصى شرق الجزيرة الى أقصى غربها (من الخليج الى البحر الاحمر) ، أنْ قيّض الله لنا صحبة رفيقين، صادقَين، صالحين، بسيارتيهما العائليتين الواسعتين، هما المرحوم عبد الحليم الجلاد، من موظفي الشركة، من طولكرم، والمرحوم؟ حسن الناطور، من موظفي الشركة، من العباسية، وعائلتيهما، لنشكل قافلة من ثلاث سيارات عائلية واسعة،

كان علينا ان ان نتزود بالماء والطعام والملابس الاضافية للاطفال الثلاثة، والفراش الكافي لنومهم في السيارة، او خارجها، ....توكلنا على الله وانطلقنا من الظهران، في اتجاه الرياض، في طُرق معبدة وغير معبدة، تكسوها الرمال، فكانت (تغريزتنا) الاولى على

مشارف الرياض، !، ولولا خبرة الرفاق في التخلص من هكذا (عكننات) ، لكان لرحلتنا مصير آخر!....واستأنفنا السير، مروراً ب (شقرا) ، فالقصيم، وكل من (بريدة) ، و (عنيزة) ، معقل الحركة الوهابية و (المطوّعة) ، المشهورتين بالتشدد الديني الزائد عن حده!، ورحنا نغذ السير غربـًا، الى الحجاز، (آمّين البيت الحرام) ، ولسان حالنا:

كلما رحبَتْ بنا الروض قلنا

حلَبٌ قصْدُنا، وأنت السبيلُو

أحرمنا من (آبار علي) ، وبذلك بدأت مناسك الحج تتوالى، ونحن نردد: لبيك اللهم لبيك!

لا يستطيع المرء ان يعقد مقارنة عادلة بين ظروف مناسك الحج وشعائره في ستينات القرن الماضي، وما عليه الظروف هذه الايام، ونحن على بُعد نحو نصف قرن منها، على الرغم من تضاعف اعداد الحجيج...لقد وجدنا عناء ومشقة يحمد المرء معهما، رب العالمين أنْ لم يفرض الحج أكثر من مرة في العمر، وعلى من استطاع اليه سبيلا!!

لقد (غرزت) عجلات سيارتنا مرة اخرى في الطريق الرملي الترابي الضيق، بين (منى) و (عرفات) ، وتغلبنا على ذلك لنتابع معاناتنا على الجبل، ونحصل على غفوة موجزة في (مزدلفة) ، نفقد معها ساعة ذهبية موروثة، ونحن نبحث عن الحصوات المناسبة لرمي الجمار في منى!

كانت رحلة الحج شاقة جداً، احتسبنا مشقتها عند الله، ...مشقة مصحوبة بنوم متقطّع، وارهاق شديد، كنت معه، أجد نفسي مأخوذاً بسنةٍ من النوم، بين الفينة والفينة، وانا أقود السيارة، في طريق العودة، ولكن الله سلّم!

لم أشأْ ان أشغل القارئ بتفاصيل اداء المناسك، كما تركت لنفسي مشاعري، عند زيارة المسجد النبوي، وضريح رسول هذه الامة، وصاحبَيه، ومقبرة البقيع،

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا

لعرفتَ أنك في العبادة تلعبُو!

المهم اننا أدينا الفريضة، قبل مفارقة تلك الديار، بل مغادرة العالم العربي، ووصلنا البيت في الظهران سالمين، والحمد لله، في الشدة، والحمد لله في الرخاء

شقاء السنين (٩٣)

لم تهدأ الجبهة الاردنية الاسرائيلية، كثيراً بعد سقوط الضفة الغربية، عام ١٩٦٧، بفعل الاعمال والعمليات (الفدائية) ، من قبَل عدة فصائل، بعضها محسوب على هذه الدولة أو تلك، فلقد كان لسوريا (صاعقتها) ، وللعراق (جبهتها العربية) ، وكلاهما يعود الى (حزب البعث العربي في البلدين، كما كان للقوميين العرب، جبهتهم، ولليساريين جبهتهم!....وكلٌّ يدّعي وصْلاً بليلى! وبالاضافة الى العمليات التي كانت تنفذ، على الارض، كانت تنفذ مثيلاتها في (السماء) !، إذ تكرر اختطاف الطائرات المدنية، تحت هذه الذريعة، أو تلك، وكلها تحت مظلة العمل الفدائي (لتحرير فلسطين) !!

ففي شهر آذار من عام ١٩٦٨، أي بعد أقل من سنة على سقوط الضفة الغربية، وقعت معركة (الكرامة) ، بين جيش (الدفاع!!) الاسرائيلي، من جهة، والجيش الاردني، ومجندي العمل الفدائي من شتى الفصائل، من جهة أخرى، بدعوى القضاء على قواعد الفدائيين في الاغوار، ومن أجل الوصول الى مرتفعات السلط، واحتلالها، لفرْض واقع جديد على الاردن....!وبفضل البطولات التي ابداها كل من الجيش العربي، والفدائيين، ومداخلات دولية؟ ، فقد مني الجيش الاسرائيلي بهزيمة لم يتوقعها، وأجبر على الانسحاب الى خطوطه السابقة، بعدما تكبد خسائر فادحة في الارواح والمعدات!!

كان من ثمار معركة الكرامة، ارتفاع معنويات الجيش العربي، وارتفاع أسهم فصائل الفدائيين، اكثر واكثر، ما ادى الى تصرفات (نـدّية) بين الفريقين، ومخاشنات ومشاحنات و....مجابهات، بدأت محدودة، ثم انتهت بمواجهة فاصلة بينهما، فيما سُمّيَ (ايلول الاسود) ، راح ضحيتها المئات، من الفريقين، وتدخّل خلالها، أكثر من دولة عربية، تمّ على أثرها، ترحيل العمل الفدائي الى لبنان!!!

كان ذلك في ايلول ١٩٧٠، سنة تقديم استقالتي من العمل لدى شركة (ارامكو)، للالتحاق بجامعة ولاية (أيَوا)، ومستشفياتها، للتخصص في طب الاطفال، ....كنت قد رحّلت العائلة الى (اربد)، وقامت الشركة بتحزيم امتعتنا واثاثنا، لنقله اليها (نقطة المنشأ)، حسب الاتفاقية المعقودة بين الطرفين، والتحقت بالعائلة، في بداية شهر حزيران من نفس السنة، استعداداً لمواصلة السفر، سفر الاسرة كلها، من عمان الى بيروت، ففرانكفورت، فنيو يورك،، لنكون في مدينة ايوا قبل الاول من تموز، بداية العام الاول في (الإقامة) في قسم الاطفال في مستشفى الجامعة، جامعة الولاية...أي الحكومية.

في مطار عمان (ماركا)، في حزيران ١٩٧٠، وعند نزولي من الطائرة، لاحظت التوتر على الوجوه، ورأيت الحواجز، هنا وهناك، والتفتيش المتكرر، و (المزدوج!)، من الامن الاردني، ومسلحين من الفدائيين، وشاهدت الاهالي في ارجاء المطار، كأنّ على رؤوسهم الطير، كما يقولون! ....في هذه الاجواء المكفهرة المكهربة، كنت حريصاً على استلام حقيبتي وال (هرب) الى اربد في اول وسيلة نقل تحملني الى هناك!!

لم يكن في جعبتنا الكثير من المال الفائض عن حاجتنا ..لقد عملت جهدي ان أوفّر تذاكر السفر الى آخر محطة في اميركا، وثمن سيارة جديدة متوسطة الثمن، ونفقة الشهر الاول من العيش هناك...

منذ اتخذنا القرار، قرار التخصص، وتحدد موعد سفرنا، رحنا، نحن واحمد السعدي، نبحث عن حاضنة لابنه (فريد)، بديلة من خالته (زوجتي)، بعدما اصبح عمره سنة وبضعة اشهر، فوقع الخيار على زوجة شقيقه الاكبر، السيدة الفاضلة (ام عاطف)، فكانت نعم الخيار.

كان في جلسة وداعنا الخاصة، كل من احمد، وابن عمه المرحوم (وصفي)، وبعد ان فرغنا من تحديد مصير الطفل (فريد)، انتقلنا الى الامور المالية، وما لنا وما علينا، وانتهى شرحي، للجميع، انني أمّنت نفقات كل ما يتعلق بالرحيل، وأنه تَوفّر لدي الف دينار،

التقطها وصفي، قائلاً: سنشتري بهذه قطعة ارض، نسجلها باسم زوجتك، شافعًا اقتراحه بابتسامة، مغموزة، احسست منها، رغبته، واحمد، في مكافأتها على جهودها في العناية (بابنهم) ، منذ ولادته، رغم تقارب عمره وعمر ابننا (انس) ، الذي كان يصغره بثمانية اشهر، كما لو كانا توأمين!!....لم اعترض، طبعًا، على الاقتراح، ووفى وصفي بوعده، واشترى الارض التي بنينا عليها بيتنا في حي المدينة الرياضية، بعد عودتنا الى عمان، ...وبعث الينا بسند تسجيلها، وسددنا زائد ثمنها الذي تكبده، من اميركا، على دفعات.

ثم جاءت لحظات الوداع، وداع الاهل، الوالد والاخوة، وعائلاتهم، ثم وداع احمد ووصفي، ثم .....فريد

كان الوداع ابتسامات مبللةً بالدمع حينًا وبالتذكار احيانا

وكان وداع زوجتي لابن شقيقتها (المتبنّى، مؤقتًا) ، أقسى تلك اللحظات، وأشدها إيلامًا!!!

كانا في انتظارنا، في مطارCedar Rapids ، أي منحدرات الارز، كل من الدكتور باسم الدجاني، وزوجته، على ميعاد، فلقد التحق باسم بقسم الامراض الباطنية في جامعة (أيوا Iowa)قبلي بسنة، وحجزا لنا الشقة الملاصقة لشقتهم في حي مساكن طلاب ومقيمي الجامعة، سلفًا، لدى وصولنا، لنستأنف جيرة (ارامكو) ، في مدينة ايوا سنتين كاملتين

شقاء السنين (٩٤)

مدينة (أيَوا Iowa) مدينة جامعية، معظم سكانها طلاب أو معلمون، لم يكن تعدادهم يجاوز الخمسين الفـًا عام ١٩٧٠، هي عاصمة الولاية، التي حملت نفس التسمية، الواقعة في الغرب الاوسط من الولايات المتحدة، وعواصم الولايات في الولايات المتحدة الاميركية لا تعني حجم العاصمة الاكبر، بالضرورة، إذ تجد معظم عواصمها، إن لم تكن كلها، اصغر من كثير من مدن الولاية الاخرى، وربما كانت العاصمة هي الكبرى (عند نشأة الولاية، قبل نيّفٍ ومئتي عام) ، قبل نشوء مدن اخرى جديدة، في الولاية، بذّتْها، وجاوزت تعدادها بكثير.....وحتى عاصمة الاتحاد (واشنطن) ، فهي تكبر غيرها من المدن، عمراً، وتصغر معظمها حجمًا وتعداداً....ولأنها مدينة جامعية، كان سكانها (نخبة) ، فتميزت بالهدوء والنظافة والانضباط...يشقها نهر صغير، أنشأوا على أطرافه متنزها صغيراً مغطى بالاشجار، ومزوداً بشتى الالعاب التي يجد فيها اطفال المدينة متعتهم، من اراجيح، وغيرها، ومطعم بسيط يقدم الشطائر المتنوعة، والوجبات الاخرى السريعة، وشتى انواع العصير والمرطبات

توجهنا من مطار مدينة (منحدرات الارز Cedar Rapids) ، الى مدينة أيوا بصحبة جيراننا (من جديد) ، الدكتور باسم الدجاني وزوجته، لنجد شقتنا جاهزة في حي من الاحياء السكنية التابعة للجامعة، ويدعى (عين الصقر) ، بحذاء شقتهما!

صيف المدينة حار، مثلما أن شتاءها بارد جداً، وبحُكم تجربة جيراننا سنةً سابقة، فقد اضطررنا الى إضافة مكيف في شباك الصالة، فالشقق المذكورة مهيّأة للتدفئة فقط، وهكذا شعرنا بقدرتنا على مقاومة الحر الذي لم نكد نفارقه في الظهران!!

ينصّ العقد الموقّع بيني وبين الجامعة على دفع ثمانية آلاف دولار سنويـًا، بتوزيع شهري، في شكات، يحسم منها (الضريبة!!) ، وأجرة الشقة المخفّضة، على أن أنتظم في

دوام كامل من الثامنة صباحـًا الى الخامسة مساء، يتخلله ساعة للغداء، دوام يبرمجه قسم الاطفال في مستشفيات الجامعة، التي كانت تعَدّ من اكبر عشر جامعات في الولايات المتحدة، وأقدمها، إذ تأسست في القرن السابق (التاسع عشر) ...

كان من حسن الحظ (بل من حسن التخطيط) أن وصلنا المدينة قبل بدء الدوام بأيام، حيث قمنا بتزويد الشقة الصغيرة المتواضعة ببعض الاضافات التي فرضها علينا وجود (اروى) ، وعمرها اربع سنوات، و (أنس) ، وعمره سنة، وبعض شؤون المطبخ الاساسية....هذا في الشقة، أمّا خارجها، فلقد يممنا شطر سوق السيارات، لنشتري سيارة جديدة صغيرة من نوع (شيفلChevelle) ، كنت حريصـًا على توفير ثمنها قبل السفر، ....ولم أكن في حاجة الى فحص قيادة، فلقد استبدلت بالرخصة السعودية رخصة اميركية، دون أي عناء

اتاحت لي اشهُر الصيف الفرصة للتعرف على الشوارع الرئيسية في المدينة، وكان اهمها ما يصلني بمستشفيات الجامعة، من مسكننا، فقاع البلد لا لزوم له في معظم الوقت، والتبضع لشراء حاجاتنا اليومية يتم في المتاجر الكبرى (المولاتmalls) ، وكلها في الضواحي وعلى مشارف المدينة، وهذه ظاهرة بارزة في معظم المدن الاميركية

وجاء الشتاء، وبرده القارس، وثلوجه التي لا ترحم....أفقتُ ذات صباح، كالمعتاد، وأطللت من شباك الشقة لاتفقد حال الجو، فوجدت الدنيا (بيضاء من غير سوء!) ، وتجهزت للخروج فلم اتبيّن سيارتي من بين السيارات المصطفة في الساحة الامامية، إلا بعد جهد جهيد، فرحت انفض عنها الثلج الكثيف، ما استغرق مني وقتـًا زائداً عما برمجت له نفسي للوصول الى المستشفى، واضطرني الى السير بسرعة تزيد عن الحد الاعلى المسموح به داخل الحي السكني، وكان ٢٥ ميلاً في الساعة، واذا برقيب السير ينتصب امامي (قدَراً) مفاجئـًا، ويتفحص رخصتي، بعد التوقف على يمين الشارع، ويخالفني على سرعتي التي زادت عن الحد الاعلى بعشرة أميال!! ولما أبديت عذري، وحاجتي الى السرعة الزائدة، كان جوابه: (ليست هذه مشكلتي) !! وكانت تلك مخالفتي الوحيدة طيلة ثلاث سنوات...

ربما كان سوء حظي، أو سوء برمجتي من القائمين على برنامج تدريب المقيمين الجدد، أن بدأتُ أيام تدريبي الاولى في (حضانة المرضىsick nursery) ، التي تعالج أصعب الحالات المرضية لدى المواليد الذين هم في الشهر الاول من العمر، وكلها حالات معقدة، لاعهد لي حتى بأبجدياتها، فتنظيم السوائل الوريدية، وكميات الاكسجين اللازم وسرعة اجهزة التنفس الاصطناعية، وضغط تنفسها، ....كل هذه أساسيات شبه روتينية، لضمان استمرار حياة الوليد، الى ان يستجيب الى العلاج الرئيسي لمشكلته الاساسية، التي تشكّل التحدي الاكبر!

ولو كان همّاً واحداً لاحتملتهُو ولكنه همٌّ وثانٍ وثالثُو

عانيت الكثير من الصداع الشديد، والارق، و...... (الامساك) ، في الشهر الاول، وكان ذلك بادياً في وجهي كلما عدت الى البيت بعد الخامسة من كل مساء..كان عليّ ان استعيد معلوماتي الاساسية، واضيف اليها الكثير مما لم اسمع به من قبْل، وان أضاعف جهدي في القراءة، والاستفسار، والفحوص السريرية المتكررة، والتعود على الارقام الطبيعية للفحوص المخبرية، والتردد على المختبر، وقسم الاشعة، كيلا تُفلت مني شاردة ولا واردة، بعد ان شعرت ب (ضآلتي) حيال بقية زملائي، إذ كانت كل هذه اموراً مألوفة لهم، وهم الذين لم يبتعدوا عن هذه العلوم والمعلومات، حيث انتقلوا مباشرة من كلية الطب الى التخصص، أما أنا، فقد حال بيني وبينها انقطاع ست سنوات، قضيتها اعالج اطفالاً، لا رُضّعاً، وفي عيادات خارجية، لاحالات مرضية تستوجب دخول المستشفى، ويتكفل بمعالجتها اختصاصيو قسم الاطفال في مركز الظهران الصحي، ووجدت نفسي نسيت الكثير مما كنت أعرف من اساسيات طب الاطفال، كما فاتني الكثير مما لم اكن اعرف، وتوصل اليه الاختصاص بحُكم التطور والتجديد، والاخذ بكل جديد!!

كانت إحدى الجولات الصباحية على المرضى، عندما سألني الدكتور (زيلويجر) – وكان رئيس قسم الاطفال في مستشفى الجامعة.

شقاء السنين (٩٥)

كان الدكتور (زيلويجر) أحد اساتذتنا في قسم الاطفال، في مستشفيات جامعة (أيَوا) ، سويسري المنشأ، يتكلم الانجليزية بلكنة تدل على ذلك، رغم طول مدة اقامته في الولايات المتحدة، وكان معنيّاً بالامراض والتشوهات الخَلْقية، أكثر من أي شيء آخر...ولقد علمت، فيما بعد، انه عمل رئيس قسم الاطفال في الجامعة الاميركية في بيروت، لبضع سنوات، في خمسينات القرن الماضي...كانت احدى جولاتنا الصباحية على المرضى مع الدكتور (هانش زيلويجر) ، وعندما توقفنا عند احد المرضى، وكنت انا المسؤول المباشر عنه، سأل عن نتيجة الصورة الشعاعية التي أُجريَت له في اليوم السابق، فأجبْتُ بأنّ تقرير طبيب الاشعة لم يصلْ بعدُ، فتوقف منفعلاً، ووجّه كلامه اليّ، قائلاً:هبيبي (يقصد -حبيبي-) وكان يعرف بعض المفردات العربية المحْكية، من خبرته في بيروت، كما كان يعرف خلفيتي العربية البيروتية-...ثم اكمل، بالانجليزية، طبعاً، ....نحن هنا لا ننتظر قدوم التقارير!نحن نملأ طلب التصوير بايدينا، ونضع المريض في الكرسي المتحرك، برفقة الممرضة، ونذهب به الى الطابق السابع من المستشفى، حيث قسم الاشعة، ونبقى مع المريض الى ان ينتهي تصويره، ثم نتدارس نتيجة التصوير مع اختصاصي الاشعة، قبل ان يكتب تقريره، ثم نعود به على كرسيه الى سريره، ونضع التعليمات المترتبة على نتيجة الصورة، للممرضات، في ملفّ المريض!!!

كان ذلك درساً ثانياً، تعلمته، في الاشهر الاولى من (.....غربتي!) ، يضاف الى التقيد الحرفي بقوانين السير في تلك البلاد، ...درساً طالما نوهتُ به، ونصحت به، كل الذين تدربوا على يديّ في مستشفيات عمان التعليمية...

كان طلاب كلية الطب، والمقيمون، عموماً، يصدرون مجلة متواضعة، تتناول شؤونهم الخاصة، مصحوبة بتعليقات على أفراد معينين، من الطلاب والاساتذة، والتعرض لبعض الشؤون الاجتماعية والعلاقات العامة، فلقد نشرت تلك المجلة (الدورية) ، تعزية موجهة

الى الطلاب العرب في الجامعة، بوفاة زعيم مصر، جمال عبد الناصر، الذي وافته المنيّة في الثلاثين من أيلول (الأسود) ، من عام ١٩٧٠، ولم يكن قد مضى على وصولنا تلك البلاد أكثر من ثلاثة أشهر.....وعلى ذكر (أيلول الاسود) ، فلقد شهدنا الحلقات الاخيرة من ذلك المسلسل الفاجعة، على شاشة التلفاز المحلي، وشاهدنا المنظر المؤلم لمجموعات من (الفدائيين) الفارّين باسلحتهم، من مرتفعات وغابات (جرش) ، يقطعون نهر الاردن، ويستسلمون لجنود العدو الاسرائيلي، في مشهد يملأ العيون بالدموع، والقلوب بالحزن على ما آلت اليه العلاقات بين ابناء الامة الواحدة ًوالوطن الواحد!!!

لم يتوقف إمداد الأهل بشيء من الدعم المالي الشهري، يصلهم في صيغة (شيك) ضمن رسالة شهرية، نطمئنهم بها، ونطمئن عنهم، وتوضّح كيفية توزيع حصصها على الجميع، الوالد والاخوة....فلقد وجدتُ في مخصصاتي من الجامعة سعةً من المال، لذلك الغرض، رغم تواضعه، كما عملنا، بشيء من الالتزام الضاغط، أن نوفر، على مدى بضعة أشهر، ما قيمته (٥٠٠) دينار، حولناها الى (وصفي السعدي) ، هي المبلغ الزائد على الالف دينار التي استبقاها مني، عند السفر، ثمن الارض التي اشتراها من احد (الكسوانيين)، في (رجم الخرابشة) أو (حي المدينة الرياضية) ، وسدّدنا بها دَينه، بعدما وصلنا منه (سند تسجيلها باسم زوجتي، كما اراد!) .....

كانت (اروى) قد التحقت بحضانة خاصة أقامتها إحدى ربات البيوت الاميركية، في منزلها، في الظهران، في السنتين الاخريين من إقامتنا في الشركة، ما جعل اللغة الانجليزية مألوفة اليها، بجانب العربية، وجعل التحاقها بالمدرسة الرسمية في (أيوا) أمراً عاديًا، فتمّ تسجيلها في مدرسة (Bishop school) ، مرحلة الروضة (kindergarten) ، مجانًا، ويتكفل باص المدرسة (الابتدائية) بنقلها ومثيلاتها في نفس الحي....وبعد مضي الاشهر الاولى من السنة الدراسية، واجهتنا مشكلة (إدارية) ، إذ كانت (اروى) تتذمر، يوميًا، من أنها تشعر بالملل، فهي تعرف كل هذا الذي يعلمونه لمرحلتها، منذ أيام الظهران، ما دفعني

الـى مراجعـة إدارة المدرسـة في هـذا الشـأن، فكلفـت معلمـاً متخصصـاً في (علـم النفسpsychologist) ، ليقيّم مستواها، ويرى إن كانت تستحق الترفيع الى الصف الاول، مبكراً، وتمّ التقييم وتمّ الترفيع!

أما (أنس) ، فقد الحقناه بحضانة قريبة من الحي، والمستشفى، يدعى (Melrose daycare center) ، يقضي فيها سحابة نهاره، من لحظة دوامي في المستشفى الى حين عودتي (أي من الثامنة حتى الخامسة) ...ما زلت اذكر كَم تألمتُ لبكائه المر، حين سلمته لرئيسة الحضانة، وهو يناديني محاولاً التخلص منها، لأعود به الى البيت، في أول أيام الحضانة!

وجاء دور الزوجة....فبعد تأمين (أنس) ، وكان عمره دون السنتين، أصبح لديها الوقت الكافي للاستفادة من وجودنا في جامعة عتيدة، من اكبر عشر جامعات على مستوى البلاد، فقررنا إلحاقها بها، بعد مقابلة مع المسؤولة عن قسم (تربية الطفل) ، للاطمئنان عن كفاءتها اللغوية....

وذات يوم، جاءني الدكتور باسم، ليعرض عليّ إمكانية عمل (....إضافي) ، هو عبارة عن تغطية مسائية لطوارئ أحد المستشفيات الخاصة، خارج المدينة، وفي مدينة (Cedar Rapids) ، الأكبر حجماً، تحديداً، عدداً محدوداً من الليالي، كل شهر، تبدأ من بعد الخامسة مساء (حيث ينتهي دوام الجامعة) ، وتنتهي صباح اليوم التالي، الذي تعود فيه لمباشرة واجبك التخصصي في قسم الأطفال، مقابل مبلغ خمسة وتسعين دولارا لليلة، ولا يلزم لاعتماد أمثالي، غير المعلومات الرسمية التي بدأتُ تخصصي على أساسها!...وذكر لي، يومئذٍ، أنه هو يمارس الأمر ذاته، وكذلك شاب (أرمني) ، من معارفه، وأحد المقيمين في الامراض الباطنية، ....

راقت لي الفكرة، سيما ان العمل شبه قانوني، ومُجزئ، في نفس الوقت، فمخصصاتنا الشهرية كاملة تقل عن ٧٠٠ دولار، ....كان هناك في تلك المدينة التي تبعد عن مدينة

(أيوا)، حوالي ٢٥ ميلاً (وهذا هو المقياس المعتمد للطرق في الولايات المتحدة، بدلاً من الكيلومترات) ، يقطعها السائق المعتدل في ربع ساعة، ليصل الى أحد مستشفيين خصوصيين، مدعومين من الكنائس، وتبرعات الناس،

شقاء السنين (٩٦)

لم اصمد كثيراً أمام إغراء العمل الاضافي في احد المستشفيين المذكورين في مدينة (cedar rapids) ، بضع ليالٍ في الشهر...كنت أغادر مستشفى الجامعة، في ايام الدوام الحرة (الخالية من المناوبات الليلية) ، بعد الخامسة مساءً، متوجهًا الى العمل الاضافي، مباشرةً، لأعود صباح اليوم التالي، وأكون على رأس عملي في قسم الاطفال!....لا أدري لمذا كانوا يسمون هذا النوع من العمل الاضافي (إضاءة القمر) moon lighting، ربما لأنه عمل ليلي، مثلما أن ظهور القمر ليليّ كذلك...ولقد لمستُ مظاهر البذخ التي تتمتع بها المستشفيات (الدينية) الخاصة، في تلك البلاد، بسبب التبرعات السخية التي تجود بها المؤسسات الاقتصادية، والأفراد، لهكذا مستشفيات، سخاءً يوازي تبرعاتها للجامعات الخاصة (وغير الخاصة) ، أي في سبيل الصحة والتعليم، ومن مشاهير أثريائها، وبشكل لافت باهر، ....فأين نحن منهم؟ وأين أثرياؤنا من أثريائهم؟ ؟ ....كل شيءمتوفر في تلك المستشفيات، من أجهزة ومعدات، وعلاجات، وتَحار خلال سهرة مناوبتك، كيف تملأ فراغك بين المرضى، أيّ المعجنات تختار وأيّ العصائر، بالإضافة الى القهوة، طول الليل، ما كنا نفتقده في مناوباتنا في الجامعة الحكومية (جامعة الولاية) !.....

كانت تجربتنا في أول شتاء قاسيةً جداً، ففي إحدى الليالي جاء هطول الثلج كثيفًا، مصحوبًا ببرد شديد تتحوّل معه شعرات الانف الى ما يشبه الإبَر، بعدما تتغلّف ببخار النفَس المتجمد!...لم أتبين سيارتي في الصباح، من بين السيارات الاخرى في الموقف المشترك لسكان الحي، فهاتفت المقيمة المسؤولة عني، طالبًا إرسال سيارة (إسعاف) تأخذني الى قسم الاطفال، الذي يبعد عن مسكننا قرابة عشرة أميال، شارحًا وضعي ووضع سيارتي المغمورة، و (زميلاتها) تحت الثلوج!....كنت ما زلت مسكونًا بالتسهيلات التي كانت تقدمها (شركة ارامكو) ، بلا تردد، في وضع مشابه، اذا اقتضى الامر.......فلم تجد (سامحها الله) إلا عبارة واحدة، تلبي بها طلبي: (حاول أن تجيء ماشيًا!!!) ....هكذا هي

عقليتهم هناك...أشداء على انفسهم في العمل، شدةً تمحو كل ما كنت احمله عنهم من افكار تلمّح الى نعومتهم وترفهم واسترخائهم...كنت لمست ذلك إبّان عملي بينهم ولديهم في شركة (أرامكو)، هناك في الظهران السعودية، وتأكد لي ذلك بشكل واضح طيلة وجودي في الولايات المتحدة!

كنت ما زلت في الأشهر الأولى من برنامج الاقامة (التخصص)، مناوبًا أوّل، بعد انتهاء الدوام، حينما هاتفني الدكتورDurnin، اختصاصي قلب/ اطفال، واحد اساتذتنا في القسم، ليطلب مني ان أُحيل مناوبتي الى الدكتور (Kussiff)، الأعلى مني بسنة، وأجهّز نفسي للإقلاع، جواً، الى احدى مدن الولاية، على الحدود الغربية المحاذية لولاية (Nebraska)، مزَوّداً بأسطوانة اوكسجين، وبضعة محاقن (سيرنجات)، وعبوات من مادة بايكربونات الصوديوم الوريدية، بالاضافة الى (السماعة)، .....لإسعاف، ثم إحضار رضيع، مولود للتوّ، مزرقّ اللون، في مستشفى القديس يوسفSt Joseph، إذْ اتصلت به الراهبة المشرفة على التمريض، وأشعرت الدكتورDurnin، بناءً على اختصاصه، أنّ إصابة المولود قلبية، !!

كانت الساعةقرابة العاشرة، حينما أقلعت بنا طائرة في شكل الجرَس، لا تتسع لأكثر من راكب مقعده الى جانب الطيار، وبعض الفراغ خلفنا، أودعت فيه أسطوانة الاوكسجين، وتوابع الاسعاف!

حلقت بنا الطائرة على ارتفاع متوسط، في ظلام الليل، وكان ذلك أول (وآخر) عهدي بالجلوس في (قمرة) طائرة، تجعلك تُطلّ من مقعدك على فضاء الله الواسع، لترى من آياته الكبرى، ...هذا إذا لم تكن تعاني، مثلي، من خوف الأعماق phobia !!....لم اكن في الطائرة في وضعٍ أُحسد عليه، فأنا حديث عهدٍ بأمراض المواليد، فكيف بإسعاف طفل مصاب في قلبه، والإشراف عليه في طائرة، الى أن يتولى قسم القلب امره في مستشفيات الجامعة؟ ...استخرتُ الله في أمري، وتوكلت عليه، وانا اراجع في ذهني كيفية إسعاف الطفل الذي ينتظرنا، على مدى ساعتين (جوّيتين) !...كان ذلك في اواخر تشرين، وقد أخذ الشتاء

يومئ ببرده، وبرد الليل أقسى، وأقسى منه برد الفضاء، في طائرة لا تملك التكييف الكافي، يومئذٍ، ...غير أني شُغلتُ عن كل تلك الأحاسيس بـهَمّ الإسعاف الذي سيكون تجربتي الاولى في اختصاصي، في ظروف استثنائية، بكل المقاييس!

حطت الطائرة على شريحة من الارض مُعَدَّة لاستقبال مثيلاتها، قريباً من المستشفى، وهممت بالنزول، وأنا أكاد (أسمع) خفقان قلبي أنا، ...ثم توجهت نحو المستشفى، حاملاً (عدتي) ، من اسطوانة الاكسجين وتوابعها، لألتقي بسيارة اسعاف المستشفى بعد دقائق، تحمل المولود المريض، في حمالة تجلس الى جانبها راهبة وفي يدها منفاخ تكمّم به وجهه، وتنفخ بلا توقّف....وضعت عدتي جانباً ورفعت المنفاخ عن وجه المولود الشديد الزرقة، ووضعت سماعتي العتيدة على صدره حيث يكون القلب، فلم أسمع له دقّاً، ثم انتقلت الى الجانب الايمن من صدره، لعله هناك، بحُكم التشويه المحتمل، فلم أعثر على نبض يذكر، ثم القيت على وجهه شعاعاً من النور لأجد بؤبؤه متوسعاً لا يستجيب، فعلمت أن الطفل قد توفي منذ فترة، وهم لا يعلمون!....تنفستُ الصعداء، وأعلنت الوفاة، وحمدت الله (من أعماق اعماقي) على ما قضى، فكان أول حمدٍ على وفاة مريض!!...عادت الراهبة بالمتوفى، وعدتُ بصحبة طياري من حيث أتيت، بعد منتصف الليل بقليل...كانت ليلةً (نابغية) حقاً، ارهقتني وعززت إيماني بأن الله يختار لك ما يريحك، من حيث لا تحتسب!

وبلغت رئيسي حصيلة رحلتي، واستأنفت مناوبتي، ولسان حالي:

لقد طوّفْتُ في الآفاق حتى

رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ!!!

لم تكن فترة التخصص خالية من الأُنْس الاجتماعي، فلقد سبقني بسنة، بالإضافة الى الدكتور باسم الدجاني، المرحوم الدكتور ظافر الكيالي، وكان زميلاً في قسم الاطفال، ووجدنا السيدة حياة الدجاني، التي كانت تعمل ممرضة في قسم الاطفال في مستشفى

الجامعة الاميركية في بيروت، ربة أسرة تقيم مع زوجها الدكتور كبير يونس زاي، الافغاني الاصل، الذي تعرفت اليه في فترة دراسته في كلية الطب هناك، قبل ان يلتحق بجامعة (أيَوا) ، ويصبح عضواً في الهيأة التدريسية في قسم الاطفال، فيما بعد، ومنذ بضع سنين...

شقاء السنين (٩٧)

لم تكن فترة التخصص خالية من الأنس الاجتماعي، فبالاضافة الى اسرة الدكتور باسم الدجاني، وجوارهم الملاصق، كان المرحوم الدكتور ظافر الكيالي قد التحق بقسم الاطفال في أيَوا، قبلي بسنة، وأصبح ذا اسرة بعد زواجه من (بانه الطاهر) ، وعلى الرغم من ندرة تعامل عائلتينا، إلا أننا دعوناهم الى ذات غداء، تكريماً لحماته التي زارتهم، يومئذٍ، قادمة من عمان، من (المسخّن) ، في بيتنا، صنعته زوجتي، ونال إعجاب الجميع، غير اننا لم نلتقِ بعد ذلك (ولا حتى بعد عودة كلتا الأسرتين الى عمان، في أوائل سبعينات القرن الماضي) !

ولم يلبث أن التحق الدكتور جميل عبد اللطيف فايز بقسم (النسائية) من ؟ ، لمزيد من التخصص، وسكن في الحي الثاني المُعَد لطلاب ومقيمي الجامعة، وتعرفنا على زوجته (حنان) ، كما تعرفت زوجتي عليه، أما كلانا، فمعرفتنا تعود الى عهد الثانوية الفاضلية، وتزاورنا، لِماماً.

ثم التحق، فيما بعد، وفي قسم أمراض القلب من الأمراض الداخلية، الصديق القديم الدكتور ساكب مصلح النجار، الذي عرفناه على زوجة المستقبل، في الكويت، إبّانَ عملنا في الظهران، وتزاورنا طيلة وجودنا في أيوا.

وتعرفنا، فترة وجودنا في التخصص، بالسيدة (حياة الدجاني) وزوجها الدكتور (كبير يونس زاي) ، أفغاني الاصل، الذي تعرفَت اليه، يوم كانت ممرضة في قسم الاطفال، في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت، وكان هو طالباً في كلية الطب، تعرّفاً انتهى بالزواج، ثم التخصص في فرع الامراض الهضمية من اختصاص الاطفال، .في جامعة أيوا..وتزاورت عائلتانا بعض الشيء، تزاوراً أدى الى تعرفنا، بل التقائنا، في بيتهم، ذاتَ غداء، مع أسرة الدكتور الافغاني ؟ وزيري، وكانت زوجته ماري، مقيمة في قسم الاطفال، بعد قدومهما من ولاية (ألاباما) ......

لا يكفي في فصل الشتاء أن تكون سيارتك جديدة، خالية من العيوب، لكي تتجنب مشاكل القيادة في ....الثلج، ألا وهما التغريز والانزلاق، لذلك، وبتوجيه ومساعدة من الأخ الدكتور باسم الدجاني، الأقدم والأخبر بسنَة، !قمنا بتطويق عجلات السيارة بجنازير خصوصية، لمنع الانزلاق، ثم قفّينا عليها، فيما بعد، بزراعة (مسامير) محددة المواصفات، في أُطُر العجلات، لتثبيت سيرها على الطرق، ... (وإن كان من سيئاتها إيذاء سطح الشارع، وإتلاف الطبقة العليا، إتلافًا يقود الى نشوء الحفَر والمطبات!) ....وعلى الرغم من كل تلك الاحتياطات، فلا بد من السير بحذر شديد، للمبتدئين، امثالي،، كالذي يتعامل مع (حقل ألغام) ...

توزعنا، نحن الذين غادرنا شركة (ارامكو) للتخصص في الولايات المتحدة، في ولايات مختلفة، فاستقر (راجح صباح) في جامعة (كولمبيا) ، بولاية (ميزوري) ، تخصص اطفال، واستقر (ابراهيم ناصر) في (شيكاغو) ، تخصص باطنية، في Cook county hospitals، و حسين رشيد، في مدينة روشسترRochester، من اعمال ولاية نيويورك، تخصص جراحة مسالك بولية.....كان من حسنات هذا التوزيع، أنْ منحنا فرصة التزاور، الذي كان، في حقيقته، شكلاً من أشكال السياحة الداخلية، مجاني الإقامة!! وهكذا كان، فكانت نهاية الأسبوع تكفي لنزور عائلة (ابراهيم ناصر) في شيكاغو، ويزورونا، عدة مرات، في السنة، في رحلات تستغرق من ٣-٤ ساعات، بالسيارة، ..على أنغام (زي الهوى يا حبيبي) وصوت عبد الحليم حافظ الشجي، والمُطَعّم ببَحّةٍ محبّبة .ومثل ذلك فعلنا مع (راجح صباح) ، في مدينة (كولمبيا) ، أمّا، حسين رشيد، ونظراً لبُعد الشقة، فقد خصصنا لزيارتهم أسبوعًا، بالسفر البري، الممتع والمتعب في آن!...ولقد تمتعنا في زيارته بلذيذ الطبخ المنكّه بالكري، من يدي زوجته الهندية، وبلذيذ الشواء على شاطئ (الألف جزيرة) ، ...وأتبعناها بزيارة للجانب الاميركي من شلالات (نياجارا) ذات المناظر ....المذهلة!!كل ذلك، على أنغام (القلب يعشق كل جميل) ، عن مناسك الحج، بصوت ام كلثوم الذي لا يضاهى.

إبّانَ مرحلة التخصص، التحق الأخ (احمد السعدي)، بعد ما فقد زوجته، بالجامعة، في مدينة (دالاس)، ولاية (تكساس)، للحصول على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال، كما انتُدب، (كامل عمر) من شركة ارامكو، للعمل لدى شركات النفط الأمّ، في مدينة (هيوستن)، بولاية تكساس، على خليج المكسيك، ولقد شجعَنا وجود الاثنين على القيام برحلة الى (جبال روكيRocky)، بسيارتنا، وصحبة اروى و انس، وما أنسَ لا أنسَ تلك العاصفة الثلجية التي داهمتنا في تلك القمم، وكيف اننا نجونا من عواقبها، بتوفيق الله وعونه، وإن تخللت الرحلة سيراً على جسر نهر (كانساKansas ()) الطويل، وملاعبة اروى وانس للسناجب (جمع سنجاب) -وما أكثرها في تلك البلاد!-، وتقديم العلف لها كي تقترب منهما.

كما شجعَنا على زيارة كامل في مسكنه في مدينة هيوستن، لمدة أسبوع، زرنا أثناءه مدينة الملاهي المقامة على غرار مثيلتها في كاليفورنيا، والمشهورة باسم عالم ديزنيDisney، المذهلة، ووكالة ناساNASA لجَوْب الفضاء!....وتذوّق طعم المأكولات البحرية المكثفة، في احد مطاعم المدينة، تحت الارض، على غداء لم تَرُقْ لي نكهته، فانا لست (بحري) التوجّة!!

كنا، قبيل نشاطاتنا (السياحية ؟)، قد أعددنا العدة الكاملة، لحسن الحظ، ل (توثيق) -محاضر-تلك الرحلات، بشراء كاميرا للتصوير المتحركmovie، مزودة بأشرطة (بَكَراتية)، كلما امتلأ شريط أثبتنا شريطاً غيره، الى ان اجتمع لدينا عشرات الأشرطة، على مدى سنين (قامت شركة ألمانية، في الآونة الاخيرة من وجودنا في عمان، في ألمانيا، بتحويلها الى أقراص مدَمّجة، لتواكب التطور التكنولوجي)، ...وكان عيب الكاميرا المذكورة انها (صامتة!)، ...وعندما واجهتنا الحاجة الى عرْض بعض الصور، وجدنا ضالّتنا لدى الأستاذة الدكتورة (لندا ريمسLinda Rames)، استاذة أمراض الكلى، في قسم الاطفال، باستعارة جهاز العرض...والشاشة! كلما عنّ لنا ذلك!!

شقاء السنين (٩٨)

كانت الحرب الفيتنامية ما زالت مستعرةً في بدايات سبعينات القرن الماضي، بين ابناء البلد الواحد، الذي جعلته السياسة الدولية بلدين، شماليًا، تدعمه القوى الشيوعية، الصين والاتحاد السوفييتي، بشكل غير مباشر، ...وجنوبيًا، تدعمه الولايات المتحدة، بشكل مباشر، شاركت فيه بجيشها وأسلحتها، حدّ الإرهاق !وكانت الإدارة الاميركية، يومئذٍ، قد عززت جيشها بجيش آخر من الأطباء، لرعايته الطبية، ما ادى الى نقص حاد في أعداد الأطباء في الداخل، لم يتحسن الا بعد ان وضعت تلك الحرب أوزارها، عام ١٩٧٤، بقرار من (ريتشارد نكسون) رئيس الولايات المتحدة آنئذٍ....

وانطلاقًا من تلك المعلومات، نُمِيَ إلينا ان الفرصة سانحة، بل، ومرحّبٌ بها، أن تتقدم، كطبيب، للحصول على (إقامة دائمة) في الولايات المتحدة، أو ما يسمونه البطاقة الخضراءGreen card ..كما تغلفت تلك المعلومات بالمزايا التي تتحقق بالحصول على تلك البطاقة، من حرية العمل، بل، وإيجاد العمل لمن يطلب، وحرية التنقل والسفر ودخول الولايات المتحدة، والخروج منها....إلى آخره.

ولم يتردد المصدر ذاته في تزويدي بالمعلومات الكافية، لتقديم طلب الإقامة، كما لم أتردد في الكتابة الى مكتب الهجرة والتجنيس، المرجع لولاية أيوا، في مدينة (اوماهاOmaha) ، بولاية (نبراسكاNebraska) ، على الحدود الغربية.

وفي اقلّ من بضعة أسابيع، جاءني الرد مرحِّبًا، مصحوبًا بالأوراق اللازمة، وتعليمات الخطوات الرسمية، من فحص طبي، وصوَر شخصية، بمواصفات محددة، لجميع أفراد الاسرة، ...

كان ذلك في السنة الثانية من وجودنا في الولايات المتحدة، عندما كنت أقود سيارة الشفيل (Chevelle) ، متوجهًا الى مدينة اوماها المذكورة، مصحوبًا بالزوجة والأولاد،

وكافة الوثائق اللازمة، لتسليمها الى مكتب الهجرة، والحَلِف بصحة محتوياتها، ...وعدنا من حيث اتينا، لتصلنا البطاقات الخضراء الأربع، بالبريد العادي، في صندوقه المثبت عند مدخل مجمّع السكن الجامعي، بعد عودتنا بأسبوعين !!.....وكان أبرز ما في تلك البطاقات، انها لم تحمل تاريخ انتهاء صلاحية!

كادت تبكي، على الهاتف، وهي تخبرني ان طفلتها الرضيعة، لم تتوقف عن البكاء المرّ، المتواصل، بكاءً غير ما اعتادت عليه في نوبات (مغص الرضيع) في أشهُر المولود الاولى ...كان والدها، د ظافر، مناوبـًا ذاك المساء، فسارعْتُ الى مسكنهم البعيد عن احياء الجامعة، فوجدت الطفلة (موجوعة) ، لا يخفف من بكائها حمْلُها، ولا أيّ تغيير في وضعها الجسدي، كما يُتَوقّع في حالات مغص الرضيع المألوفة..جرّدتُ الطفلة من ملابسها الاساسية، وفحصت كل شيء، وخصوصـًا أذنيها، فكثيراً ما يكون التهاب الأذن الوسطى سببـًا لذاك النوع من البكاء..ولم أظفَر بطائل!...وشعرت بالحرج أمام الأم، فكلانا لا يدري ماذا يفعل..ثم أعدتُ الفحص العام، مرة اخرى، بعدما جردت الطفلة من (كل ملابسها) ، بما في ذلك...الجوارب، لأُفاجأ بإحدى أصابع القدمين وقد التفت حولها (شعرة) ، حولت لونها الى زرقةٍ مُسْودّة، بعدما حبست عنها الدورة الدموية! لتصبح قاب قوسين او ادنى، من الغنغرينا (gangrene) !...عندها، صفعت جبيني مذهولاً، ورحت أفُكّ الشعرة لفة لفةً، حتى اذا ما سللتها عن تلك الإصبع، توقفت الطفلة، فوراً، عن البكاء، كما لو أغلقْتَ مذياعـًا!!!واستعادت الإصبع لونها الطبيعي تدريجيـًا...

في مرحلة تخصصي، وأثناء وجوده في أيوا، رُزق الدكتور ساكب النجار بأول أولاده، وفي لقائنا له ومباركتنا بالمولود الجديد، سألته عن الاسم الذي منحه له، فقال:لؤيّ...فقلت له، مداعبـًا، :كيف تكتبه بالإنجليزية، وبالعربية يحار كثيرون أين يضعون الهمزة؟ ثم كيف يناديه القوم هنا (او يلفظون اسمه) ؟ ...وعلى الرغم من اصراره على الاسم، وقبوله لتعليقي، بحكم الصداقة الحميمة، إلا أنه (أسَرَّها في نفسه) ، ليمنح ابنه الثاني اسم (سامي)!!

في نظام المناوبة الليلية يبيت الأطباء المقيمون في سُرُرٍ مزدوجة عموديًا، لتوفير مساحة اكثر، في الطوابق التحت ارضية، في المستشفى، المُعَدّة لهذا الهدف، بحيث يشترك طبيبان مقيمان في سرير مزدوج، يكون فيه الطابق الأقرب الى الارض من نصيب مقيم السنة الاولى، الذي يتلقى النداء الاول، من الطوارئ او الأجنحة، لتسهيل وسرعة النزول.....تكررت، في السنة الثانية مشاركتي في المناوبات الليلية مع مقيم السنة الاولى (Bruce Barter) ، الشاب مُشْقَرّ البشرة، الأقرب الى دمامة الملامح، أشعث الشعر، باستمرار، المصاب بحساسية أنفية، توحي الى مخاطِبه بالزكام المتواصل المزمن!!....وفي احد ايام الدوام الصباحي، افتقدْته، فسألت أقرانه عنه، فتناظروا، وعَلت شفاههم ابتسامات غير بريئة، قائلين:هو في اجازة دينية ليومين،، وعندما استقصيت أكثر، أخبروني انه.....يهودي!...عندها عرفت سر ابتسامتهم، فقد كانوا يعرفون (جذوري) من نقاشات ومجادلات مكرورة في قسم الاطفال، حول القضية الفلسطينية، إياها...المهم أن (Bruce) لم يتصرف أي تصرف في الدائرة، يلفتني الى مجرّد الشك في دينه او موقفه (، هذا اذا كان له موقف،) ، رغم مناوباتنا الليلية المشتركة، بل دفعته ثقته بي، أن عرض علي ابنه الاول، من زوجته ال....يهودية، لِشُبهة تشويه خَلقي فيه....!

في ظهيرة كل أربعاء، درجت إدارة قسم الاطفال على إقامة اجتماع متميز، سمّته (جولة كبرىgrand round) ، تُعرض فيه حالة مرضية، طريفة، يدعى الى حضوره، كبار الاختصاصيين، من القسم، ومن خارجه، اذا كان لاختصاصات اخرى فيها حصة، حسب طبيعة المرض، ..يعمل مقيم السنة الثانية على البحث عن الحالة وانتقائها، والإعداد التام، ودعوة الاختصاصيين المعنيين بها للحضور للمشاركة في الشرح والتوضيح والنقاش، ليتعلم من الحالة كل من يحضر، أيّـًا كان اختصاصه، العام او الفرعي....او مستواه، من ممرضات القسم الى المقيمين...

شقاء السنين (٩٩)

طُوِيت السنة الاولى من الإقامة، وكان سجلّي فيها حافزاً لدى الإدارة، لافتتاح السنة الثانية بتكليفي ب (الاجتماع الكبيرGrand round) ، الذي يعقد في القاعة العامة، ظهر الأربعاء من كل أسبوع، فعقدْتُ النية أن أجعله أشبه ما يكون ب (سوق عكاظ) !، رغبة في التغيير، والتشويق، وابتعاداً عن الرتابة التي استحوذت على كثير من الاجتماعات السابقة، وتركت للنعاس حصة كبيرة في عيون معظم الحضور!

وقررتُ أن أبدأ الاجتماع الاول بحالة مَرَضية نادرة، ومثيرة للانتباه، والاهتمام، و.....التحدّي، فالقصيدة بمَطلَعها، كما يقولون.....كانت الحالة المرضية، طفلاً أُصيب بانسداد الوريد البابي (portal vein) ، بسبب تجلّط الدم فيه، والذين في المهنة يعرفون حقيقة ما ذكرتُ، من طرافة الحالة وصعوبة تشخيصها.!......درست الحالة دراسة وافية، معززة بالمراجع والإحصائيات، ثم عرضتها على الجمهور، وكتمتُ التشخيص، وكنت دعوت الى المشاركة كل طبيب ذي اختصاص فرعي في طب الاطفال، جراحًا كان أو غير جراح، ليدلي بدلوه، في محاولة للوصول الى التشخيص، وحضّرت الأسئلة التي تناسب كل اختصاصي، ورحت أتنقل بين الممرات، حاملاً مُكبّر الصوت (المايكروفون) ، ذي السلك الكهربائي الطويل بِطول القاعة (إذ لم تكن المكبرات العاملة بالبطارية، بلا أسلاك، متوفرة آنئذٍ) ، ليتمكن كل من المشاركين، من التعليق، وهو في مقعده....حتى اذا ما استنفدت الجلسة مشاركة كل من دُعي، او حضر، من خارج القسم او داخله، عُدْتُ الى المنصّة، والى ملف الحالة، والى ملفي حول هكذا حالة، وسردت وقائع دراسة الحالة، من تحاليل مخبرية، وأشعة سينية (لم نكن نعرف التصوير الطبقي ولا الرنين المغناطيسي، يومئذٍ) ، واستشارات طبية حولها، لأكشف، في النهاية، عن التشخيص، ثم أُردِف كل ذلك بما لملمته من السجلات الطبية العالمية، والفهرس الطبي (Index medicos) ، عن حالات

مشابهة، لأنهي ساعة الجلسة، بشكر الحضور، والتنويه بذكر الذين شاركوا في النقاش، من ذوي الاختصاصات الفرعية!!!

ظل ذلك ديدني، طيلة الأشهر الستة الاولى، من السنة الثانية، وهي الفترة المخصصة لدوري التعليمي، حسب برنامج الإدارة، وآن الأوان لنقْل المهمة الى زميل آخر...وفي الأسبوع الاول من نصف السنة الثاني، استدعاني الدكتورGauchat (، ولا يلفظ الحرف الأخير من اسمه، إشارة الى؟ جذور فرنسية) ،، المسؤول عن برنامج التخصص في الدائرة، لينقل إليّ شكر الدائرة على أدائي، ورغبتها في أن أستمر في برنامجي، لفترة مشابهة، فلم أتردد في القبول وشكرته وشكرت الدائرة على تلك الثقة، والمهمة التي أولتني إياها، آملاً أن أبقى عند حسن ظن الجميع!

كانت السنة الثانية (والأخيرة) من التخصص، حافلة بالمسؤوليات، والتحديات الطبية، وجاءت المهمة الجديدة، فكانت (ضغْثّاً على إبّالة) ، كما يقولون، فلقد حرصت ان احافظ على مستوى الحالات المعروضة، وعلى نصيبي من المساهمة في العرض والمشاركة، ما وسّع آفاق اختصاصي، بحكم التحضير المستمر، لكل حالة، دون شريك او بديل، تشهد على ذلك الطوابق الستة من مكتبة المستشفى الطبية، وغبار بعض رفوفها المهجورة، في زياراتي المتكررة، بحثاً عن مراجع تسعفني في الحالات المنتقاة من أقسام التخصص، ولعل من الطرافة ان اذكر، انني عثرت، بالصدفة، على نسخة من مجلة طبية لبنانية، بالعربية، تعود الى اواخر القرن التاسع عشر! فوق احد الرفوف..

كان وراء كل تلك الجهود الإضافية، عدة دوافع، أوّلها، قِصَر مدة التخصص، فقد كانت، يومئذٍ، سنتين، فقط، وهي اليوم اربع سنوات، وثانيها انقطاعي عن ممارسة الطب الأكاديمي الذي يتعامل مع المرضى في المستشفيات، حيث التحدي الطبي الحقيقي، ستّ سنوات، لم يكن المناخ العلمي في ارامكو ليُغْني عنه، وخصوصاً ما تعلّق بطب الاطفال، ....وعاملٌ آخر، وجدته في غاية الأهمية، إذ لم يكن دارجاً، ولا وارداً في خاطري، سنة

الامتياز التي قضيتها، جَبْراً، في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت، ....وهو حرية اختيار قضاء تلك السنة (الامتياز) ، كلها، او اي جزء منها، في القسم من المستشفى، الذي تنوي التخصص فيه في المستقبل، بدلاً من نظام الدوران (rotation) على كافة التخصصات الاساسية الأربعة، الذي كان معمولاً به، في العالم العربي، وفي الجامعة الاميركية في بيروت، حيث كان نصيب قسم الاطفال من تلك السنة، شهرين فقط!! ...لقد لمستُ أهمية ذلك، عندما وجدت زملائي الأميركان، وكلّهم قضوا سنة الامتياز كلها في قسم الاطفال،، مألوفـًا لديهم معظم الروتين اليومي في الأقسام، يمارسونه بلا توتّر، كالذي كان ينتابني في السنة الاولى، ...!ولقد كانت الدائرة على علم بذلك، فسنوات التخصص، بالتدريب المبرمج، فيها، ثلاثة مستويات (Levels) ، ويتخرجون من الدائرة بعد انقضاء السنة الثالثة (3 L) ، وأتخرج انا، في نهاية السنة الثانية...وكلنا يصبح مؤهلاً للجلوس الى فحص (البورد الاميركي) في طب الاطفال، بعد منْحه شهادة تدريبه المبرمج من جامعته.

لم يكن امتحان المجلس الطبي الاميركي (American Board) ، إجباريـًا، على أهميته المعنوية والعملية، فلقد كان الحصول على شهادة الجامعة بالنجاح في فترة التدريب المبرمج، كافيـًا لاعتبارك اختصاصيا، يستطيع ممارسة المهنة في ولايته، لكن الحصول على شهادة المجلس (وهو يمثل كل الولايات المتحدة الاميركية) ، يميزك عن غيرك، في السوق كما في الوظيفة، فأصبح الحصول على شهادته، مطلبـًا عامّـًا، مفروغـًا منه، على المستوى الوطني، وحتميـًا، أو شبه حتمي، لدى الأطباء الأجانب.....

كان النجاح حليفي في امتحان (البورد-المجلس) ، الذي عُقد في حزيران من عام ١٩٧٢ ، وكانت اعلى علاماتي في فرع المواليد، لشدة تركيزي عليه في الدراسة، شعوراً مني ببعده الشديد عن ممارستي منذ تخرجت في الجامعة!...كان ذلك نجاحـًا في الجزء الكتابي من (البورد) ، ويبقى الامتحان الشفهي العملي، لمن نجح في الجزء الكتابي، وتمنح الشهادة بعد النجاح في الجزأين، وبعد النجاح في الجزء الكتابي بسنتين، في جميع الحالات.

كان النظام السائد في الولايات المتحدة، ان لا يجلس لامتحان (المجلس) الشفهي، الا من نجح في الكتابي، ومضى على نجاحه سنتان، على الأقلّ، قضاهما في ممارسة التخصص....يستثنى من ذلك الأجانب، إذ يحق لهم تقديم الشفهي في أي موعد، بعد النجاح في الكتابي، بالتنسيق مع (هيأة المجلس) ، كيلا يُضطروا الى العودة من بلادهم لتقديمه بعد سنتين.

شقاء السنين (١٠٠)

كنا في اجتماع نهاية العمل اليومي، عند الخامسة مساء، ليُسلِّم كل مقيم للمقيمين المناوبين، ما لديه من مسؤوليات وتوقعات حول مرضاه، وإن كان الجميع مسؤولاً عن جميع المرضى، عند الضرورة...كان ذلك بحضور الدكتور (الحربوق) ! -أندريه لسكاري -طبيب أمراض الدم-، عندما عرض احدنا معلومات حول مريض له، في قسم المواليد، مصاب باليرقان، وكان منسوبه في الدم عاليـًا، بحيث يتطلب (تبديل دمه بدم آخر) ، في إجراء تفصيلي، يعرفه أطباء الاطفال، إذا جاءت النتيجة مرتفعة مثل سابقتها، في فحص المساء، وإلا عُلِّق الإجراء المذكور الى اليوم التالي...

هنا تدخل استاذنا، طبيب الدم، وبلهجة ساخرة، قائلاً:لماذا تعتمدون النتيجة الصغرى، ولا تصدقون الكبرى، وهو نفس المختبر، وكأنه أراد ان يقول (وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم) ، رغبة في إلغاء ذلك الإجراء المُطَوَّل، في مناوبة ليلية قد تكون ملآى بالطوارئ والمفاجآت! ....

ما زال ذلك التعليق (الاحتجاجي) يرافقني، بل يشخص امامي، كلما واجهتُ مشكلة مرضية مشابهة، منذ ذلك المساء...لماذا نميل الى التبسيط في أمور طبية مصيرية، تكثر من حولها الشكوك، والشواهد السريرية والمخبرية والشعاعية، رغبة في (تطمين المريض او أهله) ، وتجنبـًا لمواجهة صحية تفرض علينا نفسها، في نهاية المطاف، عندما يصبح كل شيء اكثر تعقيداً، وأصعب تلافيـًا، و....ميؤوسـًا منه!! هذا لا يعني المسارعة الى إبلاغ الخبر السيّء، قبل التحقق من صحته، فذلك تصرّف سيّء، لكن الأسوأ منه، التطمين المتسرع، قبل الوقوف على كل التفاصيل، فلدينا في العربية، كمٌّ هائل من العبارات المهدئة، ما يسمح لنا بتأجيل الموقف، أطول مدة ممكنة..

وفي احدى الجولات الصباحيةعلى المرضى، وبرفقة الدكتور (لسكاري) ، الحربوق، إياه!، وكان احدنا يعرض علينا نتائج مخبرية لاحد مرضاه، سأله الدكتور الأستاذ عن ماذا

سيفعل، وأي الفحوص المخبرية سوف يضيف، لاستكمال الصورة السريرية لتشخيص حالة مريضه، فنثر له زميلنا المقيم فحوصاً عدة، اعترض الأستاذ على بعضها، أنْ لا لزوم لها، فكان ردّ الزميل أنّ المريض مؤمَّن طبياً، أي أن تكلفة ذلك عائدة الى شركة التأمين ....فثارت ثائرة الأستاذ، وصاح بالزميل المقيم: ماذا تعني؟ . في نهاية الأمر، هناك من سوف يدفع تكلفة فحص لا لزوم له، كائناً من كان !!

ولقد حملت معي تلك العبارة، منذئذٍ، لأرددها على مسامع الأطباء المقيمين، كلما جاءت مناسبة مشابهة ...وكنت قد تعلمت، أيام العمل الحزبي، أن لا أُنفق على ما لا لزوم له، أو محدود الفائدة، مهما قلّت كلفته، وأن لا أبخل بالغالي والنفيس على أمْرٍ يستحق أن يُنَفّذ...كما علّمتُ ذلك المبدأ لأولادي، ووعظتهم به....

على الرغم من حصولي وعائلتي على الإقامة الدائمة، كما ورد سابقاً، إلا أنني تصرفتُ تصرّف الراحل العائد الى (الوطن) ، طال الزمن أم قصُر، ولقد تلبّسني شعور غريب، هو الحنين الى صوت (الأذان) !!!....فكتبتُ الى (المجلس الطبيAmerican board) ، مستفيداً من (غُربتي) ، راجياً تحديد موعد لي للجلوس الى الجزء الشفوي العملي من امتحان المجلس، بعدما نجحت في الجزء الكتابي، في نهاية السنة الثانية، أي في حزيران عام ١٩٧٢) ...وجاء الرد، دون إبطاء، ليحدد لي موعداً في شهر أيلول (سبتمبر) من نفس السنة، في مدينة (Salt Lake) ، البحيرة المالحة، او بحيرة الملح، في ولاية (يوتاUta) ، التي تبعد عن مدينة أيوا، زهاء ساعتين بالطائرة...وهكذا، تكون قد سنحت لي فرصة إنجاز امتحان (البورد) ، بشقّيْه، قبل مغادرة الولايات المتحدة...

هنا واجهتني مشكلة حساسة جداً، فعلاقتي الرسمية بالجامعة، تنتهي في ١/ ٧/ ١٩٧٢، فماذا أعمل، وأين أعمل وأين أقيم بعائلتي، طيلة الأشهر الثلاثة القادمة؟

كانت علاقتي بالدكتور دونال ضنفي (Donal Dunfy) ، رئيس الدائرة (Chair man) ، ودّية، وسجِلّي في القسم، مرضيّاً عنه، فلقد كان يحضر معظم الاجتماعات الكبرى، التي

كنت أُديرها ظُهْر كل أربعاء، فطلبت موعداً معه، وشرحت له وضعي كما هو، فوعدني بدراسة الأمر في الدائرة، ووعدني خيراً، وفارقته وأنا أضرب أخماساً في أسداس!! ...وبعد أسبوع، استُدعيت الى مكتب الرئيس، ليبشّرني بعبارته الاولى عند اللقاء:لقد وجدنا أنفسنا أحوج إليك مما أنت في حاجة إلينا، ...ثم أردف، قائلاً:نسلمك العيادات الخارجية لقسم الاطفال، وتتولى أمر عيادة الروماتيزم ومرض (التحوصل الليفي (cystic fibrosis) ، ونمنحك لقب (مشاركassociate) ، ونزيد مخصصاتك الشهرية، ابتداء من١ / ٧، ...كان الدكتورGauchat، المذكور في الحلقة السابقة، يشرف على العيادتين المذكورتين، وخصوصاً مرض التحوصل الذي يصيب الرئتين والجهاز الهضمي، ويكثر وقوعه في العرق الأبيض من البشر، وفي الولايات المتحدة، تحديداً، وينتقل بالوراثة..غير أن الدكتور المذكور أصيب بالسرطان، في وقت سابق على وجودي في القسم، وكان يتلقى علاجاً خاصاً، إلا أن صحته تدهورت قبل وفاته المفاجئة في الشهر الأخير من مرضه، ما ترك فراغاً طبياً، وجدت الإدارة أني سوف أملأه...وعندما ترددتُ في الالتزام بالمنصب الجديد لسنة كاملة، رغبة مني في العودة المبكرة الى ارض (الوطن!) ، عاجلني الدكتور (ضنفي) بقوله:وهل أنت (تحت فوهة البندقية، مهدّداً، كي تعود؟) ثمّ تابعَ (وكان يعرف خلفيتي الفلسطينية) :ثُمّ أين هو الوطن الذي تتحدث عنه؟ ولما أجبته بأنّ وطني كل العالم العربي، ابتسم ابتسامة (خبيثة؟) ، ثم قال:راجع نفسك وشاور زوجتك، وأخبرني بسرعة، كي اكتب بما عرضته عليك الى رئيس جامعة (أيوا) ، مع بداية العام الطبي (تموز) ....

شقاء السنين (١٠١)

عدتُ الى البيت وانا في غاية الارتياح (والسرور) للعرْض المقدّم من دائرة طب الاطفال، على لسان رئيسها الدكتورDunphy، والذي يتضمّن مرتبة associate، ورئاسة العيادات الخارجية، وتشغيل عيادتين اختصاصيتين، هما الروماتيزم والتليّف الحوصليcystic fibrosis، وزيادة في الراتب الشهري...وسارعت على الفور باطلاع زوجتي على العرض، الذي كان حاجة بالنسبة إلينا فاستحال حاجة بالنسبة الى الدائرة، فحمدنا، كلانا، الله على التيسير، وإن ترتب على ذلك تأجيل عودتنا الى (الوطن!) ، سنة كاملة!

في اليوم التالي للعرض كنت على رأس عملي الجديد، بانتظار كتاب التعيين الذي وعدتني به الدائرة، والذي سيصدر من رئاسة الجامعة بالموافقة على تنسيب الدائرة! وهكذا أصبحت عضواً في الهيأة التدريسية في الدائرة، أحضر (غداء عملها) ظُهر كل أربعاء، وأتناول الشطيرة sandwhich المُعَدّة لذلك الاجتماع، وإذا كان برنامج المطبخ يفرض على أعضاء الهيأة (أساتذتي بالأمس) أن يكون نصيبهم لحم الخنزير، ذلك الأربعاء، يكون لي (وللدكتور جونسون اليهودي) شطيرة من لحم الحبش، مغلّفة تغليفا خاصّاً يحمل اسمي ومادة الطعام مكتوبَين بخط اليد!!

وجاء القوم الذين انضموا الى الهيأة التدريسية، من قبل، كلٌّ في تخصصه، يباركون لي مركزي الجديد، ومكتبي الخاص، المزود بالمقاعد المريحة، والأدوات الطبية السريرية اليومية، ومنضدة ثابتة في احدى زوايا المكتب، عليها مجهر لفحص الشرائح، عند اللزوم...ولقد شممت (رائحة) الحسد من تلقاء اكثر من واحد منهم، من الذين (تجنسوا) حديثاً بعد وصولهم بمؤهلاتهم المتميزة من الدول الأوروبية الشرقية والوسطى، من الكتلة الاشتراكية،...من طبيعة وكيفية استفسارهم حول المنصب الجديد!!

كان احمد السعدي (عديلي السابق) في زيارة لنا من مدينة (دالاس-ولاية تكساس)، في اليوم المحدد لجلوسي للامتحان الشفوي! في شهر أيلول September من عام ١٩٧٢، في مدينة (البحيرة المالحة Salt Lake)، بولاية (يوتاUtal)، التي تبعد عن مدينة أيوا التي أقيم فيها، زهاء ساعتين بالطائرة....فما كان مني إلا أن حجزت مقعدي في الطائرة، حجزاً مزدوجا، لأعود الى أيوا، في نفس اليوم، بعد فراغي من الامتحان بساعتين فقط!!...لقد كانت مغامرة غير مدروسة، ولا معقولة، ان لم تكن......جنونية!! ولكن الله سلّم...وصلت الى قاعة الامتحان في الموعد المضروب، صباح ذلك اليوم، وفرغت منه، عند الواحدة، لأسارع نحو المطار وادخل الطائرة في غضون اقل من تسعين دقيقة، عائداً الى البيت، حامداً الله على توفيقي؟ في الامتحان (كما قدّرْتُ)، وتيسير سفري ذهابـًا وإيابـًا ....ولم يمضِ طويل وقتٍ حتى وصلتني رسالة (المجلسAmerican Board)، مباركة بالنجاح في الجزأين الكتابي والعملي، مُذَكّرين بأنّ الشهادة (الكرتونية) لن تمنح الا بعد مرور سنتين، طالبين مني ترْك آخر عنوان يكون لبريدي قبل ذلك الموعد، لإرسال الشهادة.

بعد نجاحي في امتحان (المجلسBoard)، وتعييني في المنصب الجديد، وجدت نفسي على مفترق طرُق، فالفرص المتاحة للعمل الحر او تحت مظلة مركز او مستوصف طبي، وفيرة، خصوصـًا اذا رضيت بالعمل في المدن الصغيرة النائية، ذات العرض الأسخى، غير أني نأيت بنفسي عن كل ذلك، واتجهت الى مزيد من التخصص، ما دمتُ في البلاد، واحمل إقامة دائمة، والقوم في الهيأة التدريسية، يعرفونني، بل أصبحت واحداً منهم، وساورني شعور بالندّية حيال ذلك.

كان الدكتور (لاوَرLauer)، رئيس قسم القلب في دائرة طب الاطفال، في مكتبه، حينما دخلت عليه دون موعد سابق، عارضـًا عليه رغبتي في الانضمام الى فرعه في السنة القادمة، كزميل لمدة سنتين (Fellow)، للحصول بعدها على (طبيب قلب اطفال Pediatric cardiologist)...

وجّه إليّ الدكتور لاور، يهودي الانتماء، سؤالاً واحداً، بعدما رحّب وعبّر عن رضاه بعبارة (لي الشرف ان تنضم الى فرعيI am honored to have you with me) ، .....:هل تنوي البقاء هنا، ام تنوي العودة الى الاردن؟ فكان جوابي :بل انوي العودة ..فتابَعَ:إن كنت تنوي العودة الى البلاد، فلا انصحك بهذا التخصص، إذ لن تتمكن من ممارسته، هذه الايام، هناك.....انظر ماذا حصل للدكتور شاندرا Chandra) ، ...تخصص عندي وأصرّ على العودة الى الهند، فلم يتمكن من تطبيق ما مارسه وتعلمه، فاصيب بالإحباط الذي دفعه الى العودة والانضمام الى فرعي، كما ترى!...وعندما اعربتُ له عن تمنياتي وتوقعاتي بأن يتطور الطب عندنا ليكون لي في هذا التخصص مكان، كان تعليقه، مشيراً الى ضَعْف فرَص أمثالي: وهل نسيتَ كم هي (لزجة sticky) السياسة في بلادكم؟ . فلم أُحِرْ جوابًا، وتركت الأمر هناك!

كنّا معًا، في العيادات الخارجية، كلٌّ يتابع مرضاه، حينما خلا بي الدكتور صموئيل فومون Sam Fomon، استاذ علوم التغذية على مستوى الولايات المتحدة، والعالم، كباحث مرجعي في دنيا التغذية عند الاطفال، وذي مؤلفات ومقالات طبية عديدة في مجاله، يستشهد بها عند اللزوم...استهل حديثه بالقول إن اختصاص التغذية يتطلب شخصًا مثلك، ....و.....مثلي، يقف في الوسط ما بين التوجّه السريري، والتوجه البحثي العلمي، ...وفرع التغذية عندي يحتاج الى رديف...أستطيع ان أرسلك الى جامعة سانت لويس بولاية ميزوري، لتقضي في قسم التغذية سنتين، وأحجز لك مكانك هنا، لتعود اليه، لنستأنف العمل معًا ...قال الدكتور فومون كل ذلك، واستمعت اليه، مصغيًا، وإن كنت اعلم انني حجزت مقاعد العودة بالطائرة، الى بيروت، ومنها الى عمان، قبل لقائنا ببضعة ايام، مبكّراً، رغبةً في تقليص أثمان التذاكر للأربعة !!! ثم افترقنا، ليعلم عن نيتي في العودة الى ارض (الوطن) ، في الصيف القادم، من غيري، من أعضاء الهيأة التدريسية!...

كنت قد انتهيت من مناقشة أحد المقيمين في شأن مريضه، في العيادات الخارجية، وتوجهتُ الى غرفة الاستراحة وشرب القهوة الاميركية، فيما اصطلِح عليه، باستراحة القهوة coffee break، لأجد القوم منهمكين في مشاهدة شاشة التلفاز المعلق في الغرفة، باهتمام غير عادي....كان الخامس من أيلول، والمناظر التي انشدّت اليها الأنظار، ملتقطة في مدينة (ميونخ) ، في ألمانيا الغربية، والصوَر المعروضة لشبان ملثمين، عرب!

شقاء السنين (١٠٢)

من هؤلاء الرابضون الواقفون على السطوح، ملثمين، يداعبون الموت، يتحدونه، ويكاد ينفذ من شقوق الليل نحو جسومهم، أما القلوب فخفقها بالحب للوطن السليب، لا خوفًا، ولا جزعًا، ولا حرصًا على عيش الذليل! من هؤلاء الجامدون في وقوفهم، وفي تحركهم، كأنهم بشر آليون (روبوتات)، قبل ظهور الانسان الآلي، وقبل حقبة الروبوتات؟؟ .....

توقف العمل في العيادات الخارجية، ووقف العالم (كله!)، يرقب نهاية المسرحية الملحمة، التي كان أبطالها ثمانية شبان من (منظمة ايلول الاسود) التي انشقت عن حركة (فتح)، بعد ١٩٧٠، ثمانيةٌ تم اختيارهم بمنتهى العناية، بإشراف (ابو داود-محمدداوود عودة) من قرية سلوان، من اعمال القدس، وآخرين؟، لاختطاف أحد عشر لاعبًا (اسرائيليًا) من غرف نومهم، في مجمعات أعدتها الدولة الالمانية للمشتركين في دورة الالعاب الاولمبية المنعقدة في مدينة (ميونخ)، في الخامس من ايلول عام ١٩٧٢، لمقايضتهم باكثر من مئتي اسير من كوادر العمل الفدائي الفذ، يقبعون في سجون الاحتلال المسمى (اسرائيل)!

كان البث ينقل حيًا من مدينة الالعاب الاولمبية، في ميونخ، حينما تساءلت عن الخبر، وكان مراسل الفضائية CBS واضح التحيز الى الجانب الاسرائيلي في تعليقاته، الا أنّ رباطة جأش الفدائيين الذين يتجولون على سطح المبنى، حيث المخطوفون، يراقبون أية حركة او شبهة غدْر، بانتظار ما تسفر عنه المفاوضات بين الخاطفين والحكومة الالمانية، ...رباطة الجأش تلك، لفتت انظار كل المشاهدين، وفرضت على المراسل أن يقول، ويكرر:انظر اليهم...انك لا ترى ذرة من توتّر في ملامحهم!!

كانت عملية ميونخ قمةً في كل شيء: في اختيار ابطالهاالثمانية، رحمة الله على الجميع، وفي التخطيط، بتفاصيله، ولقد كان قادتهم (من بينهم) على درجة عالية من الوعي والحذر،

و.....التصميم على النجاح، بحيث ان جوابهم، عندما عُرض عليهم المال مقابل إطلاق المخطوفين، كان:نحن لا نكترث بالمال، ولا....بحياتنا...نفذوا شروطنا...

واذا تناهى الحُب واتفق الفدا. فالروح في باب الضحية أخلَقُو!!

كانت نهاية الملحمة نهاية مروعة، حاولت فيها السلطات الالمانية الغدر بالمجموعة، لولا وعي القائد (ابو عيسى) .، قُتل فيهااللاعبون الاحد عشر، وبعض افراد المجموعة، ولولا تجنّب ارهاق القارئ بالتفاصيل، لسردتُ منها ما يُذهل، من بطولة ووعي، وإخلاص، تجسد في شبان طلبوا الموت، فراوغ في تلبية طلبهم، إلا قليلا...ولئن لم تحقق تلك العملية الملحمة هدفها الاساسي، الا انها ايقظت كل نائم على حقيقة، أسطع، وأحرّ، من نور الشمس، على قضية وطن اسمه (فلسطين) ، احتلته عصابات صهيونية، وباركته قوى الحقد التقليدي العتيق لهذه الامة، بما يشبه السطو المسلّح، في وضَح النهار!

كانت السنة الثالثة من وجودنا في الولايات المتحدة، فرصة للتأمّل، والنظر والتخطيط، للمصير الأبعد، ...المحطة النهائية. صار عمر اروى سبع سنين، وفي أحد ايام عيد الميلاد، اواخر ديسمبر (كانون الاول) ، طلبت منا شجرة، تقليداً لقريناتها في الصف، من الفتيات الاميركيات، على الرغم من جو اسرتنا البيتي، الذي لم يكن لينسجم مع طلبها، (مثلما طالب موسى قومُه، إذ قالوا، عندما رأوا قومـًا في التيه، يعكفون على اصنام لهم، :اجعل لنا إلاهـًا كما لهم آلهة!) ...

كنا على الغداء في منزل الدكتور (كبير يونس زاي) الافغاني، وزوجته (حياةالدجاني) الفلسطينية، على شرف الدكتور (وزيري) الافغاني، وزوجته (ماري) ، عندما دارت (دردشة) ودية، صريحة، شفافة، بين حياة وزوجتي، في ركن من بيتهم الكبير الواسع المطلّ مباشرة على نهر (أيوا) ، حذّرتْ فيها (حياة) ، المقيمة في البلاد، منذ سنوات، والى غير رجعة، حذرت من (وهَم) قد يداعب خاطرنا اننا، ان أقمنا في تلك البلاد، إقامة مؤقتة أو مستقرة، سوف نتمكن من تربية ابنائنا، كما نحبّ، ونجعلهم يحبون ما نحب، ويكرهون ما

نكره، ويؤمنون بما نؤمن به، ...لأنهم سوف يخضعون (وتخضعون) الى قوة اكبر منهم ومنكم، هي قوة المجتمع الاميركي الذي يسمح بكل ما لا تسمحون به، فلا تخدعوا انفسكم!!. (..وانا، هنا، استدرك، لأنوّه بحجم الفوارق التي طرأت على ظروف ...الأقليات المسلمة في تلك البلاد، بعد رحيلنا، وفي نصف القرن الأخير، حيث المساجد والمدارس الاسلامية، والمناشط الدينية الخ، ما فسح المجال الاوسع، لانتقاء نمط العيش الذي تختاره العائلة، رغم هيمنة تيار المجتمع العام، الكاسح...فتشكلت جيوب ومجتمعات داخل المجتمع الاكبر، واصبحت قُرىً، تحمل اسم الجالية او الأقلية التي تتشكل منها) .

في ساعة صفاء، من احد ايام السنة الثالثة، والاخيرة، قررتُ الكتابة الى الصديق العزيز (فتحي علي عبد الله) الذي كان ما يزال موظفاً، طبيباً عاماً في (ارامكو) السعودية، استمزجه في شأن العودة الى الظهران، طبيب اطفال، في السنة القادمة....فلقد توفرت القناعة لدينا، بالعودة الى ارض (الوطن) !، بعد الغداء المذكور! وتكررت الرسائل بيني وبين فتحي، ودارت بينه وبين من يعنيهم الامر، لقاءات، تمخضت عن عدم رغبة الشركة في توظيفي، لأنني معادٍ للأميركان، وبعبارتهم الحرفية، كما نقلها فتحي:anti american !!، ...ولكيلا (يخسروا كفاءتي، فسجلّي لديهم ستّ سنين، يشهد بذلك) ، طلبوا من القائمين على (مستشفى الشرق) ، بمدينة (الخُبَر) ، المجاورة للظهران، وكان مملوكاً، ضماناً، لدى طبيبين لبنانيين هما (عفيف عبد الوهاب، من مدينة طرابلس، وجوزيف يمين) ، الاتصال بي، لغرض توظيفي عندهم، مسؤولاً عن قسم الاطفال في المستشفى، الذي كان مرتبطاً بمستشفى الظهران ارتباطاً رسمياً affiliation، تُحَوّل، بموجبه الحالات المرضية، لتعالج طبقاً لتعليماتprotocols تضمن للظهران مستوى يرضى عنه، لقاء مبالغ مجزئة يتقاضاها المستشفى، منها التقيد بتوظيف الكفاءات التي ترضى عنها ادارة (ارامكو).

شقاء السنين (١٠٣)

كانت السنة الثالثة١٩٧٣/ ١٩٧٢ ملآى بالمناسبات، والنشاطات والأحداث الجزئية الصغيرة، فلقد رحل الدكتور باسم محمد ربحي الدجاني بعائلته وابنتهما (رنا) الى مدينة (ديموين Des Moines) ، عاصمة الولاية الحديثة، وكبرى مدنها، ليمارس طب الحساسية والمناعة الذي اصبح اختصاصه، في عيادة بهذا الاختصاص، اشترى خلوّها من طبيب تقاعد عنها بحكم الشيخوخة، وبذلك فقدنا جيرتهم وأُنسهم، وعملنا على زيارتهم في منزلهم الجديد الواسع، بسيارتنا الجديدة الواسعة، من نوع station، لنعمل على شحنها الى السعودية فيما بعد، حيث محطتنا القادمة المنتظرة...وعلى الرغم من التحاق كل من الدكتورين ساكب النجار، وجميل فايز، بجامعتنا، الأول لأمراض القلب، والثاني بالامراض النسائية، الا أن زياراتنا العائلية مع كلتا العائلتين، كانت محدودة...

هذا وقد التحق المرحوم محمد امين السعدي، ابن عم عديلي أحمد، بجامعة Peoria، بمدينة Champaign التابعة لولاية Illinoise التي اكبر مدنها (شيكاغو) ، لدراسة الدكتوراة في احد تخصصات الزراعة، إذ هوخريج مدرسة خضوري الزراعية بطولكرم، ابتداءً....جاء بزوجته (فريدة شعث) ، من السعودية، مبعوثاً على حساب حكومته، فلقد كان حاصلاً على الجنسية السعودية، ...وبحُكم معرفتنا، وعلاقة النسب، زرناهما في مسكنهما الجامعي، وسررنا بما قدم لنا محمد من طعام ساهمَ في إعداده بنفسه، حيث لاحظنا ميله ومهارته في شؤون الطبخ وصناعة الطعام!!....وتشاء الأقدار ان يولد لهما طفلها الاول منه، بجمجمة مغلقة، بلا يافوخ، وهي حالة خَلْقية نادرة، تتطلب فتح الجمجمة لتوسعتها حول الدماغ النامي، وإلا تعرض الدماغ للتلف بفعل الانضغاط....اتصل بي محمد، شارحاً الملاحظة كما فهمها من طبيب الاطفال عندهم، فأشرت عليه أن يُحضرا (خالداً) الى قسم الاطفال عندنا لاستشارة الدكتور (وِلْيَم بِل) طبيب اعصاب الاطفال

المشهور على مستوى البلاد الاميركية، فاستجابا، ورأى الدكتور بِل أن تُجرى الجراحة بلا تأخير، وتمت العملية عندنا، وعادوا الى جامعته، ....وتمر الايام والسنون، وألتقي (خالداً) للمرة الثانية بعد نيِّفٍ واربعين عاماً في ديوان آل السعدي في عمان، معزِّياً بوفاة والده!!

زارني، ذات يوم من عام الرحيل، صديق العمر، وابن قريتنا (ام الشوف) ، الدكتور (راجح صباح) ، قادماً من مدينة (بوسطن) على الساحل الشمالي الشرقي، حيث قضى سنة زمالة في امراض الدم في مستشفى ولاية (ماسا تشوستس) للاطفال-وبالمناسبة، فإنّ معظم اسماء الولايات المتحدة، والعديد من مواقعها الجغرافية، هندية اصلية، مثلما سماها الهنود الحمر، اهلها الأصليون، .....فانبهر بالمكتب الجديد، وما احتوى عليه من ارائك، وزرابيّ، ومساحة مخصصة لمجهر متطور، مع توابعه، في احد اركان المكتب، ثم علّق قائلاً:ان الرحيل عن هذا المركز يتطلب الكثير من التفكير وإعادة النظر! (ومع ذلك فقد اكتفى هو بتلك السنة من الزمالة، ليلتحق بزميل قديم، موظفاً في وزارة الصحة بالبحرين!)

كنت في مصعد مستشفى الجامعة، متجهاً الى الطابق السابع، حيث قسم الاشعة، عندما لفت نظري رجل عجوز نحيف، يحمل سلة ملأها ديوكاً خشبية، صنعها في منجرته، يبيع الواحد منها ببضع دولارات، فاشتريت واحداً، وفي ذهني انه سيكون على منضدة مكتبي في عيادتي الخاصة، في (ارض الوطن) ، يوماً ما..وأثناء مخاطبة العجوز، انتبهت الى انه يضع اصبعه على فتحة في عنقه ليخرج ما يكفي من الحشرجات لأداء الغرض، فلقد فقد حنجرته في جراحة سابقة لسبب ما، ..ولقد أُعجبت برفض العجوز للاستسلام للعجز، والحاجة، وإصراره على مقاومتهما!أما الديك فهو على مكتبي حتى اللحظة، وفي منقاره كل البطاقات التي تهمني!

في ذات العام، عام الرحيل، أسست دائرة الاطفال فرعاً تمريضياً، بإشراف الدكتور (Sidney Kripke) ، أطلقنا عليه اسم (الممرضة الفاحصة nurse practitioner) ، تؤهَّل، بموجبه، الممرضة لمسح اساسي شامل للطفل القادم الى العيادات الخارجية، بلا مرض،

من أجل التطعيم او التقييم الصحي العام، من وزن ونمو وتطور قُدرات، في عيادة (الطفل السليم well baby clinic) ، ...ومن أجل ذلك تناوبت مع الدكتور (كربكي) وآخرين، نحاضر في مجموعة منتقاة من ممرضات القسم، حول اساسيات فحص الطفل، وتقييمه، قبل عمل أي إجراء عليه، ومعرفة متى تعود الممرضة الى طبيب الاطفال، خارج قدراتها السريرية....هادفين من ذلك الى اختصار بعض الوقت على الاطباء (هذا، وقد وصلتني رسالة شكر وتقدير، لقاء مشاركتي في البرنامج، على عنواني في موقعي الجديد، بعد رحيلنا، بوقت قصير!)

في مطلع ربيع ذلك العام، قرر قسم النشاط الاجتماعي في جامعة (أيَوا) ، القيام برحلة الى ولاية (فلوريدا) ، في الساحل الجنوبي الشرقي الدافئ، بالباصات، وأن تكون الإقامة فيها، في الخيام، لا في الفنادق ولا (الموتيلات) ! وعندما عرضوا عليّ المشاركة، اعتذرت بعدم امتلاكنا لخيمة، فتبرع القوم بالخيمة!وكانت زرقاء اللون، فلم يبقَ لنا عذر...وفي أحد صباحات أيار، كنا، والاولاد، في طريقنا الى شاطئ (أورلاندو) ، بشبه جزيرة (فلوريدا) ، مع مجموعة من طلاب الجامعة، لقضاء عطلة نهاية الاسبوع....نصبوا الخيام، ومنها خيمتنا، في سهل تحفُّ به بساتين البرتقال، وأمام الخيام ملاعب للأطفال، كالمراجيح وما شاكلها، ما كان متنفَساً لأروى وأنس، بالإضافة الى الشاطئ الرملي الذي أكثروا فيه من (بناء بيوت) لم تعَمّر طويلاً!:

وخطَطْنا في نقا الرمل فلمْ تَحفظ الريحُ ولا الرمل وعى

في تلك الرحلة القصيرة، شممتُ عبير زهر برتقال (يافا) ، لأول مرة في حياتي، بعدما قرأت عنه الكثير الكثير، قبل ذلك! كان صُبْحاً مضمّخاً بالعبير، بكل معنى الكلمة، وواقع الحال، عرفت منه أيَّة بساتين تحيط بنا...كان ذلك قبل الشروق، وتنكيل أشعة الشمس بعبير زهر البرتقال...

زرنـا هنـاك ملهـاة عـالم (دزنيDisney) ، وقاعـدة إطـلاق الصـواريخ في (cape Caniveral) أو (Cape Kennedy) ، إلى أن جَنّ علينا الليل، لتجود السماء بمطر لم أشهد في غزارته الشديدة، إلا في (ام الشوف) ، في طفولتي المبكرة..!أحاطت المياه بالخيام، وتدفقت في داخلها، وبلّلت أمتعة (السيّاح) ....إلا الخيمة الزرقاء، فلقد شملتها الرعاية الالاهية، (رأفةً بالأولاد!؟)

بعدما تأكد رحيلنا، واقترب موعده، أقام قسم التمريض في العيادات الخارجية، برئاسة الممرضةCathy Eckberg، حفلة وداع لي، كان، أبرز عناصرها، بالإضافة الى كلمات الوداع المتبادلة، تعليق من الدكتور (لاوَر) ، طبيب القلب، الذي أعلن عن رهانه أنني سأكون بينهم، في أيوا، بعد عام!...، ورَدّي عليه، في نفس الاحتفال، أنّ رهانه خاسر، وقد كان! أما العنصر الثاني فكان مجَسّماً خشبياً لطبيب اطفال، كبير السن، يحمل في جيبه لعبة حمراء، وفي يده قارورة دواء وفي يده الاخرى ملعقة، رمزاً وذكرى من قسم التمريض، ما زال يحتفظ بموقعه على مكتب عيادتي حتى اللحظة!!!

شقاء السنين (١٠٤)

بين ابن الدمينة و أحمد شوقي

لم أتردد أو أتلكأ في (التسمية)، عندما أصبحت الولادة وشيكة، والأم في الساعات الأخيرة من حملها الثالث، في مستشفى جامعة (أيَوا)، وبإشراف الدكتور (وايْتWhite)، ....فالحنين الى أرض (الوطن)، يسكنني وازداد إلحاحًا في السنة الثالثة من الإقامة في تلك الربوع، ...ولما كنت (مفوضًا) بتسمية (الخمسة) – على غرار الأسماء الخمسة في قواعد النحو!–، وحريصًا على (انتقاء) الاسم بعناية قصوى، لأنه سيصاحب المُسَمّى، طيلة عمره، وأبعد من ذلك، !، انتقاءً تتحقق فيه بساطة اللفظ، وسهولة القراءة والمناداة والكتابة بكل اللغات، و (حلاوة) المعنى، وثراؤه، فقد وقع اختياري على (صَبا)، منسجمًا مع (صبا نجد) في قصيدة (ابن الدُّمَينة)، التي هي من أجمل و (أقصر) القصائد الشعرية في الحنين، في العربية، بمَطلعها:

ألا يا (صبا) نجدٍ، متى هِجْتِ من نجدِي. لقد زادني مسراكِ وجْداً على وجدِي

ومنسجمًا مع (صَبا بَرَدى)، و (دمشق)، عزِّ الشرق!، في قصيدة أمير الشعراء (أحمد شوقي)، في التنديد بأفاعيل المجرمين الفرنسيين، يقصفون دمشق بالمدافع، فيقتلون ويدمرون ويشتتون!:

سلامٌ من (صَبا بردى) أَرَقُّو. ودمعٌ لا يكَفْكَف يا دمشقُو،

إذْ كلا الشاعرين يفتتح مطلع قصيدته، بمخاطبة ذلك النسيم الصباحي الرقيق، الذي يجلب النعاس!

كان ذلك في آخر يوم من شباط، عام ١٩٧٣، حين جاءت (صبا) الى الدنيا، لتحمل الجنسية (الاميركية) بالولادة، بلا تأخير...

عِلِم الأهل في الوطن، بنبأ الولادة، والاسم الجديد، فكان عديلي المرحوم (صدقي الحطاب) ، أديبُ التوجُّه والدراسة، بين المباركين، في رسالة، تلاعب فيها بالاسم، من أجل (المناغشة) ، فاستعمله (فعلاً) في قصيدةٍ لِ (دُرَيْد بن الصِّمَّة) ، في قوله:

صبا ما صبا (أي تحرّر في سلوكه) ، حتى علا الشيبُ رأسهُو

فلما علاهُو قال للباطل ابعَدِي!!!

كان مقيماً في الطب الباطني، ليتخصص في فرع امراض الجهاز العصبي، إلا أن برنامج تخصصه يفرض عليه (دورة rotation) ، في قسم الاطفال يطّلع فيها على كيفية فحص الطفل، وخصوصا فحص جهازه العصبي، فكان مرافقي طيلة دورته، بتعيين من الادارة، وكنت حريصاً على إعطائه كل الفرص الممكنة، ليتمرّس فيما أُسنِد اليه، فنلتُ إعجابه، وتقديره لتلك الرعاية.....

كلنا غرباء:

كان (ارونبرج) – مقيم الطب الباطني المذكور – واسم العائلة ينمّ عن جذوره الالمانية– من بين الحضور، في حفلة وداعي التي أقيمت باسم رئاسة قسم الأطفال، هذه المرة، في أحد مقاهي المدينة، ولم يكن يعلم الدافع الى الاحتفال، الى أن راح يسمع عبارات من هنا وهناك، من اطراف المنضدة الضخمة، تحمل معنى الوداع، والمفارقة، فلم ينتظر ليتأكّد من صحة (الخبر) :أصحيحٌ أنك سترحل عنا؟ . عاجلني بسؤال المنزعج الملهوف....وعندما أكّدتُ له ذلك، راح يتساءل:ولماذا؟ فكان مما قلته، مجيباً:نحن في النهاية، غرباء في هذه البلاد...فاحتقن وجهه، ولم يتمالك تصرّفه، وضرب المنضدة بقبضة يده، بكل ما أوتي من قوة، صائحاً: (وانا اترجم صيحته) . ماذا تعني ؟ نحن كلنا غرباء في هذه البلاد!!!...... وكاد يبكي، و...لُذْتُ بالصمت، فلم أُحِرْ جواباً، إذ تذاكر السفر في البيت!....تذكرت عبارة هذا الشاب، ذي الجذور الالمانية، عندما كنت أجلس في القاعة المعَدّة للعشرات، أمثالي، بعد سنين، ليلقي القاضي على الذين استحقوا الجنسية الاميركية، كلمة الترحيب والمباركة، والتي كانت اولى عباراتها: أميركا بلدُ مهاجرين!

لم ترضع (صبا) من امها اكثر من ثلاثة أشهر، اعتمدنا بعدها على حليب شركة (Abbott) ، الجاهز، سائلاً، في قوارير زجاجية معقمة محكمة الإغلاق، يستغنى عنها بعد استهلاك محتواها، زودنا به مندوب الشركة (مجانـًا) ، ...ولما اقترب موعد رحيلنا شرحت الامر للمندوب ذاته، راجيًا تزويدنا بأكبر كمية من ذلك الحليب، تغنينا عن عناء تحضير الحليب المجفف أثناء سفرنا الطويل، ذي المحطات المتعددة، من (أيوا) الى نيويورك، فلبنان، فالاردن، فالسعودية!....ولم يتردد في تأمين مجموعة كبيرة من الصناديق الملآى بالحليب السائل، شحنته الشركة من مختبراتها في مدينة (كولمبس) ، عاصمة ولاية (اوهايو) ، بالقطار الى المحطة في مدينة (سيدر رابدز Ceder Rapids) ، القريبة من (أيوا) ، لأستلمه في الموعد المضروب، وكانت كمية الحليب كافية لرحلة ....العودة، والى أن استقر بنا المقام في مدينة (الخُبَر) ، بالسعودية، في تموز ١٩٧٣، حيث تسلمت عملي، رئيسـًا لقسم الاطفال في (مستشفى الشرق) ، ....قدّم ذلك المندوب، وبعلم ورضا شركته، تلك الخدمة، وهو يعلم اننا راحلون الى الشرق الاوسط، وانّ عملي في موقعي الحالي قد انتهى!!!

تمّ التعاقد بيني وبين مستشفى الشرق الخاص، بادارة وتشغيل طبيبين لبنانيين، هما عفيف عبد الوهاب، و جوزيف يامين، (اذ أن المبنى مملوك لآل الدوسري السعوديين) ، على ان أبدأ عملي رئيسـًا لقسم الاطفال، في مطلع تموز، حيث استلمه من الدكتورة (ناديا السقطي) التي تعاقدت مع مستشفى الملك فيصل التخصصي، بالرياض، في نفس التوقيت، ما اضطر ادارة مستشفى الشرق ان تبرق لي اكثر من مرة، تستعجل حضوري (في اسرع وقت ممكن!)

لم يكن تأمين تذاكر السفر امراً هينـًا، لاسرة من خمسة افراد، وان كانت الخامسة رضيعـًا، ولو كان (سفراً قاصداً) لهان الامر، فلجأت الى المرحوم، الصديق الصدوق، رجل المهمات والملمات، ... (منذر شبّو) ، وكان قد تقاعد من عمله ضابطـًا مسؤولاً عن

قسم اللوازم والابنية في قوى الامن الداخلي، وكان يعمل وكيل سياحة وسفر في بيروت، فعمل على تأمين تذاكر سفرنا عن طريقه، وبأقل التكاليف، فميزانية العائلة، آنئذٍ، لم تكن احسن حالاً، منها في بداية التخصص والسفر...الى...الولايات المتحدة!!!

شقاء السنين (١٠٥)

الرحيل والعودة

مطار (كنديJFK) واسع جداً، منذ تأسيسه، والنزول فيه، على مشارف مدينة (نيو يورك) ، يُشعر المسافر المُقِلّ، مثلي، بالضياع، لما يتطلب من المشي الحثيث، والمحطات المتعددة، بما في ذلك محطة الانتظار الاخير قبيل الإقلاع...يضاف الى ذلك الشعور مزيد من وعثاء السفر بأسرة من خمسة، أصغرها بضعة أشهر من العمر، وتوابعها من كميات كبيرة من الحليب السائل الجاهز، وامور اخرى، مألوفة، من لوازم الرضيع...

كانت تذاكر العودة، المخفضة الثمن، تقتضي النزول ببيروت، واستئناف السفر براً الى (اربد) ، مروراً بدمشق...في مطار بيروت (السابق) ، وجدت الأجواء متوترة، إذ كانت إرهاصات الحرب الاهلية اللبنانية تختمر، والمناوشات بين الاطراف المتشاكسة، تُطِلّ برأسها بين الفينة والفينة، منذ انتقل العمل (الفدائي) من الاردن الى جنوب لبنان بعد (ايلول الأسود) ، عام ١٩٧٠) ...

وهكذا فرضت الظروف القاتمة على الذين يرغبون في استقبال ذويهم او اصدقائهم من القادمين، أن يظلوا على مبعدة من المطار، في اتجاه مدينة بيروت الرياضية وملاعب كرة القدم، ...إلا أن الصديق الصدوق، والضابط الأمني ...المتقاعد، الملازم (منذر أحمد شِبّو) ، استثنى نفسه، وبعض ذويه، ليستقبلنا في مرافق المطار ويحمّل أمتعتنا، ويحملنا، الى بيتهم في (برجا) التابعة لمدينة (صيدا) ، لنبيت ليلتنا هناك، ونستأنف مسيرة العودة البرية، سالكين مسارات التفافية، لتجاوز أية عوائق أو حواجز امنية في الطريق الى الشام!!

في اربد، وجدت الاهل في استقبالنا، في الحي الشمالي، خلف مباني شركة الكهرباء، فكان لقاءً مبللاً بدموع البهجة والفرح، والعناق الابوي الاخوي، بعد غياب ثلاث سنين عدداً...لكنه كان لقاءً مؤقتاً، فقد سبق وصولي اكثر من برقية من (مستشفى الشرق) ،

بالسعودية، تستعجل القدوم لتسلّم وظيفتي الجديدة، هناك، بناء على العقد الموقّع بيننا، قبل مغادرة الولايات المتحدة بعدة اسابيع، ...وعلى الرغم من ذلك، فقد عملت على قضاء اسبوع، كحدّ ادنى، بين الأهل، موزَّعين على الشقتين حيث يقيم الأخوان رفيق ومحمد، وعائلتاهما ...الكبيرتان، مستعملين ما وصلهم من بعض أثاثنا الذي شحنته (ارامكو) الى (اربد) -نقطة المنشأ، حسب العقد الموثّق بيني وبين الشركة، عند التوظيف!

لم يقتصر قرار (العودة) الى ارض (الوطن) علينا، انا واسرتي، فحسب، بل كان ذلك قرار كل من الدكتورين الاخوين (راجح صباح) و (ابراهيم ناصر) ، في نفس فترة عودتنا، حيث التحق ابراهيم بمستشفى (السلامة) الخاص، بمدينة الخُبَر، بالسعودية، بإدارة لبنانيين-ايضاً-، كطبيب امراض باطنية، اما راجح، فقد التحق بوزارة الصحة البحرانية، كطبيب اطفال، بتنسيق مع صديقه البحراني، على مقاعد الدراسة الجامعية، (أكبر محمد) ، طبيب الاطفال، الذي سبقه وكان ينتظره هناك! (هذا، ولم تطُلْ اقامة الدكتور راجح في البحرين، بعد أن علمنا عن (تدني) رواتب البلد هناك، مقارنة بما كانت عليه في (الخُبَر) ، فكاتبته، مشجعاً على الانضمام الى مستشفى السلامة، حيث توفر شاغر، غلّبْنا فيه العرض المادي، الذي لم نكن كلنا لنتعفف عن قبوله، على الالتزام .... (الوطني) ، الذي قاد (راجح) الى البحرين، ملبياً نداء الصداقة ...والزمالة!)

اما الأخوان (حسين رشيد) ، الذي تخصص في جراحة المسالك البولية، و (ساكب النجار) ، فطال (ثواؤهما) غرب الاطلسي، وما زال الاول هناك حتى اللحظة، اما الثاني فعاد الى عمان، ثم قفل راجعاً، واستقر به المقام الاخير هناك.

كانت شروط التعاقد مع ادارة مستشفى الشرق (الذي هو مستشفى الدوسري هذه الأيام) توفِّر المسكن المزود بأثاث (هيكلي) ، والمكَيّف على مدار السنة، بمائه وكهربائه، بالإضافة الى راتب محدد بالريال السعودي (كما كان يُدفع إبّان العمل لدى ارامكو، قبل ذلك بثلاث سنوات) ، ..كان من حسنات المستشفى أن مساكن أطبائه داخل أسواره، فلا

يحتاج الطبيب الى أن يمشي أكثر من بضع عشرات من الامتار، من مسكنه، ليكون على رأس عمله في المستشفى، وفي ذلك ما فيه من تيسير على الفريق الطبي المتكامل، عند التصدي للحالات الطارئة أو المستعجلة...

لم يرُق وضْع أثاث المسكن المخصص لنا، لزوجتي، إذ وجدته غير كاف للعيش المريح، كما تراه هي، فرفعت الأمر الى مدير المستشفى، وصاحبه في الوقت ذاته، الدكتور عفيف عبد الوهاب، الذي نادى على سكرتيره الباكستاني، ليوصيه، في حضورنا، أن يرافقنا الى سوق الاثاث والسجاد في مدينة الخُبَر، ويشتري للمسكن الجديد كل ما تراه زوجتي لازمًا، وبلا حدود!...ولم يكن هناك وقت نضيعه، فتوجهنا الى السوق، ووقع اختيارنا على مخزن السيد (عبد الجليل الانصاري-رحمه الله؟) ، بحراني المنشأ، فأكملنا منه تأثيث المسكن الجديد، من كل ما هبّ ودبّ، بما في ذلك لوحات فنية وجدت مواقعها على الجدران!

مستشفى الشرق، مستشفى عام، يحتوي على كافة الاختصاصات الاساسية، ويعتمد في وقوفه على قدميه، على تعاقده مع شركة النفط (ارامكو) ، على شكل شبه اندماجaffiliation، يستقبل منها عدداً من مرضاها، من كل الاختصاصات، يوميًا، يتم إدخالهم الى أسرّة محجوزة، معدودة، سلفًا، مقابل مبلغ من المال، يتقاضاه عن كل مريض، يوميًا....ومن هنا، كان للشركة دالّة على المستشفى أن يؤمِّن الحد الادنى من الخدمة الطبية، الذي يتطلب مستوى معيّنًا من التسهيلات التمريضية، وكفاءات الاختصاص.

صاحبني في العناية بقسم الاطفال، يومئذ، كل من الدكتورة (انغريدIngrid) ، الالمانية، زوجة ابن أخي الدكتور عفيف عبد الوهاب، الذي كان يعمل جراحًا عامًا في المستشفى، ...والدكتور عصام الكسبي، سوري الجنسية، ولم يكن أيٌّ منهما يحمل التأهيل

شقاء السنين (١٠٦)

لم نكن نتصوّر حجم مشكلة التعليم والالتحاق بالمدارس، في السعودية، على وجه التحديد، إذ غادرناها عام ١٩٧٠ وليس لنا ابناء في سن الدراسة، وإنْ التحقت (اروى)، كبرى الابناء، بروضة محلية في حي كبار موظفي شركة ارامكو، بالظهران، تديرها ربة منزل اميركية، وهي دون الرابعة من العمر، ومن قبيل التسلية ومنعـًا للملل...اما الآن، وقد بلغت السابعة، وأنهت الصف الثاني الابتدائي في مدرسة (Bishop) الاميركية، فلا بد من تأمين دراستها، ودراسة اخيها (أنس)، الذي يصغُرها بثلاث سنوات، فكيف السبيل، ومناهج التعليم مختلفة كل الاختلاف من الألف الى الياء!

جئنا بأروى لا تعرف الحروف العربية ولا الارقام العربية (التي هي هندية في الاصل، والتي نسميها انجليزية هي العربية الحَقَّة!)، هذا بالإضافة الى اختلاف كل المواضيع التي تُدرّس في كلا البلدين، لاخلاف المناهج الجذري...والشهادة التي جئنا بها من اميركا، بكل تفاصيلها التي تشيْد بكفاءتها العالية في ما درست من مواضيع، كانت لا معنى لها لدى ادارة التعليم في المنطقة الشرقية من السعودية، وعلى اروى ان تبدأ من الصفر، فتلتحق بالصف الأول الابتدائي!!! أما (أنس)، فلم يكن الالتحاق بصف البستان ذا بال.

كان امام دراسة اروى عقبتان لا بد من تذليلهما: الاولى (تعريب) البنت، أي تعريفها على الحروف والارقام، العربية، والثانية تأهيلها لتلتحق بالصف الذي يناسب عمرها، كيلا تفقد سنتين من مراحل الدراسة....تصدى للعقبة الاولى السيد (جاد... من قرية حطين، من أعمال -بيسان- ومن، ذا الذي لم يسمع بقرية حطين، و-عين جالوت- من بعدها؟)، رئيس قسم المحاسبة في المستشفى (رحمه الله؟ وجازاه خير الآخرة والأولى!)، فقد اقترح استغلال العطلة الصيفية، بإرسال اروى الى مسكنهم القريب، في مدينة (الخُبَر)، عدة ايام في الاسبوع، تتولى أثناءها، بناته، تدريسها الحروف والمفردات والارقام العربية، في سبيل

تأهيلها أو (تعريبها) للالتحاق باحدى المدارس الحكومية، التي لم يكن لنا خيار غيرها، ...وهنا أَوَدُّ أن استطرد قليلاً لأشير الى الصعوبات الضخمة التي واجهها العاملون لدى (ارامكو) ، الذين التحق ابناؤهم بمدارس الشركة الاميركية، الى نهاية الصف الثامن، اعلى صف فيها، ليتدبروا امرهم، ويضطروا الى ارسالهم الى مدارس خارج المملكة، لإكمال دراستهم، في مدارس لاتنسجم مناهجها مع مناهج الشركة، بالضرورة، حتى وإن كانت اميركية صرفة، بعيداً عن اهاليهم، متروكين لمراهقتهم، و....ضياعهم، الا من رحم ربك...ما حدا بكثيرين من الآباء الى استباق المرحلة، بتأسيس ابنائهم، من المرحلة الابتدائية، في مدارس (خاصة) محلية، لا يجوز للابناء السعوديين الالتحاق بها!...والذين لم يفعلوا، رضوا بالأمر الواقع، وإكمال المسيرة على النهج الاميركي، في الولايات المتحدة او المملكة المتحدة، او كندا او....استراليا ونيوزيلاندا...!أو أي نظام تعليمي، أينما وُجِد، ينسجم مع ما تخرجوا عليه من مواضيع ومناهج...

اما العقبة الثانية فكانت الالتحاق باحدى مدارس البنات الحكومية (إذ لم تكن في المدينة مدارس خاصة، كما هي عليه الحال هذه الأيام) ،، وفي الصف الذي يناسب عمر اروى ومرحلتها الدراسية، فشهادة انتقالها من مدرسة اميركية، لم تشفع لها ان تترفع الى الصف الثالث، تلقائيًا، بسبب اختلاف المناهج واللغة...

كانت السيدة (سميرة) ، زوجة السيد (علي طه الرمحي) ، تعمل مديرة احدى مدارس البنات الابتدائية في مدينة الخُبَر...وكانت تربطنا صداقة عائلية، منذ إقامتنا في الظهران، ..كان السيد (علي-رحمه الله؟) ، غايةً في صدق الصداقة، وفيًا، امينًا، متواضعًا، خدومًا، وأشهد على كل هذه الصفات (النادرة) بين يدي الله! كان علي قد نال الجنسية (التابعية) السعودية منذ اوائل خمسينات القرن الماضي، هو وثُلّة من الذين وفدوا الى المملكة (مبكّرين) ، وكان الحصول على (التجنّس) ميسّراً، لمن رغب، في عهد الملك (سعود بن عبد العزيز) ، وصادقْنا وجاورْنا منهم (رفيق البيطار) ، مثلاً...وبناءً على ذلك جاز للسيدة

(سميرة) ، زوجة (علي) – السعودي–أن تكون مديرة مدرسة حكومية...وكانت السيدة سميرة على جانب رفيع من الصفات التي عرفتها في زوجها، حدّ منافسته!...فاقترحت ان تخضع (اروى) لامتحان في العربية والحساب، في نهاية العطلة الصيفية، وتلتحق بالمستوى المدرسي الذي تؤهلها له نتيجة الامتحان، وهكذا كان، واجتزنا العقبة الثانية، والتحقت اروى بالصف ....الثالث!، وكان ترتيبها الاول في نهاية العام الدراسي، ويعود الفضل في كل ذلك الى شخصين:السيد جاد، رئيس قسم المحاسبة في مستشفى الشرق، والسيدة سميرة، زوجة السيد علي طه الرمحي، مديرة المدرسة الابتدائية التي التحقت بها اروى.

غير أنّ ذلك لم يكن بالامر السهل على الطفلة نفسها، فلقد بذلت، بتشجيع، وضغط، ورعاية، منا، جهداً قاهراً، لاجتياز المرحلة الانتقالية التي فُرِضت عليها، وهي تحفظ نصوصًا قرآنية لا عهد لها بمثلها، ومعاني مفردات قرآنية، هي أعقد، أحيانًا، من المفردات ذاتها!!! و....قواعد فقهٍ وتوحيد، لم نكن نحْنُ على علم بها من قبل!، ...حتى إنها كانت تُصاب بكوابيس، توقظها من نومها، وهي تردد، لاشعوريًا، بعض ما حفظته (غيبًا) في اليوم الفائت!

ولم نكن مرتاحين لكل ذلك، ولا للاستمرار تحت ذات المظلة المؤرقة، ما حدا بي الى الاستقالة من عملي اكثر من مرة في غضون عام واحد، كانت آخرها قُبيل الرحيل باسابيع!!!

لم يدم هدوء المنطقة العربية طويلاً، بعد هزيمة ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف التي تبنتها مصر في عهد الرئيس الراحل، جمال عبد الناصر، والهدوء النسبي الذي أعقب ايلول الاسود عام ١٩٧٠، ووفاة عبد الناصر في ذات العام، فلقد (تبنى) وريثه، السادات، بالتنسيق مع (آخرين) ، ومنهم الرئيس السوري حافظ الاسد، عملاً عسكريًا، محدود الهدف العسكري، يقود الى هدوء أطول عمراً بين العرب واليهود، او بين الدول العربية (دول الطوق) ، و دولة العدو الاسرئيلي.....فكانت حرب ٦ اكتوبر عام ١٩٧٣ بين الجيشين المصري والسوري، من جهة، والجيش الاسرائيلي، من جهة اخرى، ومشاركة جزئية من

بعض جيوش دول عربية (اخرى) ...دمّر فيها الجيش المصري خط (بارليف) الحصين الذي أقيم على الجانب الشرقي من قناة السويس، في اعقاب حرب ١٩٦٧،، واحتل الجيش السوري هضبة الجولان، مؤقتاً، قبل ان تتدخل الولايات المتحدة، وتضع تلك الحرب اوزارها، ليلتقي (الاعداء) ، ولأول مرة، علناً، تحت خيام متقابلة، عند الكيلو ١٠١، في سيناء!!

كان التنسيق الطبي بين مستشفى الشرق، ومركز الظهران الصحي، على ما يرام، شأنَ كل المستشفيات المتآلفة المتحالفة، من سبُل علاج، الى محاضرات، وتبادل معلومات، واستقبال مرضى، واستشارات طبية

شقاء السنين (١٠٧)

في اواخر أيامه، كان يعاني من نوبات متكررة من الضعف والاضمحلال، يغشى كل كيانه، بشكل مفاجئ، فيفزع مذعوراً، ملتجئًا الى أحدنا، يُلقي بنفسه في حِجْره، ليهدأ روعه بعد دقائق، ثم يستأنف نشاطه اليومي المعتاد...حدثت له اكثر من مرة، كنت فيها المتلقّي، والحاضن، ولقد لمستُ في كل النوبات شدة خوفه من ....الموت، فما أن تهدأ حاله، ويستعيد همته، حتى يلهج لسانه بالدعاء والرضا، وأنه (محسود علينا) ، كما سمعتها منه، بأمّ أذنَيّ!

كانت تلك نوباتٍ من الجلطات الدماغية الناعمة، التي شكلتْ (إنذارات) ، لها ما بعدها....الى أن اصابته النوبة الاخيرة، التي لم تمهله غير ثلاثة أيام، فقد فيها وعيه، ثم دخل في غيبوبة عميقة، اتسع معها بؤبؤ العين، وتعطّل، علامة على عُمق النوبة وخطورتها....رحم الله والدي رحمة واسعة، وجزاه عن أبنائه الخمسة خير الجزاء! وهكذا التحق (ابو ابراهيم) بِ (ام ابراهيم) ،، بعد زهاء خمس عشرة سنة!

نحنُ بنو الموتى، فما بالنا. نعاف ما لا بدّ من شربهِ

لا بدّ للانسان من ضجعةٍ لا تَقلِب المُضْجَعَ عن جنبهِ

يموت راعي الضأن في جهلهِ مِيتة (جالينوسَ) في طبّهِ!!!

في غضون الستة عشر شهراً التي عملتُ خلالها لدى مستشفى الشرق، جدّدنا، بل احيينا الصداقات العائلية التي خلّفناها وراءنا، في ارامكو والمنطقة الشرقية من السعودية، عند التوجه نحو الولايات المتحدة للتخصص، قبل ثلاث سنوات، فتكررت (العزائم) ، وتبادلنا الزيارات العائلية، واقمنا، بعد استكمال دعوات الجميع، دعوة شاملة ضمّت كل من دعانا، وكانت تجربة فريدة لنا، بذلك العدد من المدعوين، وذلك الحجم من الولاءئم! كما تعززت علاقتنا اكثر ما يكون، بعائلة طيب الذكر، علي طه الرمحي، وطيبة الذكر زوجته

سميرة، فبالاضافة الى الخدمة الجلّى التي قدماها بتسجيل (اروى) في الصف المناسب في مدرستها، والزيارات المتبادلة، فقد عرض عليّ (عليٌّ) أن انتهز فرصة ازدهار تجارة الاراضي، يومئذٍ، واشتري بما يتوفر لديّ، قطعة ارض، تسجّل باسمه، كونه سعودي الجنسية، لتباع، فيما بعد، بما يتاح لها من مربح....ولم اتردد في تنفيذ نصيحته، مطمئنًا الى امانته وحرصه كل الاطمئنان، وغادرنا السعودية تاركين له قرار بيع ما اشترينا باسمه، في الوقت الذي يراه مناسبًا، وقد كان!

ظلّت (عقدة) المدارس والتدريس تهيمن على تفكيرنا وحياتنا، وأُضيفت الى (عقدة) اخرى، لم تكن أقلّ أهميةً، تلك هي العمل لدى شخص، لا لدى مؤسسة، ولا دولة، ما ألحّ عليّ أن أبحث عن بديل، ولمّا لم يكن ذلك متاحًا، وتوفّر المدرسة الخاصة لم يكن اكثر من وعود (عرقوبية) ، فقد استقرّ في روعي ان لا يطول بقائي في عملي الحالي، ولا في السعودية، ما جعلني اقدّم استقالتي اكثر من مرة، كان آخرها، في اواخر صيف ١٩٧٤، حين رجوت (السيد عادل) المدير الاداري، أن يجهزوا جوازات سفرنا بختم (خروج) ، بلا ختم (عودة) ، رغم رغبة ذلك المدير اللطيف بعكس ذلك، لعلي (أعيد النظر) ، فيما بعد!....اقول كل هذا، رغم ما كنت فيه من ترحيب، وتسهيلات عيش وعمل، من قِبَل المسؤولين، حتى اللحظة الاخيرة، فلقد وطنتُ نفسي (ان لا أبخَسَ الناس أشياءهم) ، ما حييت، !

وهكذا كانت ابنتي الكبرى (اروى) سببًا مباشراً في رحيلي من الولايات المتحدة، متجاهلاً مُغريات كثيرة (ذكرتها في حلقات سابقة) ، وسببًا مباشراً في رحيلي من العربية السعودية، متجاهلاً عرضًا من مدير مستشفى الشرق، السيد عادل، بتوقيع عقد مع المستشفى لعشر سنوات!

كان الحاج فضل الجبالي، خليليُّ الموطن!، يتردد على السعودية بحافلته (الترَكّ) ، تاجراً، يبيع بضاعته فيها، ويعود خاليَ الوفاض، اذا لم يتيسر له ما يحمله في سيارته، بأجر ...مقبول....

توجهت الى مربض سيارات الشحن الاردنية، حيث يقضي سائقوها الوقت الذي تفرضه عليهم ظروف عودتهم، في جانب من محيط مدينة الخُبَر، وتعرفْت الى الحاج فضل، واتفقت معه على ترحيل ما جاز لي ترحيله من اثاث، بالاضافة الى ادوات كهربائية، وفرن، طلبتها من الولايات المتحدة، ووصلت في الوقت المناسب، وتركتُها في صناديقها جاهزة للشحن الى الاردن، من جديد!

في تلك الاثناء، كان عليّ ان احصل من بلدية الخُبَر على إذن رسمي خطي، بترحيل ما انوي ترحيله، كيلا يعترض على ذلك موظفو الحدود البرية، وما زلتُ اذكر موقفي المحرَج لدى رئيس البلدية، حينما تساءل عن سبب رحيلي، وإجابتي بأنه الرغبة في الاستقرار، وكان تعليقه:الا تصلح هذه البلاد للاستقرار؟ ؟

في الموعد المضروب مع الحاج فضل (رحمه الله) ، كانت شاحنته تستقبل الاثاث المعَدّ للتحميل، ومنه ثلاجة (كلفينيتر) ، وفرن، نوع (تبّان) ، اميركيان، بصناديق الشحن الاميركية (وما زالت الثلاجة ذاتها، ثلاجتنا الرئيسية في منزلنا، حتى اللحظة!) ، وعلى الرغم من توفّر عمال بالاجرة، لمساعدة الحاج فضل في مهمته، من ترتيب وتثبيت، ورعاية، الا انه بذل جهداً وكفاءة عادلت مساهمة العمال كلهم، بلا مبالغة!....وهكذا توكل الحاج بالاثاث، ورتبتُ لسفرنا جواً، لننتظر وصول الشحن في (جمرك الاردن) ، في ١٦/ ٨/ ١٩٧٤، ....وجدير بالذكر، ان تقوم علاقة معرفة (صداقة؟) ودية عائلية بيننا، ليصبح ابناء الحاج من (زوجتَيه) ، واحفاده، زبائن عيادتي، على اثر ذلك، في عمان!!! كما هو جدير بالذكر أن ألتقي مسؤول الجمرك، بعد وصول الاثاث، الأخ (عادل القضاة) ، الذي قرر تسجيل البضاعة الاميركية الجديدة، نِصْف استعمال، لتجوز جمركتها، وإلا وجب اجراء معاملة استيراد للسماح بدخولها بضاعة جديدة الى الاردن....كما يجدر بي أن أنوِّه بتلك اللفتة التي قامت، عل أثرها، بين عائلتينا، صداقة، اصبحت معها طبيب ابنائه واحفاده، الى عهد قريب!!!

شقاء السنين (١٠٨)

كان (أمين محمد جنزير) من وجهاء الحي القِبْلي من الحارة التحتا في (ام الشوف)، وكان (ابو أسعد) حميد السيرة في القرية، مرتاحـًا ماديـًا، بمقاييس الفلاحين، وزاد في مكانته في القرية إصهاره الى الشيخ محيي الدين العواطلي، عميد الصوفية في المنطقة، مهيب الجانب، طيب السمعة، صالح المظهر والمسلك، تخطب ودّه كل القرية، ....بزواج ابنه (اسعد)، من ابنة الشيخ!

كان (ابو اسعد) من اوائل الذين استقروا في مدينة (اربد)، بعد لجوئنا الأول!عام ١٩٤٨، ومع الايام، ويبدو انه كان احسن حالاً من غيره، بنى له بيتـًا في الحارة الجنوبية من (اربد)، ليس بعيداً عن شارع (الحصن) الشهير، قبل نشوء جامعة اليرموك، واكتظاظ ضفاف الشارع بمئات المحلات التجارية....وعزز إقامته بتأسيس اكثر من محل تجاري، له ولاولاده، اسعد، وعبد اللطيف، ونمر، في سوق البلد، ما حافظ على (راحته) المادية، ووجاهته بين ذويه، واهل بلده.

علم (ابو اسعد) بعودتي الى الاردن، ورحيلي الى اربد، ونزولي وعائلتي عند اخويَّ (رفيق ومحمد)، المقيمَين في اربد، في المسكن الجديد، خارج المخيم...وذات يوم من الايام المعدودة التي أقمناها في اربد، دعاني، بشخصي، الى غداء في بيته، ولم اتردد في قبول دعوته، وان لم ادرك دافعه اليها، لارتياحي لشخصه، وشخصيته، منذ طفولتي قبل اللجوء.....بعد الغداء، دارت بيننا (دردشة) أدركتُ انها (هادفة) من طرَفه، حين سألني عن مكان ممارستي لتخصصي بعد هذا الغياب الطويل...عن نيتي أين افتتح عيادتي، وكانت إجابتي العفوية السريعة:في اربد....لاذ (ابو اسعد) بالصمت، مليّـًا، كأنه كان يتوقع جوابي، وإن كان لديه كلام مبيّت، لعلّه كان السرّ وراء دعوة الغداء التي لم يحضرها غيرنا، ثم تكلم بلهجة الخبير الحريص والناصح الامين لولدٍ من (أولاده) : يا بنيّ، لا تفتح عيادتك في اربد، فانا اعرفها اكثر منك بكثير...الناس هنا فئتان:فئة من اهل البلد محكومة لاتجاهات

عشائرية تفرض تعاملها مع ابن العشيرة، الا ما ندر، ...والفئة الثانية من ذويك واهل بلدك، والديرة التي تنتسب اليها، وهؤلاء ينتظرون منك مسامحتهم او محاسبتهم حساباً يسيرا! وانت الخاسر في الحالين...فافتح في عمان، وتوكل على الله

عدت الى البيت وعبارات العم (ابي اسعد) تدوّي في اذنَيّ، وتستقر في مركز قناعتي بصدق ما قال، إذ لا مصلحة له فيه غير حبه لي، وحرصه عليّ...

كان يسيطر على تفكيري قدرتي على تطبيق ما تعلمته في اختصاص الاطفال، على اصوله، وخصوصاً ما تعلّق منه بالعلاج في مستشفى... حيث التحدي العلمي، والمجال الاعمق لممارسة طب الاطفال .....زرت مستشفى راهبات الوردية، المستشفى الخاص الوحيد في اربد، يومئذٍ، إذ لا شأْن لي بمستشفى الحكومة، ولا دالّة لي على اطبائه، ليعالجوا مرضاي حسب قناعتي وتعليماتي...لم أجد ضالّتي هناك عام ١٩٧٥، فوضعني ذلك امام احد خيارين: إما تحويل مرضاي الى عمان، ليعالجهم زملائي هناك، أو ارحل الى عمان!

لا عهد لي بعمان وجبالها (السبعة؟) ، قبل عام ١٩٧٥ . كنت في كل اسفاري، ما إن تَحُطّ بي الرِّكاب في مطار (ماركا) ، حتى استقل اول مركبة تحملني، مباشرةً، الى اربد، (مروراً) بعمان!....ووجدتُني أهمس لنفسي:

اذا لم يكن غير الأسنّة مركبٌ فما حيلة المضطر الا ركوبها!

لكي تمارس مهنة الاختصاص في الاردن، تلزمك شهادة الاختصاص (البورد الاميركي) التي وصلتني في انبوب من الكرتون المقوّى، على عنواني المتروك لدى مؤسسة البورد في مستشفى الشرق، قبل رحيلي منه باسابيع...ثم شهادة تسجيل في نقابة الاطباء، ولكي تمارس المهنة في عيادة، عليك الحصول على (عدم ممانعة) من وزارة الصحة والقوات المسلحة ....وأهم من ذلك كله، تحديد موقع العيادة، و....المسكن!

التقيته في نقابة الاطباء، لذات الهدف: التسجيل، للحصول على تصريح مزاولة المهنة...أبرز صوراً عن شهاداته الالمانية، لاختصاص الامراض الباطنية، وابرزت مثلها اميركية.لاختصاص طب الاطفال ..لم اكن اعرفه، وان كنت اعرف عنه..فقد تخرج في

المرحلة الثانوية، ثم عمل معلماً، قبل تخرجي، فلم تجمعنا الفاضلية الثانوية، لكنّ ابن أخيه لأمّه، ومُطابقُه في الاسم، محمد سعيد صباريني، كان بعدي بسنة في الثانوية، وجمعتنا بعثة وكالة غوث اللاجئين ليدرس مبحث (البيئة) في الجامعة الاميركية في بيروت...تَصافحنا وتعارفنا اكثر، وعرفتُ منه انه جاور أطباء آخرين في (مجمّع) في مبنى مملوك لِ (ابو العبد كلبونه) ، في شارع الامير محمد في جبل عمان، وأن المجموعة ينقصها طبيب اطفال، ...

في قيادة الجيش، لم اجد صعوبة في الحصول على (عدم الممانعة) ، وإن وجدتُ حرجاً عندما سألني الضابط المسؤول عن عدم رغبتي في العمل لدى القوات المسلحة، فألهمني الله أن أجيب:ان العمل لدى الجيش شرف عظيم، لكني أسرعت في استئجار عيادة خاصة!

أما في وزارة الصحة، فقد اعترض المرحوم الدكتور (يوسف مصطفى عيسى) ، من قرية (يَعْبَد) ، على طلبي، بسبب وجود شواغر لاختصاصي في الوزارة، ورفض توقيع استدعائي!

تكررت لقاءاتي بالدكتور (محمد سعيد صباريني) ، الطبيب، مثلما تكررت (مشاويري) اليومية، من اربد، حيث إقامتنا المؤقتة، الى عمان، لتجهيز كل ما يلزم لممارسة المهنة، والمسكن، ..وشكوت اليه أمْر الرفض الذي حصل لي بالامس في وزارة الصحة..

في اواخر عام ١٩٧٤ تشكّلت وزارة جديدة، وأصبح فيها المرحوم الدكتور فؤاد الكيلاني وزيراً للصحة، لبضعة أشهر، فألغى عقد استئجار عيادته التي كان ينوي ممارسة الطب الباطني فيها، ...كان الدكتور الصباريني (نسبةً الى قرية صبارين التي كانت تبعد عن قريتنا، ام الشوف، بضعة أميال فقط) ، صديقاً للوزير الجديد، إبّان الخدمة العسكرية، فرافقني الى الوزارة وحصلتُ على (عدم الممانعة) ، تاركاً مَلْءَ شاغر الوزارة لمن يرغب، واقترح عليّ معاليه لحظتئذٍ، استئجار العيادة التي فسخ هو عقد استئجارها حديثاً، فأخبرته أنها هي التي استأجرتها، سلفاً!!!

بقيت مسألة (كما يقول الفقهاء) ....المسكن!

كان عليّ ان ابحث عن (شقة) لا تبعد كثيراً عن موقع العيادة، لكني لست خبيراً بأحياء عمان، ولا بجبالها، فكان الدكتور (الصباريني) ، رعاه الله، مرجعي في ذلك، خصوصـًا وانه كان يملك سيارة خصوصية، تعيننا على التجوال، فوقع اختيارنا على شقة قريبة من العيـادة، لكنها كانت تحت مستوى الشارع، وقد أُنجزت للتوّ، اذ ما زالت بُقع دهـان جـدرانها تكسـو معظم بـلاط ارضـها،، ....وليـت الأمـر وقـف عنـد الـدهان، فهـي لـم تـزود بالكهربـاء بعـدُ، باستثناء (لمبة) تضيء صالتها، من كهرباء المالكين الذين يجاورونها! ولكن:

اذا لم يكن غير الأسنة مركبٌ فما حيلة المضطر الا ركوبها

شقاء السنين (١٠٩)

لم يكن لدينا من المال الا مبلغ محدود، لا يسمح بالتوسّع في الإنفاق، فالذي توفر منه في غضون سنة ونيف من العمل لدى مستشفى الشرق، جعلناه ثمناً للارض التي اشتراها لنا (باسْمِهِ) ، طيّب الذكر، علي طه الرمحي، وهكذا كان علينا أن نتبصّر أمرنا، فننفق ما يلزم، وعلى ما هو أَولى، إذ أصبحنا، مؤقتاً، بلا دخْل، يذكر، وأمامنا ثوابت لا مفر منها ولا مجال لتأجيلها: ستمئة دينار دفعت، مقدّماً، أجرة سنوية للعيادة، لأمر السيد (علاء الذين كلبونه-ابو العبد) ، ومثلها أجرة الشقة السكنية الواقعة تحت مستوى الشارع، وتحت هضبة الدوار الثاني في جبل عمان، مطِلّة، بعض الشيء، على شارع الامير محمد (وادي السير، سابقاً) ، وقريبة بضع مئات من الامتار من العيادة، ...دُفعت للمالك القادم من قرية (دير ياسين) الشهيرة بمذبحتها في النصف الاول من عام ١٩٤٨، على ايدي العصابات الصهيونية!، ...ورسوم التحاق اروى وأنس بالكلية العلمية الاسلامية، في جبل عمان، قريباً من المسكن الجديد، يُسعى إليها على الأقدام، (وكنّا قد كلفْنا المرحوم الاستاذ امين حطاب، من أخوال زوجتي، ومن اعرق وابرز الشخصيات التدريسية في وزارة التربية، بتسجيلهما سلفاً، قبل رحيلنا) ، ....

أما أمْر السيارة، فقد أجّلته، عدة اسابيع، لجهلي، لحسْن الحظ، بمعالم عمان، وشوارعها، وجبالها، و...لقلّة المال!....ولكي أتدبّر أمري، وأتعرف على ما يلزمني من معالم البلد، لجأتُ الى (السرفيس) ، أتنقل به من مكان الى آخر، حتى اذا ما رضيت عن معرفتي كيف أجوب انحاء البلد، قررت شراء سيارة، بالتقسيط!...ولا ادري لماذا كانت اولى سياراتي في عمان، من نوع (بيجو ٥٠٤) ، عادية (إذ كان الناس في عمان، يومئذٍ، يتعاملون مع - الاوتوماتيك-بحذر شديد) ...

قبل رحيلنا من اربد، كان عليّ تجهيز المسكن الجديد، بالفرش المعقول، المريح، بعيداً عن الفخامة، إذ لم نكن قادرين عليها!، وكنت حريصاً على تغطية بلاطه بنوع متين من (الموكيت) اشتريته، يومئذ، من محلات (الزميلي) ، فبلاط الشقة كان ملطخاً بدهان الشقة، حديثاً، ولم يكن لدينا الوقت الكافي، ولا استعداد المالك، للتخلص منه، ولا مما علِق بزوايا الشقة من (أوضار) !...كما اننا، والاولاد، اعتدنا على ان نتجول في اركان المسكن، سابقاً، ...حُفاةً!

كان المهندس (احمد عبد الرحيم ...الديري، ابو العبد) ، يملك متجراً للاثاث، في ماركا، ومنجرة (فيما بعد) ، وكان زميلاً قديماً للدكتور محمد سعيد صباريني، في المرحلة الثانوية في قلقيلية، وتمتد جذوره الى قرية (طيّبة بني صعب) ، القريبة من كل من قلقيلية و...طولكرم، فتعارفنا، وتصادقنا، افراداً وعائلات، صداقة ضمّت العائلات الثلاث، إذ كلتا زوجتينا (د صباريني، وأنا) ، من (الطيبة) ذاتها، كما (ابو العبد، نفسه) ، ...وهكذا كلفنا (ابو العبد) بتأمين ما يلزم من الاثاث الكافي للعيش في المسكن الجديد...

لكنّ الشقة بلا كهرباء، ولا غاز، و....لا تدفئة، (عدا عن التمديدات التأسيسية) ، والثلاجة العتيدة في غلافها من مصنعها، وكذلك الفرن الذي يفتقر الى الغاز...كانت شركة الكهرباء قد رفضت ايصال الكهرباء للشقة لأنّ المالك لم يهيّئ اللوحة اللازمة حسب المواصفات الاصولية...شكونا الامر الى المالك، ثم اتصلت بأخي وزميلي وصديقي منذ المرحلة الجامعية، الدكتور عبد المعز شاور، بحُكْم قِدمه في البلد، ومعرفته ببعض المسؤولين في الشركة، لتسريع اجراءات توصيل الكهرباء ...التي دخلت الشقة بعد جهد جهيد!....والى أن حصلنا على الغاز، لتشغيل الفرن العتيد!، اعتمدنا في الطبخ وغيره على (البريموس) الذي يعمل على الكاز، بترتيب من ابن اختي المرحوم (محمود علي شناعة- ابو المثنى) ، الذي واكب هذه المرحلة من العناء، بشكل شبه يومي، قادماً من بيادر وادي السير، حيث كان يعمل مدرّساً في مدرسة وكالة غوث اللاجئين.!وهو في طريقه الى الرصيفة..

كان من حسن الحظ، وحسنات المسكن الجديد، أنّنا كنا نؤمّن حاجاتنا البيتية اليومية، من دكان في الجانب الآخر من الشارع الذي كنا نقيم فيه، لصاحبها (ابو مروان- الضابط؟ المتقاعد) ، اللطيف المحترم، بالاضافة الى قربه من العيادة (والمدرسة) ، دون الحاجة الى سيارة...

كان عليّ أن أعلن عن افتتاح عيادتي في الصحف المحلية، عدد المرات الذي تسمح به نقابة الاطباء، فوقع اختياري على جريدة الدستور، ...وتطبيقـاً لقاعدة تعلمتها من الحياة الحزبية، فقد حددت موقع الاعلان في اعلى موقع في اقصى يمين الصفحة الاولى من الجريدة، او اقصى يسارها، كيلا يُفلِت من ملاحظة كل من يحمل الجريدة! عملاً بنَصّ القاعدة (اذا نطقْتَ فأسْمِعْ) ، وما زلت احتفظ باعداد الاعلان حتى اللحظة! ...

وهكذا بدأت الدوام اليومي ذي الفترتين، في الشهر التاسع من عام ١٩٧٤، في شارع الامير محمد (وادي السير) ، مجاوراً كلاً من الدكتور محمد سعيد صباريني، للامراض الباطنية، والدكتور فوتي خميس، للامراض النسائية والتوليد، والدكتور ميشيل ايوب لجراحة المسالك البولية، ، والدكتور محمد النجار، للانف والاذن والحنجرة، وجاورنا في العمارة المحاذية كل من الدكتور المرحوم حسن فرعون، للاطفال، والدكتور فريد يغنم للجراحة التجميلية، والدكتور سمير جهشان للانف والاذن والحنجرة...وجدير بالذكر أن أشير الى أن ذلك الجزء من الشارع، كان يعجّ بالعيادات الطبية، من شتى التخصصات (المتكررة) ، قبل أن ينتقل (مركز الثقل) الى شارع مستشفى ابراهيم الخالدي...

كان لا بد لي (ولزوجتي) من الحصول على رخصة قيادة سيارة اردنية، بدلاً من رخصة القيادة الاميركية، فشرحت الامر لزميلي وجاري و...صديقي الدكتور الصباريني، وكان صديقـاً لضابط السير (يومئذ) احمد ابو السعود، ذي السيرة الحميدة والمعاملة اللطيفة، فرتّب لكِلَينا موعداً في إدارة السير في ماركا، تمّ أثناءه تبديل رخصتينا، بعد نجاحنا في الفحص النظري الشفوي، وهكذا صار في امكاننا التعامل المشروع مع السيارة الجديدة!

ليس أشَقَّ على صاحب العمل الحرّ من البدايات، ولقد ذقت مرارتها حتى (الحثالة) ، فأنا بلا (عزوة) ، أو قاعدة شعبية، لم أعمل لدى وزارة الصحة، ولا القوات المسلحة، ولا وكالة غوث اللاجئين، ولا أعرف في االبلد الا نفراً قليلاً جداً، ولا يعرفني أحد...وعيادتي في جبل عمان، بعيدة عن الوسط الشعبي، وجيراني في اختصاصي، زميلان عريقان، قديمان، هما المرحوم حسن فرعون (؟ أقدم أطباء أطفال الاردن) ، ويشاركني في (الزاروب) المفْضي الى عيادتينا، وان اختلفت العمارتان، ..والمرحوم عبد الرحمن ابو الرب، في الجانب الآخر من الشارع الرئيسي، فكيف أتصرّف؟ ومن أين (أصرف) على ضرورات حياتنا اليومية، بعدما (طار) ما توفر لديّ على اجور العيادة والمسكن الجديد، والرسوم المدرسية وقسط السيارة الاول؟ ...كنا نعطي اروى وانس بعض القروش، مصروفًا يوميًا، فيعودان بها (مرفوضة) قائلين: يطلبون منا قروشًا (بيضاء) ، لا (حمراء) !!!

هذا من جهة، ومن الجهة الاخرى، يتربص بي ملل خانق، في عيادة، لا يدَقّ هاتفها ولا ....بابها!

تسرّب الى علمي، أن الدكتور (شيراجيان) ، مدير مستشفى (لوزميلا) ، بجبل اللويبده، يبحث عن طبيب اطفال، فرضته عليه وكالة غوث اللاجئين، ليقوم بجولة صباحية يومية على الاطفال الذين تحوّلهم الوكالة الى المستشفى للمعالجة

شقاء السنين (١١٠)

كان الدكتور (شيراجيان) مديراً لمستشفى (لوزميلا) الكائن في جبل اللويبدة، والـذي كان مدرسة تقوم عليها جمعية راهبات الناصرة، الى ان حوّلتها الى مستشفى عام ١٩٤٨، واعطته اسم الراهبة التي اشرفت على التحويل وتبرعت بانشاء قسم الأشعة فيه...كان المستشفى (وما زال) مستشفى عامًا، وكان، في احد اجنحته، مكان لمعالجة اطفال اللاجئين الفلسطينيين، بإشراف وتمويل وكالة غوث اللاجئين، ...ولمزيد من الحرص والاهتمام، فرَضَ مسؤولو الوكالة على ادارة المستشفى تعيين طبيب اطفال، مؤهّل، بدوام جزئي، للإشراف على سير معالجة أطفالها، فكنتُ أنا ذلك الطبيب!

تعاقدتُ مع الدكتور شيراجيان على أن أقوم بجولة صباحية على اطفال الوكالة، أتأكد خلالها من سلامة سير المعالجة، وتعديل ما يلزم تعديله منها، حسب حالة الطفل الصحية، ....هذا، بالإضافة الى زيارة (ظُهرية) أجيب فيها على أسئلة الاهالي الذين يزورون ابناءهم، عن صحتهم، وموعد شفائهم وإخراجهم الى اهاليهم....كل ذلك، براتب شهري قدره (١٢٠) مئة وعشرون ديناراً، !!

سررتُ جداً بالعمل الاضافي، المساند لعمل العيادة، التي لم تُؤتِ أُكُلها، بعدُ، ووجدت في الراتب المذكور تغطية لاجرة العيادة (٦٠٠ دينار سنويًا) ، وأجرة الشقة، مثل ذلك، وعشرون ديناراً تنفق على خدمات ثابتة كالماء والغاز والكهرباء...

عانيتُ في الوظيفة الاضافية من أمرين: كانت تدفئة جناح مرضى الوكالة، دون المستوى الكافي،، ما أدى الى معاناة الرضّع منهم، حدَّ تدهور صحتهم، بشكل يُفضي الى الوفاة!! ولم أكن لأتردد في الاشارة الى هذا البند (البرد) ، عند تعبئة شهادة وفاة الذين عانوا منه، وأعان على وفاتهم، ...ولم يكتم الدكتور شيراجيان، شعوره بالامتعاض من إشارتي الى البرد في تقارير الوفيات، بتعبيرhypothermia، أي (البرودة) !

أما الامر الثاني فكان المعاناة التي كنت أعيشها، كلما صعدتُ (طلوع) جبل اللويبدة من جبل عمان، حيث العيادة والمسكن، بسيارة البيجو، ذات (الجير) العادي، الذي لم يكن تعاملي معه مألوفًا، حتى ذلك الوقت، لاعتيادي على (الجير) التلقائي (الاوتوماتك) ، فكثيراً ما كان (الغيار) من مرحلة الى اخرى، يُفلِت من يديّ، في صعودي الى قمة الجبل، فتتراجع السيارة الى الخلف، لتحرجني مع من كان خلفي بسيارته في الشارع!!...ولَكَمْ لعنت الساعة التي قررتُ فيها العودة الى.... (الوطن) ! كلما تكرر ذلك الإحراج.

دفعتني الحاجة الى العمل، وأن يتعرف الناس على عيادتي، الى اللجوء الى ....الإعلام! وذلك يعني الصحف المحلية، والاذاعة، والتلفاز، فكيف السبيل الى كل ذلك؟

كان للمرحوم (مازن شريف القُبَّج) ، الموظف في وزارة الزراعة، والمشهور بِ (الحاج مازن) ، حضور إعلامي لافت، إذ كان يقدّم برنامجـًا زراعيـًا إذاعيًا، ومثله، تلفزيونيـًا، بالإضافة الى (المضافة) التي حملت اسمه، وكانت تقدّم، مع لفيف من معارفه الممثّلين، مواضيع شتى، صحيةً وغير صحية، ...ولقد مكّنَه حضوره هذا من أن تكون له (دالّة) على زملاء له آخرين في الحقل الاعلامي، بآفاقه الثلاثة...

كان الحاج مازن ابن مدينة طولكرم البار، بامتياز، وإن كانت جذوره (عنبتاوية) ، في الاساس، وإنه، وإن تخرّج في كلية خضوري الزراعية المشهورة على مستوى المنطقة، والكائنة في مدينة طولكرم، إلا أنني لم أتعرف إليه آنذاك، ولم نلتق شخصيـًا بحكْم السبق الدراسي (العمْري) ، إلا بعد افتتاح عيادتي في عمان... غير أنه، رحمه الله، كان على علاقة ودية مع ابناء البلد، ومع انسبائي فيه، كما كان لديه من المعلومات عني، ما حدا به الى أن (يتبنى) تلك المرحلة من التعريف بي في إعلام البلد، حيث كنت أتمنى عليه أن يضعني عند نقطة البداية، وأنا أتكفّل بما بعدها....

دخلتُ الاذاعة في برنامج خاص للمرحومة (كوثر النشاشيبي) ، بالاضافة الى برنامج (جايب لي سلام) ، يومئذٍ، وتكررت لقاءاتي معها في ذات البرنامج، ....ثمّ أُتيحت لي

الفرصة أن أقدّم عدة حلقات في التلفاز، مع المرحوم (ابراهيم السمان- ابو العبد) ، في برنامج (الصحة والحياة) ، ما خلق لي حضوراً لافتاً في السنة الاولى من عمر العيادة...

وفي جريدة الدستور فرضتُ حضوري بنشر مقالات طبية في الاختصاص، كانت ذات وقع ايجابي، حدا بالمرحوم (صلاح عبد الصمد) ، مصري الجنسية، وكان قد أصهر لآل العزيزي، في عمان، أن يعتمدني على مدى طويل، في برنامجه الصحي، (اسئلة القراء) ، حتى أنه كان يدوّن اجاباتي على الهاتف، بعدما اطمأن الى سلامتها، كتابةً، خصوصاً عندما كان يتلقى النصوص خالية من أيّ خلل لغوي أو (لحْن) إعرابي، بل إني كنت اعَدِّل له بعض نصوص الاسئله، بالاضافة الى الاجابات، عندما كنت ارى سلامة اللغة تقتضي ذلك!!

وهكذا، أصبحت أستأنس برنين هاتف العيادة يحمل لي أسئلةً أكثر من مواعيد زيارات، ولم أكن أبخل (الى اليوم) بتقديم أية استشارة ممكنة، تفيد، ولا يضرّ قضاؤها على الهاتف، موقناً بأن استهدافي والاطمئنان الى مشورتي هما جوهر العلاقة و ...أول الغيث.!

كان لا بد من تعزيز تلك المسيرة الاعلامية، بواقع (عملي) ، على الارض، فلفتَ نظري بعض (القرَحاء) الى أمرين في غاية الاهمية، هما: شركات التامين الصحي و...التعامل مع اطباء التوليد والامراض النسائية....التامينات لتكثير عدد رواد العيادة ...وأطباء التوليد لتكثير عدد رواد العيادة من المواليد الجدد (بالاضافة الى فحصهم في مستشفيات التوليد عند الولادة)

كانت البداية في شركة الكهرباء الاردنية، أقدم المؤسسات الاردنية تأميناً صحياً لموظفيها وعائلاتهم....كانت مكاتب الشركة في (المحطة) ، يوم قصدتُها عارضاً مؤهلاتي وخدماتي بأن أُعتمَد طبيباً لأطفال موظفيها، ...كان المسؤول عن جهاز التأمين الصحي في الشركة، يومئذٍ، السيد (وليد الخياط) ، فقابلته في مكتبه، ورحب بالعلاقة، ووقعنا اتفاقاً قوامه التزام الشركة بدفع مبلغ (نصف دينار) لقاء الزيارة الاولى للمريض، ولا

شـيء لقـاء المراجعـة في الاسـبوعين التـاليين، أي أن المحاسـبة (علـى الـراس) ، وليسـت مقطوعة، ما فرض عليّ التعريف بنفسي وعيادتي، لـدى موظفي الشـركة، مـن الصـفر!أي العودة الى المربّع الأول، وهو مرارة البدايات! ....وعندما أبديت اعتراضـي علـى (ضـآلة) المبلغ، أخرج لي من ملفاته، اتفاقية الشركة مع المرحوم (الدكتور حسن فرعون) ، ثم علّـق بقوله: (هل أنت أحسن من أقدم طبيب أطفال في البلـد؟ !) ، فلُـذتُ بالصـمت، ورضـيت، كارهـًا، وماأكثر ما أرضى، على مضَض،

يُقضَى. على المرء في أيام محنتهِ بأن يرى حسنـًا ما ليس بالحَسَنِي!!

شقاء السنين (١١١)

لم يكن التأمين الصحي مألوفـًا، تقوم عليه شركات خاصة تبتغي الربح، شأن الشركات الاخرى خارج الاردن، كما هي عليه الحال اليوم، بل كان مقصوراً على الشـركات الكبيـرة، تعتمـده لموظفيهـا وعـائلاتهم، بهـدف تقلـيص الانفـاق، ...وكـان أشـهر هـذه التأمينـات، بالإضافة الى شركة الكهربـاء، شـركة مصـفاة البتـرول، (ثـم تلتهمـا الفوسـفات والبوتـاس) ....قصدتُ مكاتب الشركة عند الـدوار الاول في جبـل عمـان، وتعاقـدت مـع قسـم التـامين الصحي، على غرار ما فعلتُ مع شـركة الكهربـاء، مـع فـارق كبيـر بيـن التـأمينين، إذ معظـم موظفي وعائلات شـركة مصـفاة البتـرول، يعـيش خـارج عمـان، وفي، وحـول مدينـة الزرقـاء تحديداً، ما يقلل من فرص اختيار عيادة في جبل عمان للاستشـارات العلاجيـة، . فلـم أعَـوّل كثيراً على تأمينها!

تعرفْت في السنة الاولى من عملي في عمـان على طبيبـين اختصاصـيين في التوليـد، همـا المرحوم (كمـال عابـدين) والـدكتور (جميـل شـعبان) ، مـدّ الله في عمـره، ...كانـت عيـادة الدكتور عابدين، المؤهل من انجلتـرا، في الجانـب الآخـر مـن شـارع الامير محمـد، مقابـل عيـادتي تقريبــًا، وقـد وجـد في تعـاملي معـه كطبيـب اطفـال يحمـل مـؤهلات تخصـص (اميركيـة)، رديفــًا، أو ...بـديلاً، عنـد الحاجـة، عـن الـدكتور المرحـوم (عبـد الـرحمن ابـو الرب)، جاره في العيادة، يكلفني، كما كان يكلفه، بحضور العمليات القيصـرية، والـولادات المتعسرة، لاستلام المولود وإسعافه...

أما الدكتور شعبان، المؤهل من ألمانيا،، فكانت عيادته قريبة مـن الـدوار الثـاني في جبـل عمان، على يمين قاصد الدوار الاول، وقد وجد في علاقتنا تكـاملاً مريحــًا، وتفاهمــًا اسـرع وأمتن مما كـان بيني وبـين الـدكتور عابـدين، مـا طـوّر تلـك العلاقـةالى صـداقة إزاء زمالـة، اصبحنا معها طبيبَي الأسرتين، ومن حولهما.!ويعود له الفضل في رعايـة زوجتـي في الحمـل والولادة، رعاية خاصة، لا تُنسى!

كان الدكتور عابدين يتعامل مع مستشفى (عاقلة) معظم الوقت، وكان الدكتور شعبان يتعامل مع مستشفى (جبل عمان للتوليد) ، الذي كان يملكه كل من المرحومين الدكتور (جمال الصناع) ، و (فاروق الكردي) ، كمؤسسَين، فتعرفت اليهما، مثلما تعرفت الى المرحوم الدكتور (علي عاقلة) ، مؤسس المستشفى الذي حمل اسم عائلته...وبحكْم علاقتي مع طبيبَي التوليد المذكورَين، فقد كثر ترددي الى كلا المستشفيين، عدة سنين، ما فتح لي آفاقًا واسعة للعمل خارج العيادة، عزز من وضعي المالي، وعرّف عليّ عائلات كثيرة، أصبح المولودون لديها زبائن العيادة بحُكْم المتابعة بعَيد الخروج من مستشفى التوليد.

وهكذا وضعني التأمين الصحي المتواضع، والعلاقة (التوليدية) على بداية طريق النجاح، وأنا مدين لكلا الزميلين، بما قدماه من إقحامي في ساحتيهما، وإن كانت العلاقة مزدوجة المصلحة.!

لم يكن في عمان ذلك العدد الكبير من المستشفيات، عام ١٩٧٥، ولا الكثير من المختبرات والصيدليات...كان في جبل عمان مستشفى ملحس، مستشفى عامًا، (وقد توقف عن العمل منذ سنوات، بعد وفاة مؤسسه المرحوم الدكتور قاسم ملحس، ووريثه في المهنة، ابنه، المرحوم الدكتور عبد الرحيم ملحس الذي عمل وزير صحة في اواخر ايامه) ، قرْب الدوار الاول:

رُبَّ بانٍ لهادمٍ، وجَموعٍ لِمُشِتٍّ، ومحسنٍ لمُخِسِّ ي!

ومستشفى عاقلة للتوليد، لمؤسسه المرحوم الدكتور علي عاقلة، ، وولديه، قربَ الدوار الثالث، على يسار الخارج من الدوار قاصداً (راس العين) ، ...ومستشفى جبل عمان للتوليد، المذكور آنفًا،

وفي جبل الحسين، كان مستشفى (المعشر) ، مستشفى عامًا، لمؤسسه الدكتور سعد المعشر، .....وفي جبل اللويبدة، مستشفى (لوزميلا) ، المذكور في حلقة سابقة، وكان وما

زال مستشفى عاماً.. ثم أُنشئ المستشفى (الاهلي) ، مستشفى عامـاً، فيما بعد، لصاحبه الدكتور (جمال الشاعر) ، في منطقة العبدلي...

وفي اسفل البلـد، وعلى موازاة (شـارع سـقف السـيل) ، كـان المستشـفى الايطـالي، مستشفى عامـاً، وكـان هـو ومستشـفى ملحس أقـدم مستشـفيات عمـان...وفي نهايـة طلـوع (المصدار) في اتجاه (الاشرفية) كان مستشفى الهلال الاحمر، مستشفى عامـاً...

كنـت اتـردد كثيـراً على مستشـفى عاقلـة ومستشـفى جبـل عمـان للتوليـد، الواقـع بـين الدوارين الثالث والرابع، بحكم تعاملي مع المواليد الجُدُد، لكنـي كنـت أعـالج مرضـاي في مستشـفى ملحـس، معظـم الوقـت، ومستشـفى لـوزميلا، والمستشـفى الايطـالي احيانـاً، ودخلتُ مستشفى المعشر، بمرضاي، ومستشفى الهلال، مرة واحـدة!...وإنْ أنسَ لا أنسَ، رحلاتي الى المستشفى الايطالي، لمتابعة علاج مرضاي فيه، إذ تكرر (خَرمُ) إطار سيارتي في (الوصلة) المؤدية اليه من شارع (سقف السيل) ، تلك الوصلة الوعرة، على قِصَرها، ما أكسبني (خبـرةً) متميـزة، مفعمـة بالمشـقة والعنـاء، في معالجـة (البنشـرة) ، بكـل كفـاءة و....سرعة!!!

مر صيف السنة الاولى، سريعـاً، وكافحنا حرّه، في العيادة والمسكن الجديـد، بمـراوح، من نوع (kdk) ، ذات الكفاءة العالية والحفيف الذي لا يكاد يسمع، ...وجاء الشـتاء، شـتاء عمان، لنتصدى لبرده لاول مرة، بعد دفء شتاء مدينـة (الخُبَـر) في السـعودية، ب (صوبـات علاء الدين) التي لم تكدْ تدفئ (نفسها) ! هكذا كان شأننا في الشـقة الجديـدة التي لـم تكـن مزوّدة بالتدفئة المركزية الحديثة–وإن (أسسوا لها بالانابيب ومحطات الاشعاع فقط!) وما لبثنا أن استعضنا عن ذلك بتركيب (البواري) التي تعمـل بالـديزل، ركّبهـا وأشـرف عليهـا، وعاد فاشتراها منا، بعد ست سنوات، طيب الذكر السيد ....السـمهوري، الصـادق الامـين، ......، على عكـس مـا كانـت عليـه العيـادة، وان كانـت التدفئةالمركزيـة فيهـا، مـن المالـك، بالتقسيط المُمِلّ، الى أن ساهمنا في اثمان المحروقات، ثـم انفصـلنا عـن التدفئـة المشـتركة، بتأسيس (مكيفات) مستقلة تعمل بالكهرباء، بعد معاناة دامت سنين عددا!

هذا على مستوى العمل والسكن، أما على مستوى المدارس، ومصير (اروى-٩ سنين، وأنس-٦ سنين) ، فلذلك شرح يطول!

شقاء السنين (١١٢)

لاحقتنا (عقدة) المدارس، في السنة الاولى من عودتنا الى الاردن، تلك العقدة التي كانت إحدى عوامل رحيلنا من السعودية، كما ورد في حلقات سابقة...إذْ، على الرغم من تسجيل ولدينا (أروى وأنس) ، في الكلية العلمية الاسلامية، في جبل عمان، غيابيـًا، وقبل عودتنا بشهور، انطلاقـًا من قناعة جاهزة لدينا بسلامة الاختيار، إلا أنّ (عكننات) وقفت في مسار علاقتنا بالمدرسة، في تلك السنة، كان أقلّها، إصرار الإدارة على أن يعيد (أنس) صف (البستان) الذي أنهاه في السنة الماضية، وأمور أخرى، ليست هذه الصفحة موقع ذكرها! ما حدا بنا الى إنهاء علاقتنا في نهاية السنة الدراسية، وإن كنت ارغب في انهائها بعد الفصل الدراسي الاول.

كانت البدائل كثيرة، إلا أن وجود المسكن والعيادة، كليهما، في جبل عمان، حدّد اختيارنا بمدرسة (راهبات الوردية) ، غير الثانوية، لأروى، و مدرسة (المطران) ، لأنس، وكلا المدرستين في نفس الجبل، ومتقاربتان الى حد يريح الذهاب والإياب للولدين معـًا.

لم نجد صعوبة في تسجيل انس في الصف الأول في (المطران) صيف ١٩٧٥، لكننا وجدنا عقبة لدى تسجيل اروى في راهبات الوردية، ذلك أنها لا تعرف شيئـًا من اللغة الفرنسية التي تدرِّسها المدرسة من الصف الابتدائي الأول، غير أنّ الادارة، بإشراف الراهبة حميدة السيرة (سير أَتَناس) ، وتعبيراً عن رغبتها في التعاون والتعامل معنا، أبدت استعدادها أن تذلّل عقبة اللغة الفرنسية بتدريس (أروى) كل أيام نهايات الاسبوع (التي هي عطلة المدرسة والمدرسات) ، طيلة عطلة ذلك الصيف، وتأهيلها للالتحاق بالصف الرابع الابتدائي المنتظر، ...ارتياحـًا واطمئنانـًا الى كفاءة الطالبة، بعدما اطلعت على ملف أدائها المتميز في الكلية العلمية الاسلامية، ....ودون مُقابل!!!

تغيرت الخريطة المرضية في المجتمع الاردني، في غضون نصف القرن الماضي، وأنا أتحدث عن طب الأطفال، وما تعلّق بهذه المهنة من أمراض ومعالجات تميزها عن غيرها من الاختصاصات الطبية....

فعلى مستوى النظرة للاختصاص ذاته، لمستُ عُرفًا سائداً في المجتمع، يرى الطفل انسانًا عاديًا، لا يختلف عن (الكبير) الا في العمر و....الحجم!! وبناءً على ذلك، جاز ان يعالج كما يعالَج الكبير، وعلى يد اختصاصي الكبير (الباطني) ! وينطبق عليه ما ينطبق على ... (الكبير) ، ومن هنا ادركت (ندرة) الاختصاص الكامل الصافي المخصّص في طب الاطفال، كما أدركت سرّ وجود كافة الاعمار في عيادة الطبيب (الباطني) ، في كثير من الاحيان!!

...وبناء على ذلك، لم يكن في نظام المستشفيات القائمة في اوائل سبعينات القرن الماضي، جناح مخصص للاطفال، بل كان وجود الطفل المريض والرجل الخارج من عملية جراحية في غرفة واحدة، أمراً عاديًا! كل ذلك على الرغم من وجود (جمعيات) لكل اختصاص من الاختصاصات الاربعة الاساسية، بما في ذلك (جمعية اطباء الاطفال) ...ثم ما لبث ان تغير الوضع، وتغيرت النظرة الى هذا الاختصاص مع الايام.

يجرني الحديث عن مفهوم الاختصاص الى الحديث عن التعامل مع الاختصاص في نقابة الاطباء، يومئذٍ....

شكلت نقابة الاطباء لجنة سمتها (لجنة الاختصاص) ، مهمتها دراسة وتدقيق ملفات الاطباء المتقدمين الى النقابة للحصول على اعتمادها الاختصاص المطلوب الذي يسمح للطبيب باستعماله في شتى وثائقه اللازمة للتعريف به في عيادته ونشاطاته الطبية، من لوحة اعلان الى وصفات علاج الى غير ذلك...كان ذلك قبل انشاء المجلس الطبي الاردني ببضع سنين...

كانت اللجنة مؤلفة من ثمانية اطباء اختصاصيين، تاسعهم نقيب الاطباء، موزعين على القطاعات الطبية بواقع طبيبين من كلٍّ من وزارة الصحة، والجامعة الاردنية (وكانت

الجامعة الوحيدة) ، والخدمات الطبية الملكية، والقطاع الخاص....وكان لي شرف العضوية عن القطاع الخاص على مدى اربع سنوات، في عهد النقيب المرحوم الدكتور جميل مرقة..

كانت مهمة اللجنة محصورة في مراجعة ملفات المتقدمين الذين تخرجوا في جامعات اجنبية، وما اكثرهم، وتدقيق علاماتهم في المباحث المتعلقة بالاختصاص، ...أي أننا كنا نقَيّم ملف الطبيب لا الطبيب نفسه! وكثيراً ما كنا نعترض على مستوى علامات بعضهم، فيعود الينا بعد لأيٍ بعلامات شبه كاملة، مختومة وموقعة من ذات المصدر...كان القانون يقضي (كما هو اليوم) بقضاء اربع سنوات من التدريب المبرمج في حقل الاختصاص، في مستشفى (تعليمي مُعترَف به) ، ولم يكن يحدّد اسماء الجامعات المعتبرة، كما هي الحال اليوم، في المجلس الطبي...كان العبء الاكبر يأتينا من جامعات اوروبا الشرقية، الاشتراكية، وشبه الاشتراكية، ومن جامعة (لوممبا) في الاتحاد السوفييتي (يومئذٍ) ، وبأعداد هائلة، وكنا نرضخ للبيانات، كما هي، رغم قناعاتنا بعبثية ما نفعل، فلا نملك الا ان نمنح الاختصاص المطلوب.....!كنا على يقين أن معظم الكفاءات المتقدمة لن يتماسك لو خضع المتقدم للامتحان، غير أن ذلك لم يكن وارداً في قانون النقابة...! وبقينا سنوات على تلك الحال، ونحن ننادي بوجوب ايجاد (مجلس طبي) يتولى امر الاختصاص، بعقد امتحانات في شتى الاختصاصات لكل من عاد من خارج الاردن بشهادة تخصص، وإن استوفت شهادته كل الشروط التي يتطلبها المجلس! ليمنح الناجح في امتحان المجلس (شهادة البورد الاردني) ، التي تعتبر اعلى شهادة في الاردن، ..الى ان كان عام١٩٨٢، حيث تأسس (المجلس الطبي الاردني) بقانون مؤقت، اصبح دائمًا عام ٢٠٠٥، ...وكان اول رئيس له الدكتور (غيث شبيلات) ، وكنت فيه احد المشاركين عن اختصاص الاطفال، غير اني استقلت بعد فترة وجيزة لأسباب (شخصية)!

تعرفتُ في السنوات الاولى من وجودي في عمان الى عدد من الزملاء في طب الاطفال، وكانوا (قِلّة) في اوائل سبعينات القرن الماضي، وكانوا من مؤهلات متنوعة، كاملة

ومختصرة، ما شجعني على ترشيح نفسي لرئاسة (جمعية اطباء الاطفال) في اول انتخابات لتشكيل جديد، معتمداً على وعود كثيرين بالتأييد، حتى اذا ما جرى الفرز، عرفت مدى (هلامية) تلك الوعود، وكان بعض المواقف لا يحتاج الى الاستنتاج! ما (كفّرني) بالعمل الجماعي في البلد، وأخرجني من (عضوية) الجمعية، إخراجًا لا عودة بعده!!!

لا بد للمستعرض للخارطة الصحية في الاردن، في سبعينات القرن الماضي، والمتعلقة بالاطفال، تحديداً، من أن يشمل عدة ملامح، أهمها:التطعيم (اللقاح) ، والحوادث الصحية-وسوف أشرح ما أقصد بذلك-...والامراض الدارجة، والسارية منها، بشكل خاص.

شقاء السنين (١١٣)

لا بدّ من (ديباجة) أُمَهِّد بها قبل الدخول في (تاريخ) التطعيم في الاردن، تلك الايام، فالدخول في عالم التطعيم، أمْر آخر، ليس هنا مجاله، فأنا، في هذه الذكريات، أؤرّخ، ولا أبحث...

مبدأ التطعيم. Vaccination، وهو التعبير الدارج، وإن كان تعبير (تحصين immunisation)، أدقّ، وأقرب الى الحقيقة الطبية (ولا أحبّ تعبير -التلقيح) ، او فكرته، تقوم على ثلاثة امور هي: خطورة المرض المعني بالتطعيم، و صعوبة معالجته، كأن لا علاج له، أو الأمرين معـًا، وسرعة انتشاره في المجتمع، على شكل وباء ..... فالمرض الذي يمكن معالجته، بالعلاج المتوفر الفعال، والزمن المقبول عملياً، لا يلزمه تطعيم...أمّا الحيثية الجسدية المتوخّاة من التطعيم فهي إيجاد (مناعة) ، مؤقتة او دائمة، في الجسم المطَعّم، تقيه من المرض المحدّد، وإن تعرّض لجرثومة ذلك المرض، وقاية تامة، او جزئية، يجيء معها المرض مخففـًا يخرج بعده الجسم معافى.

في مطلع سبعينات القرن الماضي، كانت تطعيمات الاطفال في وزارة الصحة مقصورة على بعض الامراض السارية والمتعارف على الحماية منها، عالميـًا، ولم تكن تزيد كثيرا عن ذلك في القطاع الخاص....ومثل وزارة الصحة كانت الخدمات الطبية الملكية، ووكالة غوث اللاجئين.

كانت وزارة الصحة، تحديداً، وما زالت، تطبق تعليمات منظمة الصحة العالمية، التي كانت تساهم في توفير المطاعيم لدول العالم الثالث، في برنامج يهدف الى استئصال ما أمكن استئصاله من تلك الامراض السارية التي كانت تحصد ارواح اطفال العالم بالملايين، كل عام، وعلى رأسها أمراض السل والكُزاز والخانوق والسعال الديكي، وشلل الاطفال...والحصبة!

كان مرض الجُدَري القاتل (لا جدري الماء) ، الذي كان يقتل ربع المصابين به، أو يشوه وجوههم او يعميهم، كان يلفظ انفاسه الاخيرة في سبعينات القرن الماضي، بفضل التطعيم الفعال الذي كان (اقدم المطاعيم وأنجعها)) ، والذي كان الطعم الوحيد الذي يحصل عليه القطاع الخاص (مجاناً) ، من وزارة الصحة، إذ لم يكن يتوفر في المستودعات الطبية الخاصة، آنئذٍ، ثم توقف استعماله بعد ظهور آخر إصاباته في الصومال عام ١٩٧٧، وإعلان منظمة الصحة العالمية القضاء على المرض في عام١٩٨٠ !

كان التطعيم ضد الحصبة والحصبة الالمانيةوالنكاف، إفرادياً، لكل مرض طُعمه، وكان طُعم الحصبة الالمانية مخصصاً للاناث، في العيادات الخاصة، ولم يكن هو، ولا طعم النكاف، مضافاً الى برنامج التطعيم الوطني....الى أن اندمجت المطاعيم الثلاثة في حقنة واحدة، كما كانت عليه تطعيمات الكزاز والخانوق والسعال الديكي، أقدم عناصر البرنامج، يومئذ...والذي اشتهر باسم (الطُعم الثلاثي) .

كان طعم شلل الاطفال يعطى حيّا، مروّضاً، بالفم، في القطاعين العام والخاص، ولم تكن الصيغة المقتولة منه (أي الحالة الطبية لفيروس المرض) ، والتي تحقن بالعضل، متوفرة، منفردة، ولا كنّا نتحمس الى استعمالها، نظراً لانخفاض المناعة التي تثيرها تلك الصيغة في جسم الطفل....الى ان تم دمجها في الطعم الثلاثي، ليصبح (رُباعياً) ، يُغري بالاستعمال، تجنباً للمعاناة التي كنا نواجهها مع الصيغة الفموية، التي كنا فيها (محكومين) لمزاج الطفل، حين كان (يبصق) النقطتين اللتين هما (كلّ الجرعة) ، أو يتقيّؤهما، او بعضهما!، فوراً أو بعد مغادرة العيادة، ما دفع امثالي الى احضار الطفل (صائماً) بعض الوقت، يوم التطعيم!!!

امّا طُعم السل، فلي فيه كلام ابتداءً من التسمية... الرسميون يحبون كلمة الدَّرَن بدلاً عنها، لأنها الترجمة الحرفية للتسمية الانجليزيةtuberculosis، لكن كلمة السل أعربُ وأعرف، وأعَمّ، وظَنّي انهم يريدون تجنّب تسمية السل، لوقعها السيّئ على الأسماع،

لكني، في الامراض تحديداً، أحب تسمية الأشياء بأسمائها، تجنباً للغموض، فالسل، أو السُّلال، مرض معروف في المجتمع العربي، وفي العربية، فلقد قال المعري، واصفاًالسيف، وكيفية صنعه وفاعليته:

سليل النار، دَقّ ورَقّ حتى. كأنّ أباه أورثه السُّلالا

مشيراً الى ما يصيب المسلول، من هزال، ونحافة!

هذا من حيث التسمية، أما من حيث الفاعلية، فالطعم في صيغته الحالية، ضعيف، بالمقارنة بغيره من المطاعيم، إضافة الى ما يُحدِث في الجسم من تقيّح، بعد عدة اسابيع، ....ولما كان التطعيم، أيّ تطعيم، تقاس فاعليته بانخفاض الاصابة بالمرض المطعّم ضده، فإن استمرار الاصابة بالسل، على نفس الوتيرة (تقريباً) ، وعلى مستوى العالم الثالث (تحديداً) ، يشهد عليه بالضعف، وأكاد أقول...الفشل!! هذا وما زالت الابحاث جارية، على مستوى العالم، للحصول على طُعمٍ أفضل.

ثم أضيف الى مجموعة المطاعيم طعم (السحايا الانفلونزي) ، ويضيفون كلمة (المستدمية) للتقيد بحرفية الاسم في الانجليزية hemophilous، وانا لا ارى حاجة الى هذه الاضافة، إذ أن كلمة (انفلونزي) ، في اساسها، تسمية مغلوطة، فجرثومة هذا الطعم أبعد ما تكون عن مرض الانفلونزا المعروف!!

هذا ولدخول هذا الطعم سوق القطاع الخاص، ثم برنامج التطعيم الوطني، بعد لأيٍ و...تردد، قصة تستحق السرد.

شقاء السنين (١١٤)

لكي يحظى الطُعم بالاهتمام ولكي يعَمَّم استعماله، لا بد من أمرين:الأول نجاعته في إحداث المناعة المتوخاة ضد المرض المقصود، والثاني وجود المرض في المجتمع بنسبة تستدعي حماية (المجموع) ، لا مجرّد أفراد، من الإصابة به، وهو ما يسمى في الطب (مناعة القطيعherd immunity) .

هكذا كان الموقف تجاه طعم (السحايا الانفلونزي) المشار اليه في نهاية الحلقة الأخيرة. ومن أجل هذين الامرين عُقد (مؤتمر مصغر) في احدى قاعات فندق (ام اذينة) – الذي صار اسمه (عَمرَة) ، ثم (كراون بلازا) اخيراً، نوقشت فيه عدة ابحاث، كان هذا الطعم حصتي منها، حيث درست ما نُشر وقيل من ابحاث حول الامرين المذكورين، في اكثر من بلد، ما اكد فاعلية الطعم، خصوصـًا، بعدما طُوِّرت تركيبته باقتران مادة جرثومته ببروتين مادة سُمّ جرثومة (الكُزاز) ، او (الدفثيريا–الخانوق) ، بعدما كانت مقرونة بمادة (سكّرية) تحِد من فاعليته، وتمنع استعماله قبل عمر السنتين، اي بعد اكتمال جهاز مناعة الطفل، كي يتفاعل بكفاءة مع مادة الطعم نفسه.بتركيبته القديمة ..

ولكي يُعتمد تعميم استعمال الطعم، كان لا بد من اللجوء الى الاحصائيات العامة، لمعرفة نسبة الاصابة بهذا النوع من السحايا، على مستوى الاردن، فضممنا ما وجدناه في وزارة الصحة الى ما توفر لدى (المستشفى الاسلامي) –ولي عن هذا المستشفى وغيره من المستشفيات الناشئة، حديث قادم–...ما برّر اعتماد الطعم و....تعميمه بإضافته الى البرنامج الوطني.

ثم جاء دور طعم مرض الكبد...البائي–نسبةً الى حرف الباء، التي تقابل حرف B بالانجليزية، إذ أن (فيروسvirus) هذا المرض، يحمل ثلاثة اسماء بثلاثة احرف هجائية، كل حرف منها مخصص لمرض يصيب الكبد، بطريقة مختلفة، ولا تغني المناعة ضد

احدها عن الآخر، فهي ليست مجرد حروف، أي أن فايرس أA ذو اعراض خاصة وطُعم خاص، وكذلك الامر مع فايرس بB، ومِثله جC (الذي لا طُعم له حتى اليوم، وان كان أخطرها)!

قام القطاع الخاص بدراسة ميدانية، في ثمانينات القرن الماضي، شملت عدة مناطق في المملكة، أكدت (عيّنات الدم) منها، وجود الجرثومة (محمولةً) ، لدى ما يقارب العشرة في المئة من السكان، فكان ذلك مدعاة لاعتماده في برامج القطاع الخاص، خصوصاً بعدما ثبتت فاعليته في الدراسات العالمية، غير انه لم يُدخل في البرنامج الوطني الا بعد طول انتظار (بحجة -بساطة المرض، كما هي عليه الحال الى اليوم، تجاه مطاعيم اخرى) ...

وهكذا تزايد عدد المطاعيم، تدريجياً، في الاردن، ...كلما توصل الطب الى فتح جديد، وجد قبولاً تدريجياً لدى القطاعين الخاص، اولاً، ثم العام، بعد لأيٍ، بِحُكْم القيود المالية التي تتطلب ميزانية خاصة، تغطي غلاء بعض المطاعيم، ثم قناعة أولي الامر بأهمية المرض، وسعة انتشاره.....الى أن تضاعف عدد المطاعيم في نصف القرن الماضي، ما حدا بالباحثين (العالميين) ، الى دمج اكبر عدد منها في الحقنة الواحدة، بعد التثبُّت من كفاءة كل طعم فيها في الوقت ذاته، للتخفيف من معاناة الطفل، و....معاناة ذويه!

وبعد، فإني لم أُفرِد للمطاعيم هذه المساحة (الموجزة، في حقيقة الامر) ، الا للوصول الى هدف كبير في غاية الاهمية، ألا وهو الدور الذي لعبته، وما زالت تلعبه، هذه الاداة (الوقائية) ، في الحد من، بل ومن إخْلاء المجتمعات من أمراض خطيرة، سارية، واسعة الانتشار، سريعة الاصابة بها! ولا تقلل من اهمية هذا المبدأ، بل تضاعفها، الحكمة المأثورة (درهم وقاية خير من قنطار علاج)...

في بداية عملي في عمان، عام ١٩٧٥، حاول أحد الزملاء (المؤهلين تأهيلاً عالياً في اختصاص طب الاطفال) ، أن يشككني في أهمية التطعيم ضد الحصبة، بادعاء أنه لا بد من الإصابة بها ولو بعد حين! وودتُ لو سأل هو، أو غيره، السؤال الحتمي:أين هو مرض

الحصبة اليوم؟ . كان طعم الحصبة ضعيفًا نسبيًا، في بدايات صنعه، واستعماله، لأنه كان مكوّنًا من جرثومة المرض (مقتولةً) ، غير أن الباحثين العالميين بالمرصاد لكل خلل يظهر في المسيرة، فأصبح الطعم بالجرثومة، حيّةً، ما ادى الى اختفاء المرض من اصقاع كثيرة من العالم التي حرصت على تعميم الطعم فيها، وهي التي اصطلُح على تصنيفها بالعالم الاول! وها نحن في الاردن لا نرى الحصبة في البلد، منذ سنين (، كما لانرى شلل الاطفال) ، بعدما كنا ننتظرها في كل موسم، وبعدما كان المَثَل الحكمة (عِدّ اولادك بعد الحصبة) شعاراً متداولاً يشير الى وفرة المرض وخطورته على الحياة!!!

هذا، وانني من موقعي، بالتقادم اولا! ثم بحكم ممارستي اليومية المستمرة، وبحكم تعاملي مع المتخصصين الناشئين، أكاد أجزم أن الاجيال الجديدة التي دخلت، او سوف تدخل، في اختصاص الاطفال، سوف تجد صعوبة، ان لم تكن استحالة، في تشخيص مرض الحصبة، مهما اوتيتْ من كفاءة (نظرية) ، لانها لم تجد المريض الذي تنطبق عليه معلوماتها السريرية! ولا ذنب لها في ذلك، (مثلما انه لا ذنب لي في عجزي عن تشخيص مرض الجدري القاتل -الذي انقرض- ولا مرض التيفوس ولا الطاعون، لانني لم ارها متجسدة في مصاب، وليست مألوفة لدي بصورتها السريرية!)

أقول كل هذا، لأندد بالمواقف، المحلية، والعالمية (في جيوب من مجتمعات العالم الأول!) ، التي تقلل من اهمية مبدأ التطعيم، وتشكك في نجاعته، بل تشيع خطره على متَلَقّيه، في وسائل الاعلام المختلفة، بل وفي بعض الدوريات والمجلات ...الطبية، ...جهلاً او تجاهلاً، وتحت حوافز لا سند لها من علم او بحث رصين...وها نحن نرى انفلات بعض هذه الامراض (ونحن لسنا منها، بحمد الله، وبفضل البرنامج الوطني الناجح) ، في المجتمعات التي تقاعس سكانها عن تطعيم ابنائهم، لسبب مما ورد، الا قلةً لا تصل حدّ (مناعة القطيع) التي لا تقل عن تحصين تسعين في المئة منهم.!

أَمَرتهمو امري بمنعرَج اللوى. فلم يستبينوا النصح الا ضحى الغدِي!

شقاء السنين (١١٥)

كما أستميح القراء عذراً، بسبب (وعورة) المادة القادمة، كونها طبيةً، أو شبه طبية، خالصة!

لم تقتصر ملامح التطور الصحي في الاردن في نصف القرن الفائت على التطعيم، من حيث النوعية والعدد، بل تعدَّته الى نوع الامراض والحوادث الصحية، دون ان ترتبط بالامراض السارية التي قلّص وجودها التطعيم الشامل، بالضرورة....صحيح اننا لم نعد (نعثر) على الحصبة وشلل الاطفال، والدفثيريا (الخانوق) ، والكزاز- وكلّ هذه قاتل او شبه قاتل-، بفضل التطعيم ضدها، غير أن نسبة متميزة من الوعي الصحي في المجتمع الاردني، في نصف القرن الماضي، قلّصت، أو (ندّرَت) وجود حالات مرضية مرتبطة بالوعي الصحي، أبرزها: حالات التسمم بالكاز، وبمرَكّبات الفسفور العضوية، والاصابة بالديدان المعوية، ومرض الحمى المالطية...أما حالات التسمم، فكانت تنشأ عن جهل أو اهمال الأهالي، والامهات تحديداً، واما الاصابة بالديدان المعوية، فتعود الى تدني منسوب النظافة الجسدية لدى الاطفال، ونظافة ما يأكلون وما يشربون..اما الاصابة بالحمى المالطية، فعائدة الى الرغبة في استهلاك الحليب (الطازج!) ، وبلا تعقيم بالغليان او (البسترة) ، جهلاً بمبدأ واهمية تلوّث الحليب بجرثومة المرض القادم من المواشي!

كانت حوادث التسمم المذكورة، في اواخر سبعينات القرن الماضي، وثمانيناته، لا يخلو منها اسبوع او اسبوعان، ..بالكاز في الشتاء، وبالفوسفات العضوي في اواخر الربيع والصيف، ...

كانت الحاجة الى الكاز للتدفئة، ملحّةً، يومئذ، لكثير من شرائح المجتمع، ما وفّر الفرصة لشربه من اوعية (مهمَلة) ، ظنّها الاطفال شراباً سائغاً! فكثيراً ما كنتُ أُستدعى، على جناح السرعة، الى طوارئ مستشفى (ملحس) أو المستشفى (الايطالي) ، لإسعاف هكذا (حوادث) ، في اوقات (حرِجة) !

وإن أنسَ لا أنسَ ذلك الطفل الذي تمكّنَت منه الاصابة فشملت الرئتين وغلافهما، واستجاب للعلاج بالكورتزون، بعد عدة ايام، وجهد جهيد، في المستشفى (الايطالي) ، بعدما كاد اليأس من شفائه يتسرب الى نفسي!

أما التسمم بالفسفات العضوي، فناشئ عن التلوث من استعماله مبيداً حشرياً بِرَشّ الشجر المثمر، او بدَهْن شعر الطفل، جهلاً، ...وما اكثر الحالات االتي كنت استدعى لمعالجتها في مستشفى ملحس، ل (التهابات!) رئوية، يكاد المصاب بها، يلفظ انفاسه، ولا ينُمّ عن طبيعة (التسمّم) إياه، الا غزارة دموعه، وكثافة افرازات صدره! ما جعل تلك الملاحظة مألوفة لفريق التمريض في المستشفى، بسبب تكرارها، برئاسة (ابو سامر–علي العماوي) ...! أَذكر هذا كله، لأؤكد لأطباء الاطفال الجدد، كم هم يفتقرون الى الخبرة بأَعراض هذا النوع من الطوارئ، و...علاجه، بسبب (نُدرة) وقوعه، هذه الأيام، ندرةَ الامراض السارية التي كبح التطعيم الشامل جماحها، حدّ التلاشي في بعضها...

أما الحمى المالطية الناشئة عن تلوّث الحليب، او مشتقاته، وعدم تعقيمه، ثم شُربه (طازجًا!) ، فكان هاجسها لا يفارق طبيب الاطفال (تحديداً) ، في كل مريض بالحمى مجهولة السبب، اذ لم يكن لديه بدٌّ من شمولها في فحوصه المخبرية!!!

واليوم، وبفضل الوعي والتوعية الصحية في شتى وسائل الاعلام، والتثقيف الصحي، فلم نعد نرى تلك الحوادث، او الاصابات، إلا لمامًا، ...واما الحمى المالطية، فقد تقلصت نسبة الاصابة بها، على العموم، رغم وقوع (انتكاسات) في جيوب من البلد، غنية بالمواشي، مصحوبة بوعي، صحي دون المستوى المطلوب بخصوص تطعيم المواشي ضد المرض، وانتهاج الطرق الصحية في التعامل مع الحليب وما يتفرع عنه من استعمالات شتى.

كانت عمان، تحديداً، في حاجة ماسة الى مزيد من المستشفيات، في سبعينات القرن الماضي، فانتهز هذه الفرصة المرحوم الدكتور (ابراهيم الخالدي) ، ليُنشئ الحلقة الاولى في مسلسل مستشفيات القطاع الخاص..

تعرفْتُ الى الدكتور الخالدي عام ١٩٦٤، في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت، في سنة امتيازي، يومئذ، حيث كان عائداً من مصر بشهادة اختصاصه في التوليد والامراض النسائية، اذ انضم الى قسم التوليد في المستشفى، زميلاً؟ ، رغبة منه؟ في تلميع او (تعميد!؟) اختصاصه، ....ثم توجهتُ بعدها الى الظهران بالسعودية، وعاد هو الى الاردن، لنلتقي عام ١٩٧٨، في مستشفاه الجديد، المُقام على السفح الجنوبي من جبل عمان، ما بين الدوارين الثالث والرابع.....كانت النية ان يكون المستشفى خاصـًا بالتوليد والامراض النسائية، إلا أنّ الرغبة (أو الحاجة) الى مزيد من الدخل (شأن معظم المستشفيات اللاحقة) حوّلته الى مستشفى عام!

هذا، وقد واكبت انشاء المستشفى الاسلامى منذ بداياته (وهو عظم!) ، عام ١٩٨٢، في موقع من منطقة (العبدلي) ، بعمان الغربية، لم توفّق جمعية المركز الاسلامي الخيرية، في اختياره، بسبب صعوبة الوصول اليه والخروج منه، قبل تمدده الاخير لتصبح (طوارئه) على شارع رئيسي!

يمكن تصنيف المستشفى الاسلامي بين الخاص والعام، فهو ليس مملوكـًا لشخص معيّن، وليس حكوميًا...وجمعية المركز الاسلامي هي القيّمة عليه، وتخضع لمراقبة الحكومة، شأن كل الجمعيات الخيرية في البلد..

أُنشئ المستشفى الاسلامي، وهو اكبر مستشفيات القطاع الخاص، ليكون أول مستشفى تعليمي خاص، في المملكة، مستوفيًا كل شروط (المجلس الطبي الاردني) ، من حيث شموله على الاختصاصات الطبية الاساسية الاربعة، وتوفير اربعة اختصاصيين لكل اختصاص، بتفرّغ تام...

كنت على صلة وثيقة بالمستشفى من أول أيامه، فأنا (أكاديمي) بطبعي، ووجدت في المستشفى ضالّتي المنشودة!!!

كانت قد أُسندت ادارة المستشفى الى المرحوم الدكتور (علي الحوامدة) ، بشكل تفرغ متواصل، ولفترة طويلة، بعدما تقلب على ادارته في البداية اكثر من طبيب، وبتفرغ مؤقت...

شقاء السنين (١١٦)

لم تكن لي يومـًا أية علاقة (رسمية) بالمستشفى الاسلامي في عمـان، بـل كنـت اذهـب اليه بمرضاي، واساهم في نشاطاته الطبية

العلمية، واجتماعاته الادارية، بصفة (شرفية) -إن صح التعبير-....وكان ذلـك يشـمل وضع أسئلة امتحانات المقيمين الكتابية، والمشـاركة في الامتحانـات الشـفوية، الـى جانـب الجلسات العلمية، والاجتماعات والجولات السريرية... وكنت (وما زلت، حيثمـا كنـت) انتهز فرصة وجود مرضاي في قسم الاطفـال، لأجعـل مـنهم (دون المسـاس بخصوصـيتهم) مادة تعليمية، لكل مراحل تخصص المقيمين الاربع، كلٌّ حسب مستواه..وكنت أحرص في جميع نشاطاتي العلمية مع المقيمين (أينما كانوا) على ثلاثة أسس: العلـوم الأساسـية التي تهمّ اختصاص الأطفال (Basic Sciences) ، والكيمياء الحيوية، تحديداً، وكثيـراً مـا كنـت اتعمـد ادخالهـا في امتحانـات المقيمـين الشـفوية، ...والتعامـل مـع مختبـرات المستشـفى، للتعرف الى كيفية وواقـع الفحـوص التي تجـرى علـى المرضـى، ميدانيا!، وعـدم الاكتفـاء بمعرفة النتائج، دون الاطلاع على كيفيـة تنفيـذها في المختبـر، وذلـك بمرافقةالمقيمين الـى المختبر، وتكليف الفني شرح الكيفية التي أوصلت الـى النتيجـة، مـا يعطـي الفحـص اهميـة لدى الطبيب، وقيمة اضافية عملية بجانب القيمة النظرية المحضة...أمّا الأسّ الثالـث فكـان التعامل مع (التصوير imaging) ، بشتى انواعـه، مـن الأشـعة السـينية الـى التصـوير الطبقـي المحوري الى التخطيط بالموجات فوق الصوتية، الى ...الرنين المغناطيسـي (الـذي وصـل متأخراً) ! لذات الاسباب والاهداف المرتبطة بالمختبرات... كانت، وما زالت، لديَّ قناعـة أن التعامل العملي المباشر مع هذه الخدمات (المساعدة، كما تسمى في الاصطلاح الطبي) تُرَسّخ في ذهن الطبيب ونفسـه صـورة أعمـق عـن حالـة المـريض الصـحية، وطَعمـًا أبقـى في ذائقته الطبية، كمـا انهـا تعـزز العلاقـة بـين الشـركاء في تشـخيص حالـة المـريض ومعالجتـه، وتُشعر القائمين على هذه الخدمات بأهمية خدماتهم.

هكذا كانت علاقتي مع المستشفى الاسلامي، ما حدا بمديره المرحوم الدكتور علي الحوامدة أن يعرض عليّ استلام قسم الاطفال...كنت، يومئذٍ، قد كوّنت نواةً من زبائن عيادتي، لا بأس بها، حجماً ومستوىً، لا يليق بي، بل يصعب علي، التفريط فيها، اللهم الا اذا استبدلت بها علاقة رسمية ثابتة في المستشفى...فمن ذا الذي يضمن لي ذلك، وانا لست من الجماعة (على أقلّ تقدير) ، ولي موعظة في من سبق، ممن كانوا من الجماعة، ؟ . كيف لي أن أعود فأبدأ عيادتي من جديد، اذا اختلفنا فافترقنا؟ ؟ ......حاول، رحمه الله، تطميني على ثبات العلاقة واستمرارها، غير أني اقترحت تأجيري عيادة في المستشفى، تكون مرجعي عند الاختلاف، ورُفِض اقتراحي، وطوينا تلك الصفحة طيّاً نهائياً!

استمرت علاقتي، غير الرسمية، مع المستشفى الاسلامي في عمان، طيلة الثمانينات، وشطراً من تسعينات القرن الماضي، عاصرت خلالها نخبة من المقيمين والمقيمات، الذين تخرجوا في المستشفى، اطباء اطفال، مؤهلين، أفواجاً أفواجاً، ...بعضهم تعاقد للعمل في الخليج، وبعضهم، عاد الى فلسطين (من حيث أتى) ، والباقي فتحوا عيادات اطفال لهم في ارجاء الاردن، وخصوصاً في عمان...وإنني لفخور فخراً لا حدّ له، بالعلاقة العلمية التي نشأت بيني وبين هؤلاء الخريجين، وتغمرني سعادة متميزة كلما جمعتني بهم مناسبة، علمية في محاضرة طبية، أو غير علمية، وأعتبرهم، وأعتبرهن، بمثابة أبنائي وبناتي، لا مجرد زملاء وزميلات، وأُكِنّ للجميع احتراماً خاصاً، وإعجاباً بأدائهم (هنّ) ، ويغمرني الحرج والخجل، كلما سمعتُ منهم (هنّ) كلمة (استاذي) !!! ولا يسعني الا أن أشكر للمستشفى الاسلامي إعطاء فرصة التعامل مع هؤلاء المقيمين والمقيمات، بمرضاي، وغير مرضاي، على مدى عدة سنوات، توجيهاً وتدريساً، وامتحانات!

ثم تتالى إنشاء المستشفيات الخاصة في تسعيناتالقرن الماضي، فتأسس مستشفى الاردن، ثم المركز العربي، فالمستشفى التخصصي، ثم عمان الجراحي، ثم الاستقلال...ولم يمضِ طويل وقت على كل من مستشفى الاردن والتخصصي، حتى انتزعا

مـن المجلـس الطبـي الاردني اعترافـاً بهمـا مستشـفيين (تعليميـين) ، في الاختصاصـات الاساسية الاربعة، رغم عدم توفر أطباء اختصاصيين، متفرغين تفرّغـاً تاما، لكل اختصاص، كما يشترط المجلس، حيث أغنى عن ذلك وجود الاختصاصيين في عياداتهم الخاصة ضمن المستشفى، وتوفرهم، بذلك، للتعامل مع المقيمين، في شتى النشاطات العلمية والسريرية اللازمة للتدريب المبرمج اربع سنوات...وبهذه المناسبة، يجدر بي أن أذكر أنني، وبناءً على الطلب، زودت كلا المستشفيين بصُوَر عن شهاداتي الطبية، وسيرتي الذاتية، عندما تقدما الى المجلس الطبي بطلب اعتبارهما (تعليميين) ، بعدما راحا يستقبلان المرضى من شتى الاختصاصات، واستقر أداؤهما في سوق العمل الخاص...

على أثر تغير الكوادر الادارية، بدأت علاقتي بالمستشفى الاسلامي بالفتور، في اواخر تسعينات القرن الماضي، الى أن ...تلاشت مع بداية الالفية الثالثة، ...لتنشأ علاقة بديلة مع (مستشفى الاردن).

شقاء السنين (١١٧)

على الرغم من حضوري المبكّر (نسبيًا) في الساحة الطبية، وفي الممارسة الخاصة في (السوق!)، منذ اوائل سبعينات القرن الماضي، الا انه، على العكس من كل التوقعات، لم تربطني بأي من مستشفيات القطاع الخاص أية رابطة (رسمية)، كما لم تكن لي بالمستشفى الاسلامي مثل هذه الرابطة، رغم حضوري المكثّف فيه، منذ تأسيسه!....وأسارع فأؤكّد (سلامة) علاقاتي المهنية بالزملاء ذوي الحضور اللافت على خريطة القطاع الطبي الخاص، منذ قدومي الى الاردن...أقول هذا انطلاقًا من مبدأ ملحوظ، خلاصته أنّ معظم (إن لم يكن كلّ) المستشفيات التي نحن بصددها، قامت على اكتاف أطباء من شتى زوايا التخصص في سوق العمل، تمويلاً وتشغيلا....غير أنّ أحداً لم يعرض عليَّ أي شكل من اشكال (المساهمة أو المشاركة) في أيٍّ من مستشفيات القطاع الخاص، ولا أنا طلبتُ....والحمد لله! وكنت، وما زلت، اتردد على كل هذه المستشفيات بمرضاي، أُدخِلهموها، أو يطلبني زبائني فيها للمشورة.....هذا، وإذا كان هذا الامر، لدى قارئي، مدعاةً للاستغراب، فليعلم أنني اشاطره استغرابه، بلا تحفُّظ!!!

فترتْ علاقتي بالمستشفى الاسلامي في السنين الاخيرة من القرن الماضي بعدما تغيرت ادارة المستشفى غير مرة.....، ونشأت علاقة بديلة مع مستشفى الاردن...تأسس هذا المستشفى عام ١٩٩٣، وما لبث ان حصل على اعتباره مستشفى تعليميًا، من قِبَل المجلس الطبي الاردني، بعد اكثر من محاولة......وبحُكْم علاقتي الودية مع القائمين عليه، وعلى قسم الاطفال فيه، تحديداً، رحت اتردد عليه بمرضاي، وأُطلب لولادات زبائني، واشارك في نشاطات القسم التعليمية ولِجان اختيار مقيميه، كل عام، وحتى كتابة هذه العبارات..

في ٢١/ ١٠/ ١٩٧٧، رُزقنا ب (عَروب)، في مستشفى جبل عمان للتوليد، وبإشراف الزميل (والأخ العزيز) الدكتور (جميل شعبان) ...الذي كان يتردد على المستشفى (حصريًا)، تقريبًا، ولمّا كانت (عَروب) الاخت الثالثة لِ (أَنَس) الوحيد، تمنّت والدتها

لو يرزقها الله بأخٍ لأنس في العام القادم، فكان لها ما تمنّت، وجاء (إياس) في يوم ميلاد (عروب) !فالحمد لله على ما أعطى، والحمد لله دائمـًا....

كانت فكرة البناء على الارض التي اشتراها لنا المرحوم (وصفي السعدي) ، عام ١٩٧٠، أثناء غيابنا في التخصص (كما ورد في حلقة سابقة) ، مطروحة منذ عودتنا الى الاردن، فقمنا بالتعرف على موقعها في حي المدينة الرياضية، فوجدناها مزروعة بالحمّص!...لم يكن وارداً اعتمادي على دخلي من عملي، في اوائل سبعينات القرن الماضي، إذ لم يكد يلبي نفقات العيش اليومية، يومئذٍ، غير أنني اعتمدت على ثمن الارض التي اشتريناها في مدينة (الخُبَر) ، بالسعودية، في العام السابق، في حمْأة سُعار أسعار الأراضي في المنطقة، عمومـًا، فراسلْنا طيب الذِّكر (علي طه الرمحي) من أجل بيعها، اكثر من مرة، وهو (يسَوّف) ، طمعـًا في سعر أفضل، الى أن لمس حاجتنا (رحمه الله؟) ، الى المال، فباعها بما تيسّر، وحوّل ثمنها بكل أمانة، كاملاً، مشفوعـًا ببيانات البيع اللازمة...ولما لم يكن ذلك المبلغ كافيـًا لخوض غمار البناء! فقد لجأتُ الى الاصدقاء واولي القربى، للاقتراض، فعزّزوني بوعود طائلة، لم يتحقق منها، فيما بعد، الا النزر اليسير!

أمسيتُ أرْوَحَ مُثْرٍ، خازنـًا ويداً أنا الغنيُّ، وأموالي المواعيدُو!!!

كان ذلك المشروع في بحر عام١٩٧٥، وما أنْ باشرْتُ بالتنفيذ (مخططات، وتعاقد مع -مُقاوِل-) ، حتى تبيّن لي زيْف مراهناتي المشار اليها، وإن كنتُ قد وضعت المشروع برمّته، في يدي صديق العمر، الأخ (عثمان محمد عبد الله صالحية) ، الذي تخرج في الجامعة الاميركية في بيروت، وانقطع عن التدريس، لأسباب خاصة، فلجأ الى العمل الحر كمُقاول بناء، أشرك معه فيه ما يلزم من هندسة وتمويل! ولولاه، ولولا ثقتي المطلقة به، لما أقدَمْتُ على تلك المجازفة (غير المحسوبة!).

لم أكنْ في وضع يسمح لي بالتراجع، بعدما بدأ الحفر، كما جاءت تقديرات (عثمان) المالية دون واقع التنفيذ، فلم يتطابق حساب الحقل وحساب البيدر، كما يقولون، فلجأْتُ الى ...البنك، لأوّل مرة في حياتي!

كانت رئاسة (بنك الإسكان) في الطابقين الارضي والأول من عمارة (كلبونة)، نـزولا مـن الـدوار الثالـث في جبـل عمـان، في شـارع الاميـر محمـد (شـارع وادي السـير)، وكانـت عيادتي في الطابق الثالث من ذات العمارة، ...كان رئيس البنك، يومئذٍ، الراحل السيد زهيـر خوري، يعاونه كل من السيدين : العطاري وابو التين ...فلـم يتـرددوا في إقراضـي مـا طلبـت من مال، اعتماداً على (عيادتي!) ...ورهْن ارض البناء!!!

تمّ بناء البيت على مراحل، بما تيسّر من مال، ولقد واجهنا في انجازه مواقف رغَّبتني في بيعـه (عظمـاً)، ومـا كـدنا نضـع عليـه اللمسـات الاخيـرة حتـى كنـا نبحـث لـه عن........مستأجِر!!!

شقاء السنين (١١٨)

لم نكن في عجلة من امرنا، ولم يكن اكمال بناء البيت المذكور في الحلقة الاخيرة مُلِحّاً، فالشقة التي سكناها كانت تكفينا كفاية متوسطة مؤقتة، وموقعها متوسط بين العيادة، والمستشفيات التي تعنيني، ومدارس الاولاد...وفوق كل هذا وذاك، قدرتنا المحدودة على توفير ما يلزم من المال ليستأنف المقاول عمله نحو الانجاز!

في تلك الآونة، كانت شركة يابانية متخصصة في الاتصالات، قد قَدِمت الى عمان، لتعمل مستشارة لدى مؤسسة الاتصالات الحكومية، ...وكانت تبحث عن مبنىً يستوعب جهاز الشركة الرئيسي، مكاتب وإقامة موظفين، ...وما كادوا يفاوضوننا على استئجار البيت (الجديد جداً) حتى كنا نوقع مع الشركة عقداً لثلاث سنوات، بدفعات مبرمجة أتاحت لنا، في نهايته، سداد دَين بنك الاسكان، واستلام البيت والعمل على (صيانته) ، وإضافة ما ينقصه من إضافات تجعله جاهزاً للسكنى...

لكن البيوت لا تُسكن فارغة! بل لا بد لها من تأثيث...

كان المرحوم (احمد عبد الرحيم-ابو العبد) ، ابن بلدة (الطيبة-طولكرم) ، بلدة زوجتي الاصلية، وصديقنا، يملك مؤسسة (دونا هاوس) في ماركا الشمالية، بشراكة جزئية مع (حسين حجازي- ابو جهاد) ، للأثاث والتأثيث بكل أشكاله، يستورده او يصنعه في منجرته الخاصة، ...فقصدته عارضاً رغبتنا في فرْش البيت (المسترجَع) ، فرشاً كاملاً، مستورداً او محلياً، بمواصفات اتفقنا عليها، ولم أنسَ أن يجهّز لي هيكل مكتبة في ركن من البيت، تستوعب ما لديّ، وما سيتجمّع لدَيّ، من كتب او منشورات علمية او ادبية او فكرية او تاريخية!.....ومرةً اخرى، لم نكن في عجلة من أمرنا للتنفيذ، فقد استهلكت أعمال صيانة البيت، والتعديلات الاضافية، الكثير من الجهد والوقت والمال، قبل الإقدام على مشروع التأثيث الكامل....فلم يكن البيت جاهزاً بكل ذلك، وبالأثاث الجديد، قبل مطلع ثمانينات القرن الماضي.

حي المدينة الرياضية (حي الخرابشة سابقًا) ، حيّ متواضع، يخلو من مساكن الاثرياء او (الوجهاء المتنفذين!) ، وترتّب على مغادرة جبل عمان، والانتقال اليه، تغيير مدارس الاولاد، بالضرورة...

لم نجد صعوبة في انتقال البنات الى (راهبات الوردية الثانوية) في أعالي (الشميساني) الاقرب الى المدينة الرياضية، أما الاولاد، أنس، (ثم إياس فيما بعد) ، فلم نجِدْ بداً من ترحيله من المطران...ولكن ...الى أين؟

لا تبعد المدرسة (الوطنية الارثوذكسية) عن مدرسة بنات (راهبات الوردية الثانوية في حيّ (الشميساني) ، غير خطوات معدودة، ما يغري بالتعامل مع المدرستين في آن واحد، إلا أننا واجهنا مشكلة ادارية لدى (الارثوذكسية) ، موجَزها أنها تشترط التحاق الذكور والإناث من الاسرة الواحدة، معًا، لتحقيق مبدأ الاختلاط الذي كانت تسير عليه، وحيدةً، سياسة المدرسة، آنئذٍ....

لم يكن التحاق اولادنا بمدارسهم، مبنيا على الفصل المتعمّد، بين الذكور والاناث، فلم يكن في جبل عمان، المجاور لمسكننا فيه، مدارس مختلطة، أصلاً، وكان تقارب المدارس هو الإغراء الوحيد للاختيار، هناك، ....مثلما أنّ هذا (التقارب) قد تجدد في الشميساني، بعد رحيلنا من جبل عمان...فكان لا بدّ من إلحاق (أنس) ، و (إياس) من بعده، في (الارثوذكسية) ، بدون اخواتهما (كما يقتضي قانون المدرسة) ، للملابسات التي وضّحتها.!

كان (عزت جرادات) ما زال في الولايات المتحدة، في بعثة وزارة التربية للحصول على الدكتوراة، عندما كانت زوجته تتردد على عيادتي باطفالهما، بين الفينة والفينة، ما أسّس لعلاقة ودية بين أسرتينا، تطورت الى صداقة عائلية، بعد عودة (الدكتور عزت) ! وتزامن ذلك مع انتقالنا من جبل عمان، وحاجتنا الى نقْل الاولاد الى مدارس أقرب....كان (عزت) قد تسنّم منصبًا مرموقًا في وزارة التربية، تطوّر فيما بعد الى (توزيره) فيها، بعض

الوقت، فاستوعب طبيعة مشكلتنا مع (الارثوذكسية)، وملابساتها، فلم يتردد في التدخل، لحل المشكلة، والتحاق (أنس) بالمدرسة إياها...بعبارات موجزة على قصاصة من ورق!

هذا، وقد عمدتُ في الوقت ذاته الى (تعزيز) ذلك (الاختراق)، بعرض الفكرة وشرحها، على طيّب الذكر، الدكتور (كامل حمارنة)، رئيس الجمعية الوطنية الارثوذكسية، يومئذٍ، وجاري في العيادة، جمعتنا عمارة واحدة، ووُدٌّ متميز، فلم يتردد في المساهمة في تذليل العائق إياه، والتحاق (أنس) بالارثوذكسية، والتحاق شقيقه من بعده ببضع سنين!!!

قلت، سابقًا، إن حي المدينة الرياضية، الذي فرضتْه علينا قطعةالارض التي اشتُريت في غيابنا في التخصص، حيّ متواضع، حديث التأهيل، حيث كان الشارع ينتهي عند بيتنا فلا يتعداه، بل يصل اليه (على مضض وعلى استحياء!)، ولقد اضطررنا الى مدّ انبوبة ماء الامانة من مصدرها الرئيسي، مسافة تزيد على مئة متر، لتسهيل عمليات البناء، في اواخر سبعينات القرن الماضي، بمشاركة جار الرضى الدكتور (يوسف بطارسة)، الذي زامنني في انشاء بيته في الجهة المواجهة من نفس الشارع، وذلك بعد ان (قضمت) الامانة من ارضه وارضي، بضعة امتار لغرض (توسعة الشارع، ليصبح ستة عشر متراً عرضًا.) ..ومن الطرافة أنّ الاخ الدكتور (جميل شعبان)، كان لا يخفي قلقه عليّ كيف أؤمّن الوصول و.....الخبز) الى المسكن الجديد!!!

إلى جانب هذا (التواضع)، كان الحي أسبق من كثير من احياء عمان المشهورة الى تمديد خطوط الصرف الصحي، ولم تبخل عليه الامانة بإيجاد (بواليع) لاستقبال مياه المطر، في منخفضات الشوارع، بفضل طيب الذكر المهندس (سنان خليفات)، واستكمال شقّ الشوارع المملوكة لها، وتعبيدها، لتمهد السبيل لباصات المدارس، بفضل طيب الذكر المهندس (نائل استيتية) ...

وعلى مستوى التعليم الجامعي، فلقد جاء موقع المسكن الجديد قريبا جداً من الشـارع الرئيسـي المـؤدي الـى الجامعـة الاردنيـة (الجامعـة الوحيـدة في الاردن، يومئـذٍ،) ، لتصـلها السيارة في بضع دقائق...!

وهناك تميّز آخر، برزت اهميته، لديّ، في الثلاثين سنة المنصرمة

شقاء السنين (١١٩)

مضت السنوات الخمس الاولى من الاقامة في عمان، قبل ان تسمح لنا الظروف المالية بالخروج بالعائلة كلها في إجازة....أخذتنا الى اسبانيا، والى الاندلس، على وجه التحديد، وبمعية مجموعة من (السياح) ، اذكر منهم الدكتور المرحوم (عزت السنكري) ، وصهره (عصام الجندي) وزوجتيهما...كان الاول مديراً للخدمات الطبية الملكية، والآخر ضابطًا في المخابرات العامة الاردنية (وقد عرفت ذلك فيما بعد) .

كانت (ملقا) آخر محطات رحلتنا في جنوب الاندلس، وشاءت المصادفة أن نلتقي بعائلة الصديق (هاشم بدير) ، الذي كان يعمل مدرّسًا في شركة (ارامكو) بعدما فارقناها، وكانت قادمة من هناك في اجازة لهم...كان في الفندق بركة سباحة فخمة، لا يتمكن من استعمالها الا من يتقن السباحة، وكان اولاد (هاشم) ، من هؤلاء، بحُكمِ إقامتهم في الشركة، وتوفر الكثير من المرافق الرياضية، ومنها المسابح لدى احياء كبار الموظفين فيها...وخُضتُ كما خاضوا، فالنجاح في السباحة مفروض على طالب الجامعة الاميركية، قبل أن يتخرّج! ووقف الاولاد (اروى وأنس) ، عند حافة البركة، وقرأت في وجهيهما شوقًا ملِحّـًا، وإحباطـًا معجونـًا بالتمني لو كانا يتقنان السباحة، مثل اولاد (الآخرين) ، !...فكتمتها في نفسي، ولم أُبْدِها لهما...

وفي السنة التالية، أخذتنا إجازة العائلة، فيما أخذتنا، الى مدينة (سالزبيرج) ، من اعمال (النمسا) ....وتكرر ذات الموقف حينما شاهدت (أنس) يقف عند حافة مسبح الفندق الداخلي، يراقب سباحتي مع الآخرين، ولسان حاله يتمنى لو استطاع ان يسبح، ما زادني حُرقةً، وتصميمًا على ان أفعل شيئًا!!!

لا يبعد بيتنا الجديد، في حي المدينة الرياضية، سوى بضع دقائق، مشيًا، عن المدينة الرياضية، في عمان، حيث نادي مدينة الحسين للشباب، فوطدت العزم على ان يتعلم الاولاد السباحة، حدّ الاتقان، في مرافق النادي، مهما كان الثمن...

لم يكن الانتساب الى النادي اعتباطياً، فلقد كانت ادارته بزعامة (عصام عريضة) ، تتشدد في ذلك، وانتقائيةً بامتياز، ما حدا بي الى تكليف المرحوم (مازن القبَّج) بالسعي لدى ادارة النادي، وتزكيتنا، كعائلة، (حيث وجوب الاشتراك العائلي شرط اساسي في النادي) ، فانتسبنا واشتركنا منذئذٍ (١٩٨٠) ، - وحتى اللحظة..... وعهِدْنا الى كل من (ابو عوني) ، ثم (ابو جمال) ، وكل من عرف النادي عرفهما، بتدريب تأسيسي للاولاد، كل في مرحلته العمْرية، لأكمل لهم، بدوري، مرحلة التمكين، بالممارسة المتكررة، للسيطرة على المهارة، سيطرة اكسبتهم الثقة بالنفس، والسرعة في الأداء، ما أهّل أصغرهم من الحصول على جائزة تفوّق في سباق سباحة مدرسته!!!

وبذلك اكون قد ابرزْتُ الميزة الثالثة لموقع المسكن الجديد، بتأهيل الاولاد لمهارة جسدية تظهر اهميتها عند استدعاء الحاجة...وإنّهم، وإن تفرّقوا في الآفاق، الا أنّهم يقطفون ثمارها حيث هُمْ، وحيثما حلوا!...كما أنني لا ابيح سراً اذا اعلنتُ لكل من (يهمه الأمر) انني، وعلى مدى يربو على ثلاثين عاماً، امارس السباحة المكثفة اليومية في النادي، ، قبل الشروق، بصورة إدمانية، ثابتة، ثبات يومياتي الاخرى، على مدار العام، ما يجعلني أتساءل: هل كان كل ذلك ممكناً لو كنتُ في موقع آخر؟

وتمر الايام والسنون، ويكبَر الاولاد، ونكبر معهم، ويتفوقون في مدارسهم، وجامعاتهم، بحمد الله وتوفيقه، وتأبى بذرة الرغبة في (التميّز) الا ان تقذف بهم خارج (الوطن) ، كلٌّ في مساره، وما اختاره، أو ما اختير له، واختاره الله له، ...تحت وقْع جلجلة شعر المتنبي:

اذا غامرْتَ في امرٍ مَرومِ..ي. فلا تقنع بما دونَ النجومِ..ي

فطَعْم الموت في امر حقيرٍ كطعم الموت في امرٍ عظيمِ..ي!

يتفوقون، ويتفرقون، وتخلو الدار من اهلها، والأسرّة من نُوّامها، وتخلو العيون من النوم، في البداية، ويكاد المرء يندب حظه، ويلطم خدّه، على ما قدّم في جنب الاسرة وسعادتها، بتجمعها، ليصحو على حقيقة مُرّة، ساطعة سطوع شمس تموز، موجزها أنّ التفرّق هو القاعدة الثابتة في هذه الحياة الدنيا،

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا. ليلٌ يكُرُّ عليهمو ونهارو

وطوبى للأحبة الذين قهرت محبتهم بُعْدَهم، وتاريخُهم الأُسَريّ جغرافيتهم المعيشية!

بكلٍّ تداوينا، فلم يَشْفَ ما بنا. على أنّ قرب الدار (خيرٌ) من البعدِي

على أنّ قرب الدار ليس بنافعٍ اذا كان من تهواه ليس بذي ودِّي

على أنّ كل فراق يهون، بجانب فراق...........لا عودة بعده!!!!!!

والى اللقاء في الحلقة الاخيرة، أمّ الحلقات......

شقاء السنين (١٢٠)

في حياة كل واحد منا محطات، ومنعطفات و.....مواقف، هي التي ترسم خارطة طريقه، ومسيره، ومصيره، ....وما كانت حياتي بِدْعـًا من الناس، بل كانت حصيلة ذلك (الثلاثي) :المحطات والمنعطفات والمواقف....

كانت القرية (أمّ الشوف) هي (المبتدأ) في جملة حياتي (الاسمية) ، فأين (الخبر) ؟

الكُتّاب بدلاً من (جحجح) :

كانت تلك المحطة الاولى...كانت الخطة أن أرعى مواشي (جحجح) المقيم بها وبأسرته، على مشارف القرية، وعلى مقربة من جدول ماء ضحل، تشرب منه (أنعامه) .. كنت طفلاً (واعيـًا) ما يدور حولي، وانا (اتنصت) على المفاوضات الجارية في (الخُشّة) الصغيرة، بمعزل عن بقية افراد الاسرة! وفشلت المفاوضات، ولا اعلم سبب فشلها، حتى اليوم، ولكنني أقدِّر ان الخلاف كان على الاجرة، إذْ لم يكن على مبدأ الرعْي خلاف...وهكذا انفتح الباب للالتحاق بالكُتّاب، لتعبئة قسط من فراغ الطفولة الذي تتعهد به الحضانات وصفوف ما قبل المدرسة الرسمية، هذه الايام...ولا استبعد أنه لولا قُرب الكُتّاب من دارنا (عشرات الامتار) ، يومئذٍ، لكان للحارة من اوقات صحْوي نصيب الاسد، . سيما أنّ إخوتي الاكبر كانوا قد سبقوني اليه، لنفس السبب..

في الكتاب تأسست لديَّ مَلَكتان لازمتاني طول عمري :ملكة اللفظ العربي الفصيح، الذي يعود فيه كل الفضل لنصوص الآيات القرآنية الكريمة، على صعوبتها وهجانتها، ....وملَكة الاستظهار (الحفظ غيبـًا) ، بتحفيظ الآيات المتكرر، وتحفيظ بعض الحِكَم والمواعظ والأشعار.....وهكذا منحني الكتّاب استقامة اللسان (اللفظ) ، مثلما منح (الجامع الازهر) استقامة مشابهة لكل من التحق به، وحُفِّظ قرآنه، وإن تمرّد على نمط تدريسه، أمثال (طه حسين) ، و (سعد زغلول) وآخرين، وإنْ اختلفت المسارات...

الاحتلال ثُمّ الخروج:-

كان احتلال النصف الأول من فلسطين، وخروج، أو إخراج أهله، منعطفـاً حاداً في حياتي، مثلما كان في حياة عامة الناس، فلقد فتح عليّ أُفقًا، بل آفاقًا جديدة، لم تخطر على البال، ولا على الخيال! فلقد وجدت في قرية (قفين)، قضاء (طولكرم)، موئلاً، ومدرسة رسمية منظمة، احتوتني فحالت دون انشغالي بغير الدراسة والتعلُّم، ووضعتني على الصراط المستقيم الذي أنا فيه اليوم!

من (لَقَن) النحاس الى ساعة الجيب:-

وفي قرية (عتيل)، حيث الالتحاق بالصف السابع، غير المتوفر في (قفين)، كان ثمنُ (اللقن النحاسي) ثمنَ المقعد الذي استوعبني في تلك المدرسة، مثلما كانت (ساعة جيب) والدي، رحمه الله، رهانَ الحصول على الكتب المقررة، من مكتبة (ابو زيد)، هناك!

الصفعة التي اعادتني الى الفاضلية الثانوية:-

كان مصير الدراسة الثانوية على الشفير، وكادت (القصيدة) المنشورة في جريدة (الصريح) تُخرجني من المدرسة، لولا تعهّد والدي ب (انضباطي)، مشفوعـًا ب (صفعة) مدَوّيةٍ (مفتعلة)، في حضرة (المدير)!

موقف عجيب:-

حيال كل تلك المعاناة، وال (عكننات) التي رافقت مسيرتي الدراسية، معززة بالجوع، والبرد، والمسكن المهلهل والهندام الملَفّق، و (مرمطة) المواصلات من قفين الى طولكرم (، وبالعكس)، لم أكن لأتساهل مع نفسي، أو أسمح لها ألّا تتفوّق و...تتميّز، فأُصِبتُ بما أصاب المتنبي من شعور مبالغٍ فيه، من الإعجاب بالنفس، والثقة الشديدة بها، أو ما يسميه (النفسانيون) تضَخُّم ال (أنا)، وصار لسان حالي:

ضاق صدري، وطال في طلب الرزق. قيامي، وقلَّ عنه قعودي
إنْ أكُنْ معجَبًا فعُجْبُ عجيبٍ لا يرى فوق نفسه من مزيدِ!!!

كنت في عزاء، قبل بضعة أشهر، عندما التقاني بلهفة، وسلام حار، الصديق والاخ الكريم (محمد علي الشيخ رشيد....العتيلي) ، بعد غياب طويل، فرَض علينا استعراض الماضي، و (اجتراره) ، الى أنْ راح يذكّرني بما فقدَتْهُ ذاكرتي، مستشهداً بصديق آخر، ضمّه مجلس العزاء....قال:

أتَذْكرُ (وكنت قبله بسَنة) ، يوم قابلناك بعد خروجك من امتحان اللغة العربية سنة (المترك) ، وسألناك كيف كان أداؤك، ..قلت لحظتها: قابلوني بعد امتحان الرياضيات...وقابلناك بعدها، فكان جوابك: الأول أو الثاني، في المملكة، وارفضُ أن أكون الثالث!!

أعترف بأني لا أذكر شيئًا من ذلك الذي قاله (محمد علي) ، لولا ثقتي بصدقه، معزّزاً بشاهد! كما أعترف بأني (وقد جاوزتُ الكهولة) صنّفتُ (الموقف) المذكور، ضِمْنَ إملاءات (جنون عنفوان الشباب) !! فلقد استبدلتُ بمشاعر المتنبي قناعة ترقى الى مستوى اليقين، موجَزها:

اذا لم يكن عونٌ من الله للفتى. فأوّلُ ما يقضي عليه اجتهادهُ و

المنعطف المصيري

لعل الذين عاشوا هذه الذكريات لاحظوا أنّ المنعطف، بل المحطة المصيرية الكبرى في حياتي كانت نتيجة امتحان شهادة الدراسة الثانوية، عام ١٩٥٦، إذ تفرّع عنها، وانبنى عليها، كل شيء بعدها، سواء تعلّق بي، أو بعائلتي الأساسية، ولعل ذلك ينطبق على كثيرين مثلي، وعلى مدى الأيام والسنين...وعليه، فإنني أسَجّل هنا، أنّ لحظة إعلانها كانت

أسعد لحظات حياتي على الإطلاق!

من العراق الى لبنان، ومن السيد (بليير) الى (خليل السالم)

ماذا كان مصير بعثتي، لو لم اراجع (بالصدفة، وبالحاسة السادسة او السابعة!) القنصلية الاميركية في جبل اللويبدة، في الوقت المناسب، ليعلمني السيد (بليير) ، مسؤول

بعثات (النقطة الرابعة) أن بعثتي (وبعثة زميلي حسين رشيد)، تحولت الى وكالة الغوث، بتوجيه من (خليل السالم)، مسؤول البعثات في وزارة المعارف، دون إبلاغنا، ...ثم ماذا كان مصير بعثتي، لو لم أقرأ في جريدة ذلك اليوم، إعلان وكالة الغوث عن ضرورة مراجعة لجنة بعثاتها في (الشيخ جراح- القدس) في اليوم التالي، ويُعدّ مستنكفاً من لم يراجع؟ ؟ ؟

وعلى الرغم من تعبئتي استمارة كلية الهندسة في العراق (بناء على نصيحة عبد الله صلاح، رئيس لجنة البعثة)، فلقد فاجأتنا التنسيبات الاخيرة بالالتحاق بالجامعة الاميركية في بيروت، لتكون لي حرية اختيار المادة الدراسية، وليكون (خليل السالم) قد (خدمني، وحسيناً،) دون أن يقصد، و (رغم انفي وعبث المخاشنة العاتبة التي أسمعته إياها على هاتف القنصلية الاميركية!!!)

هندسة أم طب؟

لم تصرفني تنسيبات وكالة الغوث بتحويلي الى الجامعة الاميركية في بيروت، عن اختيار الهندسة مساراً دراسياً، ذلك لأن ذلك يقتضب زمن الدراسة فيسَرِّع في العمل للإنفاق على أهلٍ محتاجين، طال انتظارهم!....كانت السنة الاولى (فرشمن freshman) في نظام الجامعة الاميركية تُمهّد لتخصيص المادة الدراسية، مع قليل من الالتزام الذي تُمليه طبيعة المباحث التي يختارها الطالب في تلك السنة...وكانت السنة قد شارفت على نهايتها حينما جلستُ وزميلي وأخي، وشريكي في غرفتي، حسين علي رشيد، نتبصّر مصيرنا، وعندما لمست منه عزمه على اختيار الطب، غير عابئ بالتزام عائلي مماثل، عقدت عزماً مثله، .....وهكذا كانت جلسةٌ واحدة، خلاصتها (يدَبّروا حالهم)، إشارةً الى أهله، كافية لأنْ تنقلني الى منعَطَف مصيري، جديد، في لحظات!

غليون سامي الحسني

كان يُجري الفحص السريري لمولودنا الثاني (أنس)، يرافقه غليونه، حينما أثار موضوع تخصصي، مستغرباً تجاهلي، وتأجيلي، قائلا، بلهجته العراقية، (انت تعرف طب

اطفال اكثر مني) ، بانيـاً ذلك على مستوى استشاراتي لأمثالـه....ومثلما تفاعلـتُ مع عبـارة (يدبروا حـالهم) ، تفاعلـت مـع عبـارة الـدكتور سـامي الحسـني، فلـم يطُـل بقـائي بعـدها في الظهران، متوجهـًا الى الولايات المتحدة الاميركية، للتخصص في طب الاطفال!

ومواقـف ومواقـف، وقناعـات وقناعـات، وعواطـف وعواطـف...كلهـا سـاهمت، بـل (تضافرت) على رسم مسيري ومصيري...تُرى كم كانت (حصة) ارادتي الواعية مـن كـل ذلك؟

هاأنـذا في عمـان، منـذ ١٩٧٥، بـل منـذ ١٦/ ٨/ ١٩٧٤، طويـت فيهـا اكثـر مـن نصـف عمري، تعرفتُ الـى كثيـرين، زمـلاء، واصـدقاء وزبـائن، واحفـاد زبـائن. وفقـدتُ كثيـرين، اعزاء واصدقاء، وزملاء، منهم ثلاثة اخوتي الاكبر، ولـم اتوقـف عـن العمـل، وإجـازاتي في ممارسـتي الحـرة، محـدودة، وأرفـض لغيـري ولنفسـي الاخـلاد الـى الراحـة بحجـة العمـر، واحمد الله، وادعوه ان يمكنني من حمده، دائمـًا، على نعمة العافية التي تفرض علـيّ العمـل المتواصل، وتحول بيني وبين الاعذار وأشباه الأعذار...

واعـود فأتسـاءل: تُـرى، لـو خُيّـرتُ رسـم طريقـي، منـذ وعيـت وتـوفرت لـدي القـدرة والإرادة، هل كنت اليوم في دنيا مختلفة؟ أمْ أننا مجرد أدوات تنفيذ لخطة غيبية في زاويـة مـن علم علّام الغيوب، الذي له غيب السماوات والارض؟ ؟ وأنّ علينا أن ...نعمل (فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له)؟

وأخيـراً، مـا زال مبتـدأ جملـة الحيـاة (الاسـمية) ، في انتظـار (الخبـر) ، أمْ أنّ (الخبـر) محذوف وجوبـًا، حتى إشعار آخر؟؟؟